

٢ تاريخ الإسلام السياسي ٢

حُرِّقَ الْإِسْلَامُ وَالْمَبْدُوطُ بِالدُّرُومِيَّةِ

فتح الشام - مصر - افريقية الشمالية

تأليف

أمين سعيد

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

٢ تاريخ الإسلام السياسي ٢

خروج الإسلام من أطوار النبوة

فتح الشام - مصر - إفريقية الشمالية

تأليف

أمين سعيد

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

طبع بطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

للمؤلف :

سنة

١٩٣٣

ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم

النضال بين العرب والترك

١٩٣٤ | الثورة العربية الكبرى
« » « والفرنسيين والانكليز
{ اماره شرقى الاردن وقضية فلسطين
وسقوط الدولة الهاشمية وثورة سورية

١٩٣٤

ايام بغداد

١٩٣٥ | تاريخ الاسلام
السياسى) نشأة الدولة الاسلامية
هروب الاسلام والامبراطورية الرومية

هَذَا الْكِتَابُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة و سلاما على سيدنا محمد
النبي العربي وعلى آله واصحابه والتابعين ، وافواه من
الانبياء والمرسلين ، ولا حول ولا قوة الا بالله منه نستمد
العودة وبه نستعين

اما بعد فهذا هو الكتاب الثانى من تاريخ الاسلام السياسى اقدمه للعالم الاسلامى وارجوان ينال من الاقبال والرواج ما ناله صنوه الكتاب الاول لقد وقفت هذا الكتاب على اخبار الحروب التى دارت بين الاسلام والامبراطورية الرومية (١) من السنة الخامسة للهجرة حتى سنة ٣٣ (٦٢٦م - ٦٥٤م) وقد بدأت بالغارات النبوية على مناطق الحدود الحجازية - الشامية ثم انتقلت الى المعارك التى حدثت فى عهد الخلفاء الثلاثة ابى بكر وعمر وعثمان وقد تم فى خلالها فتح الشام وكيليكية وفلسطين ومصر وبرقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر والحققت بهذا الكتاب ست خرائط جغرافية تبين مواقع البلدان التى دارت فيها المعارك وخط سير الجيوش وهى :

- ١ - خريطة لبلاد الشام او سورية الكبرى وهى شرقى الاردن وفلسطين وسورية ولبنان وكيليكية
- ٢ - خريطة لمعركة اليرموك الكبرى تمثل وادى اليرموك والقرى المجاورة له
- ٣ - خريطة للفتح العربى فى مصر تمثل خط سير الجيش العربى منذ دخوله العريش حتى بلوغه الاسكندرية وتبين المواقع التى مر بها
- ٤ - خريطة لحصن بابلون الشهير (مصر القديمة) تمثله بحالته الحاضرة
- ٥ - خريطة للفتح العربى فى افريقية الشمالية وتضم برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الاقصى
- ٦ - خريطة للدولة الاسلامية فى سنة ٣٥ للهجرة اى فى اواخر عهد الخليفة

(١) اصطلاح المسلمون على اطلاق اسم الروم على دولة بيزانطية Byzantium بالقسطنطينية وهى غير دولة الرومان فى رومه فقد قامت هذه وبادت قبل ظهور الاسلام

عثمان وهي رسم صورة للاقطار التي بسط عليها الاسلام سلطانه في خلال تلك الفترة القصيرة

واثبت الى جانب كل بلدة قديمة اسمها والاسم الجديد اذا كان لها

رسوم الكتاب

وفي الكتاب ايضا طائفة من الصور الأثرية الثمينة وهي :

١ - صورة المكان الذي يظن ان عمر بن الخطاب صلى فيه حين زيارته
لكنيسة القيامة في بيت المقدس

٢ - صورة مسجد خالد بن الوليد في حصص وهو المكان الذي دفن فيه
سنة ٢١ هـ

٣ - مدينة قيسارية القديمة

٤ - ميناء قيسارية

٥ - قلاع قيسارية

٦ - صورة لجامع عمرو بن العاص في القسطنطينية (مصر القديمة)

٧ - صورة الباب القبلي لحصن بابلليون

٨ - صورة احد برجى حصن بابلليون (مصر القديمة)

٩ - بقايا حصون الاسكندرية (قلعة قايتباى)

١٠ - بقايا حصون الاسكندرية (قلعة نابلليون)

١١ - مدينة برقة

١٢ - مدينة طرابلس الغرب

١٣ - قرطاجنة (عاصمة تونس القديمة)

١٤ - مدينة صفاقس (تونس)

تلك هي الصور التي حلينا بها جيد هذا الجزء ومعظمها أثرى نفيس وقد قاسينا
مشقات في سبيل الحصول عليها

مصادر الكتاب

وقد اعتمدت في سرد اخبار فتح الشام وفلسطين على رواية المصادر العربية
وعلى ما كتبه بعض المستشرقين ، كما اعتمدت في سرد اخبار فتح مصر على رواية
المؤرخين العرب والاجانب وفي مقدمتهم حنا النقيوسى اسقف نقيوس وقد عاش في
النصف الثانى من القرن السابع للميلاد فهو من الذين عاصروا الفتح العربى لمصر تقريبا
سنة (٦٤٠ - ٦٤٣) ويعد كتابه اقدم كتاب كتب عن هذا الفتح

لقد وضع النقيوسى كتابه في الاصل ليكون تاريخا دينيا وكتبه بالقبطية ثم
نقل الى الحبشية . وقد عثروا عليه في النصف الثانى من القرن الماضى في دير بالحبشة
فنقلوه الى اللغة الفرنسية ونشره المسيو زوتنبرغ Zotenberg باللغتين الفرنسية
والحبشية سنة ١٩٠٤ بباريس بمساعدة المعهد الوطنى الفرنسى . وعثرت على نسخة
منه في المكتبة القبطية في داخل حصن بابليون بمصر القديمة الى جانب المتحف القبطى
فقرأتها بامعان ولا يختلف وصفه للفتح من حيث الجوهر عن وصف مؤرخى العرب
بل يزيد عليهم في تفصيل بعض الحوادث . وبما تفرد به النقيوسى وصف غزوة عمرو
للقيوم بعد وصوله الى بابليون وشروط الهدنة ثم الصاح بين عمرو وقيرس . وعلى كل
فان كتابه هذا يعد من المستندات الثمينة التى لا يستغنى عنها كاتب تاريخ فتح
العرب لمصر

وعثرت في المكتبة القبطية على تاريخ البطارقة الاقباط لمؤلفه الاسقف
ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين وهو من رجال القرن العاشر المسيحى وقد
وضعه باللغة العربية ونشر في باريس باللغتين العربية والانكليزية سنة ١٩٠٤
نشره المسيو ب . ايفت B. Evett . ويقول الاسقف ساويرس انه « استقى
المعلومات التى ضمنها تاريخه من دير القديس ابى مقار ودير نهيا وغيرهما من الديارات

وما وجدته في ايدي النصارى منها اجزاء متفرقة » وقد نقلت منه اقواله في « فتح مصر والسودان » فقد وصف فتح العرب لمصر ، وهو يورد سيرة البطريق بنيامين احد بطاركة القبط الذين عاصروا الفتح للقبالة بين اقواله وبين ما جاء في الكتب العربية القديمة

واغتمدت في كتابة الجزء الخاص بفتح افريقية الشمالية على ما اورده ابن عذارى المراكشي صاحب كتاب البيان المغرب في اخبار المغرب وهو من الكتب القديمة النادرة وقد نشره حديثا احد المستشرقين وعثرت على نسخة منه في مكتبة الجامعة المصرية كما اعتمدت على مصادر اوربية اخرى وبلاجمال فقد عملت جهد الطاقة للحصول على المستندات الوثيقة ولم اعتمد الا على الصحيح من الروايات والمعقول من الاخبار

زيارة الاماكن

واغتمنت الفرص فزرت الاماكن التي مر بها جيش عمرو بهذا القطر فطفت القنطرة وبلبيس والفسطاط والقيوم والطرانة وابشادى والشهداء والاسكندرية باحثا عن آثار الفتح العربي ووصفت ما عثرت عليه في متن الكتاب ولم اعثر في ابشادى ، وقد رجح معظم الذين كتبوا في تاريخ فتح العرب لمصر ان تكون نقيوس ، ولا في منوف ولا في الشهداء وهي متجاورة لا على اثر عربي. ولا على اثر رومي يستدل به على وجود الحصن وان كان اهل الشهداء يؤكدون ان المعركة الكبيرة بين عمرو ومانويل قائد الغارة الرومية دارت في مدينتهم وان الشهداء الذين استشهدوا فيها دفنوا في تراهم ، فاضيفت المدينة اليهم وكان من جملةهم محمد بن شبل بن العباس وله مسجد يزار ويقصد مما لا تؤيده المصادر التاريخية الصحيحة وان كنا لا نشك - اعتمادا على رواية الثقات من المؤرخين بان نقيوس كانت في المنطقة التي وصفناها من مديرية المنوفية وهي منوف - الشهداء - ابشادى دون غيرها

بناءً على افاضل

وقبل القاء القلم لا بد لي من اسداء كلمة شكر الى حضرة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار العالم المصرى والاستاذ الشيخ عمر الطيبي الاديب الدمشقي والاستاذ الشيخ طاهر احمد الزوى الاديب المغربي فقد اطلع كل منهم على الجزء الخاص بفتح قطره قبل مثوله للطبع فصحح فيه وابدى ملاحظات قيمة عليه وكذلك تطوع الاستاذ عمر الطيبي الدمشقي فزار وادى اليرموك مع مهندس ووضع له الخريطة المفصلة التي نشرناها واستند في وضعها على اصح اقوال المؤرخين القدماء وعلى ماشاهده بنفسه في خلال زيارته لذلك الوادى التاريخي

نظام الحكم في دولة الخلفاء الراشدين

ولقد انجزت وضع الجزء الثالث من هذه السلسلة وهو (نظام الحكم في دولة الخلفاء الراشدين) وهيأته للطبع وسيصدر قريبا ان شاء الله وهو خاص بالانظمة الادارية والسياسية والقضائية والمالية والتشريعية في دولة الخلفاء الراشدين وقد درستها دراسة وافية مفصلة وبدأت بما وضعه الرسول الاعظم منذ قيامه بنشر الدعوة الاسلامية حتى وفاته . واتبعت هذه الخطة في دراسة ادوار الخلفاء الاربعة الادارية والسياسية والقضائية واثبت خطبهم ورسائلهم السياسية وبلغاتهم الادارية والقضائية ومعاهداتهم واتفاقاتهم على منوال حديث لم يسبق اليه

الدولة الاموية

اما الجزء الرابع فهو خاص بالدولة الاموية وتبتدىء بتنازل الحسن ومبايعته لمعاوية وانتقال العاصمة الى دمشق وقيام الدولة الجديدة وظهورها سياسيا ومنه سبحانه وتعالى نستمد العون في البدء والختام القاهرة في ١٨ ذى الحجة سنة ١٣٥٣ و ٢٣ مارس سنة ١٩٣٥

مَصَادِرُ الْكُتَابِ

المكتب القديمة

صحيح البخارى

سيرة ابن هشام

تاريخ ابن جرير الطبرى

» ابن خلدون

» ابن كثير

» ابن عساكر

» ابن الاثير

البيان المغرب فى اخبار المغرب لابن

عذارى المراكشى

النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة

تاريخ طرابلس الغرب

المكتب الحديثة

اشهر مشاهير الاسلام

تاريخ الامة القبطية ليعقوب نخله روفيله

تاريخ سورية ليوسف الدبس

دائرة المعارف العربية للبستاني

المكتب الاجنبية

دائرة المعارف البريطانية

Encyclopædia Britannica

دائرة المعارف الاسلامية

Encyclopédie de L'islam

فتح العرب لمصر - لبطر

تاريخ البطارقة الاقباط لساويرس بن

المقفع

تاريخ حنا النقيوس نشر بالفرنسوية

سنة ١٩٠٤

تفوييم

انخراط الموقودة في الكتاب

امام صفحة

خريطة سورية الكبرى	»	٨٠
اليرموك	»	١١٣
الفتح العربي لمصر	»	٢٤٠
بقايا حصن بابليون	»	٢٥٦
فتح العرب لافريقية الشمالية	»	٣٤١
الدولة الاسلامية في سنة ٣٥	»	٣٩٩

تفوييم

الصور الموجودة في الكتاب

أمام صفحة

- ١٣٦ مدينة قيسارية
١٤٤ ميناء قيسارية
١٤٨ المسجد الذي صلى فيه عمر بالقدس
١٥٠ قلاع قيسارية
١٦٠ جامع خالد بن الوليد بجمص
٢٨٤ الباب القبلي لحصن بابلون
٢٨٨ احد برجى حصن بابلون
٢٩٦ بقايا حصون الاسكندرية (حصن قايتباى)
٣٠٤ » » » (حصن أبى قير)
٣١٣ جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة
٣٤١ بنغازى
٣٧٦ طرابلس الغرب
٣٨٤ قرطاجنة
٣٩٥ صفاقس

الغاراتُ في العهد النبوي

الحجاز والشام

كانت هناك علاقات اقتصادية وتجارية واسعة النطاق بين الحجاز والشام ، فكان التجار المكيون يضربون اكباد الابل في رحلات متتابعة يرحلون بها بدون انقطاع الى بلاد الشام ، جارة الحجاز الشمالية ، حاملين نتاج بلادهم وما جاءت به قوافلهم من اليمن والهند والعراق فينزلون بصرى ودمشق وحمص والقدس وغزة وغيرها من المدن والبنادر التجارية الكبرى فيبيعون وينتاعون

وكان تجار النبط من أبناء البتراء - وكانت من اراضي الدولة الرومية - يقصدون المدينة وشمالى الحجاز للتجارة حاملين الميرة والطعام ، وليستوردوا البلح وغيره من المحصولات الاخرى

وكانت قافلة قريش الكبرى ، وهى القافلة التى خرج المسلمون للقائها يوم بدر فدارت المعركة الكبرى بسببها ، تقصد بصرى كل سنة ويقال ان عدد جمالها ما كان يقل عن الالف ، تسافر موقرة وتعود مثقلة ، وكانت مكة كلها تشترك فى اعداد هذه القافلة ، بموجب نظام اقتصادى محكم ، فيستغل كل واحد من ابنائها ما ادخره من مال ، ويقال ان رأس مالها كان يرتفع فى بعض السنين حتى يبلغ ملايين من الدنانير ، كانت مكة تشترك فى دفعها وتجنى من ورائها الارباح الطائلة . وامت تجارة قريش وازدهرت فى خلال الحروب الاخيرة التى دارت بين الفرس والروم فى السنوات التى تقدمت الفتح الاسلامى ، فازدادت قوافلها وكثرت ارباحها لانقطاع طريق الهند بسبب تلك الحروب وقد استمرت من سنة ٦١٤ حتى ٦٢٤ اى حتى جلاء الفرس عن الشام ومصر على يد هرقلوس كما جاء فى الكتاب الاول

وكان عرب الحجاز ولاسيما قریش ، يعرفون اخبار الشام بالتفصيل و يتبعون سير الحوادث في ربوعها ، لارتباط ذلك بمصلحتهم التجارية فما كان يخفى عليهم شيء مما يجري هناك ، وكانوا لا يفتأون غادين رائحين ، وليس هناك حدود طبيعية تفصل بينهما ؛ وما عنى الروم بحدود الشام الجنوبية ، عنايتهم بحدودهم الشرقية (حدود ايران) لانهم ما كانوا يخشون عرب الجنوب وملاح في خاطرهم يوما من الايام بانهم يؤلفون خطرا على امبراطوريتهم وكانوا هم الذين قضوا عليها وألحدوها في رسمها

وهكذا وجد المسلمون يوم ظهروا الطريق ممهدا لغزو الشام، كما وجدوا بينهم من يعرفها معرفة حقيقية لكثرة تردده عليها، وتجواله في انحاءها، فساعدهم ذلك بمساعدة لانكر، فكانوا يتنقلون في داخلها بسهولة زائدة ويحسنون الكر والفر بين حصونها واسوارها لكثرة اختباراتهم ووفرة عدد الذين زاروها من رجالهم ، بعكس اعدائهم فما كانوا يعرفون الا القليل التافه من اخبارهم ، ومن حقيقة امرهم

الاسلام والنصرانية

لم يقع بين الاسلام ونصارى الحجاز - وكان فيه عند ظهور الدعوة الاسلامية ولا سيما في جنوبيه اى فى مكة جالية - ما وقع بينه وبين يهود الحجاز من خلاف ونضال

ولم يقاىل هؤلاء المسيحيون الاسلام ، وكان المسلمون ينظرون اليهم والى اليهود بعين الاحترام والعطف باعتبارهم من اهل الكتاب . ولما نشبت الحروب الكبرى بين القياصرة والا كاسرة تظاهر المسلمون بالعطف على الاولين لانهم من اهل الكتاب وتظاهرت قريش بالانحياز الى الفرس ، وربما كان ذلك نكاية بالمسلمين اذ لم تكن هناك علاقات وثيقة بينهم وبينها ، وقام سوق المناقشات والمجادلات فى مكة بين المسلمين وقريش حينما غلب الفرس الروم وانتصروا عليهم وانتزعوا منهم الشام ومصر وقالوا لهم لو كان اهل الكتاب من اتباع الحق والهدى كما تقولون ، لما كسروا ولما انهزموا ولما فاز عليهم عبدة الاوثان ؛ فرد عليهم المسلمون بانه لا بد من انتصار الروم فى النهاية وتغلبهم ، وبلغ من امر ابى بكر انه راهن على انتصار الروم ، وقد نصرنا فعلا بعد ذلك وفى القرآن الكريم اشارة الى هذا

ولا يعثر الباحث فى تاريخ الدعوة الاسلامية على حادث يستدل به على حصول جفاء بين الاسلام والنصرانية فى الادوار الاولى ، بعكس ما جرى بين الاسلام واليهودية . ويلاحظ لنا ان مصدر ذلك عدم وجود مطامع سياسية واقتصادية لهم ، بعكس اليهود ، وقد كانوا يسودون شمالي الحجاز كما اسلفنا ، يضاف الى ذلك ان عدد النصارى كان محدودا وكانوا ينزلون مكة ويزاولون المهن والصنائع المختلفة

من تعليم وطب وحدادة ونجارة وغيرها ، ولا يدخل في هذا الاحصاء نصارى القبائل البعيدة عن مكة (نصارى نجران والعراق العربي) ولم تشارك في النضال الذي دار بين الاسلام وخصومه

ولقى المسلمون الذين لجأوا الى بلاد الحبشة - وهي ارض مسيحية - رعاية وقرى ولما ارسلت مكة وفدها الى اكسوم يحمل هداياها الى صاحب العرش ، ويرجوه ان يسلم اليها المهاجرين من ابنائها لتنظر في امرهم رفض باباء وشمم تسليمهم ، فظلوا في امن ودعة حتى استقر المسلمون في المدينة وتوطدت قواعد دولتهم الجديدة فعادوا اليها واشتركوا مع اخوانهم في نشر الاسلام وبث دعوته

وجاء نصارى نجران الى المدينة بعد الفتح فاقرهم النبي على دينهم ، وقبل منهم الجزية ، لانهم من اهل الكتاب وما كان يقبلها من العرب الوثنيين ، ودارت مباحثات بين النبي والوفد حول العقائد في الدين . وكثيرا ما اوصى الخلفاء باهل الكتاب من النصارى خيرا واثاروا باحترامهم ، وحسبنا ما جاء في خطبة ابي بكر حينما ودع جيش اسامة (انظر ص ٢٠٥ من الكتاب الاول) ففيها الكفاية وفيها الغناء

دول العرب في عهد الامبراطورية الرومية

دخل الروم الشام في القرن الاخير قبل الميلاد وفيها دولتان للعرب : دولة البتراء
او النبط في الجنوب ، ودولة تدمر في الشرق فادالوهما وقضوا عليهما

دولة الانباط

قامت مملكة البتراء قبل المسيح بين فلسطين وخليج العقبة وكانت عاصمتها
وادي موسى واستولى ملوك هذه الدولة على دمشق والبقاع ووصلوا حتى حدود لبنان
الشرقية فحاربهم الروم بعد ما استقرت اقدامهم في دمشق وقضوا على استقلالهم
وادمجوهم في دائرة امبراطوريتهم ، فقد حمل عليهم الامبراطور تراجان في سنة ١٠٦
بعد الميلاد وهزمهم ويقال ان عدد ملوكهم بلغ ١٤ ملكا

ويرى بعض الباحثين ان الانباط من ولد نابت بن اسماعيل ، جد العرب ،
ويعدونهم في العدنانيين ، رحلوا من مكة نحو الشمال ، في قرون مجهولة فنزلوا في
ديار ثمود وهي واقعة بين محطتي العلا وتبوك من محطات سكة حديد الحجاز ، ثم
استقروا في وادي موسى وانشأوا هذه الحكومة ولا يذكر المؤرخون بالضبط زمن
قيامها وان دونوا زمن سقوطها

(١) اصطلاحنا على اطلاق لفظ الروم على الرومان عملا بما ساهم به القرآن الكريم
في قوله « الم غلبت الروم »

دولة تدمر

اما دولة الشرق تدمر ، فقد ضمت الى الروم في سنة ٣٦ قبل الميلاد على يد القائد مرقص انطيوخس ثم نالت حقوق مستعمرة رومانية، وحارب بعض ملوكها الروم بعد ذلك وحاولوا نقض عهدهم فساق هؤلاء الجيوش عليهم وهزمهم . وآخر ملوك هذه الدولة هي زينب او الزباء او زنوبا وقد ظهرت في اواخر القرن الثالث للميلاد ، فانتشر نفوذها في معظم بلاد العرب الغربية فخافها الروم وسيروا الجند لقتالها فتم لهم النصر عليها ودخلوا عاصمتها في اول سنة ٢٧٣ فقبضوا على زينب نفسها واخذوها الى روما بعد ما خربوا تدمر ودمروها ، وبذلك نصر الروم على هاتين الدولتين العربيتين وقد كان لهما شأن في تلك العصور وكانت بلادهما ممرا للتجارة وواسطة الاتصال بين الشرق والغرب

دولة بني غسان

وحلت دولة بني غسان في حكم جنوبي بلاد الشام محل الانباط في وادي موسى ويميل معظم المؤرخين الى الاعتقاد بان اصل الغسانيين من قحطان ، هاجروا من اليمن على اثر حادث سد مأرب فهبطوا عسير والحجاز ثم قصدوا نجدا ثم انتقلوا الى البلقاء وتغلبوا على الضجاعة من قضاة وحاولوا محلها فكثرت عددهم واتسع نفوذهم ، فرأى الروم ان من مصلحتهم ان يستعينوا بهم في حفظ امن البادية وفي حروبهم مع الفرس فقرّبوهم منهم وبين المؤرخين اختلاف في عدد ملوك هذه الدولة وفي تاريخ ظهورها ، فيقول بعضهم ان عدد ملوكها ٣٢ ملكا حكموا من سنة ٢٢٠ للميلاد حتى سنة ٦٣٢ ويجعل غيرهم عدد ملوكها عشرة فقط هذه اسماؤهم :

جبله ابو شمير

الحارث بن جبله

المنذر ابو كرب بن الحارث

النعمان بن المنذر الغساني

الحارث الاصغر بن الحارث الاكبر

الحارث الاعرج بن الحارث الاصغر

النعمان بن الحارث الاصغر

عمرو بن الحارث الاصغر

حجر بن عمرو

من سنة ٥٠٠ الى سنة ٦١٤

وختم ملكهم بجبله بن الایهم وقد اسلم في خلافة عمر بن الخطاب اى بعد اليرموك ثم ارتد ولحق بالروم في القسطنطينية ومات عندهم

وهناك رأى وسط بين رأى الفريقين : رأى الذين يقولون ان عدد ملوكهم ٣٢ ورأى الذين يجعلونهم عشرة وهو مقبول ومعقول وخلصته ان امر الغسانيين لم يعظم الا على يد جبله ابى شمير في اول القرن الخامس ، فاشتهروا بواسطته وطار اسمهم واتسع نفوذهم ولم يكن لهم قبله كبير شأن وكان ملوكهم من قبله عبارة عن شيوخ قبيلة فقط ولذلك اهملهم المؤرخون ولم يعنوا باستقصاء اخبارهم ، يؤيد هذا ما رواه مؤرخو الدولة الرومية وهو ان الامبراطور جوستينيان اعترف للحارث بن جبله بزعامه جميع القبائل العربية في الشام ومنحه لقب رئيس الاسباط و بطريقها وكان هذا اعظم لقب عندهم ويأتى صاحبه بعد الامبراطور

بصرى

وكانت بصرى عاصمة هذه الدولة وهى على ١٧١ كيلومترا من دمشق الى جنوبها الشرقى ومع انه ليس هناك حدود معروفة لهذه الدولة الا ان

دلائل الحال تدل ان حدودها كانت تشمل حوران الحاضرة مع جبل الدروز واللجاء شرقا ومعان جنوبا وابواب دمشق شمالا والزوية غربا وكان نفوذهم يضعف ويشتد تبعا لهمة الجالس على العرش ونشاطه . وقد استولوا في بعض الادوار على دمشق نفسها وحكموها

وكان ملوك بني غسان يتمتعون باستقلال واسع النطاق في ادارة بلادهم داخل الامبراطورية ، وكانوا يعينون كما تدل الدلائل -بامر القيصر و بموافقته- وكان نفوذهم يشمل القبائل العربية الضاربة في داخل بلادهم فقط وكان الى جانب كل امير من امرائهم قائد عسكري رومي يتولى شؤون الدفاع وينظر في امر الجند ، ومعنى ذلك انهم كانوا يزاولون السلطة الادارية وحدها . اما السلطة العسكرية فكانت في يد القواد الروم

وادي الغساسنة للروم خدمات جليلة في حروبهم مع الفرس ، وكما استخدم هؤلاء الغساسنة فقد استخدم اولئك المناذرة ، وكثيرا ماقتتل هذان القبيلان العربيان وهم من ابناء العمومة فكلاهما من قحطان ، وكثيرا ما دارت بينهما المعارك في بادية الشام وعلى حدود العراق وفي داخل حوران ، وارقوا دماءهم ، لادفاعا عن حق مهضوم ، ولا ردا لغارة ، ولا طلبا لسيادة ، وانما تأييدا للاجنبي المستولى على بلاديهما وتوطيدا لنفوذه ، وذلك شأن الامم المغلوبة على امرها في كل زمان ومكان وشأن المحتل الاجنبي فهو يسوق الاخوة وابناء الاعمام ليذبح بعضهم بعضا فيكون له الغنم وايهما فاز واتصر ففي مصلحته وحده

ويقال ان اعظم المعارك التي دارت بينهما، تلك التي دارت بين الحرث بن ابي شمر الغساني والمنذر الثالث قرب قنسرين (حي من احياء حلب الشرقية) فقد زحف الاول بجنده من الحيرة حتى بلغ الفرات فعبره عند (قرقيش واسمها الآن جرابلس وتبعد عن حلب ١٠٤ كيلو مترات الى شرقها) ثم تقدم حتى قنسرين فلاقاه الحرث بنفسه ودارت معركة عنيفة بينهما انتهت بقتل المنذر وفوز الغساني وليس هنا مكان

للافاضة في هذا الموضوع

ويلوح لنا ان الفسانيين في حروبهم مع المناذرة ما كانوا يرمون الى اكثر من
 اضعاف خصومهم والحصول على الاسلاب والغنائم طبقا للطريقة البدوية القديمة ، وما
 كان الفريق الغالب منهم يفكر في الاستيلاء على اراضى الفريق الآخر أو بلاده ، ولذلك
 ظل كل منهما محتفظا في خلال سنى العراك الطويلة بحدوده تقريبا ، ولا تزال القبائل
 حتى الآن تسير على هذه القاعدة ، فلا تفكر قبيلة منها في اغتصاب اراضى القبيلة التى
 تحاربها ولا فى اجلائها عنها بل تكتفى بالغنائم والاسلاب فى الغالب ، وحوادث اجلاء
 القبائل وحلول غيرها فى منازلها قليلة (ولا تدخل فى ذلك المهجرات الاختيارية)
 وقضى على هذه المملكة عند الفتح الاسلامى كما قضى على دولة المناذرة

تقسيم بلاد العرب

وكما اقتسم الفرس والروم بلاد العرب فى تلك الايام وانشأوا فيها دولا وحكومات
 لثلاث تجتمع وتتحد فتحاربهم وتتخلص من نيرهم ، فقد اتبع الفرنسيون والانكليز
 نفس هذه الطريقة فى هذه الاقطار اليوم ، فجزؤها وقسموها الى دول وامارات
 يحكمون بعضها مباشرة وبعضها بالواسطة فلا تتحد على قتالهم ولا تتفق على اجلائهم ،
 وبذلك يعيد التاريخ نفسه فى هذه الاقطار والامر لله من قبل ومن بعد

هالة الروم عند ظهور الاسلام

لم تكن حال امبراطورية الروم عند ظهور الاسلام ، مما يسأل دوام مثله ، فقد كانت تتردى في هوة من الاضمحلال الاجتماعى ، والانحطاط الاخلاقى ، والاضطراب الداخلى ، تبشر بسوء المصير وتندر بوخامة العقبي

نعم ان الامبراطور هركليوس Héraclius وهو الذى يسميه مؤرخو العرب هرقل فاز في حروبه مع الفرس وتم له اجلاؤهم حربا عن القطرين المصرى والشامى وكليكية والاناضول واعادتهم الى حدودهم الاصلية ، بعد ما قضا سنوات يحتلون هذه الاقطار الواسعة ويهددون امبراطوريته نفسها بالدمار والفناء ، ومع ان من شأن مثل هذا الانتصار الباهر ، ان يعزز مقام الامبراطورية ويؤيد نفوذها فقد اثبت سير الحوادث العكس فلم تستطع ثباتا في وجه الغزاة الفاتحين ، يوم جاءوها من الجنوب - جنوب الشام - فاكتمسحوا بلادها واستصفوا قطرين من اعظم اقطارها وهما الشام ومصر وما وراء مصر من مقاطعات افريقية ، ولم تنقطع الحروب بينهما حتى قضا عليها نهائيا بعد ذلك واحقوها بشقيقتها امبراطورية الفرس ، ولم تقاوم ما قاومته لان بلادها اصغر رقعة ، واقل سكانا ولان المسلمين شغلوا في ابتداء الدور الثانى من ادوار غزواتهم بافتتاح افريقية وواصل قوادهم الزحف في الميدان الشرقى فاكتمسحوا آسيا الوسطى كلها تقريبا وبلغوا اسوار الصين في حملتهم تلك

والباحث في تاريخ الامبراطورية الرومية حين ظهور الاسلام يرى انه كان للانقسامات الدينية والتحزبات المذهبية تأثير مذكور في اضمحلالها فقد انقسم النصارى من سكانها ، وهم اهل عصبيتها ، وتعزز بهم وتقوم على سواعدهم ، الى

فريقين : فريق يقول بوجود طبيعة واحدة في المسيح وهم اليعاقبة ، وفريق يقول بوجود ثلاث طبائع فيه وهم الملكيون ، وكان كل فريق يرى الآخر بالزندقة والاحاد ويعمل على قهره واذلاله ، يضاف الى هذا الانقسامات السياسية والمؤامرات العديدة ، وآخرها المؤامرة التي نسج هرقليوس (هرقل) نفسه وانصاره خيوطها ، وسداها ولحمتها السعي لانتزاع العرش من الامبراطور فوكاس صاحبه واجلاس هرقليوس في مجلسه ، وقد سار هذا من مقره في برقة ، وكان يحكمها باسم الامبراطورية حتى سلانيك فاعد فيها حملة قصد بها القسطنطينية ففتحها بعد عناء ، واوقد انصاره ثورات اخرى في بعض انحاء الامبراطورية ولا سيما في مصر تأييداً له وانهت هذه الفتنة وكانت من الفتن الكبرى ، وقد استنزفت جانبا كبيرا من قوى البلاد ومواردها بالقبض على الامبراطور ومحاكمته وقتله شرقتة فقد قطعوا يديه ورجليه وتفننوا في تعذيبه ثم اجلسوا هرقليوس في مجلسه ونادوا به امبراطورا على تلك الامبراطورية العظيمة وقد جرى كل ذلك في سنة ٦٠٩ على ما يذهب اليه اكثر المؤرخين

ولم يكده يستوى هذا على عرشه الجديد حتى زحف الفرس زحفهم العظيم على بلاد الشام مهتبلين فرصة الثورات الداخلية ، والاضطرابات السياسية ، والانقسامات المذهبية ، وكانت تمزق احشاء الامبراطورية تمزيقا ، وتحزها حزا ، فما ثبتت في وجههم وما قاومتهم فاحتلوا دمشق واستولوا على بيت المقدس ، وانتزعوا الصندوق المقدس ، ويقال انه كان يحتوي على الحشبة التي صلب عليها السيد المسيح وكانت تحفظ في كنيسة القيامة ونقلوها الى المداين (طيسفون) وغنموا كل ما عثروا عليه من آثار وتحف ونقائس ، وواصلوا تقدمهم بعد ذلك جنوبا فاستولوا على القطر المصري وانتزعوه من الامبراطورية وكان درة تاجها

وبينا كان سالار شاهين قائد جيش الفرس في الشام يواصل اعماله العسكرية ويحذف على الاسكندرية ، كان جيش زميله شهرزور يتوغل في آسيا الصغرى قاصدا القسطنطينية لدك بنيان الامبراطورية ، فادرك من الفوز ما ادركه زميله

وصاحبه ، ويلوح لنا انه سلك الطريق البرى المعروف ، فقد واصل تقدمه من حلب حتى انطاكية ثم احتل طرسوس اى انه اخترق سلسلة جبال امانوس وبعدها استولى على كيليكية اجتاز سلسلة جبال طوروس موعلا في زحفه نحو الشمال ومعنى ذلك ان الفرس قسموا جيشهم بعد الاستيلاء على سورية الى قسمين : اتجه قسم نحو الجنوب واتجه الفريق الآخر نحو الشمال لاحتلال العاصمة ، ولئن تكلفت جهود الاول بالنصر وتم له احتلال مصر ، فلم يوفق الثانى الى احتلال القسطنطينية مع ما ادركه من نصر في بعض المعارك ومع اكتساحه لمعظم مناطق الاناضول الجنوبية وبلوغه اسوار العاصمة نفسها

وكانت قبائل شرق اوربا تهاجم الامبراطورية الرومية في منطقة الدردنيل من الجانب الاوربى في نفس الوقت الذى كان الفرس يوغلون في داخلتها ويقطعون اوصالها وهكذا كانت بين نارين وعدوين شديدين ينقضان عليها ويقوضان بناءها ، مما فت في عضد الامبراطور الجديد ، وبدد احلامه ، فادرك انه اخطأ في تآمره على سيده ، وعرف ان حمل الامبراطور من انقل الاحمال . فاخذ يعد عدته للهرب والرجوع سرا الى افريقية للتخلص من الابعاء المرهقة التى اثقلت عاتقه ، فيعيش هنالك آمنا مطمئنا ، واتصل ذلك بالبطريك سرجيوس وعرف بما يدبره الامبراطور من تدابير سرية لينجو بنفسه ويفر من العرش ، فجاء واسمعه ما يجب ان يسمع ، ولم يزل به حتى اقتعه بالعدول والبقاء ، مع انه سبق فارسل امتمته ونفائسه الى افريقية استعدادا للهرب ، ونزع فيه روحا جديدة ، فاعتزم مواصلة الحرب والعمل لانقاذ الامبراطورية وكانت على شفا الحراب والاضمحلال

وكان اول ما بدأ به في هذه المرحلة ، هو انه اختار ثلاثة من خاصته حملهم هدايا ثمينة وارسلهم مع كتاب الى كسرى (خسرو الاول) يقترح فيه عقد صلح بين البلادين يعيد السيوف الى اغمادها ، ويريح العباد من الحرب وعنائها ، وقبل خسرو الهدية ورفض الاقتراح وارسل رسالة شفوية الى الامبراطور مع الوفد

هذا فخواها « ان دولة الروم من ارضى وان قيصرها عاص نأثر ، وعبد ابق ، ولن امنحه سلاما ، حتى يترك عبادة الصليب ويعبد الشمس »

وانقلب الرسل الى بلادهم يحملون الرسالة ويعلنون عزم الفرس على قهر الروم واذلالهم ، وينادون انهم يوقدون حربا دينية سداها القضاء على الدين المسيحي ولحمتها اذلال النصارى فكان لهذه الاقوال فعل الكهرباء في نفوس الروم فاستيقظوا ونهضوا واقبلوا على التطوع في الجيش لانقاذ الدين والوطن ، وقدمت الكنائس للجيش ما احتوته خزائنها من ذهب وحلى ومجوهرات ليستعين بها في حروبه ، وهكذا تبدل الموقف ، وظهر النشاط وتجلت قوة العزيمة ، وقام الشعب الرومى فى داخل بلاده قومة رجل واحد للنضال عن حوزته ولاسترداد مكاتته ففاز وتم له ما ارد ، وذلك شأن الامم فلا تغلب ولا تزل متى طلبت العز وسعت اليه وبذلت فى سبيله

وبيان ذلك انه لما عقد هركليوس العزم على محاربة الفرس ، والظاهر انه ما كان يأمل ان يقبلوا اقتراحاته بالصلح - وقد جاء سير الحوادث مؤيدا لما رآه - ارسل رسلا الى زعماء القبائل التى تهاجم بلاده يقترح مهادنتهم فهادنوه على شروط اتفق عليها ووضعت الحرب اوزارها بينه وبينهم فارتاح باله من جهة الحدود الاوربية فعكف على الاستعداد للحرب فى الميدان الاسيوى ، فحشد جيشا كبيرا فى خليج اسكندرونة

ولقد اراد هركليوس بحشد جيشه فى هذه المنطقة وهى مركز متوسط بين الاناضول الجنوبى وبين شمالى سورية وشرقى الفرات ان يهدد الجيش الفارسى فى الاناضول بقطع خط رجعتة ، وبغزله عن قاعدته العسكرية وكانت فى المداين ، ثم يهاجم الحاميات الفارسية الضعيفة فى الشام ويشق طريقه الى العاصمة فيضطر الفرس الى الجلاء عن الاناضول ومصر والشام فى وقت واحد . واذا قيل لنا كيف تسنى للامبراطور ان ينفذ هذه الحطة والفرس يحتلون كيليكية نقول انه استطاع ذلك على يد اسطوله البحرى ، وكان الروم يملكون اسطولا بحريا كبيرا يسيطر على البحر المتوسط

وشواطئه . وحاول الفرس عندما احتلوا الشام ومصر ووصلوا الى ساحل البحر الابيض ان ينشئوا اسطولا ثم عدلوا عن عزيمتهم . ولما تم الروم حشد قواهم في منطقة خليج اسكندرونة وبيلان تحت حماية اسطولهم ، جاء الامبراطور بنفسه فقادهم بعد ما استخلف ولده واقام له وصيين ، ويقولون انه لما ازمع السفرائتعل نغلا اسود ودخل كنيسة ايا صوفيا يدعو الله ان يوفقه ، وركب في الغداة السفينة وكان ذلك يوم الاثنين عيد الفصح في سنة ٦٢٢ اى في فصل الربيع وهو يساعد على اجراء الحركات العسكرية في تلك المنطقة الجبلية الصعبة (منطقة كيليكية) وهى واقعة بين جبلين شاهقين : جبال طوروس وتكتنفها شمالا وهى معروفة قائمة ، وجبل امانوس او جبل الساعات كما يسميه جغرافيو العرب ، ويكتنفها من الجنوب

واشعل هركليوس نار الحرب وادار رحاها فحالفه التوفيق وتقدم فى اتجاه حلب فاحتل قنسرين وسار شرقا يقصد الفرات ويطلب المداين فأوقع فوزه الرعب فى نفوس الفرس فجلوا على جناح السرعة عن الاناضول والشام وارتدوا الى بلادهم للدفاع عنها ، وصد عادية الجيش المغير ، فلم يفن ذلك عنهم شيئا ، وهزمهم فى معركة كبرى دارت فى دستجرد (غير معروفة الآن) ويظن انها شرقى الفرات ثم احتل المداين ففر خسرو ابرويز (ملك الفرس يومئذ) ثم قبض عليه وسجن وقتل بعد ذلك على يد نجله قباد شيرويه . وهكذا خضد الامبراطور شوكة الفرس ونال نصرا عظيما واسترد بلاده كما استرد الصندوق الذى فيه بقايا خشبة الصليب وعقد صلحا معهم وذلك فى شهر يوليو سنة ٦٢٨ عاد بعده الى عاصمته فاستقبل استقبالاً فخماً ، ولم يطل فيها المقام بل عاد فى السنة التالية أى فى سنة ٦٢٩ الى سورية ينتهى الحج وزيارة بيت المقدس ليعيد بقايا الصليب الى مكانها فجاء الى انطاكية ومنها الى حمص ، فاستقر فيها أياما ثم سار ماشيا على قدميه الى بيت المقدس ، علامة شكر لله على ما أتاه من نصر وتوفيق ، وجاءه وهو فى الطريق كتاب الرسول بالدعوة الى الاسلام

الدعوة الإسلامية والإمبراطور هرقلوس

اتصل الإسلام اتصالاً رسمياً بالإمبراطورية الرومانية للمرة الأولى يوم أرسل النبي كتابه إلى الإمبراطور هرقلوس في السنة السادسة للهجرة (سنة ٦٢٨) يدعو فيه إلى الدخول في دينه (انظر نص الكتاب ص ١٢٣ ج ١)

وحمل دحية بن خليفة الكلبي - وكان من المكيين الذين اعتادوا التردد على بلاد الشام للتجارة - هذا الكتاب وسار به إلى بصرى ، فقابل الحارث بن أبي شمر الغساني وسامه إياه ، ليوصله إلى الإمبراطور ، فلم يتردد كما قال المؤرخون في قبول هذه المهمة فسلم الكتاب إلى الإمبراطور يدا بيد وهو في سفره من حمص إلى القدس

وفي رواية أخرى أن الحارث أرسل عدى بن حاتم مع دحية فقصدا القدس وهناك تسلم هرقلوس الكتاب ويؤيد هذه الرواية - ويلاحظ لنا أنها الأرجح والأصح - ما رواه البخاري عن أبي سفيان بن حرب قال ما معناه « استقبل قيصر حينما قصد القدس حاجا بعد انتهائه من حربه مع الفرس ، رسول صاحب بصرى مع رجل من العرب يقوده . وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها ، فقال أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشام والابل يحدث عن امر عجيب حدث ببلادهم فسله عنه . فسأل هرقلوس دحية بواسطة الترجمان عنه فقال : خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد تبعه ناس وصدقوه ، وخالفه ناس ، وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة وتركتهم على ذلك »

ويمضى أبو سفيان في إيراد حديثه ويقول « فدعا الإمبراطور على الأثر صاحب شرطته (مدير الأمن العام في الدولة) وأمره بأن يبحث له في الشام عن حجازي من

قوم محمد يسأله خبره . قال وكنت ونفرا من تجار قريش في غزة وقد جئناها بعد الهدنة التي عقدت بيننا وبينه ، فقدم علينا صاحب الشرطة فسألنا هل اتم من قوم هذا الرجل الذي ظهر بالحجاز فقلنا نعم فقال انطلقوا بنا الى الملك فانطلقنا معه . فاما دخلنا عليه سألنا قائلا :

- هل اتم رهط ذلك الرجل ؟

- نعم

- ايكم امس به رحبا ؟

- انا

- اقترب مني

قال ابو سفيان فاجلسني بين يديه واجلس اصحابي خلفي وقال لهم اني سأسأله اسئلة فان كذب فردوه . ويقول ابو سفيان « والله لو كذبت مارودوا على . ولكني امرؤ سيد اتكرم عن الكذب ، وعرفت ان ايسر ما في ذلك ان انا كذبت ان يحفظوه على ثم يحدثوا به عنى »

ودارت بين ابى سفيان والامبراطور المحاورة الآتية كما يرويها الاول :

- كيف نسبه فيكم ؟

- اوسطنا نسبا

- هل كان احد من اهل بيته يقول ما قاله فتشبه به ؟

- كلا

- هل كان له ملك فاستلبتموه منه فجاء بهذا الحديث يسترد ملكه ؟

- كلا

- من هم اتباعه وما هو مقامهم الاجتماعى ؟

- الضعفاء والاحداث والعاملان والنساء . ولم يتبعه احد من ذوى المكناة

- هل يحبه الذين يتبعونه ويلزمونه أم يتركونه وينفصلون عنه ؟

.. ماتبعه رجل فقارقه

- كيف كانت الحرب بينكم وبينه ؟

- سجال : يدال علينا و يدال عليه

- هل يغدر ؟

- لا

- كيف علاقاتكم معه الآن ؟

- نحن معه في هدنة

ولخص هركليوس الحديث وعلق عليه ووجه الخطاب الى ابي سفيان فقال :
سألتك كيف نسبة فيكم فزعمت انه محض من اوسطكم نسبا وكذلك يأخذ الله النبي
اذا اخذه ، لا يأخذه الا من اوسط قومه نسبا . وسألتك هل كان احد من اهل بيته
يقول بقوله ، فهو يتشبه به فقلت لا . وسألتك هل كان له ملك فسلبتموه اياه فجاء
بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت ان لا . وسألتك عن اتباعه فزعمت انهم الضعفاء
والمساكين والاحداث والنساء ، وكذلك اتباع الانبياء في كل زمان . وسألتك عمن
يتبعه يحبه ويلزمه ام يقلبه ويفارقه فزعمت ان لا يتبعه احد يفارقه ، وكذلك حلاوة
الايمان لا تدخل قلبا فتخرج منه . وسألتك هل يغدر فزعمت ان لا . فلئن كنت
صدقتني عنه فسيملك ما تحت قدمي هاتين ولوددت انى عنده فاعسل قدميه . انطلق
لشانك »

هذا مجمل ما رواه ابو سفيان بنفسه عن هذه المقابلة وقد اثبتته البخارى مفصلا
ورد هركليوس الرسول ردا جميلا ولم يسلم ، كما انه لم يأمر باتخاذ شيء من
التدابير لمقاومة الحركة الجديدة في بلاد العرب ، ولو فعل لما خفى علينا الامر ، وغادر
القدس بعد ذلك الى دمشق ومنها الى حمص فانطاكية فاستقر فيها

الروم واليهود

ولا بد لنا من القول ان هركليوس اصدر حين اقامته في القدس امرا بذبح يهود

فلسطين والتسكيل بهم ، لما اظهره من عطف على الفرس حين غزوههم الشام ،
ولانهم مالاوهم على الروم ، فنفذ امره ، وكانت نكبة شديدة على اليهود مع انهم سبقوا
فأخذوا منه كتابا بالامان حين مروره بطبريا في طريقه الى بيت المقدس
ويرى بعض مؤرخى الدولة الرومية ان رجال الدين الارثوذكس هم الذين
أثروا فيه واستصدروا هذا الامر بعد نزوله بينهم شفاء لحزازات في صدورهم . ومن
غرائب الصدف ان تقع هذه النكبة على اليهود في نفس السنة التي هاجم فيها
المسلمون خيبر واجلوهم عنها

طريق المسلمين الى الشام

سلك المسلمون في زحفهم الى الشام ، طريق القوافل القديم المعروف بين الحجاز والشام ، وكانت قوافل قريش ، كما كانت قوافل البتراء ، تسلكها بدون انقطاع غادية رائحة بين البلدين ، ثم سلكها الحجاج والزوار . وقد ظلت طريق المواصلات الوحيد تقريبا بين هذين القطرين حتى انشاء سكة حديد الحجاز فعمل الناس عليها في تنقلاتهم وتجارتهم

ونبدأ هنا بذكر اسماء محطات هذا الطريق بين دمشق - المدينة - مكة - مع مسافاتها بالساعات ثم نذكر اسماء محطات سكة الحديد الجديدة ومسافاتها ايضا فقد لا يخلو ذلك من فائدة تساعد في درس حالة تلك الحرب الضروس التي نشبت بين العرب والروم

اسم المحطة	المسافة بالساعة	اسم المحطة	المسافة بالساعة
حسا	١٣	دمشق	
عنيزه	١٣	خان دنون	٤
معان	١٠	كتيبة	٨
عقبة	١٨	مزيريب	٩
المدوره	١٢	رمته	٥
ذات الحج	٨	مفرق	١٠
قاع الصغير	١٣	زرقة	١٣
عاصي خرما	١٢	بلقاء	١٦
الاخضر	١٢	قطرانه	١٣

اسم المحطة	المسافة بالساعة	اسم المحطة	المسافة بالساعة
المدينة		المعظم	١٤
بيار على	٣	دار الحمرة	١٦
بئر ماشى	٦	مدائن صالح	١٨
غدير	٨	بيار الغنم	١٠
الريان	١٠	بئر الزمرد	١٦
ام الضباع	١٢	» الجديد	٨
ظهر العقبة	١٤	هدية	١٨
رانغ	٧	فحلتين	١٨
قضية	١٣	بيار نصيف	١٠
عسфан	١٣	المدينة	١
مكة	٢٠		
المجموع من المدينة الى مكة	١٠٦	المجموع	٣١٩
مجموع المسافة من دمشق الى المدينة بالساعة	٣١٩		
	٤٢٥		

فاذا حسبنا متوسط السير اليومي وهو خمس كيلوا مترات في الساعة لبلغت المسافة ٢١٢١ كيلوا مترا كانت القوافل تقطعها عادة في ٤٢ يوما منها ٣٠ بين دمشق والمدينة و١٢ بين المدينة ومكة سيرا على ظهور الابل

طريق الربوع

وكان هنالك طريق اخر يختلف قليلا عن هذا الطريق كانت بعض القوافل تسلكه في رجوعها الى الشام وهذه اسماء محطاته بين المدينة ودمشق

المسافة بالساعة	اسماء المحطات	المسافة بالساعة	أسماء المحطات
	المدينة	٣	تبوك
٣	جرف	١٢	قاع الصغير
٢	بئر الصغير	١٣	ذات الحج
١١	بيار نصيف	٨	المدورة
١٠	فحلتين	٣	بطن الغول
١٣	دير العظام	٦	عقبة
٦	هدية	٦	بئر التوبة
١٢	براقه	١٢	معان
٦	البئر الجديد	١٠	عنيزة
٨	بئر الزمرد	١٢	حسا
١٢	سهل مطران	١٢	قطرانة
١٠	مداين صالح	١٤	بلقا
٨	جبل ابوطاقة	١٦	زرقه
١٠	دار الحمرة	١٢	مفرق
٧	مفرش البربر	١٠	رمته
١٢	المعظم	٥	مزيريب
٨	جناين القاضي	٧	كتيبة
٦	الاخضر	٥	الكسوة
١٣	ظهر المعز	٤	دمشق

المجموع أى بزيادة ٨ ساعات ٣٢٧

عن ذلك الطريق

اسماء محطات سكة هدير الحجاز منه دمشق الى المدينة

وهذه اسماء محطات سكة حديد الحجاز بين دمشق والمدينة مع مسافاتها الكيلومترية :

اسم المحطة	المسافة بين المحطتين بالكيلومتر	المسافة من أول الخط بالكيلومتر
دمشق (القنوات)	٤٠١٠٠	
القدم	٢٠٠٩٠٠	٢٥
الكسوة	٩٠٧٠٠	٣٤٠٧٠٠
دير على	٢١٠٣٠٠	٥٦
مسمية	١٠٠٩٠٠	٦٦٠٩٠٠
جباب	٦٠٥٠٠	٧٣٠٤٠٠
خبب	٨٠٨٠٠	٨٢٠٢٠٠
محبجة	١٣٠٣٠٠	٩٥٠٥٠٠
اذرع	١٤٠٩٠٠	١١٠٠٣٠٠
خربة الغزالة	١٧	١٢٧٠٣٠٠
درعا	٥٠٦٠٠	١٣٢٠٩٠٠
قم غرز	٧٠١٠٠	١٤٠
نصيب	٢٣٠٧٠٠	١٦٣٠٧٠٠
المفرق	٢٣٠٧٠٠	١٨٧٠٤٠٠
خربة السمرة	١٧٠٤٠٠	٢٠٤٠٨٠٠
زرقة	١٩٠٦٠٠	٢٢٤٠٤٠٠
عمان	١١٠٧٠٠	٢٣٦٠١٠٠
القصر	١٤٠٨٠٠	٢٥٠٠١٠٩٠٠
اللبن	١١	٢٦١٠٩٠٠
الجيزة		

٢٨٠,٩٠٠	١٩	الضبعة
٢٩٧,٥٠٠	١٦,٥٠٠	خان الزيب
٣١١,٥٠٠	١٤	سواقة
٣٢٨,٤٠٠	١٦,٩٠٠	القطرانة
٣٥٠,٦٠٠	٢٢,٢٠٠	منزل
٣٦٩,٣٠٠	١٨,٧٠٠	فريفة (خربة)
٣٨٠	١٠,٧٠٠	الحسا
٣٩٩,٥٠٠	١٩,٥٠٠	جروف الدراويش
٤٢٤,٨٠٠	٢٥,٣٠٠	عنيزة
٤٤٢,٦٠٠	١٧,٨٠٠	وادي الجردونه
٤٦٠,٩٠٠	١٨,٣٠٠	معان
٤٧٧,٥٠٠	١٦,٦٠٠	غدير الحج
٤٨٨,٨٠٠	١١,٣٠٠	بئر الشيدية
٥١٦,٤٠٠	٢٧,٦٠٠	عقبة
٥٣٢	١٥,٦٠٠	وادي الرتم
٥٤٨,٣٠٠	١٣,٣٠٠	تل الشحم
٥٥٧,١٠٠	٨,٨٠٠	الرملة
٥٤٧,٢٠٠	١٧,١٠٠	المدورة
٥٩٦,٥٠٠	٢٢,٣٠٠	حارة عمار
٦١٠,٣٠٠	١٣,٨٠٠	ذات الحج
٦٣٤,١٠٠	٢٣,٨٠٠	بئر هرماس
٦٥٦,٥٠٠	٢٢,٤٠٠	الهضم
٦٧٩,٥٠٠	٢٣	المحصب

٦٩٤	١٤٥٠٠	تبوك
٧٢٢	٢٨	وادی الاثیل
٧٤٥٠٨٠٠	٢٣٠٨٠٠	دار الحج
٧٥٦٠٧٠٠	١٠٠٩٠٠	مستبقة
٧٦٦٠٣٠٠	٩٠٦٠٠	الاخضر
٧٨٣٠٧٠٠	١٧٠٤٠٠	جمیس
٨٠٦٠٧٠٠	٢٣	أبی سعید
٨٢٩٠٦٠٠	٢٢٠٩٠٠	المعظم
٨٥٤٠٧٠٠	٢٥٠١٠٠	خشم صنعاء
٨٨١٠٩٠٠	٢٧٠٢٠٠	الدار الحمراء
٩٠٥٠٨٠٠	٢٣٠٩٠٠	المطلع
٩٢٧٠٣٠٠	٢١٠٥٠٠	أبو طاقة
٩٤٣٠٥٠٠	١٦٠٢٠٠	مبرك الناقة « المرحم »
٩٥٦٠٨٠٠	١٣٠٣٠٠	مداین صالح
٩٨١٠٥٠٠	٢٤٠٧٠٠	العلا
١٠٠٠٠٨٠٠	١٩٠٣٠٠	البدايع
١٠١٤٩١٠٠	١٣٠٣٠٠	مشهد
١٠٣٥	٢١٠٩٠٠	سهل المطران
١٠٥٠٠١٠٠	١٥٠١٠٠	زمرد
١٠٧٣٠١٠٠	٢٣	البئر الجديد
١٠٩٠٠١٠٠	١٨	الطويرة
١١١٦٠٨٠٠	٢٥٠٧٠٠	المدرج
١١٣٤٠٣٠٠	١٧٠٥٠٠	هدية
١١٥٦٠٦٠٠	٢٢٠٣٠٠	جداعة

١١٧٣،٩٠٠	١٧،٣٠٠	أبو النعم
١١٨٩،٨٠٠	١٥،٩٠٠	اصطبل عنتر
١٢٠٩،٦٠٠	١٩،٨٠٠	بويرة
١٢٢٩،٢٠٠	١٩،٦٠٠	بيار ناصيف
١٢٤٨	١٩،٣٠٠	بواط
١٢٦٩،٨،٧٠٠	٢٠،٧٠٠	الحفيرة
١٢٨٧	١٩	الحيط
١٣٠١،٩٠٠	١٤،٩٠٠	المدينة

تلك هي أسماء محطات سكة حديد الحجاز وقد افتتحت رسميا يوم ٣ شعبان سنة ١٣٢٦ و ٢٨ اغسطس سنة ١٩٠٨ وكانت قطاراتها تقطع المسافة في مدة أربعة أيام بين دمشق والمدينة ومجموع سيرها ٨٠ ساعة وقد تعطلت في أثناء الحرب العظمى ولم يتم اصلاحها حتى الآن

حدود الشام في القديم والحديث

لئن كانت بلاد الشام ممرا للغزاة الفاتحين في طريقهم من الشرق الى الجنوب او من الجنوب الى الشمال ، ولئن تداولتها دول شتى ونزلتها شعوب عديدة لمركزها الجغرافي وخصبها وجودة اقليمها ، فقد ظل الحجاز في نجوة عن ذلك فلم يمر به غزاة ولا اكتسحه فاتحون ولم يخضع لسلطان غير عربي ، ولم يك دار نجمة لشعوب غير عربية فصان لغته ، ودمه ، وعاداته ، وتقاليده ؛ والهجرة الوحيدة التي يرد ذكرها في تاريخ الحجاز لشعب غير عربي هي هجرة اليهود الى شماليه بعد خراب الهيكل ، وانتشارهم على طول الطريق تقريبا ، من معان ، حتى المدينة (يثرب) وقد اجلاهم المسلمون بعد ذلك ، فعاد الذين ظلوا احياء منهم الى فلسطين من دون ان يتركوا اثرا يدل على وجودهم ، او ينطق بوصولهم الى هنالك ، ولولا ماورد عنهم في القرآن ، وما ذكره المؤرخون الاسلاميون من اخبارهم لما عرفنا عنهم شيئا فكتب اليهود تتجاهلهم ولا تعرف شيئا عنهم

وما قلناه عن هجرة غير العرب الى الحجاز لا ينطبق على القبائل العربية فهي بطبيعتها دائبة التنقل تنتجع المرعى والكلاء ، وتبحث عن العشب والماء تنزل المكان الذي تستطيعه ، ولا يزال هذا شأن بعض القبائل حتى يوم الناس هذا ، فهي لا تبرح رحل في طلب الماء فحيثما وجدته نزلت بقربه ، واناخت في جانبه ، والماء قليل في معظم مناطق الجزيرة لطبيعة ارضها الرملية ، ويعانى سكانها مصاعب من قلته ، وطالما وقعت بينهم المعارك في سبيل امتلاكه

والتاريخ العربي طافح باخبار هجرة القبائل العربية في العصور القديمة

وتنقلاتها فكانت قبائل الشمال (العراق) ترحل الى الجنوب (اليمن) وقبائل اليمن ترحل الى الحجاز والشام وقد افادتها هذه التنقلات وصانت كيانها واستقر معظم هذه القبائل في الشام والعراق ومصر والمغرب بعد الاسلام وعدل عن حياة البداوة ولعلنا نأتى على اسماء هذه القبائل واوطانها الجديدة فقد عنى بها المؤرخون ودونوها

ونعيد هنا ما قلناه في فاتحة الكتاب الاول وهو انه لم تقم بالحجاز في جميع ادواره التاريخية دولة غير عربية ولم يخضع لسلطان غير عربي بعكس الاجزاء العربية الاخرى المجاورة له، كاليمن وقد خضع للاحباش والفرس، ومثله العراق وجنوبي الشام. نعم حاول الاحباش الاستيلاء على مكة في الفترة التي تقدمت النهضة العربية الكبرى، ولكنهم ما لبثوا ان عدلوا وعادوا الى قاعدتهم في صنعاء واستعان اليمانيون بالفرس على الاحباش وطردهم من بلادهم ولما ظهرت الدولة العربية الكبرى في الحجاز كان اليمن في مقدمة الاقطار التي خضعت لها لما هنالك من روابط عديدة تربط بين هذين القطرين

ولئن لم يدون التاريخ اسماء دول وحكومات عربية نشأت في جنوبي الحجاز اى في المنطقة الممتدة بين مكة وعسير في الجبال او بين ميناء الليث وميناء الجديدة على ساحل البحر الاحمر فهناك شعوب عربية ذكرها التاريخ وعنى بتدوين اخبارها نشأت في شمالي الحجاز وجنوبي الشام اى في المنطقة الممتدة من معان وتقع في الكيلومتر ٤٦٥ جنوبي دمشق حتى مداين صالح وتقع في الكيلومتر ٩٥٦ فقد سجلوا اخبار شعب عربي عاش في منطقة المداين (شعب ثمود) وكذلك سجلوا اخبار شعب عربي آخر عاش في بلاد مدين (العقبة ووادي موسى)

ونشأت في هذه المنطقة ايضا دولة البتراء «الانباط» وورثت الادوميين وظلت قائمة حتى جاء الروم فاجتثوا استقلالها ويقول بعض المؤرخين انه لما حاصر القائد الروماني دميتر يوس عاصمتهم (وادي موسى) اطل عليه احدهم وقال له «لماذا تقاتلوننا ونحن مقيمون في بادية اتحاربوننا لفرارنا من الرق»

ويصعب على الباحث في جغرافية هذه المنطقة ان يعثر على حد طبيعي يفصل

بين الشام والحجاز كما هو الحال بين الشام والاناضول او بين الشام والعراق وذلك لتشابه الاماكن وعدم وجود انهار او جبال او بحار او وديان . ولذلك كانت منطقة الحدود هنا تضيق وتوسع تبعا لسير الحوادث ، فاحيانا تبلغ معان فتتخذ حدا فاصلا واحيانا تبوك واحيانا جروف الدراويش . وقد كانت مدينة معان نفسها في اواخر العهد التركي مقسومة الى قسمين :

معان الشامية وتتألف من محطة سكة الحديد ، ومعان الحجازية وهي المدينة الاصلية وبينهما منطقة صغيرة ضيقة وكانت الاولى تتبع ولاية الشام والثانية ولاية الحجاز

ولما وضعت الحكومة الفيصلية في دمشق وقد نشأت في سنة ١٩١٨ اى في ختام الحرب العظمى يدها على معان وتولت ادارتها ، لم تجد معارضة من حكومة مكة الهاشمية وكانت حدود الحجاز تنتهى في شمالي تبوك . ووضعت الحكومة الهاشمية يدها على معان حينما استولى الفرنسيون على دمشق في سنة ١٩٢٠ وكانت حدود امارة شرقي الاردن وقد نشأت في سنة ١٩٢١ تمتد حتى محطة جروف الدراويش الواقعة في الكيلومتر ٤٠٠ على ان الملك الحسين تنازل في سنة ١٩٢٤ عن هذه المقاطعة لامارة شرقي الاردن فوضعت يدها عليها وتعد من ممتلكاتها اليوم وبذلك صارت حدود الشام تمتد حتى جنوبي معان

وكان تحديد الحدود بين الحجاز وشرقي الاردن في جملة ما دار عليه البحث بين مندوب الحكومة السعودية وقد حلت في الحجاز محل الدولة الهاشمية ومندوب الحكومة البريطانية في جدة سنة ١٩٢٧ حين تنظيم العلاقات السياسية بين هاتين الحكومتين فقد طلب الثاني من الاول ان تعترف الحكومة السعودية بان خط الحدود بين الحجاز وشرقي الاردن هو كما يأتى :

« من نقطة تقاطع دائرة الطول ٣٨ شرق بدائرة العرض ٢٩٠٣٥ شمال حيث تنتهى الحدود بين نجد وشرقي الاردن فتمتد على خط مستقيم الى نقطة على سكة حديد الحجاز بعدها ميلان الى الجنوب من محطة المدورة ثم تمتد من تلك النقطة على خط مستقيم الى نقطة خليج العقبة بعدها ميلان من الجنوب من مدينة

العقبة» و بذلك تدخل العقبة ومحطة المدورة في حدود شرقي الاردن وهذه المحطة تقع في الكيلومتر ٥٧٤ اي انها تبعد عن محطة معان وقد كانت الحد الفاصل في الزمن التركي بين ولاية الشام (سورية) وولاية الحجاز (خطا اعتباريا) ١١٤ كيلومترا انتزعت من الحجاز وادخلت في حدود شرقي الاردن الجنوبية . وقد رد جلالة الملك عبد العزيز السعود على كتاب المندوب البريطاني بكتاب رسمي مؤرخ في ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٤٥ و ١٩ مايو سنة ١٩٢٧ هذا نصه : « اخذنا علما بان حكومة صاحب الجلالة البريطانية مصرة على موقفها في ما يختص بمسألة تحديد الحدود بين الحجاز وشرقي الاردن ولكن نرى ان تسوية هذه المسألة بصورة نهائية امر متعذر في الظروف الحاضرة ومع ذلك ونظرا لرغبتنا الصادقة في المحافظة على العلاقات الودية المؤسسة على صلات الصداقة المتينة رأينا ان نعرب عن استعدادنا لابقاء الحالة الحاضرة على ما هي عليه في منطقة معان والعقبة مع الوعد بان لاتدخل في ادارتها الى ان تحين الظروف المناسبة لتسوية هذه المسألة تسوية نهائية »

فالوضع الحاضر للحدود بين شرقي الاردن والحجاز او بين الشام والحجاز هو كما يأتي : بتدئى حدود الحجاز في نقطة تبعد ميلين من جنوبي محطة المدورة وتمتد على خط مستقيم الى نقطة تبعد ميلين ايضا عن جنوبي مدينه العقبة و بذلك تدخل مع محطة المدورة في اراضي شرق الاردن اي في الشام

حدود الشام من الشمال

هذا وصف لحالة منطقة الحدود بين الشام والحجاز في العهدين القديم والجديد فهي تنتهي الآن جنوبي محطة المدورة اما حين ظهور الاسلام فكانت تمتد حتى جنوبي تبوك . وتبوك تبعد ٦٩٤ ك . م . عن دمشق وجاء في بعض الروايات ان تبوك نفسها كانت خاضعة للروم في ذلك العهد اما في العهد العثماني فكانت تتبع الحجاز تارة والشام تارة اخرى

ويحد بلاد الشام من الغرب البحر الابيض ومن الشرق صحراء الشام اما الحدود الشمالية فلا تزال موضع اخذ ورد بين الجغرافيين ويجعل جغرافيو العرب حدود الشام الشمالية عند سلسلة جبال طوروس باعتبارها الحد الطبيعي الفاصل بين بلاد العرب وبلاد الروم

لقد خضع شماليه الشام كما خضع جنوبيه لحكومة الروم فكانت حدودها في آسيا تمتد من القسطنطينية شمالا حتى تبوك جنوبا. وواصل العرب حملتهم حينما تدفقوا من الشمال فاكسحوا الحصون والمعقل حتى بلغوا جبال طوروس فوقفوا عندها ، ولم يتوغلوا في احشائها ، فاتخذت حدا فاصلا بين بلاد العرب وبلاد الروم او بين الدولة العربية الجديدة وبين القيصرية الرومية القديمة . وتتابعت بعد ذلك الحروب بين الفريقين حتى جاء العثمانيون في القرون الوسطى فاستولوا على العاصمة الرومية وقضوا على الامبراطورية البيزنطية ثم زحفوا جنوبا نحو الشام فاستولوا عليها وعلى مصر والحجاز فعادت الى هذه الاقطار وحدتها وانتظمت في سلك الامبراطورية العثمانية الاسلامية الجديدة وقد حلت محل ملوك الطوائف وكانوا نكبة شديدة على الاسلام

وجلا الترك العثمانيون عن حلب في ختام الحرب العظمى (١٢٥ اكتوبر سنة ١٩١٨) فاحتلها الجيش العربي بعد معركة دارت بينه وبينهم في جنوبيها وشمالها ولجأوا الى مدينة ادنه (اطنه) عاصمة مقاطعة كيليكية واعدوا معداتهم للدفاع والنضال في جبل الساعة (امانوس - Amanus) وعقدت الهدنة بعد ذلك بينهم وبين الحلفاء (الانكليز والفرنسيون والايطاليون والاميريكيون) فاطلقت بموجها يد الحلفاء في الاستيلاء على اى جزء ارادوه من اجزاء البلاد العثمانية وتعهد الترك فيها ايضا بالجلء عن بلاد العرب كلها وجلا عنها كلها ماعدا كيليكية وما كانوا يعترفون بانها عربية ، وجاء الفرنسيون بعد ذلك فوضعوا يدهم على هذا الاقليم واحتلوه احتلالا سلميا بدون مقاومة من جانب الترك ، وكان في ادنه يومئذ وال يمثل السلطان وحكومة تدير البلاد باسمه . ولم يك مثل ذلك في بقية اجزاء البلاد العربية الاخرى

الحسين بن علي بطالب كيليكية

ومما يجب ذكره في هذا المقام للتدليل على ان العرب يعتبرون جبال طوروس الحد الفاصل بين بلادهم وبلاد الروم ويعتبرون كيليكية جزءا من اقطارهم الكتاب الذى ارسله الحسين بن علي في ٢٨ رمضان سنة ١٣٣٣ الموافق ٤ يوليو سنة ١٩١٥ اى في ابتداء النهضة العربية الى السر هزرى مكماهون مندوب انكلترا السامى بمصر وقد جاء فيه عن الحدود ما نصه :

« تعترف انكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين - ادنه حتى الخليج الفارسى شمالا ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا . ومن المحيط الهندي الى الجزيرة جنوبا يستثنى من ذلك عدن وتبقى كما هي - ومن البحر الاحمر والبحر المتوسط حتى سينا غربا »

وفى يوم ١٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٣ و ٢٤ اكتوبر سنة ١٩١٥ رد السر هزرى مكماهون بكتاب مطول جاء فى مقدمته :

«وقد ادركت من كتابكم الاخير انكم تعلقون اهمية كبرى على قضية الحدود ، وانكم تعتبرونها من المسائل الحيوية ، فارسلت مضمون كتابكم الى الحكومة البريطانية وانه ليسرنى ان ارسل اليكم البيانات التالية التى اثق كل الثقة انها ستفوز برضائكم :

« ان مرسين واسكندرونة وبعض الاقسام السورية الواقعة فى غربى دمشق ، وحمص وحماة ، وحلب لا يمكن ان يقال عنها بانها عربية محضة ، فيجب ان تستثنى من الحدود التى ذكرتموها ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على اساس هذه التعديلات »

طلبات المؤتمر السوري العام

وجاء فى القرار الذى قرره المؤتمر السوري العام فى دمشق يوم ٢ يوليو سنة

١٩١٩ وسلمه الى لجنة الاستفتاء الاميركية وقد ارسلت في تلك الايام الى سورية للوقوف على رغائب سكانها في تقرير مصيرهم ما نصه :

« نطلب الاستقلال السياسى التام الناجز للبلاد السورية التى تحدها شمالا جبال طوروس وجنوبا رفح فالخط المار في جنوبي الجوف الى جنوبي العقبة الشامية والعقبة الحجازية وشرقا نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقي البوكمال الى شرقي الجوف وغربا البحر المتوسط بدون حماية ولا وصاية »
وجاء في تقرير اللجنة الاميركية ما نصه :

« نالت سورية المتحدة اكبر نسبة في ١٥٠٠ عريضة هي ٨٠٥٤ في المئة من مجموع العرائض . وسورية المتحدة هنا تدخل فيها كيليكية والصحراء وفلسطين »

فرنسا تنال كيليكية

ولما نشبت الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ واصطلتها تركيا في جانب المانيا عقدت فرنسا وانكلترا وروسيا اتفاقا في بطرسبرج يوم ٤ مارس سنة ١٩١٦ لاقسام البلاد العثمانية جاء فيه عن مصير كيليكية مانصه :

« تضم ولاية كيليكية الى النفوذ الفرنسى وتبدأ حدود هذا الخط من جهة الجنوب حتى الحدود الخاضعة للنفوذ الروسى في جزيرة ابن عمر ثم تتجه الى عيتاب وماردين ثم تنحدر شمالا من الاطاغ - قيصرى - آق طاغ - يلديز طاغ - زرعه - اكين - خربوط

« تظل هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع للنفوذ الفرنسى »

ولما وضعت الحرب اوزارها ، احتل الفرنسيون كيليكية سنة ١٩١٩ ، وانشأوا فيها ادارة عسكرية برئاسة الكولونيل بريمون جاءت بطوائف من مهاجرى

الارمن فانزلتهم في ربوعها لمقاومة الترك فوقعت بين الفريقين فتن دامت نحو سنتين وانتهت بارغام فرنسا على الاعتراف بملكية الترك لهذه المقاطعة واعادتها اليهم ، فعقدت معهم يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٩٢١ اتفقا في انقره حدد الحدود نهائيا بين سورية وتركيا ، وهي الحدود القائمة في الوقت الحاضر ، وهذا وصفها :

يبدأ خط الحدود من نقطة تختار على حدود اسكندرونة وتقع مباشرة في جنوبي باياس وتتجه بوضوح نحو ميدان اكبس - وتبقى محطة سكة الحديد والحلة تابعتين لسورية . ومن هناك يتجه خط الحدود الى الجنوب الشرقى بحيث يترك لسورية محطة مرسود ولتركية محطة قرنه وكذا مدينة كليس . ومن هناك يصل الى سكة الحديد عند محطة جوبان بك ثم يتبع خط سكة حديد بغداد التي تبقى ارضها داخلة في الاراضي التركية حتى نصيبين وجزيرة ابن عمر حيث يلتقي بدجلة وتبقى نصيبين وجزيرة ابن عمر في ارض تركيا وتكون للبلدين سورية وتركيا الحقوق في الارتفاع بهذا الطريق وتكون المواقف والمحطات بين جوبان بك ونصيبين ملكا لتركيا كانها جزء من ارض سكة الحديد

ويبقى قبر سليمان شاه جد السلطان عثمان مؤسس الاسرة العثمانية الواقع في جرابلس مع ملحقاته لتركيا التي يكون لها الحق في وضع حراس عليه ورفع الراية التركية فوقه

وجاء في اتفاق آخر ان الحد في الغرب يبدأ من مصب نهر باياس الصغير الذي يبعد عن محطاتها الى الشمال نحو ٥٠٠ متر ويمر في وسط سلسلة جبل اللكام (امانوس) من الغرب الى الشرق

الحدود الجنوبية الغربية والشرقية الشمالية

انتهينا الآن من وصف الحدود الشمالية والجنوبية والجنوبية الشرقية الحاضرة لسورية فهي تنتهي في الجنوب ، جنوبي محط المدورة كما تنتهي في الشمال في شمال حلب وعلى بعد ٤ كيلو متر وتبدأ بعد ذلك حدود الدولة التركية هنا كما تبدأ هناك

حدود الدولة السعودية ، وبقي علينا ان نصف الحدود الجنوبية - الغربية وهي الحدود المصرية - الفلسطينية والحدود الشرقية الشمالية فنقول :

١ - الحدود المصرية - الفلسطينية :

حددت هذه الحدود في الوقت الحاضر باتفاق عقد بين الحكومتين العثمانية والمصرية سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م وهذا وصفها :

يبدأ خط الحدود من رأس طابا على الساحل الغربي للخليج العقبة ممتدا الى قمة جبل فورث مارا على رءوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادي طابا ثم من قمة جبل فورث يتجه الى الخط الفاصل الى نقطة المفرق على قمة جبل فتحى باشا ، حيث ملتقى طريق غزة الى العقبة بطريق نخل الى العقبة

ومن هذه المنطقة الى التل الذى الى الشرق من مكان ماء يعرف بشميلة الروادى والمطل على الثميلة ، بحيث تبقى الثميلة غربى الخط . ومن هنالك الى قمة رأس الروادى ثم الى رأس جبل الصفرة ، ومنه رأس القمة الشرقية بجبل قم قف . ثم الى سويلة شمالي الثميلة . ومنها الى غربى الشمال الغربى من سماوة . ومنها الى قمة التل الواقع الى غربى الشمال الغربى من بدء المغارة فى الفرع الشمالى من وردى ماين . ومنها الى غربى جبل المقراة فالى رأس العين ثم الى نقطة على جبل ام حواويط الى منتصف المسافة بين عمودين قائمين فى الجنوب الغربى من بئر رفح . ومنها الى نقطة على التلال الرملية فى اتجاه ٢٨ درجة اى ٨٠ درجة الى الغرب وعلى مسافة ٤٢٠ مترا فى خط مستقيم من العمودين المذكورين ثم يمتد الخط مستقيما من هذه النقطة باتجاه ٤ ر ٣٣ درجة فى الشمال المغنطيسى اعنى ٢٦ درجة الى الغرب الى شاطئ البحر الابيض المتوسط مارا بتل خرائب على ساحل البحر الاحمر

٢ - الحدود العراقية السورية - وهي الحدود الشرقية الشمالية لسورية وقد

حددت اخيرا بين سورية والعراق وهذا وصفها :

تبدأ من ضفة دجلة اليمنى فى مصب سفبان دره فى نهر دجلة فى شمالى فيشخابور ويمتد الخط الشمالى على اتجاه مستقيم من نقطة واقعة على ضفة الفرات اليمنى بين القائم

والبوكمال الى موقع جزيرة ابن عمر، ويمتد الخط الجنوبي على اتجاه مستقيم من النقطة المذكورة الى قرية امتان في جنوبي جبل الدروز (سورية)

ويقسم الخط الاول قضاء سنجار الى قسمين ويترك بعض القرى اليزيدية لسورية ويحتاز طريق الموصل - نصيبين وطريق الموصل دير الزور، القسم الشمالي ويمر القسم الجنوبي بأراض صحراوية جرداء قاحلة لانبت فيها ولا ماء، ويحتاز طريق بغداد - وادي حوران - تدمر وطريق بغداد - رطبة - دمشق للسيارات ويمر خط الحدود بعيدا عن مخفر الرطبة نحو مائة ميل حينما يقطع جبل الطف ومما يستحق الذكر ان حدود سورية دخلت بين حدود العراق وتركيا على ضفاف نهر دجلة في شمالي فيشخابور

سورية الحاضرة

هذا وصف لحالة حدود سورية الحاضرة من جميع الجهات والاطراف ومنه يظهر انها تحدد من الجنوب الغربي بمصر ومن الجنوب الشرقي بالحجاز ومن الشرق والشمال الشرقي بالعراق ومن الشمال بالترك وتتألف من دول ست هذه اسمائها:

- ١ - امارة شرقي الاردن
- ٢ - حكومة فلسطين
- ٣ - جمهورية سورية
- ٤ - جمهورية لبنان
- ٥ - حكومة جبل الدروز
- ٦ - حكومة العلويين

وتخضع هذه الدول للحكومتين الفرنسية والانكليزية فامارة شرقي الاردن وحكومة فلسطين مشمولتان بالحماية البريطانية والدول الاربع الباقية مشمولات بالحماية الفرنسية وستكلم عن كل دولة منها على حدة ونصف حدودها اثناء البحث في تاريخها وعن احتلال العرب لها

سكان الشام ولغاتهم

كانت بلاد الشام تتألف في القديم كما تتألف في الحديث من مجموع قوميات وعناصر قطن كل منها منطقة خاصة تغلب عليها فأضيفت اليه وعرفت به ويمكن القول انه كان في سورية حين الغزو العربي اربع قوميات كبيرة :

١ - القومية العربية

٢ - « اليهودية

٣ - « اليونانية

٤ - « الارمنية

وكانت كل قومية من هذه القوميات تؤلف الاكثرية المطلقة في المنطقة التي تديرتها. فكان العرب يؤلفون الاكثرية المطلقة في المنطقة الجنوبية وبعض الشرقية اي في بلاد البتراء والشراة ومؤاب والبلقاء وحموران وتدمر وجنوبي فلسطين وصحراء سينا وكانت في دمشق جالية عربية كبيرة

وكان اليهود ينزلون في منطقة فلسطين الحاضرة والى جانبهم جالية يونانية وجالية عربية

وكان اليونان والروم (اللاتين) والارمن يؤلفون الاكثرية المطلقة في المنطقة الشمالية وكانت في الشمال ايضا (اي في منطقة حلب والبلاد الواقعة في شرقيها) جالية عربية ترناد الجزيرة وتضرب في الاراضي الواقعة بين دجلة والفرات

وكان عدد اليونانيين محدودا في المنطقة الجنوبية لعدم ملائمة الاقليم ولصعوبة

السكنى ولضعف موارد الثروة وكان عدد غير قليل منها ينزل في المنطقة الشرقية (منطقة دمشق) ومعنى ذلك ان اليونانيين كانوا يكثرون في فلسطين وفي سواحل سورية وفي المنطقة الشمالية منطقة (انطاكية وكيليكية)

وكان الى جانب هذه القوميات الكبرى قوميات صغيرة تنزل ايضا في هذه المناطق وتعيش على وئام مع سكانها فهناك الاشوريون وينزلون في منطقة دمشق ، والمرتدة «الموارنة» ينزلون في جبال لبنان والفرس وينزلون في بعض انحاء المنطقة الشرقية وغيرهم من ابناء الامم الاخرى التي مرت بسورية ثم ضعفت وتقهقرت

لغات اهل الشام

كانت اللغات المعروفة في الشام حين الفتح الاسلامى ستاهى هذه :

١ - اللاتينة : لغة الحاكمين

٢ - العربية : لغة سكان الجنوب والشرق

٣ - العبرية : لغة اليهود في الجنوب

٤ - اليونانية : لغة اليونانيين الذين حكموا الشام قبل الروم وكانت لهم

جالية كبيرة

٥ - الآرامية وكانت منتشرة قبل الفتح الرومى وجميع الكتابات الذين عثروا

عليها في تدمر وحووران وبلاد النبط مكتوبة بها

٦ - السريانية وهي لغة اشور وقد حكمت سورية قبل اليونانيين ،

وهي اللغة الدينية حتى الوقت الحاضر للموارنة في جبل لبنان . كما ان

في سورية قرى قليلة لا يزال سكانها يتكلمون السريانية . وكانت هنالك ايضا

الارمنية والفارسية وغيرها وعدد التكلمين بها قليل وغلبت العربية اللغات

الاخرى بعد الفتح الاسلامى وخصوصا بعد مادونت بها الدواوين في العهد

الاموى وصارت لغة الحكومة الرسمية كما صارت لغة اهل البلاد عامة ولا يزال هذا شأنها حتى اليوم

سطح الشام

يقدر بعض الباحثين من الفرنجة سكان الشام في العهد الرومى اى حين الغزو الاسلامى بعشرة ملايين من النفوس كانوا يقطنون في هذه المنطقة الواسعة من حدود الحجاز حتى طوروس ومن صحراء سيناء حتى الفرات ويقولون ان عددهم في العهد اليونانى بلغ عشرين مليوناً . ويقول آخرون ان سكان الشام في آخر العهد الرومى ما كانوا يزيدون عن سبعة ملايين

اللغة العربية في كيليكية

ولا بد لنا من القول هنا ان الحكومة التركية الكمالية تصلى العرب والعربية حرباً شعواء في كيليكية وتعامل العرب من ابناء هذا الاقليم بشرماتعامل به امة مستعمرة شعباً خاضعاً لها فقد منعتهم من التكلم باللغة العربية ومن درسها ومن اظهار عواطفهم القومية وتعمل بمختلف السبل والوسائل لادماجهم في الجامعة الطورانية ، فلا يطالب العرب بهذا الاقليم وهو معجون بدماء شهدائهم في قرون طويلة ، ولا يعملون على استرداده واعادته الى الوطن العربى وهو جزء منه

حالة الحدود الجنوبية حين الفتح الاسلامي

لم يعن الروم بحدودهم الجنوبية لا من ناحيتها الغربية حيث صحراء سيناء، وكانت تجاور مصر التي تعد جزءا من ممتلكاتهم ولا من ناحية الشرق الجنوبي وسكانها من قبائل العرب، عنايتهم بحدودهم الشرقية والشرقية الشمالية، حيث الفرس اعدائهم الالقاء وكانوا يجاذبونهم حبل السيادة والنفوذ، ويحاولون انتزاع الشام ومصر والناضول من ايديهم

على ان قولنا هذا لا ينفي ان الروم انشأوا مراكز عسكرية حصينة ومخافر كبيرة في هذه المناطق ولا سيما في بصرى، وجرش، وعمان، واللجاء، ومعان، والظاهر ان الغاية من انشاءها كانت دفع غارات القبائل العربية، فيما لو حاول بعضها الهجوم على احدى المناطق كما هو دأب بعضها حتى الآن

وكانت للروم حاميات عسكرية صغيرة منتشرة في حوران والبلقاء ومؤاب والشراة والبتراء اى في مناطق الحدود العربية. وكان مركز بصرى وعمان يعدان من المراكز الحصينة، ولهم في كل منهما قوة يقودها قائد كبير (بطريق). وما كان الروم يعتمدون على الغسانيين - وكانت بصرى قاعدتهم - في الدفاع عن المناطق العربية، بل يتولون هذا الأمر بالذات بواسطة قواد عسكريين من ابناء جلدتهم

ولقد افردنا فصلا خاصا درسنا فيه حالة الحدود الشرقية والحصون التي أقامها الروم ومعدات الدفاع التي اعدوها ووصفنا الخطوط التي انشأوها والطرق التي عبدها، وما اتخذوه من تدابير عسكرية لمقاومة الهجوم العربي، فلم يعد ذلك كله بعائدة عليهم

ولم يحل دون استيلاء العرب على هذا الاقليم العظيم ، فانزعوه منهم في زمن غير قليل واخرجوهم منه وقد كان في استطاعتهم بلوغ القسطنطينية وافتتاحها بعد ما بلغوا جبال طوروس و بعد ما استولوا من الناحية الاخرى أى من جهة الشرق على العراق وايران ومن جهة الجنوب على مصر و بلاد المغرب ولم يستطع الروم الوقوف امامهم في معركة من المعارك العظيمة التي دارت في شتى الميادين لولا معارضة عمر بن الخطاب ومنعه اياهم من التوغل في بلاد العدو خوفا عليهم

الرسول في الشام

المجمع عليه بين رواة السيرة النبوية ان الرسول صلى الله عليه وسلم زار الشام مرتين في شبابه وقبل بعثه :

فقد زارها في المرة الاولى وعمره ١٢ سنة جاء في قافلة قريش السنوية الكبرى مع عمه ابي طالب فبلغا بصرى (عاصمة حوران) ونزلا فيها اياما اى ريثما انجزت القافلة عملها فعادا معها كما جاء

وزارها في المرة الثانية وهو في الثلاثين اى بعد انقضاء ١٨ سنة على الزيارة الاولى وكان في رحلته هذه يتولى تجارة زوجته السيدة خديجة ؛ ففضى اياما في ربوعها اى ريثما انجز عمله التجارى ثم عاد مع القافلة الى مكة حينما عادت ، ويقول ابن عباس ان ابا بكر رافقه في هذه الرحلة

وكان معه ايضا ميسرة غلام السيدة خديجة اى وكيل اعمالها .

ولم يذكر احد من المؤرخين انه زار دمشق او غيرها من الاقطار الشامية مما يدل على انه اقتصر على الوصول الى بصرى ، وكانت قوافل العرب تقصدها فتبيع ما تحمله في سوقها ، وتبتاع ما تحتاج اليه منها ، ثم تعود الى بلدانها واطانها وهناك كثير من الصحابة زاروا الشام في الجاهلية للتجارة او لاغراض اخرى وجالوا في مدنها واسواقها وقد رأينا كيف ان صاحب شرطة قيصر جاء بابى سفيان ومن معه من رجال قريش وكانوا حينما وافاه كتاب رسول الله في مدينة غزة . وبالاجمال فقد كانت هنالك علاقات تجارية واقتصادية وثيقة بين الشام والحجاز . وكان الحجازيون يعتمدون في تجارتهم على بلاد الشام اكثر من بقية الاقطار الاخرى لانها اقرب اليهم ولان الوصول اليها ايسر

اعمال المسلمين العسكرية الاولى

شغل المسلمون في السنين الاربع الاول لنشوء دولتهم الجديدة بقبائل الحجاز ، فلم يلتفتوا لسواها ، ولم يعنوا بغيرها . والمرة الأولى التي بلغت فيها اول قوة عسكرية للمسلمين حدود الشام كانت في اوائل السنة الخامسة للهجرة وعلى رأس الشهر التاسع والاربعين ، فقد غادر النبي المدينة يقود الفا من الصحابة الى دومة الجندل (الجوف) ويسميه بعض جغرافي العرب ، جوف ابن عمرو - يرشدهم دليل من بني عذرة

١ - غزوة دومة الجندل

والجوف (دومة الجندل) في شرقي المدينة الشمالي ويبعد عنها بطريق تيماء نحو ٦٠٠ كيلو مترا و بطريق حائل الشرقي نحو ٩٠٠ كيلو مترا . ويقدر جغرافيو العرب المسافة بينهما بخمسة عشر يوما ويقدرون المسافة بينها وبين الشام بخمسة ايام .

ويتألف الجوف في الوقت الحاضر من مزارع صغيرة متقاربة ، اعظمها شأنها مزرعة سكاكه ، ويتبع الحكومة النجدية في الرياض ، أى انه يعد من نجد لا من الشام ولا من الحجاز

ومما يستحق الذكر ان انقاص قصر مراد الذي بناه اكيدر ملك الجوف ، وهو

الذي غزاه خالد بن الوليد ، معروفة هنالك ، يزورها الزائر ون

وكان سكان الجوف ، حينما غزاهم المسلمون من العرب النصارى ينتسبون الى

بنى كلب وكانت تقطن في تلك الديرة

وكانوا يخضعون لحكومة الروم ويدفعون لها الضرائب ويعترفون بسيادتها

وما كانت تتدخل في شؤونهم الداخلية الخاصة ولا تقيم حامية عسكرية بينهم . وكان

لهم امير منهم يلقب بالملك كما رأيت

ويقول رواة السيرة في اسباب هذه الغزوة ، ان اخبارا وصلت الى المدينة بأن اهل دومة الجندل (الجوف) يعتدون على من يمر بهم من تجار الميرة في غدوهم الى المدينة ورواحهم منها ، وانهم يتجهزون لحرب المسلمين والغارة عليهم في عاصمتهم فصار اليهم قبل ان يسيروا اليه وتلك عادته في حروبه كلها ، فقد كان يفضل أن يكون مهاجما لمدافعا ، حينما يتبين انه لامناص من الحرب

واستعان المسلمون في غزوهم هذا بالكتمان ، وقد اشتهر النبي بشدة التكم في اعماله العسكرية ، فما عرف عنه انه اذاع اسم المكان الذي يقصده الا في النادر او لمصلحة حتى يغادر المدينة ويتعد عنها . وكان المسلمون في مسيرهم الى الجوف يسرون في الليل ويستريحون بالنهار ، ويلوح لنا انهم فعلوا ذلك اتقاء شدة الحر ، فقد كان الموسم صيفا (كانت الغزوة في شهر يوليو سنة ٦٢٦) كما يرى بعض المؤرخين وتشتد الحرارة اشتدادا مخيفا في هذا الفصل في بادية الشام

واغار المسلمون على سرح اهل الجوف وهاجموا مزارعهم واطمهم ، وكان لهم اطم كاظم المدينة المعروفة ، وعادوا بالسرح سالمين الى بلادهم ، ولم يشتبكوا مع اهل الجوف في حرب ، ولعل هؤلاء خرجوا للقائهم فلم يدركوهم

٢ - الحملة الثانية على دومة الجندل

لم تكن النتائج التي ادركها المسلمون من غزوتهم الاولى لهذه الربوع ذات شأن من الوجهة الادبية ، ولذلك ، رأيناهم يتأهبون لغزوة اخرى ، فقد اصدر النبي أمره بعد انتهاء غزوة الخندق وبعد ما ارتاح باله من جهة قريش باعداد حملة جديدة تسير الى الجوف ، وكان ذلك في شهر شعبان سنة ست (نوفمبر سنة ٦٢٧) وقاد الحملة عبد الرحمن بن عوف واوصاه النبي حينما دفع اليه اللواء بالصيغة الآتية :

« اغزوا جميعا في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ،

ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم »

وقال له ايضا « ادعهم الى الاسلام فان استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم »

وكان عدد رجال الحملة ٧٠٠ مقاتل

وقضى عبد الرحمن بن عوف ثلاثة ايام في دومة الجندل يدعو اهلها الى الاسلام فلما استجابوا له ، واسلم ملكهم وهو الاضبع بن عمرو الكلبي من بني كلب ، وكانوا ينزلون في تلك المنطقة وتمتد ديرتهم من تيماء حتى الجوف واصلهم من قحطان ، واسلم معه كثيرون من قومه فتزوج عبد الرحمن بنته تماضر ، عملا بوصية النبي ، وعاد بها الى المدينة ، فنشأت بذلك صلة نسب بينهم وبين المساميين ، ودخلت بلادهم في حكم الاسلام ، وكانت النتائج الأدبية والمادية التي ادركتها من هذه السرية مما لا يستهان به

٣ — الحملة الثالثة على مؤتة

وتدرج المسامون في اعمالهم العسكرية في هذه المنطقة ، منطقة الحدود بين الشام والحجاز ، عاملين على نشر دينهم ونفوذهم السياسي والعسكري ، لا يدخرون في ذلك وسعا ، ولا تفوتهم فرصة

وكانت الحملة التي سيروها الى مؤتة في شهر جمادى الاول للسنة الثامنة (شهر سبتمبر سنة ٦٢٩) الحملة الثالثة التي طرقت ديار الروم ، ولئن وقفت الحملتان الاوليان في منطقة الحدود ولم تتوغلا في الاراضي العمورة ، فقد بزتهما هذه الحملة وواصلت تقدمها حتى بلغت قرية مؤتة والمعروف انها كانت تقصدها بالذات

وصف مؤتة

ومؤتة اسم لقرية لا تزال قائمة في جنوبي امارة شرق الاردن الغربي ، وتقع شرق البحر الميت ، وجنوبي الكرك وتبعد عنها ١١ كيلومترا ، وعلى مقربة من قرية مؤتة الجاضرة والى شرقيها المزار ويبعد عنها نحو كيلومتر واحد ، وفي المزار قبور

الشهداء الثلاثة الذين سقطوا في معركة مؤتة وهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة - وقبورهم معروفة وتزار حتى الآن ، ولم يبق من المشهد المؤسس لهذه الاضرحة سوى قوس كبير تحيط به جدران مهدمة فيها محراب من الجنوب وعلى بعض حجارة الجدران المتساقطة كتابة عربية ، تقرأ بعض حروفها بصعوبة ، ويظهر انها البسملة وبعض آي الكتاب الكريم ، والمظنون ان هذا البناء اقيم في مكان المعركة. تذكرها ويقال انه انشئ في عهد الملك الظاهر بيبرس او في عهد صلاح الدين بن ايوب اى في عهد الحروب الصليبية وقد جاس الصليبيون تلك الجهات .

وفي جوار قرية مؤتة الحالية ، والى جنوبيها وشرقيها آثار رومانية ، غير منقوشة او مكتوبة ويظن انها في مكان القرية القديمة

وعدد سكان قرية مؤتة اليوم ٤٦٣ نسمة وفيها ١٠٠ بيت و ٢٥ دكانا ومدرسة واحدة وجامع واحد ومطحنة ويصعب نقل شيء من الكتابة المنقوشة على الأثر الاسلامى الباقى فيها

ومما يستحق الذكر من اخبار مؤتة هذه ما يرويه بعض مسيحي الكرك وهو ان فى مادبا على مقربة من الجيزة عائلة مسيحية اسمها « العزيزات » كان اجدادها سلعوا مناتيج مؤتة للجيش الاسلامى حين قدومه الى هذه البلاد وان الفاتحين المسلمين منحوهم امتيازات احترمها الدول الاسلامية فى جميع العصور وان الوثائق التى يملكونها محفوظة فى بطريكية الروم الارثوذكس فى القدس ، ولم يروا ان احدا رأى هذه الوثائق وقد ادركنها العزيزات لا يتميزون بشيء عن غيرهم كما انهم اليوم فى عهد شرقى الاردن لا يميزون بشيء أيضا

اسباب هجرة مؤتة

ويقول رواة السيرة ان السبب فى بعث مؤتة العسكرى ، هو قتل شرحبيل ابن عمرو الغسانى عامل بنى غسان فى مؤتة رسولا للمسلمين اسمه الحارث بن عمير الاسدى ، اوفده النبي بكتاب الى الحارث بن أبى شمر الغسانى صاحب بصرى ، خلافا

للاصول والقواعد المتبعة في احترام الرسل ، وكان الحارث بن عمير (أى رسول النبي) يحمل كتابا خاصا ، فلما نزل مؤتة اوثقه شرحبيل وضرب عنقه ، ولم يقتل من رسل النبي غيره ، ولم يشر المؤرخون الى ما انطوى عليه هذا الكتاب ولم يذكروا شيئا مما تضمنه خلافا لعادتهم ، يضاف الى هذا ان ابن اسحاق لم يورد سببا لبعث هذه الحملة وليس من عادته ان يغفل ذكر الاسباب وكذلك فعل ابن هشام

قوة الحمزة

وكانت الحملة تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل ، ولى النبي زيد بن حارثة (مولاه) قيادها ، وقال ان اصيب زيد جعفر بن ابى طالب فان اصيب فعبد الله بن رواحة فان اصيب فليترض الناس رجلا من بينهم يولونه عليهم اى انه كان يعرف صعوبة العمل الذى يقدم عليه وخطورته

وكان في هذه الحملة عدد من اقطاب الصحابة وكبارهم وامر النبي زيدا حين سفره بان يقصد المكان الذى قتل فيه الحارث بن عمير (اى مؤتة) ليدعوا من هناك الى الاسلام فان اجابوه فهو المقصود وان ابوا فليستعن بالله وليقاتلهم وقال له :

« أوصيك بتقوى الله وبن معك من المسلمين خيرا . اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله

« ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ، ولا كبيرا ولا فانيا ولا منزلا بصومعة ، ولا تقربوا نخلا ، ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء »

الطريق التى سلكتها الحملة

غادرت الحملة المدينة سالكة طريق القوافل (الطريق السلطاني) بين الشام والحجاز ، فاجتازت تبوك واصلت تقدمها حتى معان فنزلت فيها وتبعد عن المدينة ٨٤٣ كيلو مترا من جهة الشمال ، وهى اول بلاد الشراة

الغسانيون يستعرون

وعلم قائد الحملة وهو في معان ، أن شرحبيل بن عمرو الغساني ، عامل مؤتة ، وهو الذي قتل الرسول واولد هذه الحرب ، جمع القوى للقائهم ويقدر بعض المؤرخين القوى التي اجتمعت في مؤتة لقتال المسلمين بمئتي الف من العرب والروم ، ويزي في هذا الرقم كثيرا من المبالغة ، لان جمع مثل هذا الجيش اللجب لا يتيسر في اسبوع او اسبوعين بل لا بد له من اشهر ، يضاف الى هذا انه ما كانت هناك ضرورة تقضى بحشد مثل هذه القوة الكبرى ، ويلوح لنا ان الجيش الذي احتشد بمؤتة ما كان يزيد عن بضعة آلاف ، يؤيد هذا قلة قتلى المسلمين في تلك المعركة فما زادوا عن ١٢٠ قتيلًا ، ولو كان هنالك مئتا الف يقاتلونهم لما سلم منهم الا القليل

وحار المسلمون في ما يفعلونه وكانوا بين رأيين : رأى يقول بالتوكل على الله والمضى في القتال ؛ ورأى يقول بالترث ومكاتبة المدينة وابلاغها خبر العدو وما أعدده من قوى ومعدات وانتظار تعليماتها والسير بمقتضى هذه التعليمات عند وصولها

وتشاوروا وأطالوا واخيرا اتفقت كلمتهم على مواصلة التقدم والزحف من دون استشارة المدينة أو طلب نجدات منها ، فساروا من معان الى مؤتة ولا تقل المسافة بينهما عن ٨٠ كيلو مترا ، فالتقوا بالعدو في قرية مشارف (ولم نعر على اثر لهذه القرية في الوقت الحاضر . وربما كانوا يعتبرون تلك الجهات منتهى الحدود بين الحجاز والشام ويسمون المرتفات البسيطة هناك بمشارف وربما ابدل اسمها بالزار بعد ان دفن فيها من دفن من الصحابة اذا كان لا بد من وجود قرية هناك بهذا الاسم والا فلا يعقل ان يطلق اسم المزار على هذه القرية قبل ان تشاد فيها أضرحة القواد) والعرب يطلقون اسم المزار على القرى التي فيها أضرحة مقدسة مثال ذلك ان في جبل عجلون قرية يطلق عليها اسم المزار وتعرف احيانا بمزار ابي عبيدة عامر بن الجراح بطل الفتوح الاكبر في الشام . وليس من شك ان هذا الاسم اطلق على هذه القرية ايضا بعد ان دفن ابو عبيدة في العور على بعد غير قليل عنها وبعد ان شيدت

زاوية باسمه هناك وأقام متولو أوقافه فيها

وأنحاز المسلمون الى مؤتة ورتبوا صفوفهم للقتال فكان على جناحهم اليمين قطبة ابن قتادة من بني عذرة وعلى جناحهم اليسر عبادة بن مالك من الانصار وبرز الجمعان ودارت رحى الحزب فقاتل زيد بن حارثة القائد العام للحملة حتى قتل فحمل جعفر ابن ابى طالب فقتل ايضا ويقال انه لما قطعت يمينه وكان يحمل بها اللواء اخذه بشماله فقطعت شماله فاحتضنه حتى شطر شطرين فحمله عبد الله بن رواحة (شاعر الانصار) وحمل الراية وتقدم بها الى الامام فقاتل حتى قتل فأخذ الراية ثابت بن اقرم ودعا اخوانه الى انتخاب قائد فانتدبه بعضهم فأبى فاتفقوا على تولية القيادة خالد بن الوليد وكان فى الجيش - فأخذ الراية وأبدى مهارة زائدة اذ عبأ جيشه تعبئة جديدة فظن العدو انه تلقى نجات فافسح له الطريق فكان يقاتل وينسحب تدريجيا مع محافظته على النظام ولم يلحق الروم به ولم يطاردوه لانهم ظنوا انه يستدرجهم وتوهموا ان هنالك قوات اخرى ترابط وراءه ولم يقف المسلمون بعد ذلك بل واصلوا انسحابهم الى المدينة

على هذا المنوال انتهت اول معركة اشتبك فيها العرب بالجيش الرومى ولئن لم تكال بالفوز الذى كانوا يشدونه ويطمعون فيه فقد شجعهم على مواصلة النضال فى هذا الميدان فعادوا بعد ذلك بقوى اكبر ، ففازوا ونالوا ما أدركوه واملوه ، والواقع ان حملة مؤتة هذه وحملة تبوك وقد جاءت بعدها ، تعد فى نظر الاكثرين من قبيل اعمال الاستطلاع التى يعمد اليها القواد فى الحروب لسبر قوى اعدائهم وعجم عودهم قبل المعارك الكبرى ، فيكتشفوا موضع الضعف منهم فيحملوا عليه

هركليوس والمركة

ويقول بعض المؤرخين المسلمين ان هركليوس كان فى مؤاب (مقاطعة الكرك الحاضرة) حين وصول زيد الى مؤتة وانه هو الذى حشد الجيوش وامر بتعبئتها وبالغ

ابن هشام فيجعل عدد الجيش الذي حشده هركليوس في مؤتة مائتي الف كما قدمنا عدا متطوعة العرب وقد بحثنا في تاريخ الامبراطورية الرومية فلم نجد ما يصح ان يحتج به على تأييد هذه الرواية ، نعم ان مؤرخي الامبراطورية يقولون ان هركليوس غادر القسطنطينية في ربيع سنة ٦٢٩ وهي السنة التي غزا المسلمون في خريفها مؤتة ، فجاء انطاكية ومنها قصد بيت المقدس فأقام فيها مدة ثم عاد ادراجه من دون ان يقصد مؤاب أو غيرها من الاماكن المجاورة للقدس . والواقع انه زار سورية مرتين في عهد امبراطوريته الاولى حينما جاء لغزو الفرس فقصى فيها ست سنوات (سنة ٦٢٢ - ٦٢٨) ثم عاد الى عاصمته بعد ان حاز ماهاز من نصر على الفرس ، فلم يطل فيها المقام بل عاد ثانية الى الشام فقصد حمص ومنها بيت المقدس ، وكان ذلك في سنة ٦٢٩ أى في نفس الوقت الذي كان المسلمون يتجهزون فيه لغزو مؤتة . واذا سحت هذه الرواية ، فيكون كتاب النبي بالدعوة للدخول في الاسلام جاءه قبل مهاجمة العرب لمؤتة بقليل

والامر الذي لامرية فيه هو ان هركليوس لم يعر الحركة الجديدة على حدود بلاده الجنوبية شيئا من الاهمية أو العناية ، بل ترك كل شيء على حاله وعاد الى اورفا فأقام فيها

٤ - سرية ذات السلاسل

وفي شهر جمادى الآخرة ، أى على أثر عودة حملة مؤتة - وقد أثر فشلها في نفوس المسلمين وكانوا يعيرون رجالها ويسمونهم الفرارين ويقولون لهم ان الفرار ليس من شأن المسلمين فيجيبهم النبي انهم الكرارون لا الفرارون ويدافع عنهم ويثني عليهم - امر النبي باعداد حملة جديدة على قضاة

ويقول المؤرخون في اسباب هذه الغزوة ان اخبارا سرية وردت الى المدينة بان اناسا من قضاة يتجمعون للاغارة على المدينة ومهاجمتها ، فأمر باعداد حملة صغيرة قالوا ان عدد رجالها بلغ ٣٠٠ قادها عمرو بن العاص ، فسار بها الى ديرة بلي (وتزل

وراء وادى القرى فى منطقة العلا بين ينبع والوجه وتبعد عن المدينة نحو ٣٠٠ كيلو متر
من جهة الشمال الغربى)

وكان عمرو ويسرى فى الليل ويكمن فى النهار حتى قرب من منازلهم فأرسل
يتجسس اخبارهم فعرف انهم جمعوا جموعا كثيرة فكتب رسالة الى المدينة حملها رافع
ابن مكث الجهنى ، فأرسل النبي نجدة عددها ٢٠٠ مقاتل بقيادة ابى عبيدة
وتقدم المسلمون حينما تكاملت قواهم لمهاجمة العدو فدارت معركة بسيطة بينهم
وبينه تفرق على اثرها فكان ذلك اول انتصار ناله المسلمون فى هذه المنطقة ولم
يريقوا دما

٥ - غزوة تبوك

كانت غزوة تبوك خاتمة الاعمال العسكرية « التمهيدية » التى عملها المسلمون
على حدود الشام وانتهت بفتح هذا القطر بعد ذلك والقضاء على الحكم القيصرى
الرومى فى ربوعه

نعم ان حملة اسامة بن زيد اعدت بعد ذلك للسفر الى مشارف الشام ومهاجمة
مؤتة طلبا لثأر الذين قتلوا فى المعركة الاولى فقصدتها وقد نشرنا ما دار من المناقشة بشأن
سفرها (انظر ص ٢٠٢ ك ١) الا ان جميع الدلائل تدل على انها لم تذن من حدود
الشام بل اكتفت بان غزت بلاد قضاة وهى الى الشمال الغربى من المدينة على ساحل
البحر الاحمر قرب ديرة قبائل بلى . يؤيد هذا الرأى ما أجمع المؤرخون على تدوينه
وهو ان الحملة عادت الى المدينة بعد غياب اربعين يوما فقط ، ومثل هذه المدة لاتكفى
لبلوغ مؤتة وتبعد عن المدينة نحو ٧٥٠ كيلو مترا يضاف اليها مثلها للاياب فتبلغ المسافة
١٥٠٠ كيلو متر لايقطعها المشاة عادة فى أقل من ٥٢ يوما . وعلاوة على ذلك فلم يذكر
المؤرخون انها عملت عملا عسكريا على حدود الشام أو احدثت حدثا ، أو حملت الروم

على اتخاذ تدابير جديدة كما وقع في حملة مؤتة الاولى في حين ان وصولها كان يقتضى اتخاذ تدابير خاصة ، فقد تنبه الروم في اواخر هذا العهد الى الحركات الجديدة وراء حدودهم الجنوبية

ولا بد لنا من القول ان النبي اصدر الى اسامة بن زيد حينما ولاد قيادة الحملة الجديدة لغزو الشام التعليمات الآتية . قال :

« سر الى موضع مقتل ابيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر صباحا على اهل ابني وحرقت عليهم ، واسرع السير تسبق الاخبار ، فان ظفرك الله ، فأقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الادلاء ، وقدم الطلائع امامك »

وقيل ايضا انه نذبه الى البلقاء واذرح ومؤتة نائرا لأبيه . وفي رواية انه امره ان يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم وان يبلغ بينى واسدود من اراضى فلسطين ، وقيل امره ان يوطئ من آبل الزيت بالاردن » ومع ان مكان آبل الزيت غير معروف لنا تماما وان كنا نرجح انها في منطقة مأدما بالבלقاء الا ان ابني معروفة اليوم وهي في فلسطين (احدى محطات سكة حديد حيفا - مصر) وهي واقعة في الكيلو متر ١٢٥ من حيفا وبقرها محطة اسدود وهي في الكيلو متر ١٤١ من حيفا

وليس بمستبعد ان يؤمر بأن يوطئ الخيل باللقاء فهي اسهل عليه من ان يتعدى منطقة شرقى الاردن الى فلسطين . وعلى كل حال فاننا نستبعد ان يكون هذا الجيش بلغ حدود البلقاء ونرجح انه لم يتجاوز تخوم بنى قضاة ، بل عاد مسرعا الى المدينة لتدارك الحال التى نشأت عن حوادث الردة «حركة الارتجاع» في جزيرة العرب

كيف اهدت غزوة تبوك

نعود بعد هذا الاستطراد وقد اردنا ان نقيم به الدليل على ان غزوة تبوك كانت خاتمة الاعمال العسكرية التمهيدية التى عملها المسلمون على حدود الشام كما كانت خاتمة الاعمال العسكرية التى عملت فى حياة النبي - نعود بعد هذا الاستطراد لنقول ان النبي

امر بالتعبئة العامة في شهر رجب سنة تسع (شهر سبتمبر سنة ٦٣٠) للزحف الى تبوك وتبعد عن شمالي المدينة ٦٠٩ كيلو مترات لما بلغه من احتشاد قبائل الشام ووصول مقدمتها الى البلقاء (اراضى امارة شرقي الاردن اليوم) وتأهبها للزحف على المدينة . ويقول المؤرخون ان الاخبار التي وصلت الى المدينة يومئذ زعمت ان الروم جمعوا قبائل لحم وجذام وغسان وغيرها مع جند الروم لقتال المسلمين

وعملا بالقاعدة التي سار عليها النبي في اعماله العسكرية قرر الخروج الى لقاءهم قبل أن يصلوا الى المدينة ، ومع ان الوقت كان في اواخر الصيف والناس منهمكون في جمع محصولاتهم الزراعية وتناج كرومهم ، ومع ان اعداد هذه الحملة يحتاج الى كثير من النفقات فقد تم تجهيزها بسرعة وتسمى غزوة العسرة اقتباسا مما ورد في القرآن بشأنها قال تعالى ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ وقد اشتركت فيها معظم القبائل الحجازية النازلة حول المدينة وبينها وبين مكة ، اى انها لم تكن قاصرة على المهاجرين والانصار من سكان العاصمة ، كما كان يحدث في الحملات الاولى ، ولذلك سمينا التعبئة التي عملت لاجلها بالتعبئة العامة اشارة الى اشتراك المسلمين فيها كما اشترك اغنياء الصحابة في دفع نفقاتها

ويقدر بعض المؤرخين الجيش الذي اجتمع في ثنية الوداع بالمدينة وزحف الى تبوك باربعين الف مقاتل ونشك في صحة هذا التقدير

واذا قيل لنا ان مكة والمدينة وقبائلها اشتركت فيها نجيب ان اعداد جيش فيه ٣٠ الفا من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان واجتياز تلك الصحراء المحرقة بهم في اشهر القيط حيث يحتاجون الى كثير من العلوقات والماء للجنود والحيل ليس بالامر السهل فضلا عن ان المسلمين ما كانوا حتى ذلك الوقت يملكون من المعدات الحربية ما يكفي لتسليح مثل هذا الجيش العظيم . ونرجح ان عدده كان يتفاوت بين ٨ - ١٢ الفا ولا نشك في انه كان اعظم جيش عبأه المسلمون في حياة النبي ، ويصح ان يتخذ عنوانا للتقدم الذي تقدمه الجيش الاسلامي في زمن وجيز ؛ فبعد ان كان عبارة عن

قوات بسيطة في السنة الثانية للهجرة يقدر بالعثرات ، ولا يكاد يملك شيئا يذكر من المعدات والوسائل المادية ، صار في السنة التاسعة أى بعد سبع سنوات فقط جيشا منظما ، قويا ، مدربا يقدر عدد رجاله بالآلاف وهو مجهز بمختلف لوسائل المادية من خيل وابل وسلاح . و بعد ان كان المسلمون يتجنبون لقاء القبائل فقد تحصنوا بأسوار المدينة يوم احد ويوم الخندق ، اصبحوا يخرجون للقاء جيش القياصرة ، وكان اعظم جيوش العالم يومئذ ، وليس هذا بالامر الهين وهو يدل على ارتفاع مستوى القوة الادبية في نفوسهم

وهناك حدث آخر يصح الاستدلال به على ما كان المسلمون يشعرون به من القوة والبأس ، فقد اعلن النبي حينما نادى بالتعبئة العامة انه يسير لقتال الروم ، وذلك خلافا لعادته ، وقد كان التكلم من دأبه ، فكأنه اراد ان يعرف الناس انه انما يخرج للقاء جيش قيصر ومنازلته ، لا يريد ان يباغته ولا ان يببته بل ان ينازله وجها الى وجه ، وصفا امام صف ، وما حدثت عربيا نفسه قبل الاسلام ان يحشد للروم ويسير لقتالهم ، وكانت الشمس لاتكاد تغرب عن املاكهم كما يقولون في الاصطلاح الجديد ؛ وكيفما كان الحال ، وسواء بلغ عدد هذا الجيش ٣٠ الفا او نقص او زاد ، فالكمية لاتقدم ولا تؤخر في نظرنا وأما المهم هو العمل نفسه وما تجلى في اعداد هذه الحملة من جرأة وقوة ارادة ، سهلت للمسلمين طريق المرحلة العسكرية الثانية (دور الفتح) وجرتهم على القياصرة ، ودفعتهم الى اقتحام حدودهم ، ودك حصونهم وبياصيهم وضمنت لهم التغلب عليهم واستصفاء ملكهم واستخلافهم في ديارهم

فخلة تبوك اذن من أيمن الحملات العسكرية التي جهزها المسلمون ومن ابركها نتائج ، والغاية التي اريدت منها كانت من افضل الغايات وانبلها ، وقد مكنت للمسلمين في منطقة الحدود (حدود الشام والحجاز) وضمنت لهم خضوعها ولذلك لم يلقوا كبير عناء ، حينما جاءوها بعد ذلك ، فقد وجدوا الطريق ممهدا ، وابواب

الامبراطورية مفتحة فولوجوها ، وتغلغلوا في احشائها وما زالوا يبنائها ينتزعون
احجاره الواحدة بعد الاخرى حتى تقوض وانهار

نعيبة المسلمين العسكرية

نظم النبي جيشه حينما ازمع السير الى تبوك فدفع لواء الاعظم الى ابي بكر
الصديق ورايته العظمى للزبير ، وسلم راية الاوس لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج
للنذر بن حباب

اعمال المسلمين في تبوك

ضرب المسلمون مخيمهم في تبوك ، ولم يروا اثرا للعدو ، فأرسل النبي الرسل
يرودون البلاد ويكشفون الطرق - فعادوا ولم يجدوا شيئا
وارسل خالد على رأس قوة قالوا انها تألفت من ٤٢٠ مقاتلا ، فبلغ دومة
الجنديل (الجوف) واسر صاحبها اكيذر بن عبدالمك وجاء به الى تبوك ، فصالحه النبي
وكتب له الكتاب الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله لاكيذر دومة حين اجاب الى الاسلام وخلع الأنداد
والاصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجنديل واكنافها ان لنا الضاحية من
الضحل والبور والمعالي واغفال الارض والحلقة والسلاح والحافر والحصن ، ولكم
الضامنة من النخل والمعين من المعمور ، لا تعدل سارحتكم ، ولا تعدفاردتكم ، ولا
يحظر النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك عهد الله
والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء . شهد الله ومن حضر من المسلمين »

ويقول بعض الرواة ان النبي صالحه على الجزية لانه كان مسيحيا ، ويلوح

لنا إن الاصح ما أوردناه هنا، لان العهد صريح بدخول القوم في الاسلام ، والعهد المكتوب أو المقطوع يحدد علاقتهم بالمسلمين تحديدا صريحا و يبين حقوقهم وواجباتهم وجاء في رواية أخرى ان اكيدرا ومن معه امتنعوا على خالد في اول الامر فهاجمهم بشدة وقتلهم وهزمهم وقتل حسان اخوا اكيدر ، فاستسلم هذا على الاثر لخالد وصالحه على الشروط الآتية :

- ١ - ان يفتح دومة الجندل ويسلمها للمسلمين بلا قيد ولا شرط
- ٢ - ان يسلمهم ٢٠٠٠ بعير و ٨٠٠ فرس و ٤٠٠ درع و ٤٠٠ رمح
- ٣ - ان يجير خالد ، أى (يصون حياته) حتى يفد به على النبي في تبوك فيقرر مصيره ، وقد أقر ما فعله خالد وحقن دمه وصالحه وكتب له العهد السابق

فتح العقبة

وجاءه وهو هنالك ليخنة « يوحنا » بن رؤبة صاحب ابلة (العقبة) وهى الى الشرق من معان وتبعد عن تبوك نحو ٣٠٠ كيلو متر طائفا فكتب له العهد الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا امانة من الله ومحمد النبي ليخنة بن رؤبة واهل ابلة اساقفهم وسائرهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس وانه لا يحل ان ينعوا ما ير يدونه ولا طريقا ير يدونه من بر او بحر»

وصالح ايضا وهو في تبوك اهل مقنا (على مقربة من العقبة وهم يهود) على ٣٠٠ دينار وعلى ربع عروكهم وغز ولهم وربع كراعهم وحلقهم وعلى ربع ثمارهم وكتب لهم العهد الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى بنى حبيبة واهل مقنا سلم اتم فانه انزل على انكم راجعون الى قريبتكم فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة

رسوله وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبتم به لا شريك لكم في قريتم الا رسول الله أو رسول رسول الله وانه لا ظلم عليكم ولا عدوان وان رسول الله يجيركم مما يجير منه نفسه فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكرام والحلقة الا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله . وان عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عروكم (العروك : خشب يصطاد عليه) وربع ما اغتزلت نساؤكم وانكم قد ثرتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة فان سمعتم واطعمتم فعلى رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ومن ائتم في بني حبيبة واهل مقنا من المسامين خيرا فهو خير له ومن اطعمهم بشر فهو شر له ، وليس عليكم امير الا من انفسكم أو من اهل بيت رسول الله »

وصف البلقاء

وصالح ايضا وهو في تبوك اهل حربا واهل اذرح (قرية في شرقي الاردن على الطريق السلطاني بين معان والكرام لا تزال موجودة) وهما من بلاد الشراة على مائة دينار ثم عاد الى المدينة بعد ماقضى ٢٠ يوما في تبوك وبعد ما نشر نفوذه في المناطق العربية المجاورة لحدود الحجاز الشمالية واخضعها لدولته وكانت من قبل خاضعة للروم تدفع الجزية لهم وتدين بطاعتهم . ومعنى ذلك ان حدود الدولة الاسلامية وصلت الى شمالي معان ، وتبعد هذه عن المدينة نحو ٨٥٠ كيلو مترا وان المسامين انزعوا من الروم مقاطعات الشراة ودومة الجندل « الجوف » وغيرها من الامارات الصغيرة الواقعة في منطقة الحدود بين الحجاز والشام ، واصبحوا على ابواب البلقاء وهي شرقي فلسطين والى الجنوب الشرقي من السلط وتضم السلط وعمان وقد اعتبر الترك في بعض الاوقات نابلس من البلقاء وجعلوها مركزا للواء البلقاء ومركز لواء البلقاء اليوم في نفس عمان باعتبار التقسيمات الحاضرة ومن اعماله السلط حتى الشونة على مقربة من نهر الاردن وبمقابلته اريحا والحد الفاصل من البلقاء وجبل عجلون هو مسيل الزرقاء المعلوم الذي ينبع من محطة الزرقاء المعروفة باسمه ويصب في الاردن بين

صويلح وجرش في منتصف طريقهما ومادبا والجيزة من البلقاء اما جرش فعجلونية
والسكرك والشوبك والطفيلة مؤابية

نفوذ العرب محل نفوذ الروم

على هذا المنوال ، انتهت الاعمال العسكرية الاولى التي عملت على حدود الشام
في خلال خمس سنوات أى منذ الغارة التي أغارها النبي في السنة الخامسة على دومة
الجنديل ، وقد كانت مقدمة للعمل العظيم الذي شرع به ابو بكر بعد ذلك وأتمه عمر
ابن الخطاب فاجتث نفوذ الروم من الشرق العربي وأحل محله نفوذ الاسلام كما
ستراد مفصلا

التعبئة في عهد أبي بكر

ابوبكر وهرب الروم

سكنت الحالة سكونا نسبيا على حدود الشام ، بعد رجوع الجيش من تبوك و وفاة النبي واشتغال المدينة بحرب الردة
ورأى ابو بكر ان لا يدع الميدان خاليا في منطقة الحدود وكان حريصا على فتح الشام فجهز حملة عهد بقيادتها الى خالد بن سعيد بن العاص وامره ان لا يتخطى حدود تيماء (لا تزال قائمة حتى الآن وآثار الابلق « حصن السمؤال » فيها كما يؤكد البعض وهي في الجنوب الشرقي من تبوك ، وكانت من المناطق التي ينزلها اليهود في شمالي الحجاز وقد اخضعها المسلمون في خلال غزوة خيبر سنة سبع وصالحوا اهلها على الجزية وعينوا يزيد بن ابى سفيان واليا لها) وان يدعو من حوله من العرب للانضمام اليه ، وان لا يقاتل الا من قاتله انتظارا لأمر آخر يصدر اليه
وقصد خالد تيماء بجيشه ، فنزلها واقام بيت دعوته بين القبائل المجاورة ويستميل الناس اليه ويدعوهم الى الدخول في الاسلام كما ارسل الرسل والرواد ترداد اخبار الروم وتأتيه بما يعملونه ، فعلم ان جيشا روميا يشد أزره متطوعون من العرب يتجمع في عمان ، بقيادة البطريق ماهان - قائد الروم في البلقاء - لمهاجمة تيماء ، والظاهر ان الروم كانوا يرقبون حالة الحدود ، فكتب اليه الخليفة يأمره بأن يعجل في الزحف ومهاجمة هذا الجيش قبل ان يهاجمه ، مشترطا عليه ، ان لا يوغل كثيرا في تقدمه ، وان يحافظ على خط رجعتة فلا يهاجمه الروم من الورااء ويجعلوه بين نارين
وواصل خالد تقدمه فاجتاز معان ودخل ديرة البلقاء حتى وصل الى الزبراء

(الزيزاء أو الحيزة كما يسمونها اليوم احدى محطات سكة حديد الحجاز بين عمان ومعان ، وتبعد عن الاولى نحو ٦٢ كيلومترا الى الجنوب وعن الثانية ١٩٩ كيلومترا وهي مركز ناحية معروفة باسمها تتبع متصرفية البلقاء من اعمال حكومة شرقي الاردن وفيها بركتها الكبيرة المشهورة وإلى جانبها حصن صغير ربما اقيم على انقاض مسلحة من مسالح الرومان) وواصل تقدمه نحو عمان قاعدة الروم العسكرية في البلقاء لمهاجمتهم في عقردارهم

وعرف ماهان بزحف خالد فأسرع الى لقائه بمن معه من الجند فدارت بين الفريقين معركة يظن ان مكانها بين الحيزة وعمان انتهت بانتصار المسلمين وفوزهم ، فشجع ذلك خالدا فكتب الى الخليفة يشره بالنصر ويسأله السماح له بالتوغل في اراضى الروم ويطلب نجدات ، فوافقه على طلبه واصدر امرا الى عكرمة بن ابى جهل والوليد بن عقبة وهما ممن قاتلا في حرب الردة يأمرهما بالسير مع رجالهما لنجدة سعيد كما اصدر امرا آخر الى ذى الكلاع الحميرى فساروا على عجل الى الشام

ووقع خالد في هذا الميدان بما وقع فيه عكرمة بن ابى جهل يوم اليمامة ، فقد اسرع في مطاردة الروم موغلا في بلادهم من دون ان يحفظ خط رجعتهم ومن دون ان ينتظر وصول النجدات التي ابلغه ابو بكر انها ارسلت اليه ، آملا ان ينال نصر الانتصار وحده ، فسقط في الفخ الذي نصبه له ماهان ، فقد تظاهر بالانكسار واخذ ينسحب الى الداخل وخالد يتبعه حتى بلغ مرج الصفر (هو السهل الواقع جنوبي نهر الاعوج في شمالي حوران في منطقة قضاء وادى العجم اليوم) وهناك اطبقت عليه القوى الرومية القادمة من فلسطين ، والقوى القادمة من حوران وضيق الخناق عليه . ولم ينقذه من ايديهم سوى وصول عكرمة بن ابى جهل على رأس جيشه فادركه وقد احرق به الاعداء من كل جانب ، وقتلوا عددا غير قليل من رجاله فانقذه منهم ، فعاد مع رجاله الى الحجاز

واصل خبر ما وقع بابي بكر فكتب الى خالد بن سعيد وكان ينزل في ذى المروة
 (ضواحي المدينة) يعزله من القيادة ويقول له « اقم مكانك فلعمري انك مقدم محجام
 نجا من الغمرات لاتحوضها الى حق ولا تصبر عليه » وامره ايضا بان لا يدخل المدينة
 لئلا يعرف الناس خبر هزيمته وفشله فيؤثر في قواهم الادبية فيوهنها

ابوبكر يعلمه التعبئة العامة

اتتهت حروب الردة على المنوال الذي وصفناه في الكتاب الاول وسار خالد الى العراق فاشعل الحرب في جنوبيه ، واصيب خالد بن سعيد بما اصيب به في اللقاء ، فرأى ابوبكر ان يتشمر لحرب الروم وان يوجه القوى لقتالهم ، فدعا كبار الصحابة الى اجتماع عقده في المسجد وخطبهم خطبة طويلة قال في مقدمتها :

« الا ان لكل امر جوامع فمن بلغها فهي حسبه ، ومن عمل لله كفاء الله ، عليكم بالجد والقصد ، فان القصد ابغ ، الا انه لا دين لأحد لا ايمان له ، ولا اجر لمن لا حسبه له ، ولا عمل لمن لا نية له

« الا وان في كتاب الله من الثواب على الجهاد لما ينبغي للمسلم ان يجب ان يخص به ، هي التجارة التي دل الله عليها ونجاها من الخزي ، والحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة »

ثم قال : اعلموا ايها الناس ان رسول الله عول ان يصرف همه الى الشام فقبضه الله اليه ، واختاره لديه ، الا وانى عازم على ان اوجه المسلمين الى الشام باهلهم ومالهم « فأقروا رأيه وفوضوه ان يفعل ما يشاء

وكتب ابوبكر بعد ختام هذا الاجتماع الى مكة والطائف واليمن يستنفر القبائل للجهاد في سبيل الله ويدعوها للقدوم عليه فوافاد المتطوعون من كل مكان فأنشأ اربعة جيوش سيرها على التوالي وهذه اسماء قوادها :

١ - جيش يزيد بن ابى سفيان - الى دمشق

٢ - جيش شرحبيل بن حسنة - الى اللقاء

- ٣ - جيش عمرو بن العاص - الى فلسطين
٤ - جيش ابى عبيدة بن الجراح - الى حمص

١ - يزير به الى سفياه

واول جيش قصد الشام هو جيش يزيد ، ويتفاوت عدد رجاله بين ٣ - ٤ آلاف ولما ازمع الرحيل خرج الخليفة يشيعه فطلب اليه يزيد ان يركب او ينزل هو عن دابته فقال له :
ما انت بنازل وما انا براكب ، انى احتسب خطاى هذه فى سبيل الله ولما اذف الرحيل خطب ابو بكر الراحلين الخطبة الآتية قال :
« اذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على اصحابك فى مسيرك ، ولا تغضب على قومك ، ولا على اصحابك ، وشاورهم فى الامر ، واستعمل العدل ، وباعد عنك الظلم والجور ، فانه لا افلح قوم ظلموا ، ولا نصروا على عدوهم
« واذا لقيتم القوم فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير
« واذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة الا بهيمة الماء كول ولا تغدروا اذا عاهدتم ولا تنقضوا اذا صالحتم
« وستمرون على قوم فى الصوامع (الرهبان) حسبوا انفسهم فذروهم وما حسبوا انفسهم له ، وستجدون قوما فحصوا من اوساط رؤوسهم (حلقوا وسطها) فاضربوا ما فحصوا عنه بالسيف »

٢ - ميمس شرحبيل به حسنة

ثم جهز جيشا ثانيا يتفاوت عدده بين ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ مقاتل وعقد لواءه لشرحبيل بن حسنة (من كتاب رسول الله) وامره ان يسير الى تبوك - البلقاء -

بصرى وهى آخر مراحلها وقال له حينها ودعه :

« اذا اقدمت على اهل عمك فعدهم الخير وما بعده ، واذا وعدت فانجز ، ولا تكثر عليهم الكلام فان بعضه ينسى بعضا ، واصلح نفسك يصلح لك الناس ، واذا قدم عليك رسل عدوك فاكرم مشواهم فانه اول خبرك اليهم ، واقلل حبسهم حتى يخرجوا من عندك وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن انت الذى تلى كلامهم ، ولا تجعل سرك مع علانيتك ، فيخرج امرك ، واذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك الشورة ، ولا تكلم المستشار فتوتى من قبل نفسك ، واذا بلغتك عن العدو عورة فاكتمها حتى توافيها ، واستر في عسكريك الاخبار ، واذا حراسك واكثر مناجاتهم فى ليالك ونهارك ، واصدق اللقاء اذا لقيت ، ولا تبجن فيجبن من سواك »

٣ - ميسى عمرو بنه العاص

ثم جهز جيشا ثالثا عقد لواءه لعمر بن العاص السهمى وامره ان يقصد فلسطين وان يكاتب ابا عبيدة وينجده اذا اراد ولا يت امره الا بمشورته . قالوا وكان عدد رجاله سبعة آلاف مقاتل

ولما ازمع الرحيل خرج ابو بكر لوداعه وقال له حين رحيله

« اتق الله فى سرك وعلانيتك ، واستح في خلواتك ، فانه يراك فى عمك وقد رأيت تقدمتى لك على من هو اكبر منك سابقا واقدم حرمة ، فكن من عمال الآخرة ، واراد بعمالك وجهه الله ، وكن والدا لمن معك وارفق بهم فى السير فان فيهم اهل ضعف والله ناصر دينه فيظهره على الدين كله

« واذا سرت بجيشك فلا تسرف فى الطريق التى سار فيها يزيد وشر حبيبل بل اسلك طريق ايلياء (القدس) حتى تنتهى الى ارض فلسطين وابعث عيونك يأتوك

باخبار ابي عبيدة فان كان ظافرا بعده فكن انت لقتال من في فلسطين ، وان كان يريد عسكريا فانفذ اليه جيشا في اثر جيش. وقدم سهل بن عمرو وعكرمة بن ابي جهل والحارث بن هشام وسعيد بن خالد واياك ان تكون وانيا عما نذبتك اليه ، واياك والوهن ان تقول جعلني بن ابي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به ، وقد رأيت يا عمرو ونحن في مواطن كثيرة ، ونحن نلاقي مانلاقي من جموع المشركين ، ونحن في قلة من عددنا ثم رأيت يوم حنين من نصرنا الله عليهم

« واعلم يا عمرو ان معك المهاجرين والانصار من اهل بدر فاكرمهم واعرف حقهم ، ولا تتناول عليهم بسطانك ، ولا تداخلك نجدة الشيطان . فتقول ان ابا بكر ولاي لاني لا ي خيرهم

« واياك ومدح النفس وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من امرك

« والصلاة ثم الصلاة ، اذن بها ، اذا دخل وقتها ولا تصل صلاة الا باذان يسمعه اهل العسكر ، ثم ابرز وصل بمن يرغب في الصلاة معك فذلك افضل له ، ومن صلاها وحده اجزأت صلاته

« واحذر من عدوك وامر اصحابك بالحرس ، ولتكن بعد ذلك مطلعا عليهم ، وأطل الجلوس بالليل مع اصحابك وأقم بينهم ، واجلس معهم ، ولا تكشف استار الناس واتق الله اذا لاقيت العدو ، واذا وعظت اصحابك فاجز ، واصلح نفسك تصلح لك رعيتك ، فالامام ينفرد الى الله تعالى فيما يعمل وما يفعله في رعيته ، واني قد وليتك على من قد ورث من العرب فاجعل كل قبيلة على حميتها ، وكن عليهم كالوالد الشفيق الرفيق وتمهد عسكرك في سيرك ، وقدم قبلك طلائعك ، فيكونوا امامك ، وخلف على الناس من ترضاه ، واذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك منك نفرا

« والزم اصحابك قراءة القرآن ، وانهم عن ذكر الجاهلية وما كان منها ، فان

ذلك يورث العداوة بينهم واعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقى بمن مضى من سلفك
 وكن مع الأئمة الممدوحين في القرآن »

٤- هبسن ابى عبيرة

وسير فى الغداة جيشا رابعا عقد لواءه لأبى عبيدة بن الجراح ولما ودعه قال له :
 سمعت ماقلته لصاحبك امس فلا اعيدده عليك ولا اكرره

طريق العرب الى الشام

سارت جيوش العرب الاربعة من المدينة الى الشام سالكة طريق القوافل المعتاد وقد وصفناه فيما تقدم ، يتبع الواحد الآخر فبلغت معان ، من دون ان يحدث لها حادث ، وتبعد معان ٨٤٣ كيلو مترا عن المدينة الى الشمال . وكانت من ممتلكات الروم تخضع للغسانين مباشرة ، ولهم فيها آثار لا تزال قائمة ، وتدل الدلائل على انهم سبقوا فاستردوا الحامية العسكرية التي كانت لهم قبل وصول المسلمين ،

وكانت هنالك اربع طرق الى قلب سورية هذا وصفها :

١ طريق معان - الشوبك - الكرك - مادبا - حوران - دمشق

٢ » معان - الجفر - الازرق - الجابية - حمص

٣ » معان - الجفر - الازرق - بصرى - دمشق

٤ » معان - وادي عربه - البحر الميت - القدس

تلك هي الطرق المؤدية الى قلب سورية وقد سلكوا بعضها بعد قيامهم من معان ونحن نصف كلا منها على حدة فنقول :

١ - طريق معان - الكرك - مادبا - البلقاء

يجتاز هذا الطريق منطقة الشراة ويشقها شقا مبتدئا من معان وهي بابها ويمر بأذرح ولا تزال بقاياها قائمة وفيها ماء - الجرباء الكبيرة - الجرباء الصغيرة - الشوبك - الطفيلة - الكرك - كورة بنى حميدات - مادبا - الحيزة - عمان

هذا هو الطريق الذي يرجح ان يكون جيش شرحبيل سلكه في زحفه الى

البقاء و يبلغ طوله نحو ٢٠٠ كيلومتر من معان حتى عمان ، وهو الطريق الرومى القديم ، وكانوا يسلكونه فى ذلك العصر ، وقد جدته الحكومة الاردنية الحاضرة واصلحته ورماتم افتتاحه فى زمن قريب وهو نفس الطريق القديم مع تعديل طفيف اما خط سكة حديد الحجاز الممتد بين معان وعمان فيقع شرقى هذا الطريق ويجتاز صحراء بلقع على ان انشاء المحطات على طوله نشط حركة العمران ووسعها

٢ - طريق معان - الجفر - الازرق - بصرى - دمشق

كان هنالك طريقان امام يزيد و ابى عبيدة : طريق الطفيلة - الكرك - مادبا الذى تقدم وصفه او طريق معان - الازرق - بصرى والمفهوم انهما سلكا الطريق الاول

٣ - طريق معان - وادى عربه - البحر الميت

وسلك عمرو بن العاص هذا الطريق فقد مشى الى وادى عربه وهو واد متسع الجنبات عظيم الخطورة ومنه خرج الى البحر الميت فاستقر حوله واتخذة قاعدة لاعماله العسكرية وهو قريب من القدس

قوات العرب العسكرية في الشام

تلك هي الطرق التي نرجح ان قادة الجيش العربي سلكوها بعد دخولهم حدود الشام الجنوبية ، اى بعد اجتيازهم منطقة معان ، وكان لكل جيش من الاربعة عملا خاصا نيظ به آتمامه ، ومهمة يطلب منه قضاؤها

بيان عمه المنطقة الحربية

وكانت المنطقة التي عهد اليهم ان يثيروا الحرب في داخلها خلال هذه المرحلة واسعة تمتد من اراضى غزة على البحر المتوسط غربا حتى صحراء الشام شرقا ولا يقل طول هذا الخط عن ٣٠٠ كيلوا متر ، ولا يقل عمقه عن ٤٠٠ كيلو متر ايضا اى من معان حتى ابواب دمشق

وكان العرب فى حروبهم هذه يبعدون عن قاعدتهم العسكرية الكبرى فى المدينة مسافة لاتقل عن ١١٠٠ كيلومتر والمواصلات بينهم وبينها تكاد تكون مقطوعة ، وكان ابو بكر يمدهم بالنجدات ، وكانوا يعولون على الابل فى ارسال أخبارهم الى الخليفة وتلقى تعليماته ، ولا تروح وتغدو فى اقل من بضعة اسابيع

مجموع عدد الجيش العربى

ما كان عدد الجيش الواحد من الجيوش الثلاثة الاولى يزيد عند ابتداء الزحف عن اربعة آلاف مقاتل بين فارس وراجل ، اما الرابع فكان يقدر بثمانية آلاف

وكان ابو بكر لا يكف عن استنفار الناس الى الجهاد حتى بلغ عددها يوم اليرموك ٢٨ الف مقاتل بالتقدير المتوسط ولا يدخل في هذا الاحصاء جيش خالد وقد جاء من العراق يومئذ وعدده عشرة آلاف فانضم اليهم فصار عددهم ٣٨ الفا وقيل غير ذلك والروايات متضاربة في تقدير العدد والاصح ما ذهبنا اليه فانه لم يكن في استطاعة الحجاز ان يخرج في تلك الايام اكثر من ٦٠ الف مقاتل (بالاضافة الى جيش العراق وكان يقاتل الفرس بقيادة الثني في نفس الوقت الذي كانت الحرب دائرة مع الروم)

قيادة العرب العسكرية

ولم تكن هنالك قيادة موحدة للعرب في ميدان الشام يرجع اليها قوادهم ويتلقون منها التعليمات والاورام العسكرية ؛ بل كان كل واحد منهم يعمل مستقلا في منطقة عمله الحربى ، فقد اتدب عمرو بن العاص للعمل في منطقة فلسطين ؛ واتدب ابو عبيدة للعمل في الجابية ؛ واتدب يزيد للعمل في البلقاء « امانة شرقى الاردن » ؛ كما اتدب شرحبيل للعمل في منطقة بصرى « مملكة غسان » ؛ وكان كل ماليهم من الاوامر الخاصة بالتعاون هو ان يعملوا متساندين وان يشد بعضهم ازر بعض وأن ينجد بعضهم بعضا (هو ما اوصاهم به ابو بكر حين سفرهم) ومعنى هذا انه لم تكن هنالك سلطة عليا يرجعون اليها ، ولعل منشأ ذلك هو صعوبة الاتصال واتساع المنطقة التي كانوا يعملون فيها فما كان من السهل اجتماعهم ولا تكتابهم ، فالسيارات لم تكن معروفة في ذلك العصر فيعتمدون عليها في نقلهم للاجتماع ، ومثل ذلك البرق والتليفون فيعتمدون عليهما في ارسال اخبارهم

وكانت العاصمة مرجعا لكل واحد منهم ، يرسل اليها اخباره وما يغنمه من غنائم بعد ما يوزع على كل محارب ما يستحقه ، ويتلقى منها التعليمات والاورام والخطط العسكرية التي يسير عليها .

على ان هذا لا يمنعنا من القول بان الرئاسة الادبية كانت لابى عبيدة بن الجراح لانه اقدمهم فى الاسلام ، فهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهو من اصحاب رسول الله القدماء وقد كان من المرشحين للخلافة يوم وفاته واراد ابوبكر ان يبايعه ، كما انه يحمل لقب « امين الامة » وقد لقبه به رسول الله فى حياته وكان يقربه منه ويدينه

قوات الروم العسكرية

ليس من شأننا هنا ان نصف عظمة امبراطورية الروم التي جاء العرب لمهاجمتها ، وبرزوا لقتالها ونزالها ، فقد اجمعت كلمة المؤرخين على انها من اعظم الامبراطوريات التي عرفها التاريخ وكانت تمتلك جميع الاقطار التي اصطلحنا ان نسميها في هذا العصر ببلدان الشرق الادنى ، فكانت حدودها تمتد من شرقى اوربا حتى منتهى حدود افريقية الشمالية فتشمل الاقطار الواقعة شرقى البحر الابيض المتوسط كلها وهى اليونان والاناضول وسورية وفلسطين ومصر و بنغازى وطرابلس الغرب وتونس ، والجزائر والمغرب يضاف الى ذلك ما كان لها من ملك ضخم في اوربا

الجيش الرومى

وكان لهذه الامبراطورية جيش اجمعت الكلمة ايضا على انه كان من اعظم الجيوش التي عرفها التاريخ سواء من جهة العدد والعدد او الروح العسكرية او النظم او المواصلات والوسائل الاخرى . ولولا تفوق الروم العسكرى ، وكفاءة قوادهم وبسالة جندهم ، ووفرة معداتهم ، لما استطاعوا ان ينشئوا ذلك الملك الفخم العظيم ، ويخضعوا القسم العمور من العالم لسطانهم ، ويحكموه قرونا وعلاوة على ذلك فقد اشتهر الروم باجادة انشاء الحصون والقلاع واتقانها ، وكانوا يكثرون منها فى المقاطعات التى يحكمونها ويجمعون جل اعتمادهم عليها وعلى الاجناد المقيمة فى داخلها ، فيخيفون بها السكان فلا ينتفضون عليهم ، وكانوا ايضا

يكثرون من شق الطرق العسكرية في داخل امبراطوريتهم ، وهي طرق خاصة بالجيش لضمان مواصلاته فتسهل عليه الانتقال من قطر الى آخر عند الحاجة وكان لهم أيضا في كل مقاطعة يحكمونها حامية عسكرية تناسب مع اهميتها ، وكان على رأس كل منها قائد رومي تطلق يده عادة في اتخاذ ما يراه لازما من التدابير المحلية ، أى انه كان يتمتع من هذه الجهة باستقلال داخلى

مراكز الروم العسكرية

والكلام عن تاريخ الروم العسكرى وعن جيشهم ونظامهم العسكرية يطول ولا يدخل في دائرة بحثنا فنقتصر على ايراد نبذة نصف فيها حالة الشام العسكرية عند هجوم العرب ، فذلك يساعد على تقدير المخاطر التى استهدف لها هؤلاء في غارتهم على ذلك الاقليم الواسع ، ويكاد يكون شبه منطقة عسكرية حصينة لكثرة ما أقاموا فيه من حصون وقلاع

ويمكننا القول استنادا الى ما جمعناه من المصادر التاريخية انه كان للروم في الشام أى في المنطقة الممتدة من شمالى حلب حتى بيت المقدس ستة مراكز عسكرية كبيرة هى :

١ - انطاكية : وكانت عاصمة الشام في العهد الرومى

٢ - قنسرين : في شرقى حلب ومن احيائها (١)

(١) كتب الينا الاستاذ عمر الطيبي بعد اثبات ما كتبناه عن قنسرين يقول انها كانت تقع بين حماه وحلب وهى الى الجنوب الغربى من حلب وعلى بعد ٢٥ كيلو مترا عنها ، وفي حلب باب يسمى بباب قنسرين يسير المسافر منه اليها على خط مستقيم . وكانت واقعة في سفح جبل يسمى النبي عيص وهو صغير مستطيل يمتد من الشرق الى الغرب في ذورته مدفن يقولون انه قبر النبي عيص وثمة قرية بيوتها قباب مخروطية تدعى العيص بنيت فوق اطلال مدينة قنسرين التى كانت حلب قرية من قراها ،

٣ - حمص : ويمتد نفوذها العسكري حتى تدمر وصحراء الشام فيبلغ حدود الجزيرة أى انها تحاد الفرس من الشمال الشرقى كما كانت قاعدة قنسرين تحادهم من الشمال الغربى

٤ - عمان : وكانت قاعدة اللقاء وكان للروم فى الكرك قلعة حصينة ومثلها فى عمان

٥ - اجنادين : وكانت قاعدتهم العسكرية فى جنوبى فلسطين وعلى حدود بلاد العرب الشرقية والغربية وعلى حدود مصر

٦ - قيسارية : فى شمالى فلسطين (جنوبى حيفا وتبعد عنها ١٣ كيلو مترا) وعلى شاطئ البحر الابيض المتوسط ولا تزال أنقاضها قائمة

وكان هناك أيضا مراكز عسكرية فرعية تتبع هذه القواعد وكان القائد الرومى العام يقيم فى انطاكية أو فى حمص ، وكثيرا ما كان الامبراطرة أنفسهم يترددون على الشام

ولا يخفى أن الروم لم يعنوا هذه العناية ببلاد الشام ولم ينشئوا هذه المراكز العسكرية الكبرى ولم يكثروا من حشد القوى والجند الا لانها كانت فى طرف مملكتهم الجنوبى فكان الفرس يحادونها من الشرق ومن الشمال الشرقى ، كما كانت بلاد

وقد خربت قنسرين فى القرن الرابع للهجرة وفى عهد سيف الدولة بن حمدان ولكن قراها عامرة واسعة وقنسرين اليوم من أملاك الدولة امتلكتها هذه المؤسسة فى عهد السلطان عبد المجيد هى وقراها ولما فتح الاندلس نزل أهل قنسرين مدينة جيان لانها تشبه مقاطعتهم

وقنسرين بجانب المطخ الكبير الذى كان يملأه قويق فى العهد الغابر أيضا فيشمل الجزيرة حتى آخر الحدود عند ضفة الفرات الغربية (منطقة جرابلس ومسكنة فى الوقت الحاضر)

العرب تحدها من الجنوب ومن الجنوب الشرقى ، وحيث ان العداة كان مستحكما بين امبراطويتى الروم والفرس ، وحيث ان الحروب بينهما ما كانت تنقطع وكانت كل واحدة منهما تترقب بالثانية دوائر السوء وتسعى لاذلالها واستصفاء بلادها - اضطر الروم الى حشد قوى كبيرة فى بلاد الشام واعداد هذه المراكز وشحنها بالجند وشق الطرق وتعبيدها لئلا يؤخذوا على غرة او يستباح حماهم ، اى ان ما اعدوه لم يعدوه لقتال العرب وما خطر لهم ببال بأنهم سيؤخذون من الجنوب وينهار على أيدي أبنائه ملكهم

عرد الجيش الرومى

وي لوح لنا أن قادة الروم العسكريين فى انطاكية قرروا فتح ابواب الحدود فى وجه الجيش العربى لاستدراجه الى الداخل فيثبون عليه ويضربونه ضربة لا يعود بعدها الى غزو الشام ، ولتحقيق هذه الخطة عكفوا على حشد جيش كبير فى انطاكية حشروا له الارمن والروم من الاناضول وكانوا عمدة جيشهم ويقدر بعض المؤرخين قوى هذا الجيش بمئتى الف مقاتل جمعت فى خلال بضعة أشهر ، وبعد أن تم تجهيزها زحفت الى الجنوب قاصدة حمص فدمشق وكان قادتها ينادون بأنه لا بد لهم من القاء درس قاس على العرب ومنعهم من ارتياد بلاد الشام او الدنو من حدودها

وكذلك عزز الروم قواهم العسكرية فى فلسطين بنجديات قوية أرسلوها اليها من هنا وهناك ويقول مؤرخو العرب ان عدد القوى التى جمعوها فى هذا الميدان ما كانت تقل عن مائة الف جندى . ومعنى ذلك انه كان يجب على العرب اذا صح الرقم - ولا يخلو من مبالغة فى نظرنا - منزلة ثلاثمائة الف مقاتل ، مع ان

عددهم ما كان يزيد على أربعين الفا في أكبر تقدير ، وليس هذا كل ما كان يتفوق به الروم فقد كانوا يتفوقون على العرب بالحصون والقلاع والمعدات والخيل والسلاح وأدوات الحرب ، ووسائل المواصلات ، وكانوا يقاتلون في عقر دارهم وفي داخل أراضيهم ، وكانوا على اتصال وثيق برا وبحرا بعاصمة ملكهم وكانت النجيدات تأتيهم تباعا من أنحاء امبراطوريتهم الواسعة

خريطة سورية الكبرى



مقياس الرسم 1:100,000
 0 10 20 30 كيلومتر

ميدانه الشام وميدان العراق

كانت القوى التي اعدّها العرب لحرب الروم في الشام اكثر من التي اعدوها لحرب الفرس في العراق ، فقد جنّدوا جيشين للعراق : جيش خالد وجيش عياض ابن غنم (ولم يعمل هذا عملاً عسكرياً يذكر) وجهزوا اربعة للشام وما كان عدد جندهم الذي طرق العراق يزيد في المرحلة الاولى عن بضعة آلاف مع انهم زحفوا على الشام دفعة واحدة في قوة لا تقل عن ١٦ الف جندي على اقل تقدير

ومع ان الاوامر التي صدرت لجيش الشرق (جيش العراق) تقضى عليه بان يهاجم العراق من شماليه وجنوبيه فان الاوامر التي حملها قادة جيش الشمال كانت تقضى عليهم بان يهاجوا الشام في اربعة مناطق :

١ - البلقاء

٢ - فلسطين

٣ - حوران

٤ - دمشق

ويلاحظ لنا ان اتساع نطاق الميادين التي تقرر ان يقاتلوا في داخلها هنا ومحاولتهم اشغال نار الحرب على طول خط الحدود واشغال الروم في كل دائرة ، جعلهم يتبعون هذه الخطة ويحشدون هذه القوى ، يضاف الى ذلك ان الروم ، كانوا خارجين من حوزتهم مع الفرس وشمليين بحمرة النصر العظيم الذي انقذ بلادهم واعاد اليهم

اقتارهم ، اى ان قواهم الادبية كانت سليمة - مما يزيد في خطورة المهمة التي اخذ الجيش العربى على عاتقه الاضطلاع بها

هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى فان طبيعة الاراضى التي جاء العرب لمهاجمتها تختلف اختلافا كبيرا عن طبيعة الاراضى في العراق ، فقد كان خالد يقاتل في ارض رملية ، سهلة ، غزيرة الماء ، كثيرة السكان بعكس الحالة في ميدان الشام فقد كان عليهم ان يقاتلوا في مناطق جبلية سواء كان في فلسطين او في البلقاء (شرقى الاردن) او في حوران نفسها او على طريق حمص ايضا

ولا بد من القول بان معظم المناطق التي هاجمها العرب في ابتداء القتال كانت محصنة : فهنالک معان والكرک و بصرى ودمشق وحمص فقد كانت كلها ذات قلاع وحصون

وما عرفنا ان الفرس ، عنوا بتحسين حدودهم الجنوبية المتاخمة للحجاز وكان شأنهم هذا شأن الروم تقريبا فقد كانوا مطمئنين الى البادية ومعتقدين ان لاخطر يهددهم من جهتها

ومما تجب ملاحظته ايضا ان المعركة الفاصلة ، نشبت في هذا الميدان (ميدان الشمال) بسرعة زائدة ، وكان الروم هم الذين استعدوا لها وحملوا العرب على الاشتباك فيها - وذلك انهم حشدوا قوات عظيمة على جناح السرعة في حمص ودمشق وساروا للقاء العرب في الجنوب فتنبه هؤلاء الى خطط الروم العسكرية وعرفوا ان تفرقهم مؤذن بهزيمتهم فتكاتبوا واتصلوا ، ثم اجتمعوا واتحدوا وانشأوا لهم قيادة عليا تدير شؤونهم وتنظم امورهم

ولقد اشتركت المرأة العربية في الاعمال العسكرية التي عملت في هذا الميدان من الاول الى الآخر ولم تشترك في ميدان العراق الا متأخرة اى في الدور الثانى يوم تقلد سعد بن ابى وقاص القيادة وانشب معركة القادسية الكبرى وكان للمرأة العربية حظ الاشتراك فيها ، فقد ثبت ان نساء العرب قاتلت في اليرموك وابلت البلاء الحسن وحملت الرجال على الثبات حينما حاول بعضهم الانهزام عند الصدمة

الاولى ، وعلى كل حال فان استصحاب العرب لنساءهم الى الشام ، من أول الامر، يدل على انهم كانوا جادين ، وانهم جاءوا للقيام بعمل حاسم ، وما اعتادوا أن يصحبوا نساءهم الا في الامور الجسام

وجملة القول ان العرب كانوا يعلقون اهمية عظيمة على حرب الشام ويعرفون انهم ملاقون فيها عدوا شديدا صعب المراس ، وجيوشا لجة ، وحصونا حصينة ، وعددا ومعدات تفوق العدد والمعدات التي لاقوها في العراق ، وكان الفرس خارجين من حرب طويلة ، انهكت قواهم واستنزفت مواردهم ، واضعفت القوى الادبية في صدورهم

هل سعى الامبراطور لاصلاح

لابد لنا ونحن ندرس حالة العرب وحالة الروم ونقابل بين قواهم المادية والادبية قبل المعركة الكبرى : معركة اليرموك - من الاشارة الى رواية رواها غير واحد من مؤرخي العرب ، وخلصتها ان الامبراطور هركليوس استشار بعض قواد جيشه واقطاب دولته في عقد صلح مع العرب على قاعدة التنازل لهم عن نصف خراج الشام وعن جزئها الجنوبي (حوران والبلقاء) أى الجزء المأهول بأكثرية عربية ، فيبقى الجزء الآخر المأهول بأكثرية غير عربية للامبراطورية فتتق بذلك خطر الاشتباك في حرب ما كان يرى ان من مصلحتها خوضها

ويقول المؤرخون ان الامبراطور قال لرجاله : « لئن تعطوهم نصف ما اخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربون من جبال الروم فذلکم خير لكم من ان يغلبوكم على الشام كلها و يشاركوكم في جبال الروم نفسها » فلم يسمعوا له ولم يصغوا اليه ، واصروا على القتال باسم المحافظة على الكرامة القومية ، وقالوا ان من العار على الامبراطورية ان نعقد صلحاً مع شرادم بدوية ، مع انها قادرة على تشتيتها واذلالها ، فاضطر الى مجاراتهم حينما احس منهم العزيمة ، والتصميم لان تمسكه برأيه يقع موقعا غير مستحب عند الشعب المتحمس ، وكان يستهين بامر العرب ويرى انه من العار على الامبراطورية ان تصالحهم

ولم نطلع في الكتب الاجنبية المؤلفة في تاريخ روما على ما يؤيد هذه الرواية ، الا ان ماعرف به الامبراطور نفسه من كره الحرب ومقته لها واعتقاده بان

فيها خطرا عظيما على دولته - وكانت تقاسى ازمة داخلية شديدة - يجعلنا لا نستبعد ذلك كثيرا ، يؤيد هذا سعيه للاتفاق مع الفرس وارساله هدايا لكسرى في اول الامر سعيه للاتفاق مع قبائل شرقي اوربا ، وقد فاز في ذلك . ومهما يكن من امر فانتا نشك كثيرا في قبول العرب لمثل هذا الاقتراح لو عرض عليهم ، لانهم كانوا يعملون لنشر دينهم ، ولا يتسنى لهم ادراك ذلك الا باخضاع البلاد سياسيا ودخولها في عهدهم

في طريق المعركة الفاصلة

اتبع قادة الجيش العربي خطة الحذر والاحتياط في هذه المرحلة ، خوف الوقوع في شرك العدو فساروا وئيدا ، ومشوا بطيئا

ويرى دارس الخطط العسكرية التي نفذت في ابتداء هذه المرحلة ، ان قادة هذا الجيش وكان كل منهم يعمل منفردا في منطقة مستقلة خاصة به ، انهم كانوا يحاربون عدوهم ، حروب ازعاج ، وذلك بشن الغارات على مراكزه ويتجنبون الاشتباك معه في معركة حاسمة . وتلجأ الامم الضعيفة الى هذا الضرب من الكفاح ابان نهضاتها الوطنية وفي نضالها مع الشعوب المستعمرة التي غلبتها على بلادها واستباححت حياها ، وقد سار البلقانيون على هذه القاعدة في نضالهم مع الترك العثمانيين قبل سنة ١٩٠٨ م وسار عليها الرومانيون ايضا قبل استقلالهم عن الترك سنة ١٨٧٦ ثم سار السوريون عليها في كفاحهم العظيم مع الفرنسيين سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ويسير عليها كل شعب مغلوب مقهور لا قبل له بمقاومة قوى الدولة التي تحتل بلاده ولا بالوقوف وجها لوجه امام جيوشها الجرارة وجنودها المنظمة

والذي نرجحه ان هيئة اركان حرب الجيش الرومي ارادت ادراك غرضين اثنين من عملية الجلاء وقد اتبعتهما في بعض مناطق الحدود ولم يجد العرب مقاومة قوية هنا

بعكس ما جرى حينما قصدوا مؤتة ولعلها ارادت ا اكتساب الوقت اللازم لحشد قواتها الكبرى ، و بديهى ان المواصلات فى ذلك العهد لم تكن منظمة كما هى اليوم كما ان اساليب تعبئة الجيوش وحشدها ونقلها لم تكن ايضا على ماهى عليه فى عصرنا الحالى من الاتقان والتنظيم ، ومعنى ذلك ان حشد جيش لجب كالذى أعده الروم فى انطاكية وقالوا ان عدده بلغ مئتا الفا يحتاج الى شهر ، ولذلك رأى قواد الجيش الرومى ان من الحزم ان لا يشتركوا فى ابانها بمعارك موضعية مع الجيش العربى قد يشجعه الفوز فيها ويضرم نار الحماسة فى صدور رجاله فيزدادون قوة واندفاعا

وأما الغرض الثانى نغلاصة ما يقال فيه هو انهم أرادوا أن يدعو سكان مناطق الحدود بين أيدى حكومة غير حكومتهم ولو لمدة قليلة ، لكي يدركوا ما هنالك من فرق كبير ، بينهم وبين سواهم فقد توهموا ان العرب يبطشون ويقتلون وينهبون ويدمرون فينقلب السكان عليهم ويساعدون الروم فى نضالهم ، ولا يعودون الى التضجر والتذمر من أعمالهم وقد كانوا يشكون مر الشكوى من سوء حالتهم ومن المظالم والمغارم التى ينزلونها بهم

ونفذ قادة الجيش الاسلامى وجنده التعليمات التى أوصاهم بها الخليفة عند سفرهم ، كما تمسكوا بالقواعد التى جاء بها دينهم ، وهى تأمر بالعدل والاحسان وبالمساواة التامة فلا فضل ولا مفضل ، ولا سيد ولا مسود بل الكل اخوان تحت راية الاسلام والايمان ، للكبير ما للصغير من حقوق ، وللغنى ما للفقير من حرمة ، فلا اعتداء ولا ارهاق ، ولا ظلم ، ولا مصادرة . فذاق الناس لونا جديدا من الحرية والعدل لم يعرفوه ، فأقبلوا على الفاتحين والتفوا حولهم وأيدوهم ونصروهم ، لانهم رأوا أن فى تأييدهم الوسيلة الوحيدة للنجاة من الاستعمار الرومى الظالم والتحرر من نيره الثقيل . والمؤرخون مجمعون سواء منهم مؤرخو الاسلام أو مؤرخو الدولة

الرومية أو مؤرخو العصر الحديث من الاوروبيين على انه كان لقواعد العدل والانصاف والمساواة التي جرى عليها المسلمون حين دخولهم الشام تأثير كبير في استمالة الناس اليهم ، وكانوا لحكم الروم كارهين ، ولاعمالهم مبغضين ، ومن تصرفاتهم متبرمين ، فاجتذبوا النفوس ، وامتلكوا القلوب ، فانضم الشعب اليهم ومالاهم وحارب الروم معهم ، وكذلك عاقبة الظلم والطغيان في كل زمان ، فهو لا يلبث أن يورد مرتكبه موارد الشقاء والبوار ، ويسوقه الى الهلاك والتلف

وايد فريق كبير من الغزاة سكان مناطق الحدود وحوران والبلقاء ، وانضم اليهم لانهم اخوانهم وأبناء عموماتهم ، فرابطة القومية عند العربي فوق كل رابطة ومقامها يعلو كل مقام والعربي ابن عم العربي ، مهما اختلفت داره ، وبعدت شقته ، ومهما كان شكل الحكومة التي تحكمه ، يحن اليه ويحفظ عهده ، ويفضله على أى أجنبي كان ، وكذلك مالا هم بعض يهود فلسطين فقد انقض عليهم الروم حين زيارة هركليوس لبيت المقدس في سنة ٦٢٩ وذبجهم وقتلهم تقيلا بايعاز الاكايروس الرومي واغرائه ، لانه نقم على اليهود تصرفات تصرفوها حين احتلال الفرس لفلسطين واتهمهم بالتواطؤ مع العدو فليجأ بعض رجالهم وشبانهم الى أطراف الحدود في الבלقاء والشراة (منطقة معان) ولما اطلت عليهم كتائب الجيش العربي في زحفها الى الشام تظاهروا بتأييدها وتجسسوا لها ، انتقاما من اعدائهم الروم الذين ظاموهم وجاروا عليهم وذبجهم

ويمكن القول ان فوز العرب في خلال المرحلة الاولى كان كبيرا سواء من الوجهة العسكرية أو من الوجهة الادبية مما جعل الروم يعجلون في حشد الجنود وتسييرها ، وحسب العسرب حساب القوى العظيمة التي حشدها الروم وأدركوا ما تنطوى عليه الخطط العسكرية الجديدة من خطر فانسحبوا بانتظام وارتدوا الى

حوران ليكونوا على مقربة من البادية ، فلا يعوقهم عائق اذا قضت الضرورات العسكرية عليهم بالارتداد ، ولا يسقطون بين مراكز اعدائهم القوية ، فكان ذلك فاتحة النهاية ، وقد ابتدأت بمعركة اليرموك وانتهت بجلاء الروم نهائيا عن الشام وبدخوله في حوزة العرب وسينقى عربيا الى الابد ان شاء الله

اعمال الجيوش الاربعة

لأنك تفاصيل وافية عن المعارك الاولى التي دارت بين جيوش العرب الاربعة حين وصولها الى حدود الشام ، وبين الروم ، فما كان مؤرخو العصور الاولى يعنون بما نعى به من تفصيلات ، ولا يحرصون على ايراد ما منحصر على ايراده من بيانات ، على ان الواقدي تفرد بما رواه عن اخبار معركة زعم انها دارت في تبوك بين جيش يزيد وبين جيش الروم بقيادة ماهان قائد اللقاء ، فقد ذكر ان هذا قصد تبوك على اثر معامه من بعض العربان المنتصرة وهو ان ابا بكر يجيز لقتالهم ، فأراد ان يبدأهم قبل ان يبدأوه فسار اليهم فدارت معركة اشترك فيها شرحبيل ايضا وانتهت بانهزام الروم وتشتت شملهم ، مما يجب ان يقابل بالحنذر فقد دل الاستقراء على ان معظم روايات الواقدي واخباره مما لا يعوله عليها، ولا يوثق بها ويذهب بعض المؤرخين الى ان اول معركة دارت بين العرب والروم في هذه المرحلة كانت تلك التي حدثت في دأثن (قرية مندثرة في منطقة غزة وتبعد عنها ١٨ ميلا الى الشرق) وانتهت بنصر العرب . ويورد غيرهم تفصيلات أخرى ، ونحن نسرد بايجاز ماوقفنا عليه من اخبار هذه الجيوش وأعمالها من ابتداء الزحف حتى المعركة الفاصلة في اليرموك فقد كانت خاتمة عهد - كما قلنا آنفا - وفتاحة عهد ومقدمة انتشار الاسلام في بلاد الشام

١ - هبش يزير به ابي سفيان

كانت مهمة هذا الجيش بلوغ غوطة دمشق واحتلال مدينة دمشق نفسها ومساعدة الجيوش الاخرى في حركاتها والعمل بالتساند معها ويؤخذ مما لدينا من التفاصيل انه اتصل بقائد هذا الجيش وهو اول جيش توغل في حدود الشام ، ان قوات للروم ترابط على مقربة من وادي عربة وقلوا انها كانت تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة سرجيوس قائد منطقة غزة فلم يتردد في منازلتها خوفا على خطر رجته اذا واصل التقدم وتركها وراءه ، فاعد على الفور قوة بقيادة ابي امامة الباهلي سارت للقاء سرجيوس فالتقى الجمعان في الوادي^(١) نفسه ودارت معركة انتهت بفوز المسلمين وهزيمة الروم . ثم عادت القوة فانضمت الى جيشها وكان معسكرا في شرقي الوادي . ويقال ان هذه المعركة وقعت في شهر ذي الحجة من السنة الثانية عشرة (فبراير سنة ٦٣٤) وهي أول معركة في هذه المرحلة وقد انتهت بانتصار المسلمين فشحجهم بالقوه من نصر وقوى عزائمهم

وواصل هذا الجيش تقدمه بعد ذلك و بعد وصول الجيوش الاخرى ، وكانت على شبه اتصال فيما بينها وتعمل في مناطق متقاربة ، فاجتاز البلقاء وحوران والغوطة ، حتى ابواب دمشق فوقف حولها ، وظل مرابطا في هذه المنطقة حتى اجتمعت كلمة قواد الجيوش على الانسحاب حينما بلغهم مسير الروم اليهم فارتد الى اليرموك واشترك في المعركة الفاصلة . وتولى قائده قيادة جناح المسلمين الايمن في ذلك اليوم الادم

٢ - هبش سرحيل بن حسنة

كانت مهمة هذا الجيش منازلة الجيش الرومي في البلقاء (الجزء الجنوبي الغربي من اماره شرقي الاردن الحاضرة تقريبا) وتضم مقاطعة عمان والسلط وما بينهما حتى ضفة الاردن الشرقية وتنتهى حدودها الجنوبية عند ابتداء حدود مقاطعة الكرك التي

كانوا يسمونها مؤاب ، اما حدودها الشمالية فكانت تنتهى على مقربة من الزرقاء (المحطة الثانية بعد عمان للتوجه الى دمشق) والحد الفاصل بين البلقاء وجبل عجلون وفيها نهر الزرقاء المعلوم الذى يصب فى الاردن بعد ان يفصل بين جبال البلقاء وجبال عجلون فى نحو منتصف الطريق بين عمان وجرش ، وجرش من أعمال جبل عجلون لا من البلقاء

ولم يلق هذا الجيش مقاومة تستحق الذكر فى تقدمه وكان يسير على الجناح الايسر لجيش ابى عبيدة والايمن لجيش فلسطين فاوغل فى البلقاء حتى بلغ بصرى ، وكانت من مراكز الروم الكبرى ، محصنة وذات سوار تدافع عنها قوة كبيرة من الروم والعرب الفسانيين ، فحاصرها ولم يوفق الى فتحها ، وقد تم على يد خالد بن الوليد حينما قدم من العراق وسياًتى وصف ذلك

٣ - جيش عمرو بن العاص

كانت مهمة هذا الجيش من أشق المهمات ، ولذلك كان عدده أ كثر من غيره وكان عليه أن ينازل الروم فى فلسطين ، وان يحتل هذا الاقليم الواسع ويقضى على نفوذ القيصرية فيه

ووقعت بين هذا الجيش وبين الحاميات الرومية معارك فتغلب عليها واستولى على جانب من فلسطين الشرقية والجنوبية وأوغل فى زحفه نحو الشمال خفاف الروم العاقبة فحشروا قوات كبيرة لمقاتلته وأرسل هركليوس أخاه تيودور على رأس جيش كبير نزل فى قيسارية وهى قائمة على الساحل قرب حيفا ، وتقدم حتى جنين ، فانضم الى جيش فلسطين الرومى وكان بقيادة سرجيوس قائد فلسطين العسكرى، ووربما كان هو قائد حامية غزة الذى هزمه ابو امامة فى وادى عربة - فاتخذ الجيشان ويقدرون عددهما بسبعين الفا ، وسارا معاً لمنازلة جيش ابن العاص ، فى نفس الوقت الذى تحرك فيه جيش الروم الاكبر من انطاكية ، وكانت مهمة جيش تيودور طرد العرب من فلسطين واجلاءهم عنها ومضايقة جناح الجيش العربى

الاييسر ومحاولة قطع خط رجعتيه من البلقاء (شرق الاردن) بالظهور من ورائه ورأى عمرو بن العاص انه لا قبل له بمقاومة هذه القوة فانسحب الى الغور (غور الاردن) متجنباً الاشتباك في معركة فاصلة مع الروم ، وكانوا يسعون لجره الى الاشتباك معهم وقصد الجابية فانضم الى زملائه

٤ - ابو عبيدة به الجراح

اتجه ابو عبيدة من معان الى مؤاب فالتقى على طريق الشوبك - الطفيلة بقوة للعدو فهاجمها وهزمها - فخصت له المقاطعة وصالحه اهلها - فواصل تقدمه حتى الجابية ويطلق اسم الجابية على تل في اراضى الجيدور من اعمال حوران وهو اليوم في منطقة ناحية نوى وآثار الانقراض ظاهرة على التل ، وقد كانت الجابية عاصمة الجيدور وكان يدعى يومئذ ايطور ، وبالجابية سمي باب الجابية في دمشق لانه الباب الذى يخرج منه من يقصد الجابية . ويشمل اقليم الجيدور من القرى المهمة في حوران الشيخ مسكين ونوى وجاسم وانخل حتى حدود القنيطرة فالنزيريب وهو على يمين طريق السيارات الحاضر الآخذ من دمشق الى درعا عن طريق الشيخ مسكين ويخترقه الطريق الآخذ من الشيخ مسكين الى القنيطرة والزوية

وزار عمر بن الخطاب وهو امير المؤمنين الجابية مرتين وفيها قرر مقدار طعام الجند ولا يقل ارتفاع تل الجابية اليوم عن ١٠٠ متر وينبع منه ماء غزير يسيل الى قرية نوى نفسها

ولا يعرف الوقت الذى خربت فيه هذه العاصمة القديمة بالضبط واحتل ابو عبيدة الجابية بدون مقاومة تذكر . وتقدم منها الى حمص ، سالكا الطريق الواقع شرقى دمشق، وكان ذلك في نفس الوقت الذى انتشر فيه جيشا يزيد وشرجيل في حوران والنوطة ، فحاصر حمص وغلبها فدخلت في طاعة المسلمين وهى اول مدينة كبيرة في سورية الوسطى دخلت في حوزتهم

كلمة مجملة

هذا وصف موجز للاعمال العسكرية التي عملها العرب في خلال المرحلة الاولى وقد امتدت من شهر ذى الحجة سنة ١٢ (فبراير سنه ٦٣٤) الى شهر رجب سنة ١٣ - سبتمبر سنة ٦٣٥ تقريبا) وانتهت باحتلالهم المقاطعات الآتية : وهى من الجنوب الى الشمال : الشراة ومؤاب والبلقاء والجابية والقوطة ثم محاصرة مدينة دمشق نفسها ، وبصرى واحتلال حمص والتقدم فى شمالها وهى نتائج لا يستهان بها . وكذلك فقد ادرك جيش فلسطين نتائج جديرة بالذكر فبسط نفوذه على معظم اجزاء هذا الاقليم الجنوبية والشرقية ، وكاد يحتله لولا ان عجل الروم بحشد قواهم وعزموا على منازلته فى معركة فاصلة

ورأى قادة الجيش الرومى بعد ماوصلت الحالة الى هذا الحد ، و بعد ان فقدوا القسم الجنوبي من بلاد الشام (ماعدا دمشق) وبصرى و بعد ما كادوا يفقدون فلسطين ، ان يبدأوا العمل فزحفت قواهم الكبرى الى حمص من انطاكية بقيادة تيودور شقيق هركليوس ، والظاهر انه ترك منصب القيادة العامة لجيش فلسطين بعد ما أكمل تجهيزه ، لالبطريق (اريطبون) وجاء الى انطاكية طبقا لاوامر اخيه فتولى قيادة جيشها وسار الى حمص وكانت خطته تقوم على ضرب جيوش العرب الثلاثة الواحد بعد الآخر وطردها الى ما وراء الحدود

ومتى ذكرنا ان حركة هذا الجيش بدأت وحركات جيش فلسطين فى وقت واحد ادركنا ان الروم كانوا يسرون على خطة منظمة محكمة ترمى الى سحق الجيوش العربية والقضاء عليها ، وقد عهدوا بتنفيذها الى جيش عظيم ماخامرهم شك فى انه سينيلهم اغراضهم ، ويقضى على كل محاولة للعرب فى الاستيلاء على الشام ، ولكن ما كل ما يمتنى المرء يدركه

خالد بن الوليد في ميدان الشام

ما كان قادة الجيش العربي بغالين عما يدبره عدوهم ، وما كانوا يجهلون مقدار القوى التي يحشدها لهم ، والخطط التي يسعى لتنفيذها ، فكتبوا الى الخليفة في المدينة يطلعونه على الحالة ، ويسألونه اصدار تعليمات اليهم فيما يعملونه وارسل نجات قوية لقاء الجيوش التي حشدت لهم وأعدت لقتالهم

القواد بطنبور وبنطاور

وتكاتب القواد الاربعة للاتفاق على خطة يسيرون عليها لانهم ادركوا ان تفرقهم مؤذن بالقضاء عليهم ، وتمزيقهم ، فاجمعوا على الجلاء عن المناطق التي احتلها في الداخل وعلى ان يجتمعوا في جوار بصرى من دون ان يدعوا فرصة للعدو للاشتباك معهم ، وكتب عمرو بن العاص بهذه المناسبة الى ابي عبيدة يقول « ان الرأي مثلنا الاجتماع ، فانا اذا اجتمعنا لن نغلب من قلة ، وان تفرقنا لا تقوم فرقة بمن استقبلها الكثرة عدوها »

ونفذ قادة الجيوش الاسلامية هذه الخطة فخلا ابو عبيدة بقواته عن حمص عائدا الى جوار بصرى ، حسب الاتفاق ، وكذلك فعل صاحبه ، فتجمعت الجيوش الثلاثة في حوران : جيش يزيد وجيش شرحبيل وجيش ابي عبيدة . اما جيش عمرو بن العاص فقد اخذ ينسحب تدريجيا على محاذة ضفة نهر الاردن الغربية ، حيث يكون على مقربة من الجيوش الثلاثة فيساعدوها وتساعده عند الحاجة ووفق القادة الى تطبيق هذه الخطة بمهارة زائدة ، فارتدوا بقواهم سليمة من

دون ان يحدث لها حادث يذكر ورابطوا في جوار بصرى ، وامتدت جيوشهم الى جهة اليرموك والمسافة بينهما نحو ٤٥ كيلو مترا ، واخذوا يعدون العدة للمعركة الكبرى الفاصلة ، ولم يبق شك في انها ستدور في تلك المنطقة وقد اختارها قادة الجيش العربي للقاء الروم . لانها كما قلنا من قبل قريبة من حدود الحجاز ومن الصحراء نفسها ، والصحراء حصن العرب الحصين ، ياجأون اليها اذا قضت عليهم بذلك الضرورات العسكرية فيكونون في مأمن من المطاردة واللاحق

ومما هو جدير بالذكر ان الجيش العربي كان في حركاته العسكرية اسرع واخف من الجيش الرومى وتلك ميزة كبيرة ، يقدرها جهابذة الفن العسكري قدرها وقد ساعدت العرب وكانت من جملة العوامل التى ضمنت لهم التفوق فى ذلك القتال الدموى العنيف ، فان قلة المعدات فى هذا الجيش واعتياد جنده شظف العيش وتحمل المشقات ، بعكس ما كانت عليه حالة الجيش الرومى ، وقد اثبت النقاد العسكريون انه كان بطيء الحركة ، كثير المعدات ، تقول ان هذه الاعتبارات مكنت الجيش العربي من تنفيذ الخطط العسكرية التى يضعها قواده بسهولة زائدة وبدون مشقة ولا عناء فعاد الى الاماكن التى اختارها واقام يتربص صدور تعليمات الخليفة (القائد الاعلى للجيش) وقد كتب اليه القواد بما اتفقوا عليه وبانهم تراجعوا الى جوار بصرى فيجتمعون فيها ويلقون عدوهم اذا كان لابد من لقائه وقتاله ، وبالطبع فما كانوا يرمون قرارا نهائيا قبل تلقي تعليماته النهائية

ابو بكر يقر الخطأ

وأقر ابو بكر تصرفات قواده وتدابيرهم ورأى ان افضل مايعمله لمساعدتهم ، هو ان يوعز الى خالد بن الوليد قائد جيش فى العراق ، ان يغادر الحيرة على عجل مع نصف جيشه ، لنجدة جيش الشام ، ويترك النصف الآخر بقيادة المثني بن حارثة الشيباني ، لانه ادرك ان الحالة فى ميدان الشام تقضى باتخاذ تدابير سريعة وحاسمة ،

وما كان في استطاعته (ابى بكر) ان يفعل غير ما فعله ، لشد أزر قواده فقد
 امدهم بأفضل رجاله العسكريين كما امدهم بجيش كبير عدد رجاله عشرة آلاف
 مدر بين على القتال ، ثلثين بنشوة الانتصارات العظيمة التي نالوها على الفرس
 وكان من مقتضى تنفيذ هذه الخطة ، وهي ولا شك من افضل الخطط
 وأجداها ، وقف الاعمال العسكرية الهجومية في العراق ، واتخاذ خطة الدفاع في ميدانه
 وذلك لا يخرجهم ، ولا يزلزل مركزهم فهم قادرون على استئناف الهجوم متى شاءوا
 ومتى رأوا ان الظروف مساعدة ، في حين انهم يقابلون خطرا مستعجلا في الشام لا بد
 لهم من تداركه ودرئه

وهذا نص الكتاب الذي ارسله ابو بكر الى خالد بهذا الشأن :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله بن عتيق بن ابى قحافة الى خالد بن الوليد

« سلام الله عليك : اما بعد فانى امرتك بقتال الروم ، فسارع الى مرضاة الله

وقتل اعداء الله ، وكن كمن يجاهد في الله حق جهاده »

وكتب ايضا الى ابى عبيدة ، بصفته عميد القواد في الشام واكبرهم سنا ومقاما

يعامه بما استقر عليه رأيه من انفاذ خالد اليهم ، ويبلغه انه اتدب للاشتراك معهم وهذا

نص كتابه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله بن عتيق بن ابى قحافة الى عبيدة بن الجراح

« سلام الله عليك : اما بعد فقد وليت خالدا قتال العدو في الشام ، فلا تخالفة ،

واسمع له وأطع ، فانى لم أبعثه عليك ان لا تكون عندى خيرا منه ، ولكننى ظننت

ان له فطنة في الحرب ليست لك . اراد الله بنا وبك خيرا والسلام »

الطريق الذي سلكه فهاد الى الشام

ما كاد خالد يتلقى امر الخليفة او القائد الاعلى للجيش بالسفر الى الشام وكان يومئذ في الحيرة حتى اخذ يعد معدات السفر ويفكر في اختيار الطريق الذي يسلكه في سيره ولا تقل المسافة بين الحيرة وهوران عن ٨٥٠ كيلومترا في صحراء رملية قاحلة لا ماء فيها ولا كلاً وهناك طرق اربعة لا بد له من سلوك احداها في هذه المرحلة الشاقة المحفوفة بالاحطار وهذا بيان عنها :

- ١ - طريق عين التمر (العراق) قراقر، سوى ، ارك ، تدمر ، القريتين ، الغوطة ، بصرى
- ٢ - طريق الفلوجة ، هيت ، دير الزور ، تدمر ، حمص ، النبك ، القطيفة ، دمشق ، بصرى
- ٣ - طريق عين التمر ، قراقر، هيت ، كيسه ، بئر اللوحة ، ابي الشامات ، الضمير ، عنراء ، الغوطة ، بصرى

٤ - طريق الحيرة ، وادي حوران ، الجوف ، الزرقاء ، البلقاء ، اليرموك

تلك هي الطرق التي كان على خالد ان يختار واحدا منها لجيشه ، ولكل منها فوائد ومخاطر لا بد من ملاحظتها وعدم اغفالها ، كما انه لا بد من مراعاة اعتبار آخر وهو ان خالدا كان على عجل من امره ، وكان عليه ان يسرع في الانضمام الى اخوانه والاشتراك في الاعمال التي يعملونها فان للتأخير عواقب خطيرة يخشى نتائجها

ومع ان الطريق الثانية: طريق هيت ، دير الزور ، تدمر اسهلها وان لم تكن اقربها واكثرها ماء وعمرانا ، الا ان وجود مراكز عسكرية ، وحاميات مسلحة فيها لكونها من مناطق الحدود بين الامبراطوريتين الكبيرتين ، جعله يعدل عن اختيارها ، لانه قد يضطر الى الاشتباك مع القوات العسكرية المرابطة في انحاءها .

ولا مصلحة له في ذلك ولا فائدة وهو من امره على عجل ، علاوة على ان اتصاره الحاسم في ميدان الشام ، يحمل هذه الحاميات على تسليم سلاحها من دون قتال ، لانها تدرك انه لا فائدة لها من المقاومة

ورأى خالد بعد اعمال الفكر ، و بعد ان درس الحالة وقلبها على وجوها ان الافضل له ان يسلك الطريق الاولى ، فهي وان كانت اكثرها خطرا ، وأشحها ماء ، الا انها اقصرها مسافة ، وقلها تعرضا لخطر الاشبك مع العدو ، وان كان الامر لا يخلو من بعض قبائل توالى الروم ، وحاميات صغيرة منتشرة في اطرافها وعلى جنباتها

وما كان في استطاعته سلوك الطريقين الباقيين بوجه من الوجوه لان الثاني وقد كان طريق البريد الرسمي ، مشحون بالجند ، كما ان الرابع بعيد ، يحتاج قطعه الى ايام طوال ، مع انه اسهلها وقلها مخاطر ، لعدم وجود اثر للقوات الرومية والفارسية في انحائه

وكتب خالد الى ابي عبيدة من الحيرة الكتاب الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من خالد بن الوليد الى ابي عبيدة بن الجراح

« سلام الله عليك : اما بعد فقد اتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني بالسير

الى الشام ، وبالقيام على جندها ، والتولى لأمرها ، والله ماطلبت ذلك قط ، ولا اردته اذ وليته فأنت على حالك الذي كنت عليه ، لا نصيبك ، ولا نخالفك ولا نقطع دونك امرا ، فأنت سيد المسلمين ، لا تنكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك »

وغادر خالد الحيرة في اوائل شهر صفر سنة ١٣ هـ بعين التمر (غربي كربلاء)

ثم بقرقر (ماء لبني كلب قرب السماوة) فتوقف فيها واستشار اصحابه في الطريق التي يسلكها مقترحا عليهم سلوك الطريق الاولى ، فعارض بعضهم لوعورتها ، وقلة مائها ، وضياع معلمها ، وندرة سكانها ، ولا سيما الجزء الممتد بين قرقر وسوى ، فوقف في وسط رجاله ، وكانوا يثقون به ثقة عمياء ، ويطيعونه اطاعة تامة ، وقد

ذاقوا طعم النصر على يديه ، ولم يقدمهم الى الهزيمة والتراجع والفشل ، وبسط على مسامعهم الاعتبارات التي تجعله يفضل اختيار هذا الطريق على غيره ، ويسرد مزاياه ويقول :

« لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا بان القوة تأتي على قدر النية ، والاجر على قدر الحسبة ، وان المسلم لا ينبغي له ان يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله له ، والله ان لي من هذا ، انه قد اتنى من امير المؤمنين عزيمة بذلك » فأثر فيهم كلامه ، فانصاعوا اليه وانقادوا له ، وقالوا « انت رجل قد جمع الله لك الخير فشانك وما تريد »

واقترح دليل الجيش واسمه رافع بن عميرة الطائي وكان قد جاز هذا الطريق وهو صغير قبل ثلاثين عاما ، ولم يكن بينهم احد يعرفها سواه - على خالد ان يدع الانتقال في قراقر او يخففها على الاقل ، فقال لا بد ان تكون معنا

- والله ان الراكب المنفرد ليخافها على نفسه فكيف انت بمن معك من هذا الجيش

- لا بد من ذلك

- اعطى اذن عشرين ناقه مسانا عظاما . فأعطاه خالد ماطلبه ، فمنع الماء عنها اياما حتى عطشت فأوردتها اياه ، فملاأت جوفها ، فقطع مشافرها وكمها فلا تجتر ، ثم قال لخالد :

سر الآن بالحيول والانتقال ، وكلما نزلت منزلا ، نحرت من تلك الابل اربعا ، ثم أخذت ما في بطونها من ماء فسقيته الخيل وشرب الناس مما تزودوا ، وهكذا نفذ أمر خالد ، وسار الجيش الى سوى والمسافة بينها وبين قراقر مسيرة خمس ليال ، يستريحون بالنهار ويسرون بالليل ، ولما اشرق صبح اليوم الخامس ، وكان عليهم ان يبلغوا سوى ليشربوا من مائها ، وكان العطش قد اجهدهم واجهد دوابهم ، سأل خالد رافعا عن الماء ، وكان قد اصاب عينه رمد ، فقال له : ادركته ان شاء الله

ثم قال لهم هل تجدون شجرة عوسج على هذا الطريق فنظروا فوجدوها

فقال احفروا في اصلها فحفروا فوجدوا ماء فشربوها وتزودوا واتقوا الهلكة وبعد ان استراحوا قليلا واصلوا سيرهم الى ارك وهي اول حدود الروم من جهة الشام ، ولما مروا بمصيخ بهراء - قابلهم اهلها بالاعتداء فادبوهم وهزموهم وغنموا منهم غنائم تزودوا بها ، ثم صالحوهم فواصلوا السير حتى بلغوا تدمر وتقع شرقي دمشق وتبعد عنها ٢٢٧ كيلومترا ، وكانت عاصمة مملكة الزباء القديمة ، وهي من مدن الصحراء المشهورة ومن مراكز الروم العسكرية الكبرى في الشام وبينها وبين هيت (الفرات) ٥٠٠ كيلومتر وقد اجتاز خالد المسافة بين الشام والعراق في ١٨ يوما فقط تحللها فتح بلاد ومقاومة اعداء وهي مدة قصيرة بالنسبة لحالة جيش كجيشه

فالد يفتح شرفى الشام

واصطدم خالد بقوى الروم في تدمر ، وكانت كما تقدم ، من مراكزهم العسكرية الكبرى ، وكان لهم فيها على الدوام حامية عسكرية لتوطيد الامن في الصحراء ولصيانة حدودهم من جهة الفرس ، وقد انشأوا بينها وبين حمص طريقا عسكريا (Strate) لسير الجند وتسهيل المواصلات بين العاصمتين ، عاصمة سورية الوسطى وعاصمة الصحراء

ونازل خالد الحامية الرومية فانتصر عليها ثم صالحها بعد ماخضعت له . فكانت اول مدينة احتلها في الشام ، كما كان انتصاره فيها اول نصر احرزته على الروم ، وواصل سيره فبلغ القريتين والمسافة بينها وبين تدمر ١٣٠ كيلو مترا فقاومه سكانها وحاميتها فقهروها واخضعهما ثم قصد حوارين وبينها وبين القريتين ١٥ كيلو مترا ، ثم اتجه جنوبا قاصدا غوطة دمشق فبلغ الثانية او ثنية العقاب وهي اصطلاح جغرافى عربى قديم - يطلق على الجبل الممتد من آخر سهل دوما شمالى دمشق وانت صاعد الى القطيفة ، كما يطلق اسم الثنية على جهات خان العروس وانت صاعد من

القطيفة الى النبك على طريق السيارات العام في الوقت الحاضر بين حمص ودمشق .
والثنية التي وقف عليها خالد واشرف على غوطة دمشق عنها هي الاولى وقد اطلق عليها
اسم ثنية العقاب لان خالدا نشر رايته العقاب على ما قاله اكثر المؤرخين
والمسافة بين دمشق والقطيفة ٣٧ كيلو مترا وطرف الثنية المشرف على الغوطة
في منتصف هذه المسافة ، والمرج الذي اغار فيه خالد على الروم هو مرج رانط ،
وهو معروف اليوم بالمرج ومن اعمال قضاء دوما اندى يبعد عن مركز دمشق
١١ كيلو مترا ويقع الى جانب قرية عذراء ولذا يطلق عليه احيانا اسم مرج عذراء
وهو في طرف غوطة دمشق للشرق الجنوبي ويتصل بها اتصالا وثيقا وبينه وبين مدينة
دمشق نفسها بضعة عشر كيلوا مترا فقط

وصف غوطة دمشق

يطلقون اسم الغوطة على الواحة الخضراء المحيطة بدمشق من جهاتها
الاربع ، وهي مما يسقيه نهر بردى وينبع قرب الزبداني على مسافة تبعد نحو ٣٠
كيلومترا في غربي دمشق ويسير مائة اليها فيسقى المزارع والحقول ويشق
واديا يسمى « وادي بردى » وقبل ان يدخلها يتفرع الى سبعة انهار بين
متزهي الربوة ودمر تدخلها من جهات مختلفة ثم يجتمع اكثرها في شرقيها بعد ان
تسقى المدينة كلها ، في مكان يسمى الصوفانية ، وذلك طبقا لنظام محكم بديع انشاء الروم
ثم يتفرق ماء النهر بعد اجتماعه في الصوفانية في جداول واقفية تتفرع شرقي الغوطة
وشمالها ويسير فرع الى جنوبها فير ويها على مسافة تمتد حتى ٢٠ كيلومترا الى الشمال
والشرق والجنوب ، ويصب ماء النهر في بحيرة عتيبة وتبعد عن دمشق نحو ٣٥
كيلومترا ، وهي في آخر المرج من الجهة الشرقية ، وتكثر في الغوطة الاشجار
والبساتين بفضل هذا النهر المبارك ، ولولاه لم تكن حدائق دمشق ورياضها الغناء
وخائلها الجميلة ، بل لكانت جزءا متمما للصحراء وتكتنفها من جهاتها وبلغت
حدودها جبال لبنان الشرقية

انتصار خالد في المرج

والتقى خالد في المرج بقوة عسكرية لبنى غسان حشدتها القائد الرومي وولى قيادها الحارث بن الایهم ، وناط بها عرقلة حركات خالد العسكرية في الغوطة والحيلولة دون انضمامها الى الجيش العربي في حوران ، ويدل هذا الحشد على ان هيئة اركان حرب الجيش الرومي كانت تتبع حركات خالد العسكرية في الشرق وتعرف احتلالها لتدمر واتجاهها نحو الجنوب لنجدة الجيوش المرابطة هنا ، فحشدت هذه القوة لمقاومتها وصد تقدمها ومع اننا لانملك بيانا عن عددها الا ان دلائل الحال تدل على انها لم تكن قليلة ولولا ذلك لما حدثتها النفس بالوقوف في وجه خالد ومحاولة صده وقتاله ومعه عشرة آلاف جندي

و رأى خالد انه لا بد له من منازلة الغسانيين ليشق له طريقا الى الجنوب ، فاغار عليهم . ويقول المؤرخون ان غارته هذه حدثت يوم ١٨ صفر سنة ١٣ و ٢٤ ابريل سنة ٦٣٤ وكان ذلك يوم عيد الفصح ، وكان الغسانيون يعيدون فيه مع الروم فلم يقوهؤلاء على الوقوف في وجهه ، فارتدوا الى قلعة دمشق وفتحوا له الطريق فواصل سيره الى بصرى والمسافة بينها وبين دمشق ١٧٠ كيلومترا ، بعد ماغتم منهم غنائم كبيرة وزعها على رجاله ، فازدادوا اقداما وشجاعة ، وليس كالتصر يؤثر في النفوس ، و يضرم الحماسة في الصدور

خالد يفتح بصرى

وواصل خالد زحفه مخترقا الغوطة من الشمال الى الجنوب ، حتى بلغ قناة بصرى ، وكانت بصرى لم تفتح حتى ذاك العهد ، وكان المسلمون يحاصرونها ، وكانت الحصن الوحيد الباقي للروم في الجنوب ، فهاجمها واصلاها حربا عوانا حتى فتحها

معركة اجنادين الاولى

بلغ الجيش الروماني الاكبر ، حمص بعد مسيره من انطاكية فاحتلها ، بدون
عناء ، وكان ابو عبيدة قد سبق بجلا عنها عسكريا ، واعاد يوم رحيله الجزية
(الضريبة) الى اهلها قائلا لهم :

« يا اهل حمص :

« قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم ، فأتم على امركم » فاجابوه بصوت
واحد - وكانوا قد ذاقو طعم العدل العربي الاسلامي ، بعد ما تجرعوا صاب الارهاق
والظلم الرومي الاوربي : « لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ،
ولندافعن ضد هركليوس عن المدينة مع عاملكم »

واتقم الروم من اهل حمص شر انتقام حينما بلغوها ، ونكلوا بسكانها لانهم
والوا العرب وايدوهم ، وتظاهروا بكره الروم ومقتهم

وواصل الجيش الرومي مسيره فبلغ دمشق بعد ذلك بقليل ، ويلاحظ من سير
الحوادث ، انه بلغها في نفس الوقت ، الذي وصل فيه خالد الى حوران ، فنزل فيها
واخذ قواده يرقبون الوقائع ويعدون عدتهم ، للزحف الى حوران ولقاء جيش
العرب الاكبر ، ومنازلته ، وكان لا بد من وقوع هذه المعركة بعد ما تقدم ، فمن فاز
في سوقها ورجحت كفته فهو سيد بلاد الشام

واجتمع خالد الى قادة الجيوش في اليرموك : ابو عبيدة ويزيد وشرحبيط ،

والى اقطاب الصحابة ورؤساء الاجناد ، ودرس الموقف العسكرى عن كذب واطلع على التفاصيل ووقف على المعلومات التى يجب ان يقف عليها ، كما درس موقف جيش ابن العاص ، وكان ينسحب كما قلنا على محاذاة ضفة نهر الاردن الغربية ، قاصدا الغور « غور الاردن » ويقع فى طرف شمالى فلسطين الشرقى للاتجاء اليه حيث يكون على اتصال بجيوش العرب الاخرى ، وكان سرجيوس قائد الروم يتعقبه ويسعى لى يجره فيشتبك معه فى معركة ميدان فاصلة ، وما كان عمرو يجهل انه ليس من مصلحته الاشتباك بمثل هذه المعركة ، لفقد النسبة بين قواهما فهنا جيش لايزيد عدده عن ثمانية آلاف مقاتل على اكثر تقدير وهنالك ٧٠ الفا مجهزون بافضل انواع سلاح ذلك العصر واكمله واتقنه

وادرك خالد بعد ما درس الموقف العسكرى انه لا مناص له من اختيار احدى خطتين : فاما ان يسرع فينحدر من جبال حوران وينضم الى جيش عمرو ويخوض وياه معركة فاصلة مع جيش سرجيوس فيقضى عليه فيعزز بذلك مركز جناح الجيش العربى الايسر ويصون خط رجته ، ويوطد مركز المسلمين فى فلسطين وحوران ، واما ان يجمع جموعه ، ويوعز الى عمرو بالانضمام اليه ويقف فى مكانه بانتظار قدوم الروم فينازلهم مجتمعين وبيدل جهده فى التفوق عليهم

ومع ان الاخذ بهذه الخطة هو الاسلام ، الا ان خالدا فضل الاولى ، لان التغلب على جيش فلسطين الرومى وتشتيته يحفظ للعرب خط رجعتهم ، ويعزز مركزهم علاوة على انه يجعلهم فى موقف يستطيعون معه ان يهددوا جناح الجيش الرومى الايمن ، ويجعلونه يحسب حساب حركة احداق يقومون بها من الورا ، فيضطر لاتخاذ تدابير خاصة تشغل جانبا من قواه ، اى انه يصبح مهددا (بالفتح) بعدما كان مهددا (بالكسر) ولما كان خالد بمن اعتاد خوض المنايا وكان يعول على رجاله كثيرا وقد خبرهم فى المهمات والمهمات وهزم بهم جيوش كسرى فقد صحت عزيمته على تنفيذ الخطة الاولى ، فانحدر من اليرموك الى سهل فلسطين بعد ما اصدر امرا الى عمرو بن العاص بان يعدل خطة مسيره ويستدرج جيش فلسطين الرومى ، ثم

يأتيه هو من الوراء فيحمل عليه ويشتركان في النزال

ونفذ عمرو الخطبة باحكام فارتد نحو اجنادين وقد تقدم وصفها

وهنالک وقف للروم وأعد عدته للمعركة الفاصلة ، فجعل الضحاک علی جناحه

الایمن ، وسعيد بن خالد بن العاص علی الجناح الايسر وأبا الدرداء علی الساقة وتولى هو

قيادة القلب وحوله اهل مكة ، ونادى فی الناس ان يلزموا اما كنهم ويثبتوا وقال لهم

« اصبروا علی قضاء الله وارغبوا فی ثواب الله » كما امر الحفظة بتلاوة القرآن

ويقول المؤرخون ان هذه المعركة دارت يوم ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٣ و٧

يوليو سنة ٦٣٤ وان المسلمين ابلاوا فيها بلاء حسنا وهزموا الروم هزيمة شنعاء وشتتوا

جيشهم فلجأت فلوله الى القدس وتحصنت وراء اسوارها ، فغنم العرب غنائم كثيرة

وارتدوا علی الفور الى اليرموك ، من دون ان يطاردوا عدوهم لانهم كانوا من امرهم

على عجل ، وكانوا يتربصون من ساعة الى اخرى ان تدور المعركة الكبرى في ذلك

الميدان

اليرموك

رافق النصر اعلام خالد من ساعة دخوله حدود الشام فاحتل ارك وتدمر والقريتين وهزم جيوش بنى غسان في المريج واخضع الغوطة واحتل بصرى ثم كلل فوزه بالنصر العظيم الذى ادركه في معركة اجنادين وكان له اثر بليغ في نفوس المسلمين خاصة ، وفي نفوس اهل الشام عامة وكانوا يرقبون النضال الدائر بين الفريقين بفارغ صبر

ولا ريب ان اتصارات العرب المتتابعة اضعفت القوى الادبية في صدور الروم وافقدت جيشهم الشمالى - وقد اصطلحنا على ان نسميه الجيش الاكبر - عضدا قويا كان يرجو مساعدته وتأييده ، ويطمع في ان يقضى على جيش ابن العاص ويرى منه ويهدد جناح عدوه الايسر في اليرموك على الاقل اذا لم يقم بحركة التفاف من ورائه وذلك بان يجتاز الاردن قرب اريحا ويوغل في سهل الاردن سائرا من الجنوب الى الشمال فباغت المسلمين في اليرموك ويهاجمهم من الورا ، فلما هزم هذا الانهزام الشنيع ، اسقط في يده وكان لانهبامه صدى غير مستحب بين رجاله وتفرغ العرب بعد معركة اجنادين لحرب الروم ولم يبق هنالك شاغل يشغلهم ولا قوة في الجنوب الغربى يحسبون حسابها بعد ما هزموا جيش اجنادين وشتوه ، وصار عليهم ان ينازلوا جيش تيودور وينجزوا امره ، وكان من الجيوش الكبرى التى جهزها الروم وكانوا يعلقون عليه آمالا كبيرا ويرجون انقاذ بلادهم بل امبراطوريتهم على يده

ونحن في غنى عن القول ان الفوز المتتابع الذي لدرکه العرب خلال الدور الاول سواء في البلقاء او حوران او في الغوطة او في المنطقة الشرقية ، او في فلسطين ، اثر في نفوسهم فهم لم يهزموا في معركة واحدة ، مع انه دارت معارك شتى بينهم وبين الروم ، ولئن لم تكن حاسمة ، فان بينها ما لا يستهان به كعركة الغوطة ومعركة بصرى ومعركة اجنادين ومعركة وادي عربة وغيرها من المعارك الاخرى ، فاقبلوا على خوض المعركة الكبرى ، وهم اكثر ما يكونون ثقة بالله ثم بأنفسهم بان النصر سيكون لهم وان الدائرة ستدور على اعدائهم ، والكتاب يقرأ من عنوانه ، والفوز لمن يضرب الضربة الاولى

نظام العرب العسكري في اليرموك

عباً خالد جيش المسلمين يوم اليرموك تعبئة جديدة لا عهد للعرب بمثلها ، ولم يعرفوها في تاريخهم العسكري فقد ادرك حينما وقف امام الروم وجها لوجه وبعد ما حارب الفرس والعراق ، انه لا بد من تعديل قواعد التعبئة التي يسير عليها العرب في حروبهم ، وان ما كان يصلح لهم ويلائمهم في حروبهم داخل الجزيرة ، يوم كانوا قبائل يقاتل بعضها بعضا ، وما كان عدد الذين يشتركون في المعركة منهم يزيد عن مئات لا يلائمهم ولا يصلح لهم بعد ما اصبحوا يملكون جيشا لجبا لا يقل عدد رجاله عن ٤٠ الفا ، ويقفون امام جيش لا يقل عدده عن مائة الف او اكثر ، ويعد من اعظم جيوش العالم

ونفذ خالد خطته بلا ابطاء ولا تردد ، شأن كبار القواد وعظماهم ، الذين لا يعرفون للتردد معنى ، فقسمه الى كراديس بلغ عددها ٣٦ كـردوسا وقيل ٤٠ ويقدر عدد رجال الكردوس الواحد بألف ، وعين لكل كردوس قائدا يقوده ، ثم الف من هذه الكراديس فرقا ، فجعل كل ١٠ منها فرقة ، فكان عدد الفرقة الواحدة عشرة آلاف مقاتل تقريبا ، وعين لكل فرقة قائدا كبيرا اي انه نظم قواته طبقا للنظام

المتبع في عصرنا تقريبا وبموجبه يتألف الجيش من حظيرة (عدد رجالعاشرة) ثم فصيلة وعددها ٨٠ ثم سرية وعددها ٢٥٠ فكتيبة وتتألف من اربع (سرايا) اى الف جندى ، فلواء ويتألف من ثلاث كتائب ، وفرقة وتتألف كل فرقة من لواءين ففيلق ويتألف كل فيلق من فرقتين او ثلاث فجيش (Armé) ويتألف من ثلاثة فيالق

اسلوب القتال عند الروم والعرب

ولا يخفى ان اسلوب القتال او طريقته ، تعدل تعديلا كبيرا عند الروم على يد يوليوس قيصر ، فقد كان من قبله يقوم على قاعدة اللجيون (Legion) ويتألف اللجيون عادة من عشرة كراديس ، وكانوا يعبئون الكراديس في خطين عند القتال كل خمسة منها في دائرة وبينها فاصلة ، على ان تقف كراديس الخط الثانى وراء فاصلات الخط الاول

ويقضى التعديل الذى ادخله يوليوس بان يقف اللجيون (١٠ كراديس) في ثلاثة خطوط على المنوال الآتى : اربعة في الخط الاول ، وثلاثة في الخط الثانى ، ومثلها في الخط الثالث

وكان رماة الجيش الرومى - وكانوا يرمون بسهام او حراب - يقفون اسام الكراديس ، وتؤلف القلب (المركز) وينشبون القتال ، ثم ينسحبون الى الجناحين وتحمى الحيلة الجناحين ايضا على النسق المتبع الآن

وكان الروم يكثر من الحيلة في جيشهم وكان لها شأن خطير عندهم اما العرب فكانوا يعولون في حروبهم الاولى على الكر والفر ، وما كانوا يعرفون نظام اللجيون او غيره من الانظمة والاساليب التى كانت متبعة في الجيشين الرومى والفارسى وكانت هنالك دولتان كبيرتان من ورائهما تعززهما وتنفق عليهما وتسهر على ترقيتهما وتقدمهما ؛ فقد كانت حروب العرب في داخل جزيرتهم تقتصر في الغالب على غارات يشنونها بعضهم على بعض ، ويعولون فيها على « المفاجآت »

فيفاجئ الحصم خصمه في عقر داره من دون انذار او اخبار ومن دون ان يكون قد استعد الاستعداد اللازم ، فيأخذه اخذ عزيز مقتدر ، ويفتك به اذ يكون في الغالب على غير استعداد ، وقد اتبع المسلمون هذه القاعدة في حروبهم الاولى كما يظهر لمن تتبع اخبار قتالهم ، فكانوا يعولون عليها كثيرا . وقد رأيت مرافق الجيش الذي زحف على مكة وفتحها من كتان زائد ، وكيف انهم ارسلوا فقتلوا الطريق بين مكة والمدينة في خلال التعبئة ومنعوا الاتصال بين البلدين فلا يذهب احد من المدينة الى مكة ، وما ارادوا بذلك الا ان يباغتوا قريشا ويأخذوها على غرة . ولا يزال هذا النظام هو المتبع عند قبائل العرب في داخل الجزيرة ، فهي تترقب فرصة من عدوها ومتى لاحت لها وادركت انها قادرة على ان تنال منه انتقضت عليه وباغتته ، على انها قد تعدل احيانا عن مهاجمته ، اذا تبينت انه على استعداد للقائها ، لانها تأبى المجازفة

وعلى كل حال نفالده هو اول من ادخل نظام التعبئة في الجيش العربي طبقا للاساليب التي كانت متبعة في الجيش الرومي مع تعديل يذكر ، فهو لم يحجم عن اقتباسها حينما رأى ان ذلك يفيد في منازلة خصمه وكان يفوقه عددا وعددا واسلحة وتدريباً . وكان ذلك من جملة الوسائل التي يسرت له ذلك الفوز العظيم

وصف وادي اليرموك

وادي اليرموك هو احد اودية حوران ينبع ماؤه في اراضي الثريان (اراضي قرية انخل) ويسمى بنهر الهرير ويمر بين شمسكين ونوى ثم باراضي داعل فطفس ثم بجانب قرية قديمة تدعى تل الاشعري ، وهناك ينحدر ماء نهر الهرير في واد يقرب عمقه من ٥٠ متراً ويزداد انخفاضه بالتدرج ومن عند هذا الشلال يطلق عليه اسم اليرموك

ويعرف الشلال بشلال اليرموك ويسير في هذا الوادي الى جسر سكة حديد الحجاز بين محطتي زيزون والمقارن وهو الى المقارن اقرب ، ويلتقي في جانب المقارن بمياه شلالى زيزون وتل شهاب وبمياه وادي الشلال المنحدرة من اراضى ناحية الرمتا في شرقي الاردن ، وهذا هو سر تسمية المحطة بمحطة المقارن ، ويتابع نهر اليرموك سيره في هذا الوادي الذي يطلق عليه من محطة المقارن اسم اليرموك اما من تل الشهاب الى المقارن فيسمى وادي تل شهاب فوادي زيزون او وادي الذهب ويمر اليرموك بمحطتي وادي خالد ثم باراضى سمخ الى ان يصل الى جسر الجامع فيصب هناك في نهر الاردن وهناك المكان الذي اقيم فيه مشروع روتمبرغ الصهيوني لتنوير فلسطين والوادي الآخذ من تل شهاب الى سمخ يبلغ طوله نحو ٥٨ كيلو مترا ويقطع نهر اليرموك من محطة المقارن الى جسر الجامع نحو ٦٢ كيلو مترا . اما من تل الاشعري حيث شلال اليرموك الى جسر الدورة فلا يزيد طوله على ٨ كيلو مترات ، وفي وادي اليرموك الآن محطة اسمها وادي خالد تقع في الكيلو متر ١٨٠ من دمشق ، يقولون انها قد تكون اضيفت الى خالد بن الوليد لبعض اسباب لم نستطع كشفها بعد، ولا يمكن ان يحشد في جهات المحطة الا بعض السرايا القليلة العدد تتراوح بين ٥٠ و ١٥٠ جنديا او اكثر بقليل ، وفيه آثار احراش صغيرة ، وجبال وادي اليرموك وتلاله صغيرة والوادي ضيق لا يمكن ان تجرى فيه حركات عسكرية وهو يصلح لالتجاء عصابات وافراد . وقد كانت الحكومة العثمانية تعجز عن تعقب الجناة الذين يلجأون الى هذا الوادي ، ويتصل من شماليه باراضى الزوية ولا تزيد المسافة بين الوادي وغوطة دمشق في خط مستقيم عن ٨٠ كيلومترا ولبس في الوادي سكان ضيقه ومعظم القرى على طرفيه ولا نذكر ان فيه مزرعة عامرة الا الخيبة الواقعة على مقربة من محطة الحمة ، وفي جوار الوادي عرب يدعون المناظرة بالظاء ولعلمهم اقيموا للمناظرة على الامن والمحافظة على الطريق . والوادي من تل شهاب الى سمخ يؤلف الحد الفاصل بين سورية وشرقي الاردن في هذه الايام ، فالاراضى الواقعة على ضفته اليمنى لسورية والاراضى الواقعة على ضفته اليسرى لشرقي الاردن

تعبئة المسلمين العسكرية في اليرموك

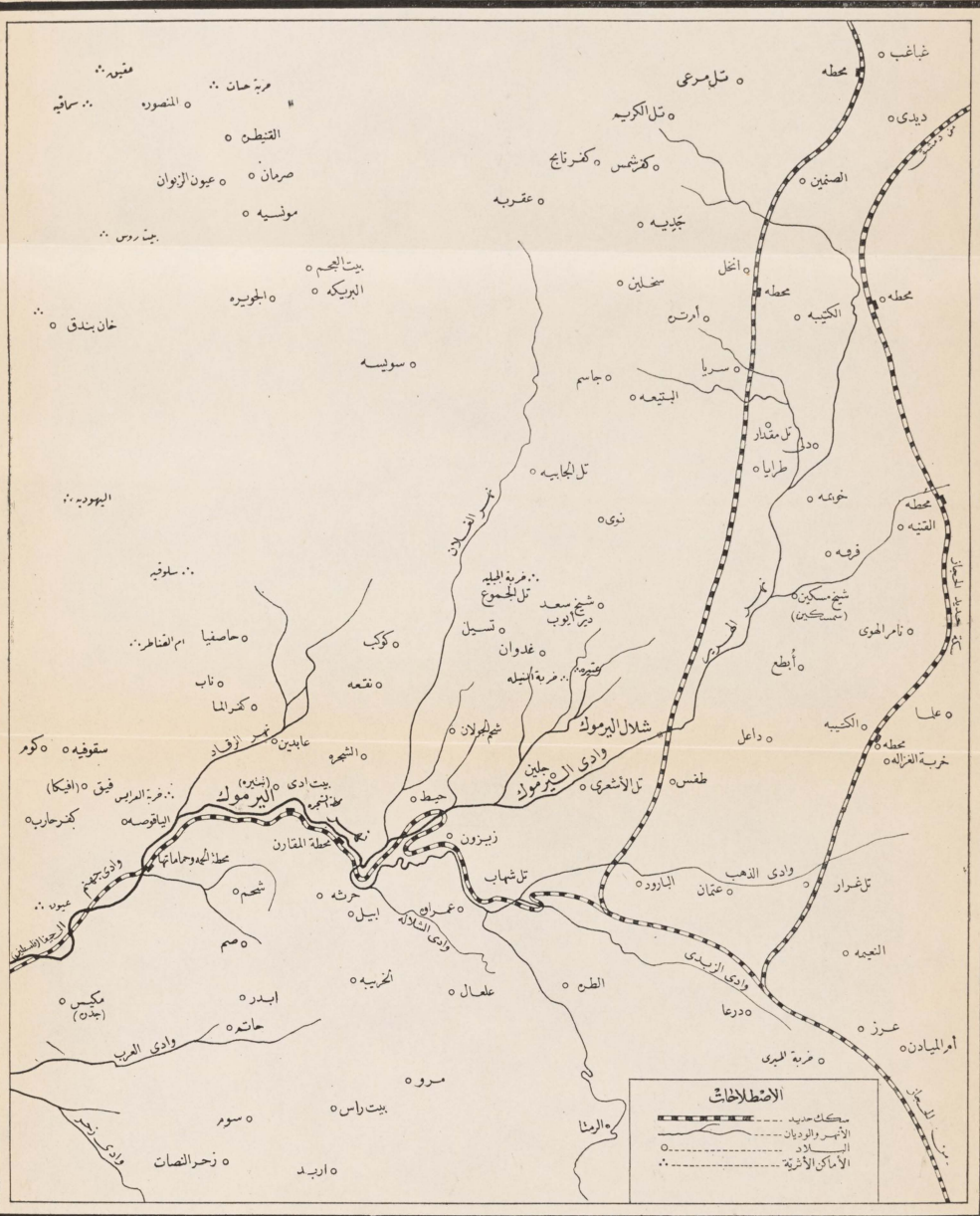
يقول بعض المؤرخين ان ابا سفيان بن حرب هو الذى اختار وادى اليرموك للقتال ، ويقولون فى تعليق ذلك ان قادة الجند الاسلامى اجتمعوا فى خيمة يزيد بن ابى سفيان فى الجابية ، بعد جلأئهم عن الاقسام الشرقية والوسطى ، للنظر فى الموقف العسكرى ، و بينا هم يتذاكرون ويتشاورون ، جاء ابو سفيان ، فادخلوه للاسترشاد برأيه ، وهو القائد الخبير الذى جاب الشام وعرف طرقه ومخابئه ، فقال لهم ان معسكركم هذا ليس بمعسكر ، انى اخاف ان يأتىكم اهل فلسطين والاردن فيحولوا بينكم وبين حدودكم من المدينة فتكونوا بين عسكرهم فارتحلوا حتى تجعلوا اذرعاً (درعا وهى عاصمة حوران الادارية فى الوقت الحاضر اى انها حلت محل بصرى فى العهد القديم وتبعد عن دمشق ١٢٨ كيلو مترا بالخط الحديدى اما بطريق السيارات فتبعد ١٠٣ كيلو مترات فقط وهى جنوب دمشق وتعد من محطات سكة حديد الحجاز الكبرى وفيها مركز تقاطع ثلاثة خطوط تمر بها : خط دمشق وخط حيفا وخط المدينة) فأتىكم المدد والذخيرة . وقد عملوا برأيه لما تبينوا من صوابه . فارتحلوا الى اليرموك ونزلوا على ضفته اليسرى ونزح انهم نزلوا فى جهات تل الاشعرى وامتدوا حتى تل شهاب وضربوا خيامهم ، ورتبوا صفوفهم طبقا للنظام الجديد الذى وصفناه آنفا على ان خالد بن الوليد لم يكن وصل الى اليرموك لما عقد هذا الاجتماع

ثلاثة صفوف لا صف واحد

وعملا بالنظام الجديد الذى اقتبسه خالد ، انشأ العرب ثلاثة صفوف فى اليرموك او ثلاثة خطوط دفاع كما يقولون فى الاصطلاح العسكرى الحديث ، وحشدوا الرماة على الجناحين

وقاد الجناح الايمن عمرو بن العاص والجناح الايسر يزيد بن ابى سفيان وانشأ

خريطة اليكزموك



الاصطلاحات

	مركز حديد
	النهر والوديان
	السيادة
	الاماكن الأثرية

هاشم بن عتبة بن ابي وقاص ، واقام ابا عبيدة في القلب (المركز) مع فرقة تحت راية ابي بكر وقد عقدها له يوم سفره الى الشام وهي راية رسول الله الصفاء التي سار بها الى خيبر . اما خالد فوقف في الوسط تحت راية العقاب ، راية رسول الله ، وهي التي ركزها في ثنية العقاب حينما اطل على غوطة دمشق ، وحواله كبار الصحابة واقطابهم وشيوخهم

نساء المسلمين في المبراه

وانزل المسلمون نساءهم وكن يصحبهم في غزاهم على تل في مؤخرة جيشهم - لعاه تل شهاب وهو احصن تل لحماية النساء ويمكن ان يمنع بضعة اشخاص متحصنين فيه جيشا لجبا من الصعود اليهم بسهولة ويديه في حصاته تل الاشعري - مع اطفالهم وذراريهم وكانت المرأة العربية تشارك زوجها في الخطير من غزواته وحروبه ، وكان من عاداتهم ان لا يصحبوا النساء والزراري الا لحادث عظيم او اذا كانوا يريدون الثبات الى النهاية والاستماتة ، وكان للمرأة العربية وظائف تؤديها في ميدان الحرب وفي مقدمتها العناية بالجرحى والمرضى اولا ، ولم تكن هناك « هيئات صحية » كما هو الحال في زمننا ، وتوزيع الماء على المجاهدين في اثناء المعركة ثانيا ، فائارة الحماسة في الصدور بما ينشدنه من اناشيد ويلقيه من كلمات ثالثا . وكانت تشارك في القتال اذا لزم الامر . وترد الرجال بالقوة ، اذا حاولوا الفرار وتحملهم على الثبات والنضال حتى النفس الاخير ، وطالما افادت هذه الخطة وعادت على متبعها بالفوز الجزيل

اسماء السيرات اللواتي اشتركن في المعركة

ولا نعرف بالضبط عدد السيدات القرشيات المسلمات اللواتي شهدن معركة اليرموك وانما نقول ان في مقدمتهن السيدة اسماء بنت ابي بكر الصديق زوجة الزبير

ابن العوام، وهند بنت عتبة زوجة ابى سفيان والدة معاوية، وأم ابان زوجة عكرمة ابن ابى جهل، وخولة بنت الازور، ونسيبة بنت كعب، وغرة بنت عامر بن عاصم الضمرى، ورملة بنت طليحة الزبيرى، وامامة وزينب، وهند، ويعمر، وسمية بنت عاصم الخولانى، وعفيرة بنت غفار وغيرهن

وزار ابو عبيدة مقر النساء قبل المعركة وقال لهن : خذن بايديكن اعمدة البيوت والحيام واجعلن الحجارة بين ايديكن وحرضن المسلمين على القتال ، فان كان الامر لنا والظفر، فكن على ما اتنن عليه ، وان رأيتن احدا من المسلمين منهزما ، فاضربن وجهه باعمدتك ، وارجعنه بحجارتكن ، وارفعن اليه اولادكن وقلن له قاتل عن اهلك وعن الاسلام »

وقاد سعيد بن زيد الظعن ووقف مع ٥٠٠ مقاتل للدفاع عنه وحمائته من العدو وكان فى المؤخرة كما تقدم وكذلك اقام خالد طلائع امام جبهة جيشه بقيادة قباث بن اشيم ، وهكذا اتم تعبئة قواه على افضل نظام واكمله

تعبئة الجيش الرومى

لم يحدد مؤرخو الدولة الرومية الوقت الذى خرج فيه تيودور بجيشه من دمشق لقتال الجيش العربى ؛ على ان جميع الدلائل تدل على انه غادرها فى اوائل شهر اغسطس سنة ٦٣٢

وبين المؤرخين خلاف فى الفريق الذى اختار اليرموك ، فمؤرخو المسلمين يقولون ان قادة الجيش الاسلامى هم الذين اختاروه عملا بمشورة ابى سفيان على اثر اجتماع الجابية ، وكان بصفته شيخ قریش وعميدها ، يقوم بوظيفة رئيس هيئة اركان الحرب لخالد بن الوليد فى ذلك الميدان ، ويقول غيرهم من الباحثين الاوربيين الذين كتبوا عن اليرموك ان تيودور هو الذى اختار المكان ، لا المسلمين ويؤيدون روايتهم بما يروونه وهو ان هركليوس - وكان مقبيا فى حمص ينتظر نتيجة

النضال الدائر في الجنوب ، يجهز القوى ويرسلها - كتب الى اخيه حينما بلغه نبأ هزيمة جيش فلسطين ، يأمره ان لا يوغل كثيرا في زحفه الى الجنوب ، بل يختار موضعا دفاعيا حصينا ، يحمل العرب على مهاجمته فيه ، وان لا يكون مهاجما لهم ، فعملا بهذه الاوامر اختار وادى اليرموك لميزات حربية ادركها فنهز الاردن وبحيرة طبرية عن يمينه يحميان جناحه الايمن ، ووادى اليرموك يصون جبهته وجانبا من جناحه الايسر وخطوط مواصلاته امينة ومحفوظة ومنظمة ، وهو قريب من دمشق ، وكانت محصنة وتعد من قواعدهم العسكرية الكبرى ويلوح لنا ان الرأى الاول هو الاصح وقد رجحناه بناء على اعتبارات ذكرناها

وقضى الروم نحو خمسة اسابيع باليرموك ينظمون صفوفهم ويعبئون قواهم ، ويأخذون اهبتهم

ومما يستحق الذكر انهم اتبعوا نفس الطريقة التي اتبعها المسلمون في اثاره الروح الدينية واضرامها ، فحشدوا في جيشهم عددا كبيرا من القسس والرهبان بصلبانهم وشاراتهم ، يحضون الناس على الثبات ، ويبنون لهم مايولده التخاذل من عواقب سيئة على الامبراطورية الرومية والدين المسيحي ، ويشرونهم بجزيل الثواب اذا قاتلوا وثبتوا . وبالاجمال فاعتماد الفريقين على هذا الضرب من ضروب الدعاية والتشويق يدل على ما كان للروح الديني من مقام عندهم كما يدل دلالة خاصة على ان الروم كانوا بصفتهم اصحاب الدولة المسيحية الكبرى في الشرق يحاولون اثاره الرأى العام المسيحي على اصحاب الدين الجديد ، فينهض لقتالهم ويتحمس لنزالهم . وقد فعلوا ذلك من قبل في نضالهم مع الفرس فاستثاروا العاطفة الدينية في صدور ابنائهم واستنفروهم فنفروا خفافا وثقالا بعد ما كانوا جامدين ، خاضعين ، فقم لهم الفوز وربحوا المعركة

وكان الجيش الرومي في اليرموك خليطا من امشاج شتى ومن عناصر مختلفة

تمثل سكان الامبراطورية الرومية ، فكان الروم وعليهم المعول في القتال ، ومنهم الامراء والقواد ورؤساء الجند ، والارمن من سكان ارمينية (الاناضول وقفقاسيا) وكانوا خاضعين للامبراطورية الرومية ويعدون في جملة رعاياها وكانوا يؤيدونها ويشتركون معها في بعض الاعمال العسكرية والفرس وغيرهم

وكان هنالك عدد غير قليل من متطوعة العرب المنتصرة وقد حشرهم الروم حشرا من قضاة وغسان وكلاب ، وكانوا يعتمدون عليهم في اعمال الكشف والاستطلاع ، ولا ريب ان وحدة العنصر في الجيش العربي ، اكسبته تفوقا وامتيازاً على هذا الجيش « المختلط » ولكل فريق منه نزعة خاصة ، وغرض يختلف عن غرض صاحبه ، ومعنى ذلك انه لم يكن له مثل اعلى يحارب لأجله ، ويستسهل الموت في سبيله ، ويتسابق الى ورود منهاه ، بعكس المسلمين الذين كانوا يحاربون لغرض اسمى واجل ، وهو نشر دينهم واذاعة تعاليمهم لا يبغون من وراء ذلك ثوابا عاجلا

المسلمون برعورهم الى السلام

وعملا بالخطة التي جرى عليها المسلمون في حروبهم ونفذها خالد في العراق ، ارسل الى قائد الروم وفدا يعرض عليه شروط المسلمين المعروفة لحقن الدم وهي :

١ - الدخول في الاسلام

٢ - دفع الجزية في حالة الرفض

٣ - تحكيم السيف في حالة رفض احد هذين المطالبين

ورأس ابو عبيدة بن الجراح وفد المسلمين الى تيدور ، فأعد هذا سرادقا فخما اراد ان يستقبلهم فيه فأبوا الدخول وقالوا « ان ديننا يمنعنا من افتراش الحرير والديباج ،

ودارت مفاوضات بينهم و بين تيدور عرضوا فيها اقتراحاتهم ، وبالطبع فقد كان جوابه الرفض ، والمفهوم انه حاول عقد اتفاق سلمى يرجعون بموجبه عن الشام مقابل اموال ينقدونها ، وهدايا توزع عليهم ، فأبوا وقالوا لا سلام الا بالدخول في الاسلام او دفع الجزية

الزحف

اتم الفريقان تعبتئهما واخذا اهبتئهما ، وانقطعت المفاوضات السامية وعاد الوفد الاسلامى واصبح الحكم للسيف وحده ، فاما ان يفوز المسلمون فيملكوا الشام ويحياوا الروم ، واما ان يفوز هؤلاء فيرجع العرب الى جزيرتهم ، ويتحصنون وراء رمالهم موغلين في بيئاتهم وصحاريهم
وتقدم الجيش الرومى للنزال وبرز رجاله وقادته وكان على مقدمته البطريق سرجيوس وعلى جناحيه ماهان والدراقص ، وكان رجاله يملأون الوادى وما حوله من هضاب

وبرز المسلمون للقتال ، وكانوا معبئين على النوال الآتى :
فرقة القلب بقيادة ابى عبيدة ومهمتها منازلة قلب العدو
الجناح الايمن بقيادة عمرو بن العاص ومهمته قتال جناح العدو الايسر والقيام بحركة التفاف حوله

الجناح الايسر بقيادة يزيد بن ابى سفيان ومهمته قتال جناح العدو الايمن
وامر خالد بن الوليد حينما دنا وقت القتال المقداد بان يتلو سورة الانفال
وخطب قائلاً :

« ايها الناس
« هذا يوم من ايام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى ، اخلصوا جهادكم ،
واريدوا الله بعملكم ، هاموا فان هؤلاء قد تهيأوا . وهذا يوم له مابعده ، ان
رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وان هزمونا لم نفلح بعدها »
وخطب ابو عبيدة فقال :

عباد الله ، انصروا الله ينصركم ، ويثبت اقدامكم ، يا عباد الله اصبروا فان الصبر
منجاة من الكفر ، ومروضة للرب ، ومدحضة للعار ، لا تتركوا مصافكم ، ولا تخطوا
اليهم خطوة ، ولا تبدؤهم القتال ، واشرعوا الرماح واستروا بالدرق ، والزمو
الصمت الا عن ذكر الله عز وجل في انفسكم ، حتى يتم امركم ان شاء الله »

وكان ابو سفيان بن حرب يطوف الصفوف ويقول باعلى صوته : « يا معشر
المسلمين ؛ انتم العرب اصبحتم في دار العجم ، منقطعين عن الاهل ، تأثرا من امير
المؤمنين ، وامدادا لله ، وقد والله اصبحتم بازاء عدو كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ،
وقد وترتموهم في انفسهم وبلادهم ونسأهم والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم اليوم ولا
تبلغون رضوان الله غدا الا بصدق اللقاء ، والصبر في المواطن المكروهة ، الا انها سنة
لازمة ، وان الارض وراءكم ؛ بينكم وبين امير المؤمنين وجماعة المسلمين ، صحارى
وبرارى ليس لأحد فيها معقل ، ولا معول الا الصبر ورجاء ما وعد فهو خير معول ،
فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا بها ، وتكن هي الحصون »

وطاف معاذ بن جبل الصفوف يقول « يا اهل القرآن يا مستحفظى الكتاب
وانصار الحق والهدى والرحمة ، ان رحمة الله لا تنال وجنته لا تدخل بالامانى ، ولا يولى
الله المغفرة الا الصادق المصدق الخ

وخطب عمرو بن العاص الناس ومما قاله :

« ايها المسلمون

« غضوا الابصار ، واجشوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فاذا حملوا عليكم
فامهلوهم ، حتى اذا ركبوا اطراف الاسنة فنبوا في وجوههم وثبة الاسد ، فوالذى
يرضى الصدق ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ويجزى بالاحسان احسانا ، لقد سمعت
ان المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا (قرية قرية) وقصرا قصرا فلا تهولنكم
جموعهم ولا عددهم ، فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير اولاد الحبول »

اول من انشب المعركة

ويقول المؤرخون الاسلاميون ، انه لما عاد وفد ابى عبيدة من معسكر تيدور يحمل جوابه بالفرض ، وكان خالد يترقب ذلك ، وكان اعد عدته ، وابلغ الكتاب والفرق تعليماته ، وحدد لكل منها مهمته ، امر عكرمة بن ابى جهل والقعقاع بن عمرو - وكان كل منهما يقود كردوسا في القلب - ان ينشبا القتال فبرز كل منهما مع كردوسه وحمل على العدو ، وهجم الروم بقواهم كلها على المسلمين وصبوها صبا فقابلهم هؤلاء بالمثل فكانت ملحمة كبرى من الملاحم التي لايزال صداها يرن في اذن التاريخ ولا يزال الكتاب والباحثون العسكريون يخوضون في درسها ويسهبون في وصف حوادثها وقائعها

وقد استبسل الروم في ابتداء القتال وبدلوا جهدا عظيما للتغلب على المسلمين ، وكان الكردوس الواحد منهم يقاتل خمسة كراديس فاضطرب هؤلاء وتراجعت بعض صفوفهم ، كما تخلت عنهم بعض قبائل الشام التي انضمت اليهم ، لما توهمته من ان الدائرة ستدور عليهم

ولما اشتد الهول وعظم الكرب ، وظهر الاضطراب في صفوف المسلمين ، برزت النساء تصيح في وجود الرجال المدبرين وتضرب في وجوه الحيل وتقول : « الى اين يا حماة الاسلام وطلاب الشهادة » فثبتن الاقدام ، واضرن من الحماسة في الصدور ، فعاد الى العرب نشاطهم وكروا على عدوهم

واستقتل يوم اليرموك عكرمة بن ابى جهل وكان من العاملين في ادراك النصر ، فقد كان يخوض الصفوف وينادى من يبايع على الموت . فبايعه نحو ٤٠٠ من خيرة الابطال ثبتوا في القلب ثبات الجبال الراسيات امام العدو المتهافت على مقر القائد العام ولم يزلوا به حتى ردوه واجلوه بعد ما قتل معظمهم وفي مقدمتهم عكرمة نفسه وولده عمرو وكثيرون من الصحابة

ولما انكسرت حدة الحملة الرومية وتراجعت صفوفهم حمل قلب المسلمين عليهم

حملة صادقة ، وقام عمر و بن العاص بحركة التفاف موفقة في الجناح الايسر اقتربت بهجوم عام على جناحهم الايمن فاضطربوا وارتدت صفوفهم على اعقابها ، فطارتها قوة القلب بقيادة خالد ، فالتى مشاة الروم بانفسهم في منخفضات اليرموك ، وفصل بينهم وبين الفرسان ، الذين اخذوا يفرون مشتتين

ودخل المسلمون الخنادق التي لجأ اليها مشاة الروم فأعملوا فيهم السيف ، فلاذ اكثرهم بالفرار وعمت الهزيمة ، وكان الليل قد ارخى سدوله ، فمن نجا من السيف هلك بوقوعه في هوة الواقوسة (وهى قرية تدعى اليوم الياقوصية ولا تزال قائمة في وادى الرقاد الذى يصب في وادى اليرموك باراضى الزوية وهى من اعمال الزوية وتبعد عن القنيطرة نحو ٤٥ كيلو مترا وقد كانوا جعلوا خطر رجعتهم عن طريق قيق ولكنهم ضلوا الطريق فتساقطوا في الواقوسة) ويقال ان من هلك منهم فيها لا يقل عن ٨٠ الفا وكان آخرهم لا يعرف مصير الذى قبله ، ومما زاد في نكبتهم ، وضاعف في مصابهم ، انهم كانوا قرونوا كل عشرة من رجالهم في سلسلة ، ليحولوا بينهم وبين الفرار وكانوا يسرون على هذه القاعدة في بعض حرورهم ، وقد جنوا منها بعض فوائد . اما في اليرموك فقد عادت عليهم بأوخم العواقب والتناجح ، فكان القرون بالسلسلة يجر - متى هوى - زملاءه فيموتون جميعا

ويقول سعيد بن بطريق وهو مسيحي من مؤرخى الصدر الاول في تعلييل انكسار الروم في اليرموك ماخلاصته :

« وبينما كان ماهان قائد جيش الروم في معسكره والعرب ازاءهم وبينهم نهر اليرموك ، خرج منصور العامل على دمشق ، ومعه مال جباه ، يريد به معسكر ماهان فلما اقترب منه ضربوا الطبول ، وبقوا وصاحوا ، وكان ذلك من منصور مكيدة ، فلما نظر الروم الى المشاعل خلفهم وسمعوا صوت الطبول ، والبوقات ، توهموا ان العرب جاءوهم من خلفهم وكبسوهم فوقعت بينهم الهزيمة - وسقطوا في وادى الرماد (الواقوسة) » وتسمية الوادى بوادى الرماد تصحيف من النساخ فهو وادى الرقاد كما قلنا ، والواقوسة على طرف الوادى ، وقد وصف ابن البطريق الوادى بانه واد عظيم

كبير ، فماتوا ولم يخلص منهم الا عدد قليل . ومنهم من هرب الى مواضع شتى واستسلم كبار الروم واشرفهم الى الموت لما تحققوا الفشل ، وفضلوه على الاسر فوضعوا برانسهم في اسنانهم ففتك بهم المسلمون ، ولم ينج من نجا منهم الا بشق الانفس

وقصد جانب من المهزمين دمشق ، فلاذ بأسوارها ، وقصد آخرون فلسطين ، وتقدر خسارتهم بعشرات الالوف فقد معظمهم في الواقوسة ، ويقدر المسلمون قتلاهم في ذلك اليوم باربعة آلاف بينهم عدد من كبار الصحابة واعيانهم . ويقال انه شهد اليرموك الف صحابي

وكانت المعركة ، على ما يرى بعض المؤرخين يوم ١٢ رجب سنة ١٣ و ١١

سبتمبر سنة ٦٣٤

ابو عبيدة ينقل القيادة العامة

مات ابو بكر قبل معركة اليرموك بعشرين ليلة ، وبويع عمر بالخلافة فكان في مقدمة ما فعله ، انه اقال خالدا من منصب القيادة العليا في الشام ، وكان يجد عليه لتصرفاته يوم اليمامة وولى مكانه ابا عبيدة بن الجراح وارسل بذلك كتابا مع رسول ، وصل الى اليرموك والمعركة في اقصى شدتها ، فتسلم خالد الكتاب ، وحفظه في كنانته ، حتى اذا انتهت بالفوز والظفر ، سلم ابا عبيدة زمام القيادة العليا ، فابقاء معه بمثابة رئيس اركان حرب له ، مدة حروب الشام كلها ، واعتذر عمر بعد ذلك عن اقالة خالد وقال « لقد اقلت خالدا والثني بن ابى حارثة لان الناس لهجوا كثيرا بذكرهما خفت ان يفتنوا بهما »

وهذا نص كتاب عمر بتولية ابى عبيدة : وهو اول ما كتبه عمر :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله عمر بن الخطاب الى ابى عبيدة بن الجراح

« اوصيك بتقوى الله الذى يبق ولا يبقى سواه ، الذى هदानا من الضلالة

واخرجنا من الظلمات الى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بامرهم
بحق الذي عليك . لاتقدم المسامين الى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل ان
تستريده لهم ، وتعلم كيف مأناه ، ولا تبعث سرية الا في كشف من الناس ، واياك
والقاء المسامين في الهلكة ، وقد ابتلاك الله بي وابتلاني بك ؛ فغمض بصرك عن
الدنيا ، واله قلبك عنها ، اياك ان تهلكك كما اهلكت من كان قبلك فقد رأيت
مصارعهم » على ان هنالك من يقول ان العزل لم يقع الا بعد فتح دمشق والرأى
الاول هو الارجح

ابوعبيدة بن الجراح

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة اشتهر بكنيته ونسبه الى جده فيقال ابو عبيدة بن الجراح . وامه اميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى ادركت الاسلام واسامت وكان معروفا بالدهاء وشدة الذكاء في الجاهلية

كان من السابقين في الاسلام فقد اسلم وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث في يوم واحد بدعوة ابي بكر وقد لقبه النبي بامين الامة فقال في حديث صحيح « لكل امة امين وان اميننا هو ابو عبيدة بن الجراح »

التقى ابو عبيدة وابوه عبد الله بن الجراح في يوم بدر ، هذا في جيش المسلمين وذلك في جيش قريش ، وجعل ابوه يقصده وجعل يحيد عنه فلما اكثر قصده ، قتله جفاء في حقه من القرآن : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾

شهد المشاهد كلها مع الرسول وثبت معه يوم احد ونزع الحلقتين اللتين دخلتا في وجهه من المغفر . وسأل وفد نجران حينما قدم المدينة النبي ان يبعث معهم من يأخذ بالحق ويعطيه فقال لهم « والذي بعثني بالحق لارسلن معكم القوي الامين » ثم دعا بابي عبيدة وارسله معهم

ولما طعن عمر بن الخطاب قال « لو ادركت ابا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت فان سئلت عنه قلت استخلفت امين الامة وامين رسول الله »

اختاره ابو بكر لقيادة الجيش الذي وجهه لفتح حمص ، وعينه عمر بعد توليه

الخلافة قائدا عاما لجيش الشام وسأل عنه حينما وصل الى الجابية في طريقه لتسلم بيت المقدس قائلا :

- اين اخي ؟

- ومن هو ؟

- ابو عبيدة

- الآن يأتيك

ثم جاء ابو عبيدة على ناقة فسلم عليه ثم سار معه حتى آتى منزله فنزل فيه فلم يجد الا سيفه وترسه قال لو اتخذت متاعا او شيئا؟ قال « ان هذا سيلغنا المقييل يا امير المؤمنين »

اصيب بالطاعون في عمواس سنة ١٨ فهلك فيه واوصى قبل وفاته بالوصية الآتية :

« اقرئوا امير المؤمنين السلام ، واعلموه انه لم يبق من امانتى شيء الا وقد فمت به واديته . وقد كان بعث الى بمئة دينار فردوها اليه »

ودفن في غور الاردن وقبره معروف يزار ويقصد . وكان عمره حين وفاته

٥٨ سنة

بعد اليرموك

على هذا المنوال ختمت معركة اليرموك وهى ولا شك اعظم المعارك التى خاضها العرب فى الصدر الاول شأنًا ، فلم يسبق لهم ان نازلوا جيشا كذاك الجيش ، ولا وقفوا امام قوة كتلك القوة

ولقد اتى العرب على الروم فى ذلك اليوم درسا بليغا فى الشجاعة والنجدة والرجولة وشدة العزيمة ، والاخلاص والايمان ، وما لاح فى خاطر احد منهم قبل فشو الاسلام فيهم بانهم سيوقفون التوفيق الذى نالوه وادركوه ، وأن الغلبة ستتم لهم على الروم ، سادة ذلك العصر وحكامه

ومهما كانت العوامل التى عملت فى هزيمة الروم وانكسارهم ومهما قاله الروم وانصارهم فى تعليل ماوقع فقد كان انتصار العرب حاسما كما كانت هزيمة الروم من اشنع الهزائم ففقد مئة الف او اقل او اكثر من جيش فى معركة واحدة ليس مما يستهان به ، مهما كان عدده كبيرا ، ومهما كانت موارده غزيرة ، ولذلك يعد الباحثون العسكريون معركة اليرموك من المعارك الحاسمة ويقولون ان انهزام الروم فى ساحاتها هو الذى اضطرهم الى الجلاء عن بلاد الشام بعدها

وينحى بعض مؤرخى الامبراطورية الرومية من الاوربيين المعاصرين باللائمة الشديدة على عرب الشام المنتصرة وينعتهم بالخيانة واللؤم لانهم لم يخلصوا للامبراطورية ولم يصدقوا فى خدمتها ، ولم يستميتوا فى قتال اعدائها ، ويقول انهم لو اخلصوا وتركوا الخلافات الدينية والقومية جانبا لما نبه للعرب ذكر ولا تردوا على اعقابهم من الطريق

التي جاءوا منها؛ وثمة فريق آخر من هؤلاء يحمل على بعض رجال الدين الارثوذكس من ابناء الشام حملات شديدة، لانهم اظهروا ارتياحا الى نظام الحكم الجديد وارتضوه ويرى انه كان يجب عليهم ان يصلوا الاسلام حربا عوانا ويشنوا عليه غارة شعواء حتى تدال دولته ويعود الحكم الى الروم المسيحيين في الشرق كما كان

وهناك ايضا من يحمل على اليهود حملات شعواء ويتهمهم بالخيانة ايضا لانهم مالوا المسلمين حين زحفهم ولم ينضموا الى الروم ومع ان هؤلاء الكتاب لا يجهلون منازل الروم باليهود في فلسطين، قبيل الغارة العربية، بسنوات قلائل، وكيف انهم ذبحوهم وقتلوهم وطاردوهم اى انهم يطلبون منهم ان يتناسوا كل شىء وينهضوا لقتال العرب، ولا بد لنا من القول انه لم يشر احد من المؤرخين المسلمين الذين دونوا حوادث ذلك العصر الى تجند احد من اليهود في صفوف المسلمين وتقديم السلاح وخوضهم معهم المعارك التي دارت بينهم وبين الروم؛ وكل ما نقلوه ورووه يلخص في ان اليهود كانوا يعطفون على المسلمين ويمدونهم بالاخبار، اى انهم لم يساعدوهم مساعدة ايجابية حقيقية وكان موقفهم من الروم سلبيا

لقد كان انتصار العرب في اليرموك نتيجة طبيعية للفوز الذي ادركوه في اجنادين، وفي جنوبي الشام باستيلائهم على حمص، واجتثاثهم النفوذ الرومي من حوران والبلقاء وهما مقاطعتان كبيرتان. ويقول بعض النقاد العسكريين انه لو وقف الروم من اول الامر ازاء العرب الموقف الحازم الذي وقفوه في الآخر وحشدوا لهم القوى الكبرى التي حشدوها، وقتلوه على الحدود وفي مناطقها لتبدل الموقف. وعند هؤلاء ان استهانة الروم بالغارة العربية في ابتدائها واعتقادهم بانها غارة بدوية يراد بها السلب والنهب هو الذي ضمن للعرب التفوق والنصر، فلم ينهض اعداؤهم الا بعد فوات الوقت، فكانوا من الخاسرين.

وعندنا انه كان لتضامن العرب واشتراكهم في القتال نساء ورجالا وما ابداه

قوادهم العسكريون من الكفاءة الزائدة في التعبئة وفي ادارة المعركة ، وفي تنفيذ الخطط العسكرية التي رسموها واستهانتهم بالحياة الدنيا ، وطلبهم الشهادة ، المقام الاول في تهيئة اسباب النجاح ، فالعبرة في الحروب للقوى الادبية او المعنوية ، لا للعدد . وقد كان العرب مجهزين بافضل جهاز واكمله منها ، وحسبك ان احد اعدائهم من الروم وصفهم بأنهم رهبان بالليل ، فرسان بالنهار لو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده ولو زنى لرجموه واقاموا عليه الحد وذلك كناية عن تمسكهم بالحق ، وعدم تهاونهم باقامة قسطاس العدل وما تمسك قوم بهذه القواعد الا فازوا ونجحوا

وهناك شبه كثيرة بين معركتي القادسية واليرموك وبين الظروف التي درت فيهما وبين النتائج الايجابية التي انتجتاها ، فقد انتهت كل منهما بسحق جيش الدولة التي جاء العرب لمحاربتها ، وكما تم لهم سحق الجيش الرومي في اليرموك واحتلال الشام بعد ذلك تدريجيا فكذلك كان شأنهم في القادسية فلم يوفق الفرس الى الوقوف امامهم بعد ما سحقوا جيشهم على المنوال الذي بسطناه في الكتاب الاول وهذا يؤيد الرأي الذي ما برح العسكريون يرددونه ، وهو ان العبرة في الحروب بسحق جيش العدو وتمزيقه والقضاء على القوة الادبية في صدور رجاله ، ومتى ادرك الجيش المهاجم ذلك استسلمت البلاد التي يهاجمها اليه بدون كبير مقاومة ولا عناء لعدم وجود قوة مسلحة تدافع عنها وتصورها

وزحف العرب بعد انتصارهم في اليرموك فصار الجانب الاكبر منهم الى الشمال ، لاكمال الفتح ، وللقضاء على البقية الباقية من الجيش الرومي ، فاستولوا على دمشق فحمص وظلوا يواصلون تقدمهم حتى انطاكية عاصمتهم الكبرى ، فاستولوا عليها كما اتجهت قواتهم الاخرى نحو فلسطين فاكملت فتحها وواصلت تقدمها بعد ذلك فاستولت على مصر وافريقية الشمالية ونشرت الاسلام فيها

واوغل العرب ايضا في ميدان العراق بعد انتصار القادسية الحاسم فساروا شمالا نحو المدائن فاستولوا عليها ثم اتجهوا شرقا فاستولوا على جبال حمرين ثم انحدروا على بلاد ايران فدانتم لهم وخضعت لدولتهم ، وهكذا ازالوا هاتين الاموطوريتين في خلال

مدة لا تزيد على عشر سنوات ١٢ - ٢٢ للهجرة ولم يبقوا للروم في الشرق سوى الجزء الممتد من حيدر باشا (الجزء الاسيوى من القسطنطينية) حتى جبال طوروس اى مقاطعة الاناضول الحاضرة التابعة لدولة تركيا . على انهم كثيرا ماغزوا هذه العاصمة وتم فتحها بعد ذلك على يد السلطان محمد العثمانى

وكان للبداىء السامية التى حملها المسلمون الى البلاد التى فتحوها ، اثر كبير فى توطيد ملكهم ، وثبات دولتهم ، واتساع نفوذهم ، فقد جاءوها بالعدل والاحسان والرحمة والرفق ، فلم يعتدوا على احد ، ولم يظلموا احدا ، ولم يسلبوا مالا ، ولم يقتصبوا امرأة ، ولم يقتلوا شيخا ولا طفلا ، مما لم يؤثر عن جيش غير جيشهم ، ولا يزال نغره منحصر فىهم ، مع تقدم العالم ، ومع ما يتبجحون به من انتشار العلم والمدنية ، ولم ننس ما وصم به الحلفاء الالمان فى زمن الحرب وما عيروهم به من جرائم قالوا انهم ارتكبوها وملاؤا الدنيا صياحا وصراخا استنكارا لها

ووصف الالمان الانكليز والفرنسيس والروس والطلبيان من خصومهم بأشد من هذا ، ولا يحتاج اهل الشرق العربى الى ادلة مادية على صحة هذه الدعوى فقد خبروا هؤلاء حينما جاءوا بلادهم فى ابان الحرب العظمى وبعدها ورأوا من اعمال جندهم وتصرفات قوادهم ما لا ينسونه على الاطلاق ، وما يعد اطلحة فى جبين هذه المدنية

لقد ظلم الروم الناس فابتعدوا عنهم ، ونفروا منهم ، ولم يحجموا عن قتالهم ، والمجاهرة بعدائهم ؛ وعدل فيهم العرب فأحبوهم ووالوهم وتقربوا اليهم ، وهكذا شأن الناس فى كل زمان ومكان ، فهم ميلون بطبيعتهم الى حب العدل والعادل ، وكره الظلم والظالم مهما كان نوع الظلم وشكاه ، ومهما كان آتية ومرتكبه ، ومهما كان العادل بعيدا عنهم ، غريبا عن جامعتهم ومجتمعهم

وعندنا انه كان الاجدر بأولئك الذين صبوا جام الغضب واللوم على سكان الشام لانهم والوا العرب ولم يقوموا على ساق وقدم لقتالهم ، ان يستخرجوا العبر النافعة مما حدث فيدعوا الى اذاعة العدل وتعميمه ، والكف عن الظلم ومحاربه ، فلا

يكفى ان يكون الظالم غريبا والمظلوم شرقيا ، ليست عنه وليغضى عن تصرفاته ولتنتحل له الاعذار ، وما ذلك من شأن المؤرخ النزيه ، والباحث المحقق الذى ينشد الحقيقة ليذيعها ويعلنها ، بل يجب ان يحارب الظلم حيث كان ، وايما كان وينكر على مرتكبيه عمدا

وهناك اعتبار آخر لا بد لنا من الاشارة اليه والتنويه به ، ونغنى به تحرر العرب فى جميع اقطارهم وامصارهم من كل سلطة اجنبية بعد معركة اليرموك والقادسية ، وكما ضمنت الاولى تحرير عرب الشام فقد ضمن نصر القادسية ذلك لعرب العراق ، فانضوا جميعا تحت لواء الدولة العربية الكبرى وادوا لها خدمات جليلة ، واشتركوا فى الحروب التى خاضتها اعلاء لدينها ، وتعزيزا لقوميتها ، وما قام الاسلام الا بتأييد العرب وعلى سواعدهم ، فقد اعز بهم واعزوا به فحملوه الى اربعة اقطار المسكونة ونشروه فى كل مكان ، وبلغوا بفضلهم ما لم يكونوا يحلمون ببلوغه ، ولولا الروح السامية التى بثها فيهم ، والتعاليم العالية التى نشرها بينهم ، لظلوا مستعبدين فى ديارهم يسومهم الروم والفرس سوء العذاب ويذيقونهم انواع البلاء والنكال ، شأن المحتل المغتصب ، والمستعمر الغالب لا يرق ولا يشفق ولا يرحم

فتح فلسطين

فلسطين

معلومات جغرافية وتاريخية موجزة عنها

يطلقون اسم فلسطين في الوقت الحاضر على المقاطعة الممتدة من الضفة نهر الاردن شرقا حتى البحر المتوسط غربا ومن خط الناقورة شمالا حتى رفح جنوبا خضعت فلسطين للامبراطورية الرومية سنة ٦٥ قبل الميلاد وظلت تابعة لها حتى جاء المسلمون فاستولوا عليها فخضعت للدول الاسلامية التي تداولت على الشرق حتى الحرب العظمى فاحتلها الانكليز سنة ١٩١٧ - ١٩١٨ ولا يزالون فيها حتى اليوم
و يقدر عدد سكانها في الوقت الحاضر بمليون نسمة ثلثاهم من المسلمين

عمر بن عبد العزيز الخطبة الجديدة

ما كذب خالد بن عبد الله يوم اليرموك حينما قال لهم « لئن رددناهم اليوم الى خندقهم لم نزل نردهم وان هزمونا لم نفلح بعدها » وما اخطأ الحساب والتقدير ، فقد واصل العرب رد الروم بعد ذلك اليوم حتى اجلوهم عن فلسطين وسورية ومصر وافريقية وحاولوا محلمهم وجاسوا في مجلسهم والارض لله يورثها من يشاء من عباده ودوله

ولم يشأ ابو عبيدة - وقد تولى منصب القيادة العامة ، خلفا لخالد بأمر عمر بن الخطاب الخليفة الجديد - ان يشرع في حركات عسكرية قبل ان يتصل بالخليفة وكان يتقلد بحكم منصبه الرئاسة العليا للجيش او القيادة العامة كما نقول الآن ، ويتلقى اوامره وتعليماته في الخطبة التي يسير عليها

ولا بد لنا من ترديد ما رواه الثقات من المؤرخين وهو ان العرب لم يمعنوا بعد معركة اليرموك في مطاردة عدوهم ، ولم يحاولوا امتلاك البلاد ، ولو فعلوا لاحتلوا دمشق بدون كبير عناء ، فقد كانت الطرق المؤدية اليها مفتحة لهم ، وما كانت اسوارها لتستعصى عليهم ، والظاهر ان قادة الجيش العربي رأوا ان لا يعجلوا بالزحف قبل تلقي اوامر الخليفة لكي يدعوا لجيشهم وقتا للراحة بعد عناء الاعمال العسكرية التي عملها في خلال سنة و بضعة اشهر فهو لم يلق السلاح ولم يخلد الى الراحة منذ دخل حدود الشام في اواخر السنة الثانية عشرة

ويمكن القول ايضا بانهم كانوا يفضلون ان يعرفوا ما يريد قادة الجيش الرومي

عمله في المرحلة الجديدة ، فسيروا على هدى ويتخذوا من التدابير ما يكفل احباطه والقضاء عليه

والذي عليه الاكثرون ان ابا عبيدة غادر بحيشه وادى اليرموك - على اثر المعركة - فنزل مرج الصفر (وهو المرج او السهل الواقع جنوبي نهر الاعوج وينبع هذا النهر من قرية عرنة في سفح جبل الشيخ الشرقي فينسب في السهل نحو الشمال الشرقي ويؤلف الحد الفاصل بين اراضى حوران وارضى قضاء وادى العجم ، ثم يصب في بحيرة مرج راهط بعد ان يقطع نحو ٤٠ كيلو مترا - ومرج الصفر هو المكان الذى هزم فيه خالد بن سعيد بن العاص في ابتداء خلافة ابي بكر - (انظر ص ٦٤) ولا يبعد هذا المرج عن دمشق اكثر من ٢٥ كيلو مترا وهو واقع في غربها الجنوبي في المنطقة الممتدة بينها وبين القنيطرة وتبعد هذه عن دمشق ٦٣ كيلو مترا

عمر يرسم الخطة الجديرة

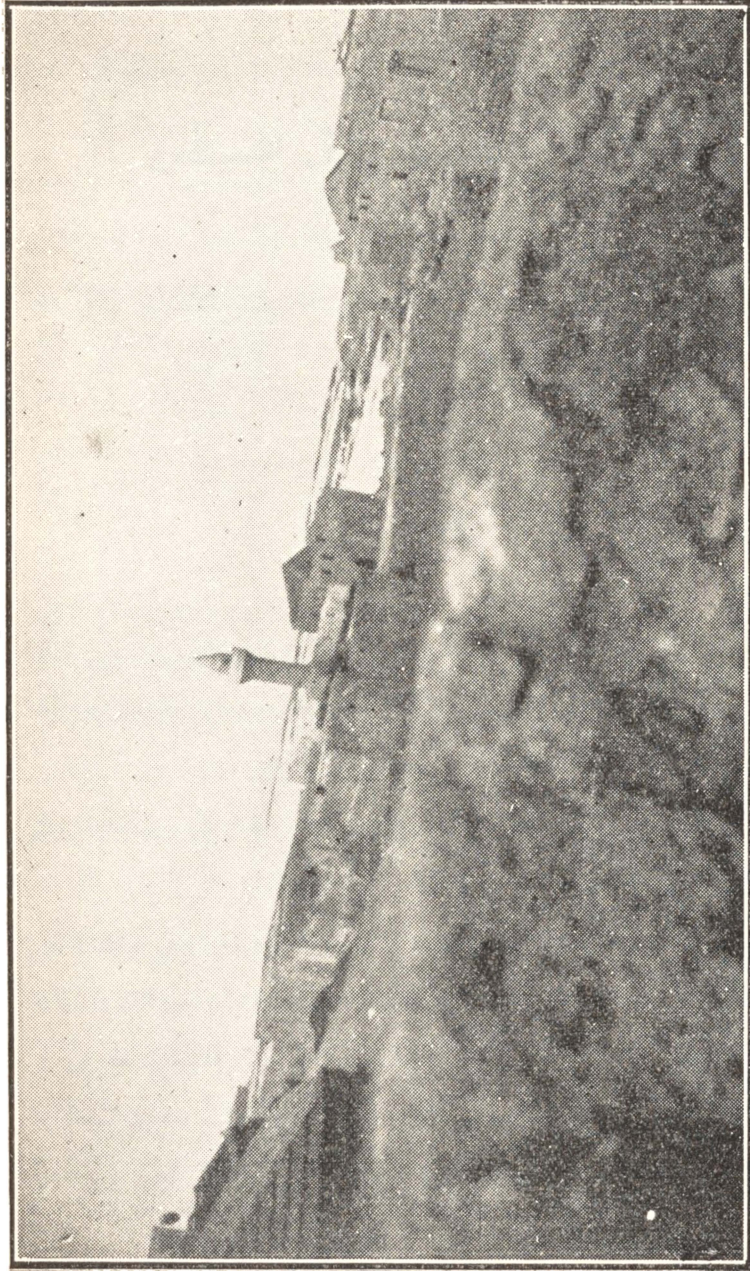
جاء في الكتاب الذى كتبه ابو عبيدة الى الخليفة بالنصر ان فل الروم قد اتجه الى فلسطين ، وانه يخشى ان يؤتى من ناحيتهم فهل يهاجم دمشق او حصص ام يبدأ بفلسطين فينجز امرها ويقضى على جيش الروم في ديارها فكتب اليه عمر يأمره بما يأتى :

ابدأوا بدمشق فانهذوا لها ، فانها حصن الشام وبيت مملكتهم واشغلوا عنكم اهل فحل بخيل تكون بازائمهم في نحورهم ، واهل فلسطين واهل حصص ، فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذى نحب وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فينزل بدمشق من بها ودعوها وانطلق انت وسائر الامراء حتى فحل فان فتحها الله عليكم فانصرف انت وخالد الى حصص ودع شرحبيل وعمرا بالاردن وفلسطين ، وامر كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته

تفصيل ما اجملته الخطة الجبرية

وفي كتاب الخليفة وصف للخطة العسكرية الجديدة التي طلب ابو
رسمها وابلغهم قواعدها لتنفيذها وهذا تفصيل ما اجملته :

- ١ - ان يبدأ بمهاجمة دمشق ويعمل لاحتلالها
- ٢ - ان يرسل قوة عسكرية لاشغال الروم في فحل حين مهاجمة دمشق
- ٣ - ان يرسل قوة عسكرية لاشغال الروم في حمص زمن محاصرته لدمشق
- ٤ - في حالة تأخر فتح دمشق وامتداد زمن الحصار يدع حولها قوة كاف
ويقصد فحل فينجز امرها بالاشتراك مع الجيش الذي يحاصرها
- ٥ - يقصد بعد فتح فحل مع خالد وسائر الامراء حمص لفتحها ويدع عمرو
العاص وشرحبيل بن حسنة في فلسطين والاردن
- ٦ - ينشئ حكومة في كل بلد ويقوم فيه حامية عسكرية



مدينة قيسارية القديمة قرب حيفا ويظهر في وسطها الجامع

قوات الروم العسكرية في فلسطين

كان للروم اربع مراكز عسكرية في فلسطين احسنوا تحصينها ، واكملوا تجهيزها بالجند والمقاتلة وهذه اسمائها مع وصفها :

١ - فحل

٢ - اجنادين

٣ - قيسارية

٤ - بيت المقدس

وفحل من قرى اربد في لواء عجلون من شرق الاردن اليوم وتسمى طبقة فحل وهي على مقربة من غور بيسان وانقاضها كثيرة تدل على عظمتها ، وماؤها غزير ويمكن ان تغرق اراضيها اليوم كما اغرقت في زمن الفتح

اما اجنادين فهي اليوم منطقة رملية بين مدينة الرملة وبين بيت جبرين في فلسطين وقد طم الرمل انقاضها ، وطمس معالمها

واما قيسارية فتقع جنوبي حيفا وتبعد عنها ١٣ كيلو مترا وهي واقعة على شاطئ البحر الابيض بينها وبين يافا ولا تزال انقاض حصونها وابراجها القديمة قائمة تشهد بما كان لها من عظمة بائدة ، ويلوح لنا انها كانت ميناء فلسطين الحربى في ذلك الزمن فكانت سفن الاسطول الرومى ترسو فيها ، كما كانت سفنهم التجارية تقصدها ، وقد احسنوا تحكيمها واعدادها ، وحشدوا فيها حامية كبيرة ، وكانت تعد من مراكزهم الحربية الكبرى

واما المركز الرابع فكان في القدس ، عاصمة المسيحية الدينية والعاصمة.

السياسية لاقليم فلسطين كله ، فكان فيها مقر الحاكم العام ، كما كانت مقر البطريرك
الاورشليمي ، وكان فيها جيش من الرهبان والقسس ورجال الدين المسيحي
وكان لهم ايضا مركزان صغيران آخران في الرملة وفي غزة

عدد القوات الرومية

ومع اننا لا نملك رقما صحيحا لعدد القوات الرومية التي كانت في فلسطين بعد
اليرموك . الا ان دلائل الحال تجعلنا نرجح انها ما كانت تقل عن عشرات الالوف
تتألف من العناصر الآتية :

- ١ - الحاميات الاصلية التي كانت ترابط في فلسطين خلال معركة اليرموك ،
فقد ابقى الروم عددا من جندهم لحمايتها والمحافظة عليها من قبيل الاحتياط
- ٢ - فلول جيش اليرموك فقد اتفق المؤرخون على ان فل جيش الروم انقسم
بعد اليرموك الى قسمين : سار قسم الى دمشق اى انه اتجه نحو الشمال ، وقصد القسم
الآخر فلسطين ، وي لوح لنا ان معظم الجناح الايمن للروم لجأ الى هذه المنطقة بعد
الانكسار لانها اقرب من دمشق واسلم
- ٣ - الامدادات التي كانت ترد من البحر بطريق قيسارية ، وكان هركليوس
يزجها وحسبك ان بعض مؤرخي المسلمين يزعم انه كان للروم في فحل وحدها
٨٠ الفا وهو رقم لا يخلو من مبالغة . وعلى كل حال فليس هنالك من يشك في انه كان
للروم قوات عسكرية كبيرة في هذه المنطقة ، حشدوها بسبب خلافهم مع اليهود
وكانوا يخشون اتقاضهم وخروجهم عليهم

قوات المسلمين في هذا الميدان

وتولى عمرو بن العاص القيادة العامة للجيش العربي في هذا الميدان لخبرته
ولانه سبق فعمل فيه خلال المرحلة الاولى يساعده ويشد ازره شرحبيل بن
حسنه ، وكان قائد منطقة البلقاء (شرق الاردن) في المرحلة الاولى ، ومعنى ذلك ان

الخطة العسكرية الجديدة هي نفس الخطة القديمة التي رسمها ابو بكر وعهد الى عمرو
وشرحيل بتنفيذها

اما قوة الساميين العسكرية هنا فلا نظنها كانت تزيد على بضعة عشر الفا
لان القسم الاكبر من الجيش اتجه الى الشمال حيث كانت للروم قوات كبيرة ،
وحيث كان هركليوس بنفسه يشرف على ادارة الحركات العسكرية
ولا ريب ان العرب كانوا امام عمل عسكري خطير في هذه المرحلة ، فمن الخطأ
الاعتقاد بان معركة اليرموك قضت على كل ما كان للروم من قوى ، وكانوا يملكون
موارد غزيرة ، وامبراطورية متسعة ، ولقد خاض العرب بعدها معارك عظيمة ،
سيأتى وصفها ، ولا ينكر ان معركة اليرموك فتحت الابواب للساميين فدخلوها

اجمع المؤرخون الاسلاميون على القول بان معركة فحل وقعت في شهر
ذى القعدة للسنة الثالثة عشرة ، واختلفوا في القواد الذين شهدوها واداروها ،
فالواقدي يقول ان شرحبيل بن حسنة هو الذى تولى ادارة الاعمال العسكرية حول
فحل وفتحها ، وان عمرا قاذ الحيوش حول اجنادين ، ويقول الحضري في « تاريخ
الامم الاسلامية » ان الجنود (المسلمين) ساروا بعد انتهاء اليرموك الى فحل ، وان
خالدا كان على مقدمتهم

ويقول صاحب خطط الشام انه بعد ماتم للمسلمين ما ارادوا من هزيمة الروم
على اليرموك جمعت الروم جمعا عظيما وامدهم هركليوس بمدد فلقبيهم المسلمون بمرج
الضفر بين دمشق والجلولان وهم متوجهون الى دمشق وذلك في هلال المحرم سنة ١٤
فاقتتلوا اقتتالا شديدا وجرح من المسلمين زهاء اربعة آلاف وولى الروم مفلولين
لايلوون على شىء حتى اتوا دمشق وبيت المقدس ، ولما فرغ المسلمون من قتال من
اجتمع لهم بالمرج رجعوا الى مدينة دمشق

ويقول ايضا في مكان آخر : ان وقعة فحل كانت بعد خلافة عمر بن الخطاب
بخمسة اشهر وذلك ان هرقل لما سمع بانتصارات العرب سار الى انطاكية واستنفر
الروم واهل الجزيرة وبعث عليهم رجالا من خاصته وثقاته فلقوا المسلمين بفحل
فقاتلوهم اشد قتال وابرحه حتى ظهروا عليهم وقتل بطريقهم وزهاء عشرة آلاف
معه وتفرق الباقون في مدن الشام ولحق بعضهم بهرقل

« ولما سار المسلمون بعد ان فرغوا من اجنادين الى فحل من أرض الروم نزلت

الروم يبسان ففتقوا انهارها فكانت وحلا . ثم نهضوا الى الروم وهم بفحل فاقتلوا
فهزمت الروم ودخل المسلمون فحل ولحقت رافضة الروم بدمشق « اه

والذي نرجحه - اعتمادا على كتاب الخليفة عمر الى ابي عبيدة المنشور آنفا
وهو نص قاطع لاجمال الى انكاره ، او الطعن في صحته ، هو ان المسلمين انقسموا الى
قسمين بعد اليرموك ، طبقا لاوامر الخليفة فسار ابو عبيدة وخالد الى دمشق لمحاصرتها
وسار عمرو وشرحبيل بن حسنة الى فلسطين لفتحها . ومع ان المؤرخين القدماء
وبعض الذين يكتبون في هذه الموضوعات من المعاصرين يزعمون ان معركة اجنادين
الكبرى كانت بعد اليرموك ، فاننا نرجح انها كانت قبلها اعتمادا على اقوال الثقات ،
ولان طبيعة الموقف العسكري كانت تضطر العرب الى خوضها قبل اليرموك خوفا على
خطر رجعتهم كما قدمنا ، فما كانوا يامنون ان يهاجموا من الورا او من الجناح الايسر
في ذلك اليوم لو كانت قوات الروم في فلسطين سليمة

وما قلناه عن معركة اجنادين نقوله عن معركة فحل ايضا ، فمن غير المعقول ،
ان يترك قادة الجيش الاسلامي ، المنطقة الشمالية خالية ، وهركليوس على مقربة منهم
في حمص يجند الجيوش ويرسلها وينصرفون الى المنطقة الجنوبية ، يضاف الى هذا ان
دمشق نفسها ، كانت اقرب اليهم من فحل تقريبا ، ولدمشق مقام كبير من الوجهتين
العسكرية والادبية ، والاقتصادية ايضا ، وكان المسلمون يحرصون على افتتاحها
والاستيلاء عليها .

والخلاصة اننا نرجح كما قلنا ان يكون جيش المسلمين قد انقسم في هذه المرحلة
الى قسمين : قسم وهو الاقل قصد فحلا ، وما كان الاستيلاء عليها يهمهم كما يهمهم
امر دمشق ، وقسم اتجه الى الشمال لفتح دمشق وحمص والناطق المجاورة لهما طبقا
لاوامر الخليفة

كيف دارت المعركة

يلوح لدارس خطة جيش فلسطين العسكرية ، انه سلك في سيره من مرج الصفر وقد عسكر المسلمون فيه بعد اليرموك الى فحل الطريق ، الواقع شمالي اليرموك ، اى انه اتبع الطريق الحالى المؤدى من القنيطرة عاصمة الجولان الى طبريا بطريق جسر بنات يعقوب والجاعونة فهو بعد ما اجتاز الاردن عند هذا الجسر ، وقد اتخذ حدا فاصلا بين سورية وفلسطين في الوقت الحاضر قصد الجاعونة ثم انحدر الى طبريا

واتجه بعد فتح طبريا نحو الجنوب فسار على محاذاة ضفة بحيرة طبريا الغربية ، حتى فحل ، وهى على مقربة من بيسان ، وهذه واقعة قرب شاطئ البحيرة الجنوبي الغربي ، يؤيد ذلك مارواه المؤرخون وهوان المسلمين ساروا من فحل الى بيسان ففتحت لهم

ويبالغ المؤرخون المسلمون في وصف التدابير التي اتخذها الروم في فحل ، ويقولون انهم كانوا يعلقون آمالا عظيمة على قواهم المحتشدة فيها ، ويزعمون انها كانت ثمانين الفا ويزيد بعضهم هذا العدد ويلوح لنا انه كان اقل من ذلك بكثير ، لان الروم ما كانوا بقادرين على حشد مثل هذا الجيش الضخم في هذا المكان ، اما ما يقال من ان هركليوس ، امد مقاتلة هذا الحصن بقوات ارسلها اليه ، فهذا غير وارد ايضا ، لانه كان عليه ان يحشد قواه في دمشق وفي المنطقة المجاورة لها ، فما كان يجهل ان المسلمين سيقصدونها بدلا من ان يجزأها هنا وهناك

ومع ان بعضهم يطعن في صحة هذه الرواية ، رواية ارسال الامداد الى فحل . ويقول بعدم امكانها من الوجهة المادية لان المسلمين كانوا يحتلون طرق الجنوب الغربي المؤدية الى فلسطين ، مما يجعل ارسال النجدة متعذرا فالتنا تقول في الجواب انه كان في استطاعتهم ارسالها بحرا بطريق قيسارية ، كما ان طريق الساحل كان بأيديهم ، فسير قواتهم من حمص الى طرابلس فيروت فصيدا فالناقورة ومن هنالك

تتجه نحو الشرق الى الاردن. ، وقد كان الروم يسيطرون على هذا الطريق حتى فتح الساحل

مستنقعات فحل

ويقول المؤرخون ايضا ان من جملة التداير التي لجأ اليها الروم في منطقة فحل ، انهم بثقوا جداول الماء ، والماء كثير في منطقة فحل حتى اليوم ففاض وغمر تلك البقاع والبطاح حتى اصبحت مستنقعا ، والقصد من ذلك عرقلة حركات عدوهم العسكرية في هذا الميدان ، اذا لم نقل انهم كانوا يريدون ايقاعه في المستنقعات نفسها ، ثم يثبون عليه فيفتكون به وقد طبق المارشال هندبرج هذه الخطة ، في بطاح مازوريا (بروسيا الشرقية) حينما غزا الروس تلك البقاع في الحرب العظمى في شهر اغسطس سنة ١٩١٥ فقد ظل يستدرجهم ، حتى اوقعهم فيها ، ثم اعمل في رقابهم السيف ، ففضى عليهم ومزقهم كل ممزق . وتسمى هذه المعركة معركة تانبرج الكبرى وقد رفعت مقام المارشال هندبرج وجعلته في مقدمة قواد العالم العسكريين ، ولم تقم للروس بعد هذه المعركة قائمة

وسقطت خيالة العرب في الفخ الذي نصبه لها الروم ، ووحلت خيولهم حينما طرقوها ، ويعترف المؤرخون السامون بانهم لقوا غناء ثم ساموا ويسمون بيسان ذات الردغة - والردغة الوحل - وتدل الدلائل على ان الروم لم ينهضوا الى مهاجمة المسلمين حينما وحلت خيولهم ، اى سقطت في المستنقع بل ظالوا يرابطون في داخل فحل وقصدهم هؤلاء بعدما تخلصوا

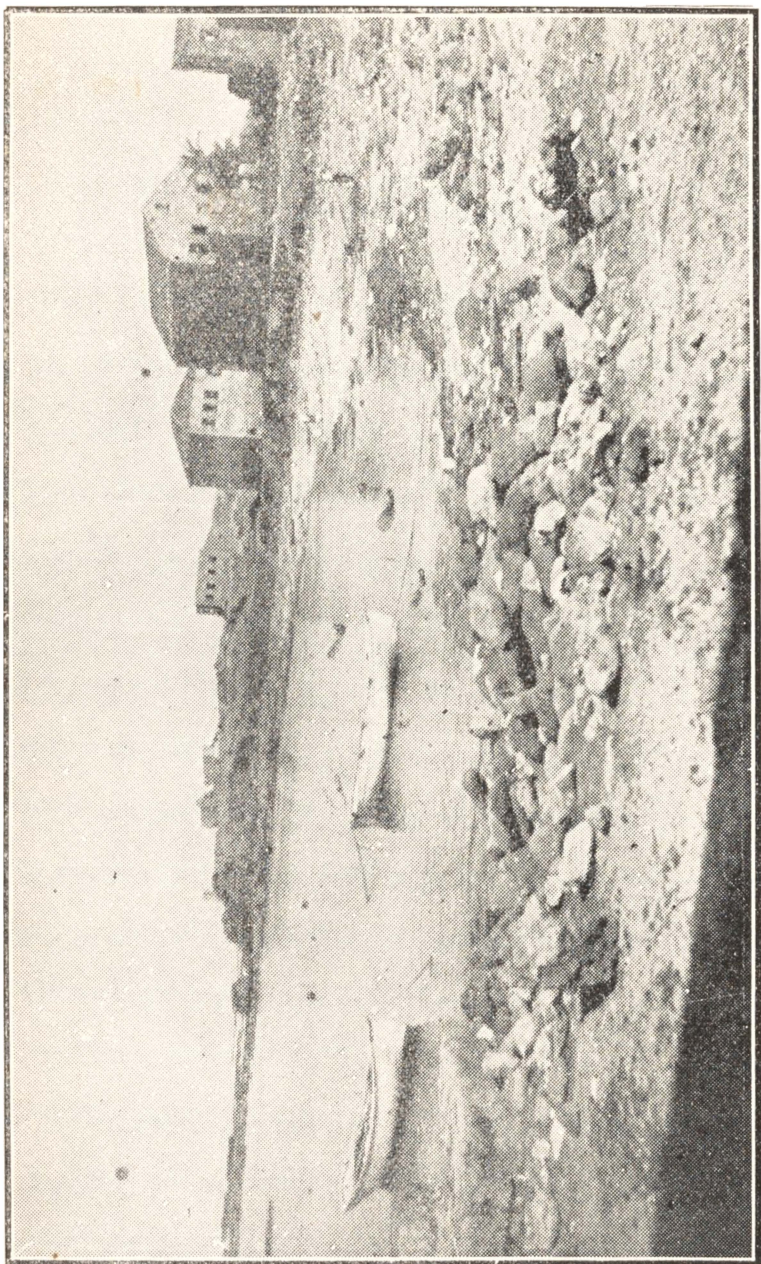
وضرب السامون الحصار على فحل ونزلوا حولها ، ويقول المؤرخون العرب ان قائد الحامية الرومي خرج يوما بقواه ليأخذهم على غرة ، فصمدوا له وقاتلوه فقتلوه وقتكوا برجاله واستولوا على الحصن عنوة فانهمز الروم لايلاون على شيء وسقط بعضهم في المستنقع الذي اعدوه لعدوهم

فتح فلسطين الوسطى والشمالية والساحل

وانشرت سرايا المسلمين بعد فتح فحل في المناطق المجاورة ففتحت صور وعكا على الساحل وبذلك انقطع الاتصال من هذا الطريق بين قوى الروم العسكرية في فلسطين ، وعاصمتهم في انطاكية ، ولم يبق لهم سوى طريق البحر ، وكانوا يسيطرون عليه سيطرة فعلية

وفتحت سرايا المسلمين ايضا قرى الاردن ومناطقه كما فتحت نابلس وجنين واللد وبنى ويافا وبيت جبرين وعمواس واذا استثنينا قيسارية ، وقد قاومت واجنادين والقدس وعسقلان فتكون فلسطين كلها ولا سيما القسم الساحلى قد خضع للمسلمين فقد اندفعوا على الساحل بعد فتح يافا واللد وواصلوا الزحف فاحتلوا غزة وظلوا مندفعين في تقدمهم حتى رفح وهي آخر حدود فلسطين من جهة الجنوب واول حدود مصر من الصحراء ، فاتصلوا بالحجاز من هذه الناحية ، ومعنى ذلك انه لم يبق للروم في فلسطين كلها سوى الحصون الثلاثة المعروفة وهي اجنادين وقيسارية وبيت المقدس

وتولى عمرو بن العاص محاصرة اجنادين وارسل قوة اخرى ، حاصرت بيت المقدس ، وحاصرت قوة ثالثة قيسارية وكانت هذه بقيادة معاوية بن ابى سفيان ، ففتحت هذه الحصون تدريجيا كما سيأتى



ميناء قيسارية

حصار بيت المقدس

اتم المسلمون في خلال سنة ١٤ واول سنة ١٥ فتح سورية الشمالية فوصلوا حتى شمالي بيلان (بغراس) منتهى حدود سورية في الوقت الحاضر ، كما بلغوا الضفة الفرات الغربية عند جرابلس (قرقيش) ومسكنة (باليس) آخر حدود سورية الشرقية الشمالية في الوقت الحاضر ، ووصلوا ايضا الى تدمر والصحراء الشرقية فأخضعوها كما اخضعوا سواحل الشام كلها فصارت حدودهم تمتد من الاسكندرونة شمالا حتى غزة جنوبا ، ولم يبق بأيدي الروم في هذا الساحل كله سوى عسقلان وقيسارية ، وكان معاوية يحاصر الثانية برا ، ويضيق على سكانها ، وكان غير قادر على مهاجمتها بحرا لان المسلمين ما كانوا حتى يومئذ يملكون عمارة بحرية يستطيعون ان يهاجروا بها حصون اعدائهم الساحلية ، والى معاوية يعود الفضل في انشاء اول اسطول للعرب فقد بناه بعد ولايته على الشام وبعد موت عمر بن الخطاب ، وكان يقدر قيمة الاساطيل ويعرف فائدتها ولذلك لم يتأخر عن انشائها حينما اصبح ذلك في امكانه وسيأتي وصف ذلك

ورأى المسلمون بعد ما اتموا فتح الشمال كله وبلغوا جبال امانوس العالية ، ان لا يوغلوا في الزحف ، بل يعودوا الى اتمام العمل العسكري الذي ينتظرهم في الجنوب ونعني بذلك فتح الحصون الثلاثة التي استعصت عليهم في فلسطين وهي القدس واجنادين وقيسارية

قوات المسلمين في هذا المبداء واهمهم العسكرة

ولقد انتشر العرب في ارجاء فلسطين بعد معركة فحل وكانت من المعارك الفاصلة كما قدمنا وعبأوا جنودهم على النوال الآتي :

١ - تولى معاوية بن ابي سفيان وكان في جيش اخيه يزيد قيادة الحملة التي ارسلت الى قيسارية لمنازلة حاميتها وقتالها ومنعها عن انجاد اجنادين والقيام باى حركة عسكرية تحول دون تنفيذ خطط المسلمين في الجنوب او الشمال

٢ - تولى علقمة بن حكيم ومسروق بن فلاك العكى قيادة الحملة التي ارسلت الى القدس لمنازلة حاميتها وحصارها

٣ - تولى ايوب المالكى قيادة الحملة التي ارسلت الى الرملة

٤ - تولى علقمة بن مجزز قيادة الحملة التي ارسلت الى غزة

وكانت القيادة العليا لعمر بن العاص وقد تولى محاصرة اجنادين وبذل جهودا عظيمة في سبيل الاستيلاء عليها وكان فيها حامية قوية للروم بقيادة اريطبون من مشاهير رجالهم ، فدارت بين الفريقين معارك شديدة استبسل فيها الفريقان ، ولم تستسلم اجنادين الا في منتصف السنة الخامسة عشرة فانسحب اريطبون مع من سلم من رجاله الى (القدس) ففسح له الجيش الذى كان يحاصرها فدخلها .

واتخذ عمرو بن العاص اجنادين قاعدة لجيشه فاستراح فيها مدة ثم زحف الى القدس ، وضرب عليها الحصار واخذ يناجز جندها ، ولما طال على اهلها المطال ، ورأوا انه لا فائدة من المقاومة ، جنحوا الى السلم وعقد الصلح بشرط ان يتم على يد الخليفة نفسه ، وان يكون هو عاقده . تنوينا بشأن القدس الدينى ، ولما لها من المقام العظيم

وكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب ودعا الى القدوم لتسليم المدينة ، فاجابه الى مقترحه وغادر العاصمة فى طريقه الى الشام ، وكتب الى امرأء جيش الشام بان يقابلوه فى الجابية (حوران) وقد تقدم وصف مكانها

عمر بن الخطاب في الجابية عهد صلح القدس

كان يزيد بن ابي سفيان اول من استقبل الخليفة عند وصوله الى الجابية ثم جاء ابو عبيدة نفالذ ، وتأخر عمرو وشرحبيل لانهما كانا مشغولين بحصار القدس وفي الجابية استقبل عمر وفد اهل القدس وقد جاءوه يعرضون عليه التسليم والصلح فصالحهم وكتب لهم كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

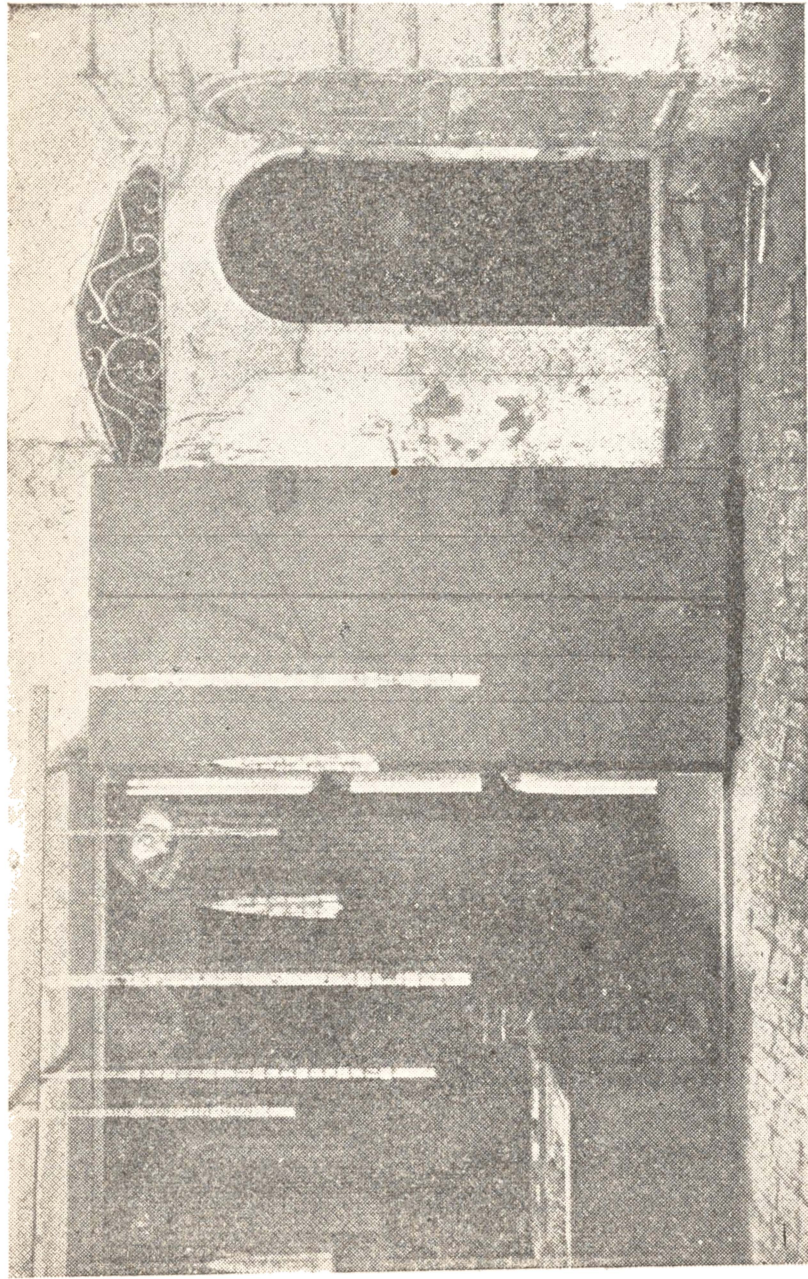
« هذا ما اعطى عبد الله امير المؤمنين اهل ايلياء من الامان ، اعطاهم امانا لانفسهم واموالهم ولسكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقض منها ولا من حيزها ، ولا من صلبيهم ، ولا من شىء من اموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار احد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود

« وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطى اهل المداين ، وعليهم ان يخرجوا منها الروم والاصوت فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن اقام منهم فهو آمن . وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية

« ومن احب من اهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبيهم فانهم آمنون على انفسهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان من اهل الارض قبل مقتل

فلان ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع
الروم ، ومن شاء رجع الى اهله ، لايؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم
« وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء اذا اعطوا الذي
عليهم من الجزية »

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف
ومعاوية بن ابى سفيان
كتب وحضر سنة ١٥



المسجد الذي يرجح أن عمر بن الخطاب صلى فيه حينما زار القدس لتسلمها وهو خرب الآن
ويقع بجوار كنيسة القيامة والى غربها

عمر بن الخطاب في القدس

غادر عمر بن الخطاب الجابية ميمما بيت المقدس في موكب بسيط يحيط به قواده ورجال خاصته ، فنزل في مخيم الجيش العربي المرابط حولها ، واقام حتى فرغ الروم من الجلاء عنها ثم دخلها بدون موكب فاستقبله البطريك صفرونيوس وكبار الرجال وقصدوا معه كنيسة القيامة لزيارتها

وادركته الصلاة وهو يزور الكنيسة فخرج منها وصلى امامها حيث كنيسة السيدة مريم الآن ، وقد انشئ في مكان صلته جامع ليكون تذكارا لها ولكنه محي وباد

ويقال ان البطريك صفرونيوس اقترح عليه ان يصلى في داخل الكنيسة فابى وقال له : اخاف ان يدعيها المسمون ويحولوها مسجدا وكتب لهم ان لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها

وطلب من البطريك ان يريه مكان هيكل سليمان فذهب معه ودله عليه فدهش حينما رآه اطلالا بالية ، ومزبلة قدره ، واخذ يحفن التراب وينخضه بكفيه وحذى الذين معه حذوه حتى تصبب عرقا ثم امر ببناء مسجد في ذلك المكان فبنى ، وهو مكان المسجد الاقصى الحالي وقد وسعه الوليد الاموي بعد ذلك

فتح الرملة وقيسارية

صالح عمر بن الخطاب مندوب الرملة وهو في الجابية على نفس الشروط التي صالح عليها مندوب القدس ، ووقع لهم عهدا كعهدهم ولا نرى فائدة من اعادة نشره هنا بعد ان نشرناه من قبل

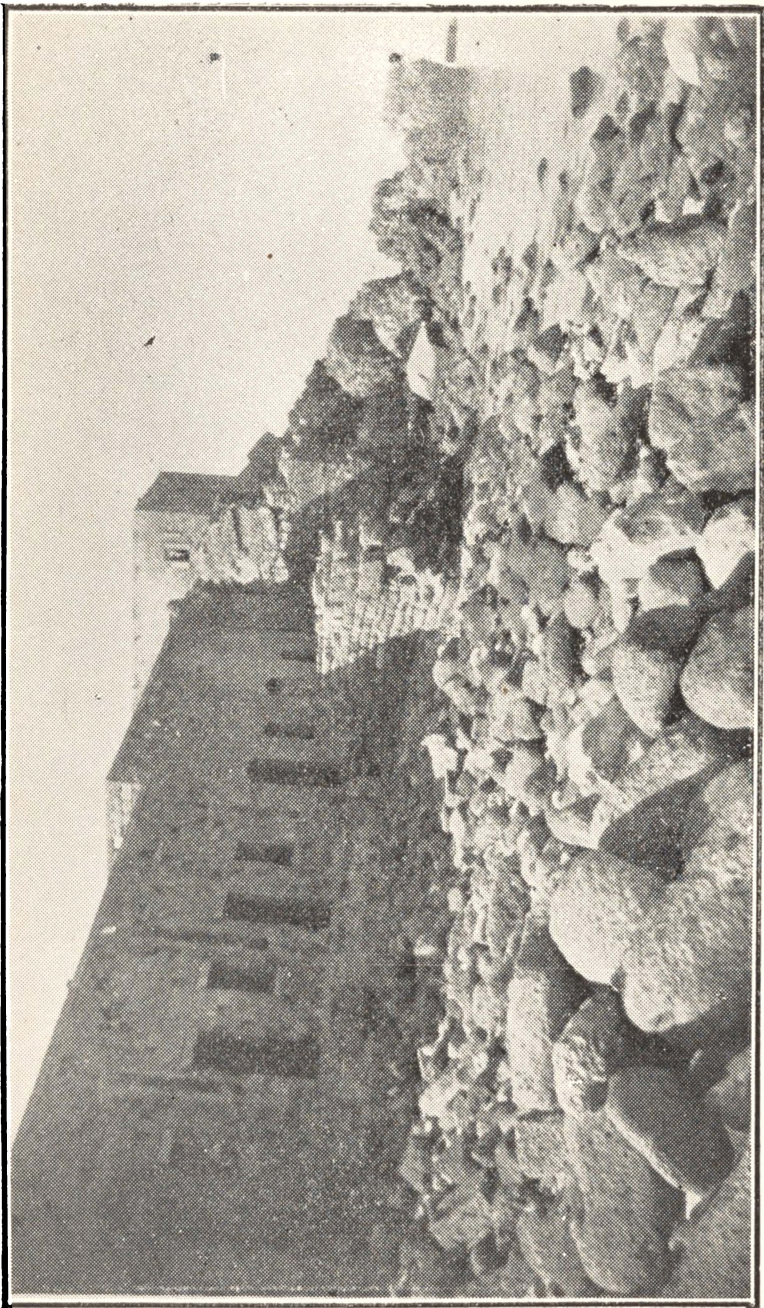
وفي بيت المقدس قسم عمر فلسطين الى ولايتين : فعين علقمة بن مجرز على القسم الجنوبي وقاعدته القدس ، وجعل الرملة عاصمة القسم الشمالي وعين له علقمة بن حكيم . ثم عاد من هنالك الى الحجاز ولم يزر المدن الاخرى

فتح قيسارية

وبقيت قيسارية مع عسقلان في جنوبي فلسطين تقاومان ، فاقام معاوية على حصار الاولى ولم تفتح الا في سنة ٢٢ ويقال انها فتحت على يد يهودى دل العرب على نفق يؤدي الى داخلها فتسللوا منه واستولوا عليها . وبلغ المؤرخون العرب في وصف حاميها فقالوا انها كانت تتألف من ٢٨٠ الف جندي وهو عمالا يستسيغه العقل . والامر الذي لاريب فيه هو ان معارك ذات شأن دارت حولها بين العرب والروم

وفي سنة ٢٣ هـ فتحت مدينة عسقلان وكانت آخر مدينة استسلمت للعرب في فلسطين وانهت بفتحها الحرب في هذا القطر ودخل في حكم العرب

قلاع قيسارية القديمة



فتح سوریه

فتح دمشق

لم يقل انكسار اليرموك من غرب الروم ، ولم يضعف همهم ، فقد عكفوا على تنسيق جيشهم في دمشق بعد رجوع فلوله ، ثم عززوه بالنجدات التي كانت تردهم بدون انقطاع من الشمال ، وكان الامبراطور نفسه يزجها ويشرف على سوقها وأنس الروم من انفسهم القوة واعتقدوا ان في امكانهم صد الساميين فغادرت قواهم دمشق ، في اوائل شهر المحرم سنة ١٤ الى مرج الصفر لمهاجمة جيش ابي عبيدة ، وكان لايزال فيها ، ولعله اراد من اطالة الاقامة هنا الاطمئنان على جيش فلسطين او انجاده عند الحاجة

ويقول المؤرخون المسلمون : ان هركليوس قصد حمص بعد معركة اليرموك واقام فيها ، يحصنها ويعد المعدات للقاء العرب اذا جاءوها . كما ارسل قوات كبيرة الى دمشق لمقاتلتهم وربما كان يطمع بان يتاح له في هذه المرحلة تعويض ماخسره في المرحلة السابقة ، واستعادة نفوذه وكرامته وقد فقد جانبا منهما بتوالي الانكسار

وعملا باوامر الامبراطور وتعليماته ، زحفت قوات الروم لمنازلة ابي عبيدة فالتقى الفريقان في مرج الصفر فدارت بينهما معركة شديدة استبسل الروم فيها كعادتهم واستنفدوا الجهد في المقاومة والنضال فلم يغن ذلك عنهم شيئا ، بل صدوا وهزموا ، وقيل انه سقط من الساميين في يوم مرج الصفر من الجرحى ما لا يقل عن اربعة آلاف جريح ، عدا القتلى

وفتح النصر في هذه المعركة طريق دمشق في وجه المسلمين فزحفوا الى
الغوطة ، من طريق المزة ، أى من طريق الغرب الجنوبي فاكتسحوها وتقدموا
حتى بلغوا المدينة فضربوا ناطقا حولها وحاصروها واقاموا القوى حول خمسة من
ابوابها وهى :

١ - الباب الشرقى ٢ - باب توما (فى الشرق الشمالى) ٣ - باب
الفراديس « الشمالى » ٤ - باب الحباية (حوران) ٥ - الباب الصغير (الجنوبى)
وكانت دمشق ذات اسوار وابراج حصينة وفيها حامية مسلحة باجود
السلاح وعدد من كبار القواد العسكريين وكانوا معتزمين الدفاع حتى النفس
الاخير

العرب ومعدات الحصار

ولا بد لنا من القول ان العرب ما كانوا حتى ذلك الوقت يملكون المعدات
الحربية اللازمة لذلك الاسوار ، كالمنجنيقات ونيران النفط وكانت مستعملة
فى الجيش الرومى ، نعم ان النبي استعمل المنجنيق للمرة الاولى فى حصار الطائف
فضرب الاسوار بها الا انهم عدلوا عن استعمالها بعد ذلك كما يظهر . ولم يذكر
رواة التاريخ ان المسلمين حملوا من ادوات الحرب التى كانت معروفة فى ذلك
العهد الى الشام سوى السيوف والرماح والسهام والحراب وكانت كل عدتهم . وكما
ضايقتهم الفيلة - وكان الجيش الفارسى يعتمد عليها كثيرا فى حروبه ، وهى
تشبه الدبابات المستعملة فى جيوش هذا العصر وتقوم مقامها - فقد ضايقتهم الحصون
التي شيدها الروم فى الشام وفلسطين ومصر وكيليكية لانهم ما اعتادوا منازل الاسوار
والوقوف امامها ، وكانت غير معروفة تقريبا فى داخل جزيرة العرب كما انهم ما كانوا
يملكون الوسائل الحربية التي يتغلبون بها على الاسوار كالمنجنيقات وسواها من
ادوات الجيش الرومى

كيف هاصر العرب دمشق

ويقول ابن عساکر ان ابا عبدة نزل حول باب الجابية ، وان خالدا نزل حول الباب الشرقي ، وان ابا الدرداء كان بيرزة (اى انه كان قرب حى الاكراد الحالى من اعلا دمشق) وان الجند كان منتشرا حول ابوابها

هباله بغنم الفرصة

واقام المسلمون حول دمشق نحو ستة اشهر (محرم - رجب) يرقبون سروح الفرص للاستيلاء عليها ، بعد ماتبنوا انه ليس فى مقدورهم اقتحامها والتغلب على حاميتها ، وكانوا يرسلون العيون والجواسيس الى داخلها فتوافيهم باخبار الرود وحركاتهم وسكناتهم فلا يكاد يفوتهم من امر عدوهم شىء ، ومن يدري فقد لايبعد ان يكون مثل ذلك للروم فى جيش العرب ، ينقلون اليهم اخبارهم وحوادثهم وجاءت جواسيس العرب من اقصى دمشق تقول بانه ولد للبطريق قائد الحامية مولود ، وان الروم فى عيد وانهم اسرفوا على جارى عاداتهم فى الاكل والشرب ، فادرك خالد انها فرصة ثمينة فاختر بضعة عشر رجلا من اصحابه المجرىين الذين خبرهم فى النجاة والعراق والشام ، وسار بهم الى الاسوار ، وكانت الخمرة قد لعبت برءوس حراسها لعبها برءوس ضباط الحامية ، فاختر مكانا عبر منه الخندق المملوء ماء ، بادوات جاء بها . ثم رموا بسلام عدوها من قبل الى احدى الشرفات ، البارزة من السور وتسلقوا عليها الواحد بعد الآخر ، حتى تكامل جمعهم ، والوقت سحر والروم نيام ، فوقف بعضهم لمراقبة الحوادث وانحدر الآخرون الى الباب الداخلى ففتحوه ، فدخل الجند المرابط خارجا وكبر ، وكبر الذين كانوا على السور ، اى قالوا : الله اكبر ، وكان التكبير - ولا يزال - شعار المسلمين ، يجهرون به فى المهمات والعظائم وبعض المواقف الدينية . وكان اول مفاعلوه هو انهم قتلوا حراس الابواب . فاندفع المسلمون

الى داخلها فوق العذر والاضطراب وافر رجال الحامية لايلوون على شيء ، وكان خالد يتقدم من الباب الشرقي وابو عبيدة من باب الجابية وكلاهما يسير ليلتقي بصاحبه في وسط المدينة

عهد خالد

واسرع بعض اعيان دمشق الى خالد طائعين مستسلمين ، وصالحوه على الجزية والخضوع فكتب لهم العهد الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق اذ دخلها ، اعطاهم امانا على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله ، وذمة رسول الله ، والحلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية »

عهد ابي عبيدة

وكذلك صالح ابو عبيدة من في ناحيته من اعيان المدينة الذين جاءوا طائعين مستسلمين وكتبوا له العهد الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب لأبي عبيدة بن الجراح ، ممن اقام بدمشق وارضاها ، واراض الشام من الاعاجم ، انك حين قدمت بلادنا سألتناك الامان على انفسنا واهل ملتنا ، وانا اشترطنا لك ان لا نحدث في مدينة دمشق ولا فيما حولها كنيسة ولا ديرا ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجد ما خرب من كنائسنا ولا شيئا منها مما كان في خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا من المسلمين ان ينزلوها في الليل والنهار ، وان نوسع ابوابها للمارة وانباء السبيل ، ولا نؤوى فيها ولا في منازلنا جاسوسا ولا نكتم على من غش المسلمين وعلى ان لانضرب بنوا قيسنا الا ضربا خفيا في جوف كنائسنا ، ولا نظهر الصليب عليها ،

ولا اصواتنا في صلاتنا ، وقراءتنا في كنائسنا ، ولا نخرج صليتنا ولا كتابنا ولا نخرج باعونا ولا شعائنا ، ولا نرفع اصواتنا بموتانا ، ولا نظهر النيران معهم في اسواق المسلمين ولا نجاورهم بالخنازير ولا نبيع الخمر ، ولا نظهر شركا في نادي المسلمين ، ولا نرغب مساما في ديننا ، ولا ندعو اليه احدا

« وعلى ان لا تتخذ شيئا من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين ، ولا تمنع احدا من قرابتنا ان ارادوا الدخول في الاسلام ، وان نلزم ديننا حيثما كنا ، ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قفلسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا في مراكبهم ، ولا تكلم بكلامهم ، ولا نسمى بأسمائهم وان نجزم مقاديرنا ونفرق نواصينا ، ونشد الزناير على اوساطنا ، وان لا نتقش في خواتيمنا بالعربية ولا نركب السروج ، ولا تتخذ شيئا من السلاح ، ولا نجعله في بيوتنا ، ولا نتقلد السيوف

« وان نوقر المسلمين في مجالسهم ونرشدهم الطريق ، ونقوم لهم من المجالس اذا ارادوها . ولا نطلع عليهم في منازلهم ولا نعلم اولادنا القرآن . ولا نشارك احدا من المسلمين الا ان يكون للمسلم امر التجارة ، وان نضيف كل مسلم عابر سبيل من اوسط ما نجد ، ونطعمه فيها ثلاثة ايام

« وعلينا الا نشتم مساما ومن ضرب مساما فقد خلع عهده

« ضمنا ذلك على انفسنا وذرارينا وارواحنا ومساكننا ، وان نحن غيرنا او خلفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الامان عليه فلا ذمة لنا ، وقد حل لك منا ما حل من اهل المعاندة والشقاق . على ذلك اعطينا الامان لأنفسنا واهل ملتنا فاقرونا في بلادكم التي اورثكم الله اياها . شهد الله ما شرطنا لكم على انفسنا وكفى به شهيدا »

نظرة في العهدين

والباحث في العهدين : عهد خالد لأهل دمشق وهو قصير موجز ، وعهد اهل دمشق لأبي عبيدة وهو مطول مفصل ، يرى ان الاول ذو طرف واحد وان الثاني

ذو طرفين احدهما ابو عبيدة ، وقد اعطى فيه الامان لأهل دمشق، والطرف الثاني هو هؤلاء وقد قبلوا الامان منه وتعهدوا له بالشروط التي نص عليها . والفرق بين الاثنين هو ان الاول لا يقيد السكان بشيء ازاء المسلمين ، اذا لم يقل انه يقيد هؤلاء ازاءهم اما الثاني فهو كما قلنا ذو طرفين اى مزدوج . ولا ريب ان ابا عبيدة اراد من الشروط التي فرضها عليهم وهي قاسية ضمان السلامة والامن لجيشه وكان يقاتل في ارض لا تزال مملوءة باعدائه . فاراد بما قرره ونص عليه ان ينزم اهل البلاد الطاعة والسكينة والا عرضوا انفسهم للعقوبات الشديدة المنصوص عليها في العهد . ولئن رآها بعض ابناء هذا الزمان قاسية وتمثلوا فيها روح الشدة ، فما كان ابناء ذلك الزمان يرونها كذلك . وربما كانت افضل واسهل شروط صالحت عليها دمشق في تاريخها قبل الاسلام ، فقد اعتاد معظم غزاة ذلك العصر ، ان ينهبوا كل شيء ، ويقتلوا كل من وجدوه امامهم ، ولم يفعل المسلمون شيئا من ذلك ، وانما اشترطوا شروطا ، ارادوا منها ضمان السلامة لجيشهم كما قدمنا ، من دون ان يتقاضوا من السكان شيئا او ان يمدوا يدهم الى شيء ، او ان يقتلوا منهم احدا او يمسوهم بسوء ، وبعبارة اخرى ان شروطهم كانت منصبة على المستقبل لا على الماضي

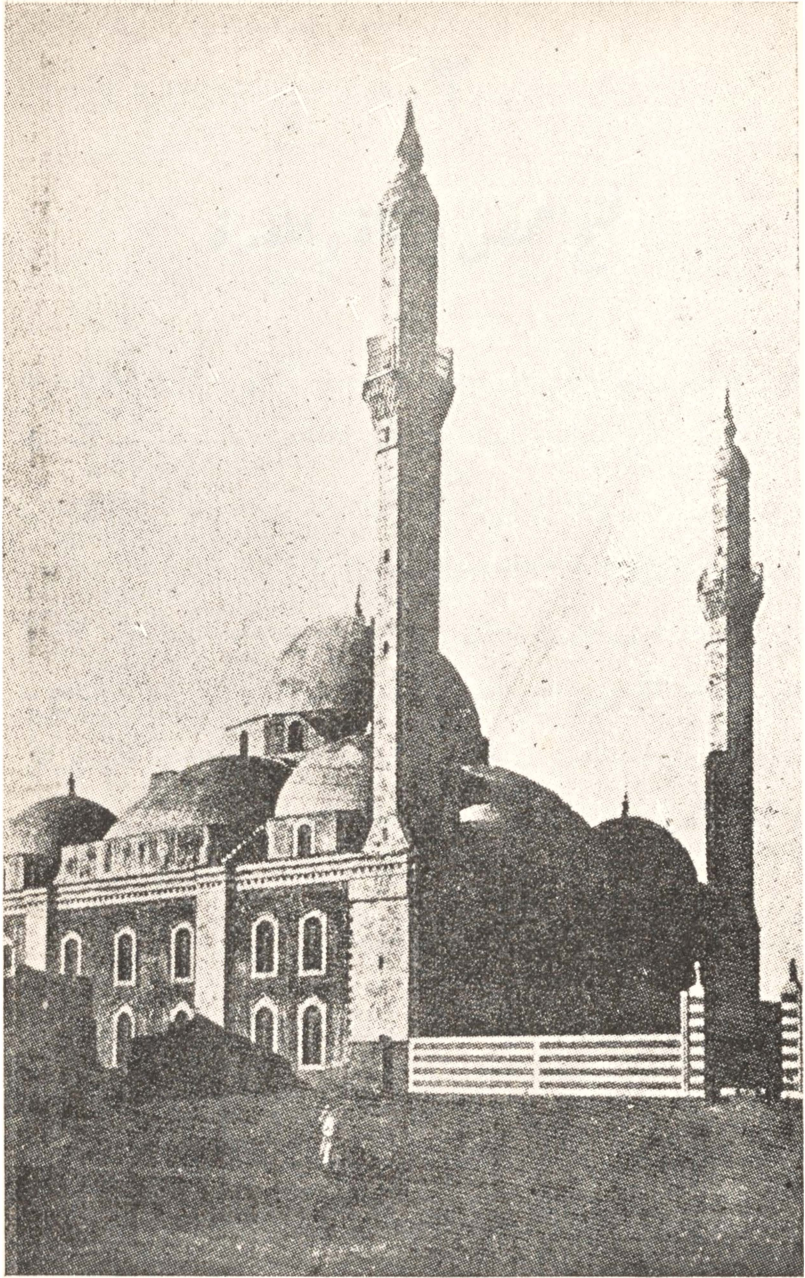
ولا نشك في ان هذه الشروط نفسها كانت افضل من الشروط التي اشترطها الفرس قبل ذلك على نصارى دمشق حينما جاءوها ، ويجب ان لانسى ان شرائع الروم كانت تقضى باعتبار اهل البلاد المفتوحة اسرى وارقاء للغالب ان يتصرف فيهم كما يشاء من دون قيد ولا شرط ، وكان من عادتهم ان يستخدموهم في الاعمال الشاقة الخاصة او في الحروب . ولم يفعل المسلمون ذلك في دمشق ، ولم يأخذوا منها شيئا ولم يتعرضوا لاهلها بسوء ولم يمسوهم بأذى

ولا بد لنا من القول ان المسلمين كانوا يسرون على قاعدتين في معاملة اهل البلاد التي يفتحونها :

فالبلاد التي تستسلم اليهم طوعا وفتح اليهم ابوابها يتركونها وشأنها ويكتفون منها بالجزية فقط ، ولا يتعرضون لها بسوء

واما البلاد التي يفتحونها حربا فتعامل معاملة تختلف عن تلك فتباح لهم هي واموالها وكل ما فيها باعتبار انها غنيمة حرب ، لم تؤخذ الا حربا وبعد نضال وكفاح ومع ان نصف دمشق فتح صلحا (القسم الذي فتحه ابو عبيدة) ، ونصفها فتح عنوة (القسم الذي فتحه خالد) فقد امر الخليفة عمر بن الخطاب ، حينما رفع اليه الامر ، بان تعامل دمشق معاملة خاصة وان تعتبر كأنها صلحا . ومعنى ذلك انه لا يحق للسلمين ان يمدوا ايديهم الى شيء منها ، وان يبقى لأهلها مالهم وحقوقهم ويظلوا في بيوتهم واراضيهم

على هذا النوال تم فتح مدينة دمشق الخالدة ، ومن ذلك اليوم (شهر رجب سنة ١٤ هـ) دخلت في حوزة العرب والاسلام ، ولا تزال قاعدة من قواعدهم الكبرى وحصنا من حصونهم المنيعة ، وقد مرت بها نوازل ومصائب في خلال هذه القرون الطويلة ، لم تزدها الا تمسكا بعروبته واسلامها ولا ريب ان الاستيلاء على دمشق معناه القضاء على النفوذ الرومي في الشاء الوسطى . وهكذا كانت مدن الشام وحصونه تتداعى وتسقط الواحدة بعد الاخرى بأيدي الفاتحين من العرب ، الذين رافق النصر اعلامهم ، وخفق على بنودهم . فزادهم ثباتا وايمانا ، وزاد اعداءهم ضعفا وخالا



جامع خالد بن الوليد بمحصر وفي داخله ضريحه

فتح حمص وصحاة والمعرة

غادر الجيش الرومي دمشق على عجل ، وانسحب بأقصى ما يكون من السرعة تاركا الجانب الاكبر من معداته وعدده ، بين يدي الفاتحين ، فاستولوا على العاصمة الكبرى ، من دون عناء ، ولم يذكر المؤرخون ان معركة كبيرة دارت في اسواقها او في داخلها وانما كانت هنالك حوادث بسيطة لا شأن لها وتفرق الروم الذين غادروا دمشق ، فاتجه جانب منهم الى الشمال سالكا طريق حمص ، واتجه الآخرون نحو الغرب سالكين طريق وادي بردى - البقاع - الساحل - وما كان في استطاعتهم ان ينسحبوا في غير هذين الاتجاهين لان طريق الجنوب والجنوب الغربي كانا بأيدي العرب ومثل ذلك كان الطريق الشرقي

تعليمات الخليفة الجريدة

واستقر ابو عبيدة في دمشق بعد ما تسامها وعكف على تنظيم شؤونها الداخلية فولى ادارتها يزيد بن ابي سفيان ، احد كبار قواده ، وجعله قائدا عاما لحاميتها ، وكتب الى الخليفة عمر يخبره بما تم وبما منحه الله من نصر ، ويسأله اصدار تعليمات جديدة في الحطة التي يسير عليها فأمره بما يأتي :

١ - ان يمضى الى الشمال ويواصل فتح البلاد ومطاردة جيش الروم

٢ - ان يصرف جيش العراق الى العراق . وكانت معركة القادسية على وشك الوقوع وكان المسمون يستعدون لها ويزجون القوات لمنازلة الفرس في ميدانها وكان جيشهم في اشد الحاجة الى قوات الشام المرنة المدربة ، خصوصا والجيش الذي يراد اعادته ونعنى به الجيش الذي جاء مع خالد في السنة الثالثة عشرة بأمر ابى بكر ، وقاتل في اجنادين واليرموك ومرج الصفر ونال قسطا عظيما من نخر الفتوحات التي جرت ، كان من الابطال المجريين الذين ابلوا البلاء الحسن في كل معركة خاضوها وفي كل مهمة اتدبوا اليها

هذا مجمل ما كتب به عمر الى ابى عبيدة ، وهو يدل على اعتقاده ، بان شأن الروم قد ضعف بعد الضربات التي انزلت بهم في شتى الميادين ، وعلى انه لم يعد يحسب حساب قواهم الباقية ، فالجيش الذي اعد لهم كاف للقائم ولولا ذلك لما امر باعادة جيش العراق ويؤلف نحو الربع من مجموع القوى العامة في هذا الميدان . واذا قيل لنا ان هنالك نجدات كانت ترسل الى ميدان الشام نجيب بان مركز القيادة العسكرية العليا في المدينة عكف بعد اليرموك - وقد ارتاح الى نتائجها ، واعتقد بان الروم صائرون الى الزوال - على تجهيز القوى وارسلها الى ميدان العراق ، لاستئناف خطة الهجوم التي وقفت بعد انفصال خالد وسفره الى الشام وانجاز امر الفرس والقضاء على دولتهم

هالده يبقى فى الشام

وعملا بامر الخليفة اعد جيش العراق معدات السفر واخذ اهتبه لاجتياز الصحراء ، ولكن لا على المنوال القديم بل على منوال آخر ، فقد تبدل الحال في خلال الاشهر التي قضاها (صفر - رجب) ففتحت الاقطار التي اجتازها وتقلص النفوذ الرومى عنها واصبح في امكانه ان يجوب بامان المنطقة الممتدة من الشام حتى

جنوبي العراق وكانت مما فتحه المسلمون واصبح في عداد ممتلكاتهم
ورأى ابو عبيدة ان يستبق خالدا الى جانبه ، لما خبره من مزياده وعرفه
من كفاءته ، فأبقاه بعد ما سير جيش العراق ، بقيادة هاشم بن عتبة بن ابي وقاص
فوصل والمعركة دائرة فاشترك فيها وكان اشتراكه من عوامل النصر وكتب
(ابو عبيدة) الى عمر يسأله ان يقر ما فعله ، لشدة حاجته الى خالد فهو من الرجال
الذين لا يستغنى عنهم فلم يعارض

كيف فتح حمص

ويرى بعض المؤرخين ان حمصا فتحت قبل دمشق ويقولون في تعليل ذلك
انه بينما كان المسلمون يحاصرون دمشق - وكانت لهم قوة على طريق حمص لقطع خط
رجعة الروم المحصورين في دمشق ومنعهم من الاتصال بالخارج يقودها ذو الكلاع ،
وقد ارسلت طبقا لتعليمات عمر ، اقبلت خيل كثيرة للروم تريد دخول دمشق فقدمها
المسلمون قرب دوما (مدينة صغيرة شمالي دمشق تبعد عنها ١١ كيلومترا على طريق
حمص) وقتلواها وهزموها ولحقوا بها حتى حمص ، فاستسلم اليهم اهلها وانقادوا
فصالحوهم

وقصد ابو عبيدة حمص بعد ما استقرت الامور في دمشق وترك يزيد بن ابي
سفيان على امارتها فدخلها سالما وافر الصلح الذي تم بين اهلها والمسلمين ، وتبعد حمص
عن دمشق ١٦٢ كيلومترا وهي في شماليها ، ثم قصد حماة وتبعد عن حمص ٤٧ كيلومترا
وهي الى شماليها ايضا فتلقاه اهلها مدعين ، ثم قصد شيزر وهي في شمالي حماة الغربي
على ٢٤ كيلومترا منها في المنطقة الممتدة بينها وبين مصيف ، على طريق بانياس -
الاذقية الحالي ، وهي الآن قرية صغيرة بجانب قلعتها ، وكانت من جند حمص
كما كانت من قلاع الدعوة الاسماعيلية - فخضعت له

ولم يعن ابو عبيدة في الزحف نحو الشمال الغربي لافتتاح المدن الواقعة فيه

وهي مصيف والمرقب وجبله واللاذقية وكلها على ساحل الشام الشمالى ، بل ارتد الى الشمال وسار حتى مدينة المعرة (معرة النعمان) ولا تزال قائمة وهي فى شمالى حماة وتبعد عنها ٦١ كيلو مترا . وهي اول حدود مقاطعة حلب من ناحية الجنوب وتبعد عنها ٨٢ كيلو مترا بطريق السيارات اليوم . و بافتتاح المعرة أتم المسامون فتح سورية الوسطى ولم يبق عليهم سوى شماليها ومدن الساحل وما كانوا يتوقعون ان يلقوا مقاومة فيها

قنسرين وحلب

يظهر ان الروم حشدوا قوات عسكرية كبيرة في قنسرين استعدادا لمعركة كبيرة قرر واخوضها مع العرب حينما يصلون الى هذه الربوع ، وكانت قنسرين من قواعد الروم العسكرية الكبرى في الشمال وقد تقدم وصفها ومكانها وانفصل خالد عن ابي عبيدة في حماة وسار على مقدمته الى قنسرين فالتقى في الحاضر (جوار قنسرين) بجند كبير للروم بقيادة ميناس من كبار رجالهم العسكريين وكانوا يطمعون ان يصدوا المسلمين في هذا الميدان ، ويمنعونهم من الاستيلاء على قنسرين لان الاستيلاء عليها معناه فتح طريق انطاكية وهي في غربي حلب الشمالي وفتح المنطقة الشرقية الواسعة حولها (منطقة الفرات) والمنطقة الغربية (ساحل سورية الشمالي) ويمتد من خليج اسكندرونة شمالا حتى طرابلس جنوبا ودارت معركة عنيفة بين الفريقين انتهت بانتصار المسلمين فاستولوا على الحاضر وقنسرين وحلب وذلك سنة ١٧ وصالحتهم على مثل صلح دمشق وحمص ودانت لهم قواعد الشمال الكبرى ، وصار في استطاعتهم ان يتصلوا بجيشهم في جنوبي العراق من هذه الناحية

فتح ساحل الشام

اتجهت انظار قادة الجيش العربي بعد ما اتموا اخضاع المدن الداخلية الواقعة بين دمشق وحلب - والمسافة بينهما ٣٣٦ كيلو مترا وهي : دوما والقطيقة والنبك وحمص وحماة ومعرة النعمان - الى فتح ساحل الشام وهو الجزء المناوح لهذا الخط ويمتد من خليج اسكندرونة شمالا حتى ميناء صور جنوبا اى حتى حدود منطقة فلسطين الحاضرة ويشمل الثغور الآتية : اللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور

وسلك ابو عبيدة الطريق الرومي القديم الممتد بين حلب واللاذقية ويبلغ طوله ١٩٨ كيلو مترا فقصده معرة مصرين ففتحها وهي على ١٠ كيلو مترات من شمالي مدينة ادلب ولا تزال قائمة كما فتح سرمين وهي قرية صغيرة من اعمال حلب وواصل التقدم حتى بوقا (شرقي مدينة اللاذقية) وتعد من ضاحتها كما احتل جبلة وبانياس والحرا بوطرطوس وهي في جنوبي اللاذقية بينها وبين طرابلس الشام

و بينما كان ابو عبيدة و خالد يعملان في الشمال على هذا المنوال كان يزيد بن ابي سفيان قائد حامية دمشق ، يعمل في الساحل اللبناني فقد جهز قوة من رجاله زحف بها الى بيروت وتقع غربي دمشق وبينهما ١٢٧ كيلو مترا فافتتحها ثم سار الى الجنوب سالكا طريق الساحل حتى بلغ صيدا وبينها وبين بيروت ٥٥ كيلو مترا فافتتحها ايضا واتصل بقوات العرب ب صور ، فتقلص بذلك ظل الروم عن فينيقية القديمة (صور وصيدا و بيروت) و بعد ما اتم مهمته هنا عاد الى بيروت ومنها اتجه نحو الشمال سالكا طريق الساحل فافتتحه وظل يتقدم حتى عرقا وهي شمالي طرابلس الشام وتبعد عنها نحو ٢٠ كيلو مترا في طريق حمص واللاذقية ، فالسائر من طرابلس

الى حمص يظل سالكا طريق الساحل حتى عرقا ثم يتجه منها الى الشرق ، اما المسافر الى اللاذقية فيظل مواصلا السفر الى الشمال ، اى انها كانت مركز تقاطع بين طرابلس وحمص واللاذقية وقد خربت اليوم ، ويقال انها كانت عامرة زاهرة في العهد القديم ، ولم يبق سوى اطلالها ، وبفتح عرقا اتصل الجيش العربي القادم من هذه الناحية بالقوات التي كانت تعمل في الشمال ، فدان ساحل سورية كله من اللاذقية شمالا حتى قيسارية جنوبا للعرب

فتح انطاكية

تعد انطاكية من مدن سورية الشمالية الكبرى اليوم وهي القاعدة الصيفية للواء اسكندرونة المستقل كما ان اسكندرونة قاعدته الشتوية . وهذا اللواء ملحق اسما بالجمهورية السورية اما فعلا فهو مستقل عنها استقلالاً تاماً ويحكمه الفرنسيون حكماً مباشراً

وقد كانت انطاكية في العهدين اليوناني والرومي ذات شأن عظيم ، بناها سلوقس سنة ٣٠٠ ق . م في سفح جبل سيلبيوس احياء لاسم ابيه انطيوخس ، فقصدها الناس من كل مكان وتديرها فتمت وازدهرت ، واتخذها السلوقيون عاصمة لدولتهم . ودخلت سنة ٦٤ ق . م في حوزة الدولة الرومانية فتحها القائد بومبيوس الشهير حينما فتح سورية وجعلها قاعدة البلاد ، وزارها كثير من امبراطرة الروم وعظماهم وكانت تعد من قواعدهم العسكرية الكبرى وكانت ملائى بالثكنات ودور الصناعات

وتقهقرت انطاكية في اواخر العهد الرومي بسبب الاختلافات المحلية والمنازعات الدينية ولكثرة مهاجمة الفرس لها وفقدت رونقها ومقامها وقد حمل عليها ابو عبيدة بعد فتح حلب وقنسرين فاستولى عايبها صلحا بعد حصار لم يدم طويلا وتقع انطاكية في شمالي حلب الغربي وتبعد عنها نحو ١١٢ كيلومترا

افتتاح بغراس (بيلان)

مضيق بغراس او بيلان من المضائق الشهيرة في شمالي سورية وقد مر به معظم الفاتحين في طريقهم من الشمال الى الجنوب وبالعكس، ويبعد عن اسكندرونة نحو ١٣ كيلو مترا، وعن انطاكية ٢٥ كيلو مترا، وهو قائم بين جبل امانوس وجبل قزل طاغ (الجبل الاحمر)، ويعد الجبل الاحمر (قزل طاغ) من سلسلة جبال امانوس ويحسبه آخرون مستقلا عنه

ولم يلق العرب مشتقة في احتلال هذا المضيق وهزموا القوات التي رابطت فيه وبذلك تم فتح سورية الشمالية كما نسميها اليوم - او منطقة حلب، وتمتد من البحر الابيض غربا حتى نهر الفرات شرقا ومن المعرة جنوبا حتى جبل امانوس شمالا وهو الحد الفاصل بين سورية وبين مقاطعة كيليكية (تركيا) كما فتحت المناطق الاخرى بين دمشق وحلب والساحل، فتقلص ظل الروم عن هذه المنطقة الواسعة ولا يقل طولها عن ٤٠٠ كيلو متر من الجنوب الى الشمال، ولا يقل عرضها عن ٢٥٠ كيلو مترا من الفرات حتى البحر الابيض

مصير هركليوس

والذي عليه معظم المؤرخين من المسلمين ان هركليوس، ظل يشرف على سير القتال في ميدان الشام من الاول الى الآخر ويدير حركته، فاقام في حمص زمن اليرموك، ثم انتقل الى انطاكية حينما عرف بقرب زحف المسلمين الى حمص، فاقام فيها حتى بدأ هؤلاء الزحف الى قنسرين فعادها الى اورفا (الرها) ومنها الى القسطنطينية وهناك اصاب بخبل في عقله ولم يعد يصلح لولاية الامر، فزاد ذلك الروم وهنا على وهنهم واضطرابا على اضطرابهم، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة في الشرق

الروم يكرون على دمشق

عاد ابو عبيدة مع القسم الاكبر من جنده الى حمص بعد ما اتم فتح المنطقة الشمالية كلها فاتخذها قاعدة لجيشه بدلا من انطاكية لانها اقرب الى الحجاز والبادية من تلك ، ولانها واقعة في منطقة عربية بعكس انطاكية وبلاد الشمال فهي متصاة ببلاد الروم (الاناضول) اتصالا وثيقا

ويقول المؤرخون الاسلاميون ، ان الروم جهزوا قوات عسكرية كبيرة في سنة ١٧ لمهاجمة دمشق ، وعلم المسامون بخبرها قبل ان تصل فسار ابو عبيدة وخالد بقواهما فالتقوا بها في مرج الروم ، وقد رجحنا ان يكون مرج الروم هذا هو سهل البقاع الواقع في منتصف الطريق بين دمشق و بيروت وهو معروف اليوم ويتبع حكومة لبنان الحاضرة . ويبعد عن بيروت نحو ٤٠ كيلو مترا وعن دمشق ٧٨ كيلو مترا فاذا صح ذلك وصح ان الروم جاءوا بجيش كبير لغزو دمشق فلا بد ان يكونوا سلكوا احدى الطرق الآتية :

فاما ان يكونوا جاءوا من طريق الفرات

واما ان يكونوا جاءوا بحرا ونزلوا في بيروت او في ميناء آخر وكانوا يسيطرون

على البحر

واما ان يكونوا قدموا من الشمال مكنتسحين مدن السواحل

وعلى كل حال فان وصول غزو للروم الى قرب دمشق ، وبعد ما اتم المسامون

فتح بلاد الشمال وملكوا الدروب والقواعد واقاموا الحاميات والاجناد من الحوادث التي تستوقف النظر ، فهو وان لم ينتج نتيجة مادية ذات شأن وان انتهى بما انتهت

به سائر محاولاتهم في هذا الميدان اى بالفشل والاحفاق فانه يدل على شدة عزيمتهم وعلى انهم استنفدوا الجهد في النضال والدفاع

والذى نرجحه ان يكون هذا الجيش - اذا صح انه وصل وصح ان تكون مرج الروم هي سهل البقاع - قدم بطريق الساحل . ولا تزيد المسافة بينه وبين الساحل عن ٤٠ كيلو مترا كما قلنا ولا يصعب عليهم اجتيازها في بلاد كانت حتى الامس القريب خاضعة لهم ، وبين شعب تربطهم به روابط عديدة ، سيما ولم يكن للعرب قوات كبيرة في الساحل بل كانوا يكتفون من كل مدينة بالطاعة والامان وينشئون فيها حكومة من اهلها وما كانوا يقيمون حاميات الا في المراكز الكبرى لحماية طرق المواصلات

كيف دارت المعركة

يقول المؤرخون ان جيش الروم كان بقيادة قائدين من مشاهير رجالهم العسكريين وهما تيدور وشنس ، وان ابا عبيدة وخالدا غادرا دمشق الى لقاءهما وتركها فيها يزيد بن ابي سفيان لقيادة الحامية

ويقدر المؤرخون جيش تيدور بثمانين الفا ولا يخلو ذلك من مبالغة ظاهرة وما نظن ان جيش العرب كان يزيد عن بضعة عشر الفا

مناورة فطيرة المروم

وحاول الروم القيام في هذا الميدان بمناورة عسكرية خطيرة احبطها ذكاء خالد وبعد نظره ، فانقلبت وبالا على الروم وادت الى هزيمتهم وعجلت في القضاء عليهم

وبيان ما حدث ان قائدى الروم اتفقا بعد ما التقيا بالجيش الاسلامى ، ان يقسما قواتهما الى قسمين يقف احدهما امام العرب وينازلهم ، ويقصد الآخر دمشق سرا . ويهاجها على حين غرة فيفتحها وبعد ما يجهز على حاميتها ، يعود فيأخذها من الورا ، ونحن في غنى عن القول ان هذه المناورة تحتاج الى تكتم شديد ، فلو اطلع المسلمون عليها لحبطت واتججت خلاف ما يرجى منها ، واذا صح

مايقول المؤرخون فيكون الروم قد آتموا تطبيق الجزء الاول منها باحكام ومهارة
 فقد سار تيدور الى دمشق تحت جنح الظلام ومن دون ان يشعر به احد
 ولاحظ قادة الجيش العربي عند ماطلعت الشمس واشرقت تبديلا في وضع
 جيش عدوهم ، وادركوا ان هنالك سرا ، فتجسسوا فاعلموا ان تيدور قصد دمشق
 لمهاجمتها وتمزيق حاميتها ، فلم يتردد خالد في اقتفاء اثره تاركا قوة كبيرة مع ابي عبيدة
 تكفي لصد الروم الواقفين امامه ومناجزتهم

وسار خالد مسرعا حتى بلغ دمشق ولا تزيد المسافة بينها وبين المرج على
 ٧٨ كيلومترا ، وهي في شرقيه وكانت المعركة دائرة حولها مع يزيد بن ابي
 سفيان ، والظاهر ان الروم لم يأخذوه على غرة ، فتلقاهم واشتبك معهم ، ولما جاء
 خالد من ورائهم انهزموا وتشتوا ، ولولا يقظة رجال الحامية لدخلوا دمشق ، وكانوا
 يعولون على تأييد سكانها ومساعدتهم . وهكذا سقطوا في الفخ الذي نصبوه والحرب
 خدعة كما يقولون

وعاد يزيد الى مكانه في دمشق بعد المعركة واسرع خالد الى المرج لمساعدة ابي
 عبيدة ، فوصل والمعركة دائرة فاشترك فيها وتم لهم النصر وفشلت حملة الروم كما
 فشلت خططهم وتدابيرهم

فتح کیلکیہ

كيليكية

معلومات جغرافية موجزة عنها

كيليكية احدى الولايات التركية الجنوبية تقع في السهل الفسيح القائم بين
جبال امانوس (جبل اللكام) وجبال طوروس وتحدها من الشرق جبال امانوس
كما تحدها جبال طوروس من الغرب واتي طوروس من الشمال والبحر المتوسط
من الجنوب

ومن اشهر مدنها اطنه (آذنة) وطرسوس ومرسين وبياس ، سيس ومسيس

(مصيصة) وحاجين وياس

وسكانها من العرب والترک في الوقت الحاضر ، واللغة المنتشرة فيها هي التركية

وسكانها العرب ممنوعون من التخاطب بلغتهم

كيليكية في التاريخ

خضعت كيليكية للإمبراطورية الرومية على يد القائد الرومي بومبيوس الشهير انتزعها من يد السلوقيين وكان سكانها من اليونانيين وهم العنصر الغالب ومن الفرس والكلدان والاشوريين

وانضمت الى القسطنطينية حينما حصل الانقسام في الامبراطورية الرومية وخضعت لها ، وظلت على ذلك حتى جاء العرب سنة ٢١ للهجرة فهاجموها واستولوا عليها صلحا

وقد عرفت بلاد كيليكية بانها اقليم زراعي خصب كثير الغلات ، ومدينة آدنة عاصمتها راكبة على نهر سيحان وعليه جسر روماني قديم يصل بين جزئها

امانوس وطوروس

جبل امانوس Amanus ويسميه جغرافيو العرب جبل اللكام ويسميه الترك كاور طاغى (جبل الكفرة) هو الحد الفاصل بين سورية وكيلىكية فى العهد الحاضر ، فالقسم الواقع جنوبه للشام والواقع شماله للترك ويمر خط الحدود فى وسط هذه الجبال وتنفصل جبال مرعش ويسى من سلسلة طوروس بوادى نهر جيحان وتتجه بخط مستقيم الى الجنوب حتى مضيق بيلان ويفصلها عن قزىل طاغ الممتد شمالى انطاكية وغربها وطول هذه السلسلة نحو ١٠٠ كيلو متر وعرضها ٧٠ كيلومترا وفيها اودية ووهاد ومنحدرات ونجود واطواد وقمم ومضايق وئسايا ذات شعاب ومسالك دعاها العرب بالدر بندات واعظمها شأنًا مضيق بيلان فى الجنوب ومضيق دكر من درة فى الوسط ومضيق آصلان بوغاز فى الشمال واعلى قمة فى هذا الجبل قمة آق قيا (الصخرة البيضاء) وارتفاعها ٢٥٠٠ متر وموغراو مغير وارتفاعها ٢٢٦٧ مترا والماداغ وارتفاعها ١٨٣٥ مترا وكان فيه قلاع وابراج دثرت الآن واعظمها شأنًا قلعة حاجر شعلان وقلعة المركز قرب اسكندرونة وقلعة در بساك وقلعة بغراس وغيرها اما سلسلة جبال طوروس فهى اعظم شأنًا من امانوس واوسع رقعة واكثر ارتفاعا وهى تشرف على مدينة آذنة نفسها ويدخل اليها من مضيق يسمونه اليوم « كولاك بوغاز » فى جبل بلغار طاغ وكانوا يسمونه Pylls cilicienne و يبلغ ارتفاع اعلى قممه نحو ٢٥٥٠ مترا

وكان العرب يسمون كيليكية بلاد الثغور ، والثغر عندهم كل موضع يكون في وجه العدو . وكانت ثغور بلاد الشام اذنة وطرسوس والمصيصة (مسيس) ومن انهار كيليكية المشهورة جيحان يخرج من مدينة البستان ويمر بمرعش ثم يصب في البحر قرب المصيصة ونهر سيحان وينبع من اعلى نجد ولاية سيواس ويسير محاذيا السفح الشرقى لجبال اتى طوروس مارا بمدينة اذنة الى ان يصب في جنوبي طرسوس

العرب في كيليكية

اجلى هركليوس سكان جبل امانوس حينما جلا عن سورية واخذهم معه لثلا يسير العرب في عمارة بين انطاكية وبلاد الروم ، وخرب الحصون فلا يلجأ احد اليها . وغايته من ذلك ان يعرقل حركات العرب فلا يجمعوا في مطاردته واللاحق به

واذا صح مارواه الواقدي فيكون ابو عبيدة اول من جهز القوى لفتح امانوس وكيليكية فقد روى انه بعث قوة بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي سارت من حلب بطريق نهر الساجور (شرقي شمالي حلب و بين منبج وجرابلس) وتبعد عن حلب نحو ٩٠ كيلومترا حتى عمورية او العمورة كما يسمونها اليوم وهي مدينة صغيرة على طريق سكة الحديد بين حلب واذنه واول ما يبلغه القادم من سورية الى تركيا بعد ما يجتاز امانوس ، فقالت الروم وانتصرت عليهم ، ولم تطل المكث هناك ، بل عادت الى مقرها فتوقفت اعمال الفتح في هذه المنطقة ثم استؤنفت بعد فتح فلسطين فقد هاجم هاشم بن عتبة كيليكية سنة ٢١ ففتحها واخضعها صلحا

الروم يفتنون الشام

ولا بد لنا من الاشارة الى مارواه المؤرخون عن الحملة الكبرى التي جهزها الروم خلال السنة السابعة عشرة في اورفا (الرها) وسيروها الى حمص بطريق البادية والفرات لمحاربة العرب واخراجهم من البلاد

وعرف ذلك قادة الجيش الاسلامي ، وكان لهم في كل بلد عيون وجواسيس يوافونهم بالاخبار ، وكانوا يشترطون على اهل كل مدينة من سكان الحدود حين عقد الصلح معهم ان لا يكتموا عنهم خبرا من اخبار عدوهم ، والقصد من ذلك الا يؤخذوا على غرة ، وان لا يصيب عدوهم منهم فرصة

وكتب ابو عبيدة ، الى عمر بن الخطاب يخبره بتأهب الروم ويقول انهم سيسيرون اليهم بقوات كبيرة ، فأصدر امرا الى سعد بن ابي وقاص (قائد جيش العراق) بان ينجدهم بقسم من القوات المرابطة على الفرات فأرسل قوة بقيادة القعقاع بن عمرو عددها ٤ آلاف وضم ابو عبيدة اليه مسالحه (قواته المسلحة) فجاءه خالد بن الوليد من قنسرين وجاءته قوة من دمشق والمناطق الاخرى ، فاجتمعت اُفي حمص فبرز بها الى خارج السور واقام ينتظر الروم ، بعد ما عبأ جيشه تعبئة عسكرية مناسبة . فوصلت حملتهم ، وكان العرب على اتم استعداد للقائها فاقتلوا قتالا شديدا وكانت الهزيمة لهؤلاء فسلكوا طريق الصحراء عائدين من حيث اتوا ، فلحقت بهم حاميات العرب وقواهم المنبثة هنا وهناك وانزلت بهم خسارة كبيرة

ويقول ابن خلدون ان عمر غادر المدينة بالذات الى الجابية لانجاد ابي عبيدة

واغائته فوصل بعد المعركة ووصلت نجدات العراق متأخرة اى بعد المعركة بثلاثة ايام
وعلم عمران قبيلة اباد العربية جلت الى بلاد الروم مع هركليوس فكتب اليه
يقول له : بلغنى ان حيا من احياء العرب تركوا دارنا وانوا دارك فوالله لتخرجهم
او لنخرجن النصارى اليك « فاخرجهم فعادوا الى بلاد العرب
وتم فى تلك الاثناء فتح مدن الجزيرة كلها واتصل الشام بالعراق والحجاز
وتوحدت هذه الاقطار الثلاثة مع الجزيرة تحت راية الاسلام واصبحت حدود الدولة
الجديدة تمتد من المدينة حتى جنوب سلسلة جبال طوروس شمالا وارمينية شرقا .
وفتحت مصر وبرقة وطرابلس العرب بعد ذلك

فتح مصر والسودان

مصر

معلومات جغرافية موجزة عنها

تبلغ مساحة مملكة مصر السطحية في الوقت الحاضر ٩٤٩٣٠٠ كيلومتر مربع وحدودها تقريبا هي نفس الحدود التي كانت لها حين الفتح الاسلامي ، ويحدها من الجنوب السودان ، ومن الغرب السلوم وصحراء برقة ، ومن الشرق البحر الاحمر وخط يصل بين غربي العقبة ورفح وصحراء سينا والحجاز ومن الشمال البحر الابيض المتوسط

وعدد سكانها بموجب احصاء سنة ١٩٢٧ الرسمى ١٤١٨٦٤٧١ منهم ٨٥٤٧٧٨ قبطيا و ٥٩٥٨١ يهوديا و ٤٧٤٨١ بروتستانتيا و ١٤٤١٦ مسيحيا من اذاهب الاخرى و ١١٢ الف اجنبي والباقون من المسامين

عمر بن الخطاب والتوري

استعصت قيسارية على العرب دون مراكز الروم وحصونهم في فلسطين وكان يقود حمايتها تيدور نجل الامبراطور هركليوس ، ويقود جيش المسلمين معاوية بن ابي سفيان ، فرأى قادة الجيش الاسلامي ان يشددوا في الحصار عليها ويضايقوها ولا سيما بعد ما استسلمت القدس على يد الخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، سامه اياها البطريرك (صفرونيوس) واصبح جيشها بدون عمل يعمله ، وقصد عمرو بن العاص بجيشه قيسارية فنزل حولها واشترك في الحصار ، وكانت لعمرو القيادة العليا في جند فلسطين

وعاد الخليفة بعد فتح بيت المقدس الى المدينة حاضرة الاسلام الكبرى ، واقام فيها يشرف على حركة القتال في الميدانين : ميدان الشام وميدان العراق - وكان شمالي سورية لم يفتح بعد ، وكان الفرس لا يزالون يناضلون في المناطق الجبلية وفي الاهواز - ويرسل القوى والامداد ويصدر التعليمات والاوامر الى امرائه وقواده بالخطط التي يسرون عليها . وكان من عادتهم ان يرجعوا الى المدينة في الشؤون الخطيرة ، فلا يبتون فيها الا بأمر الخليفة ، وكان يتقلد الرئاسة العليا للجيش بحكم منصبه ، ويضع الخطط العسكرية الرئيسية بنفسه ، ويعهد الى القواد بتنفيذها تاركا لهم التفاصيل . وكان الى جانب ذلك يشرف على ادارة بلاد العرب الداخلية ويطلع على كل شيء ، ويعنى بكل شيء

ولما تم فتح الشام من شمالي حلب حتى رافع (اول حدود مصر الشرقية في الوقت الحاضر وفي العهد الرومي ايضا) ولم تبق سوى قيسارية وحدها تقاوم وتصاده

قصد الخليفة الشام ثانية ليرتب امورها ، وينظم شؤونها ويعين الحكام والولاة
وينظر فيما يجب اجراؤه ، وصحبه في رحلته هذه عدد من الانصار والمهاجرين فسار
يطوى المفاوز والقفار حتى اذا بلغ سرغا (هى نفس محطة المدورة فى الوقت الحاضر
وهى آخر حدود الحجاز واول حدود سورية) جاءته الاخبار بان مرض الطاعون
منتشر فى الشام

عمر بنرد

وتردد عمر فى الامر ايدخل البلاد والطاعون يفتك بسكانها فيعرض نفسه
ومن معه للخطر من دون موجب ولا سبب ؟ ام يرجع من حيث آتى ويقوم فى
المدينة حتى يزول الوباء فيعود اليها ثانية ويقضى حاجته ؟ وماذا يقول الناس عنه
اذا عاد ولم يدخل ؟ وماذا يكون اثر ذلك فى نفوسهم ؟ وماذا يقولون ايضا اذا دخل
وخطر بنفسه ؟ كل هذه الاسئلة جالت فى مخيلته وهو يدرس الموقف ويفكر فى
القرار الذى يقدره

وعول اخيرا على الاستشارة وقرر ان يسأل الذين معه رأيهم فيما يجب عمله ،
وكان محبا للشورى ميالا لها ، فقال لابن عباس ادع الى المهاجرين الاولين ، فلما
اجتمعوا اليه بسط الامر على مسامعهم وسألهم رأيهم فى الخطة التى يسير عليها وهل
يعود الى المدينة ام يمضى فى طريقه الى الشام

المهاجرون مختلفون

واختلف المهاجرون فيما بينهم ولم يتفقوا على رأى يأخذ به ويعول عليه فقال
له بعضهم لقد خرجت تريد وجه الله وما عنده ولا نرى ان يعيدك عنه بلاء
وقال فريق انه لبلاء وفناء لانرى ان تقدم عايه
واقترح فريق اقتراحات اخرى لم ترقه فقال لهم قوموا عنى . . .

هبة سُورى الانصار

وعجز شيوخ المهاجرين عن الاتفاق على رأى معين فلم يشأ الخليفة ان يبت فى الامر وحده ، وان يستأثر به وكانت له الكلمة العليا ، فأمر ابن عباس ان يدعو له كبار الانصار وكانوا معه فى الركب فوقعوا فيما وقع فيه زملائهم ولم يجمعوا على رأى من الآراء فقال فريق منهم بوجوب الدخول والاستسلام الى قضاء الله وتلقيه بالصبر . وعارضهم فريق آخر قال بوجوب الحذر والاحتياط وانه يجب على المرء ان لا يعرض حياته للخطر ، وطالت مناقشتهم ولم يصلوا الى رأى حاسم فأمر ابن عباس ان يخرجهم من حضرته

هبة سُورى مهاجرة الفتح

وكان فى الركب فريق من كبار قريش اسلموا بعد فتح مكة ، وكانوا يسمونه مهاجرة الفتح من قريش ، فرأى ان يستشيرهم ويقف على رأيهم ، فأمر ابن عباس ان يدعوهم اليه فاما دخلوا بسط الامر عليهم وسألهم ماذا يفعل فأشاروا عليه بأن يعود ولا يعرض نفسه ومن معه لخطر الوباء واصدروا ذلك بالاتفاق فلم يشذ منهم احد . فرأى الخليفة ان يأخذ به وينفذ لانه ادرك انه الاصلح والافضل والاكثر انطباقا على العقل والمنطق

عمر يرمع الى المدينة

وامر الخليفة ابن عباس ان ينادى بالناس بان يتأهبوا للرحيل وقال انه اعتز الرجوع فى الغداة فلا يصبح احد الا وقد اعد عدته وهياً راحلته
وصلى المسلمون صلاة الصبح فى الغد واجتمعوا حول الخليفة ينتظرون امره

بالرحيل ليرحلوا ، وركوبه ليركبوا ، فقال لهم ايها الناس انى راجع فارجعوا
وعارض ابو عبيدة بن الجراح فى الرجوع والظاهر انه وصل مساء تلك الليلة
من الشام لاستقباله والدخول معه حسب عادة القوادى فى كل زمان ، وقال له افرارا من
قضاء الله ؟

فرد عليه عمر قائلا :

فرارا من قدر الله الى قدر الله ، ثم اتبع ذلك قائلا :

ارأيت لو ان رجلا هبط واديا له عدوتان احدهما خصبة والاخرى جدبة اليس
يرعى من يرعى الخصبة بقدر الله ويرعى من يرعى الجدبة بقدر الله
واراد الخليفة ان يعتب عليه فقال :

لو غيرك يقول هذا ياأبا عبيدة ؟ !

وسكت هذا ولم يعد الى الكلام فأخذ الخليفة واتحى به مكانا عن الناس

الرأى الحاسم

وبينا الخليفة وابو عبيدة منتحيان جاء عبد الرحمن بن عوف وهو من اقرب
الصحابة ومن العشرة المبشرين بالجنة فسأل عن الخبر وكان غائبا عن استشارات
امس فلم يحضرها ، فذكروا له الامر فقال ان عندى الخبر اليقين ، فدعاه الخليفة الى
اعلان ما يعرفه بقوله له انت عندنا مصدق فقال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا
تقدموا عليه واذا وقع واتم به فلا تخرجوا فرارا منه لا يخرجكم الا ذلك

فقال الحمد لله على ذلك . ثم امرهم بالانصراف فانصرف ومن معه الى المدينة ،
وعاد ابو عبيدة الى مقره بالشام ، وكان من جملة الذين استشهدوا بالطاعون فقد هلك
به ودفن فى غور الاردن وله مقام معروف يزار ويقصد ، وقد اضيف الغور اليه ،
فاسمه الآن غور ابى عبيدة

هيئات الشورى في الدولة الاسلامية

دل حادث الطاعون ، على رسوخ مبادئ الشورى في نفس عمر ، وعلى انه متشرب بالروح الاسلامية الصحيحة ، كما دل على انه - وهو المشهور بالشدة والغلظة - ما كان يمضى فى أمر من الامور ولو كان عاديا من دون ان يعقد اجتماعات ، ويستشير استشارات

لقد كان فى استطاعته ، بما له من سلطان ونفوذ ، ان يمضى فى طريقه ، الى الشام لو اراد ، وما نظن ان احدا منهم كان يعترضه او ينكر عليه تصرفه ، كما كان فى استطاعته ان يعود بهم الى المدينة وهو ما حصل فعلا ، من دون ان يسأل احدا رايه ، او يستشير هيئة من الهيئات ولكنه ابى ان يفعل ذلك من عند نفسه ، او ان يستأثر بالامر دون الذين معه ، وكان يعرف انه فى اعماله وتصرفاته ، يشرع للمسلمين ويضع تقاليد الدولة الجديدة ، وكانت تنمو وتكبر كل يوم بمن ينضم اليها من شعوب وجماعات ، اقبلت على تأييدها لما رآته فى رجالها ومثليها من حب العدل المطلق المجرد ، والتمسك به والتواصى باقامته

وهناك ظاهرة اخرى فى استشارة عمر يجب ان يشار اليها ، وينود بخطورة شأنها ، فقد بدأ كما رأيت بالمهاجرين من قريش وهم السابقون الاولون فى الاسلام ، وهم الذين قام على سواعدهم واكتافهم ، فلما عجزوا عن ابداء رأى حاسم ، دعا بأكابر الانصار ويؤلفون الهيئة الثانية بعد المهاجرين الاولين ، ويأتون بعدهم فى المرتبة من حيث ترتيب الدرجات الاسلامية ، لانهم اسلموا بعدهم ، ولما عجزوا عن ابداء رأى يسترشد به دعا مهاجرة الفتح من قريش ،

وكانوا يؤلفون المرتبة الثالثة في ترتيب الدرجات الاسلامية ، لانهم اسلموا بعد الانصار فكان رأيهم قاطعا فأخذ به . وهكذا اثبت انه يراعى الدرجات في استشاراته مبتدئا بالمهاجرين الاولين فالانصار فمهاجرة الفتح من قريش والمقصود بهم هنا كبار مكة الذين اسلموا بعد فتح مدينتهم ، وقد اشتركت قريش في خدمة الاسلام اشتركا فعليا بعد الفتح واندفعت في تأييده ، لانها ادركت ان عزها في عزه وعرفت انه ماقام الالعزيز شأن العرب ورفع مقامهم وتحرير اقطارهم واقضاء كل نفوذ اجنبي عن بلادهم ، وجعلهم سادة الشرق والغرب وخلفاء الارض

ومع ان رأى هؤلاء استقر على وجوب الرجوع ، وعدم دخول الشام ، وهو مايقضى به المنطق السليم ، ويوجبه الحذر والاحتياط ، وقد أخذ به عمر الا انه لم يتردد عن الوقوف لسماح رأى عبد الرحمن بن عوف حينما قال له ان عنده الخبر اليقين ، وقد جاء خبره مطابقا لما أشار به المهاجرة ، فمضى عمر في تنفيذه وعاد الى المدينة يستند الى « سابقة » صحيحة والى رأى المهاجرة وكانوا اقطاب قريش وذوى الرأى الراجح فيها

عمر في الجاية

لم يطل عمر الإقامة في حضرته ، الا ريثما تقلص ظل الطاعون ، فقصد الجاية ولا بد لنا من القول ان الطاعون - ويسمونه طاعون عمواس (نسبة الى قرية قرب الرملة في فلسطين اندثرت الآن ، ويظهر انه اول ما ظهر فيها ^(١)) فتك بالناس فتكا ذريعا ، فهلك ابو عبيدة ويزيد بن ابي سفيان ومعاذ بن جبل وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وعتبة بن سهيل وكانت نكبة عظيمة نكب بها المسلمون . وقد خفف عنهم وقعه ، نصيحة عمرو بن العاص ، وحل محل ابي عبيدة في القيادة العامة فأشار عليهم ان يتفرقوا ويلجأوا الى الجبال لانتقاء الطاعون وقال لهم :

« أيها الناس

« ان هذا الوجع اذا وقع ، فانما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه في الجبال »

(١) لقد كنت في فلسطين ايام انعقاد المؤتمر الاسلامي ، وقد مررنا بقرية ونحن ذاهبون الى وادي حنين وقد اخبرت انها عمواس التي ظهر فيها ذلك الطاعون اول ظهوره

ولعمواس هذه ذكر في الانجيل ، اذ كان جماعة من اهلها يتحدثون بشأن المسيح وقتل اليهود له صبيحة الليلية التي يقولون بحصول ذلك فيها فمضى المسيح يتحدث معهم ومال معهم الى قريتهم وهناك اظهر نفسه لهم وعرفوه

عبد الوهاب النجار

فأجابوه الى طلبه وخرج وخرجوا معه ، فتخلص ظل الطاعون وماتت جراثيمه وانطفأ أثره (١) ، وبلغ ذلك الخليفة فجاءهم ينظم شؤونهم ، ويرتب امورهم ، ويولى عليهم الامراء والقادة ، بعد ان هلك منهم من هلك في الطاعون والحروب وفقد من فقد

وفي خلال هذه الرحلة اتصل عمرو بن العاص بعمر بن الخطاب وعرض عليه مشروع فتح مصر فأقره مبدئيا وامره بتنفيذه واشترط عليه شروطا سيأتي بيانها

(١) من العقول المقبول ان الانهار والعيون في المدن والقرى قد تلوثت بجراثيم الوباء فاستعمالها والسقيا منها وهي بحالها زائدة في الوباء منمية لجراثيمه فاذا سعدوا في الجبال وهم على حال سلامة وجدوا عيونا ومناجم طاهرة غير ملوثة فتكون لهم السلامة

مشروع فتح مصر

كان عمرو بن العاص يتولى القيادة العامة لجيش العرب في الشام حينما بلغ عمر بن الخطاب الجابية في المرة الثانية ، وقد استقبله بهذه الصفة ودرس معه مشروع إعادة تنظيم بلاد الشام اداريا وعسكريا وماليا

واقترح عمرو على عمر في اثناء اجتماعهما المتكررة ان يسمح له بان يقود جيشا يفتح به مصر ، وكان قد زارها من قبل وعرف عظمتها وشاهد عمرانها ووفرة ثروتها وغناها ، وقال له ليس في البلاد ما هو اقل منها قوة ولا اعظم منها ثروة وغنى ويعود فتحها على الساميين بالخير العميم ، والنعم الوافرة وتكون قوة عظيمة لهم اذا ملكوها - كما ان قعودهم عن الزحف عليها قد يكون وبالا عليهم فهم لا يأمنون ، ان يجهز ارباطون قائد الروم في اجنادين (وكان قد انسحب الى مصر قبل تسليم القدس) قوة كبيرة في مصر يغير بها على الشام فيكون عاملا في انتزاعها منهم فيتعبهم ويضيقهم

ولم يبت الخليفة في المشروع لخطورة شأنه ، بل آثر التريث والدرس والبحث - وخاف من فتح ميدان جديد للقتال ، وكان الروم لا يزالون على حدود سورية الشمالية والفرس لا يزالون يكافحون في بلاد ايران ، ففتح ميدان جديد قد يؤدي الى اضعاف قوى العرب وزيادة متاعبهم واعبائهم العسكرية وما كان يميل بطبيعته الى المجازفات والمخاطر ، فاعاد عمرو عليه مقالته ، واكد له ان فتح مصر لا يحتاج الى اكثر من اربعة آلاف جندي لا يضعف سفرهم الى مصر جيش الشام ، ولا سيما وفتحها ضرورة

عسكرية لا بد منها خوفا من غارة يغيرها الروم من وراء هذه الحدود ، اذا لم يبادر الى
مطاردتهم وينتزع هذا القطر العظيم منهم
وارتاح الخليفة مبدئيا الى الاقتراح ، و وعد بان ينظر فيه بعد رجوعه الى
المدينة وانه يكتب اليه بما يستقر عليه رأيه

عمر يقر خطبة عمرو

انتهت زيارة الخليفة للشام ، ونظم الامور ورتب القوى ، ولما ازمع الرحيل
 خطب في امراء جيشه خطبة قال فيها : « الا واني قد وليت عليكم وقضيت الذي على
 في الذي ولانى الله من امركم . فمن علم شيئا ينبغي العمل به فيبلغنا نعمل به ان
 شاء الله ولا قوة الا بالله »

وعملا بالخطبة التي سار عليها من استشارة رجال شوراه في الامور قبل الاقدام
 عليها والبت فيها ، استشار بعد وصوله الى المدينة عثمان بن عفان في غزو مصر واطلعه
 على مشروع عمرو بن العاص ، وما يطلبه من القوى فاجابه « انها لغزوة شديدة
 الخطورة وان في ابن العاص جرأة وتهورا ، وانه قد يقود الناس الى الهلكة فيجب
 التريث والتروى »

وبين المؤرخين من يجعل الاستشارة بعد ارسال كتاب الخليفة الى ابن
 العاص بالموافقة على مشروعه لا قبله ، وغنى عن البيان ان وقوعها بعده يجعلها عديمة
 الفائدة والقيمة ، ولا يتفق مع خطة عمر في استشارة الصحابة قبل البت في الامور
 لا بعد البت فيها ، ولذلك نرجح ان كتاب عمر الى عمرو باجازة مشروعه كان بعد
 استشارة عثمان ، وقد لا يبعد ان يكون استشار غيره من رجال شوراه ، ولم يصل اليه

خبرهم ، فاقروا المشروع ورأوا تنفيذه وكان بينهم كثيرون زاروا مصر في
الجاهلية للتجارة أو لاغراض اخرى ، فمصر جارة الحجاز ، من البر والبحر
والعلاقات الاقتصادية ما برحت متصلة بينهما من القديم

عمرو يستعد للزحف

ولم يطل انتظار عمرو بن العاص ، فقد حمل اليه شريك بن عبده بعد اشهر قلائل كتابا سر يا من الخليفة يبلغه فيه اقراره لمشروعه ويأمره ان يمضى فى تنفيذه ويوصيه بالكتمان الشديد فلا يعرف الروم من امره شيئا فيفسدوا عليه امره ويحبطوا مشروعه ، ويدعوا له بالنجاح والتوفيق ، فارتاح عمرو الى ذلك وابتهج به وعكف سرا على اعداد الجيش الذى قرر ان يسير على رأسه وكان لا يزال على اسوار قيسارية ، يحاصرها مع معاوية بن ابى سفيان ، ومع اننا لانعرف بالضبط تاريخ كتاب الخليفة الى عمرو ولا نعرف اليوم الذى زحف فيه الى مصر الا ان الدلائل تدل على انه تسلمه فى منتصف السنة الثامنة عشرة فكم امره ريثما انتهى من تهيئة جنده ، فقطع به الصحراء ، الى العريش وكانت قيسارية لم تفتح وكان الروم يناجزون المسلمين ويقابلونهم حولها

عمرو بن العاص

عمرو بن العاص هو احد الاقطاب الذين قام الاسلام على كواهلهم والذين يضرب المثل بكفاءتهم في الجاهلية والاسلام

وهو من بنى سهم (من بطون قريش المعروفة) ووالده وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب ووالدته سلمى بنت حرملة من بنى عنزة وتلقب بالنابغة وكنيته ابو عبد الله

قدم المدينة في شهر صفر سنة ثمان للهجرة يعلن اسلامه ويجهز بايمانه ، وبايع النبي على ان يغفر له ما كان قبله ، فاجابه « الاسلام والهجرة يجبان ما قبلهما » واسلم معه في يومه خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة العبدي . فسر المسلمون بهم وفرحوا بدخولهم في زميرتهم

وكان عمرو مشهورا بالذكاء والنبوغ في مكة ، وكان ينتدب في المهمات لكفائه ، وكان احد اثنين ارسلتهما قريش الى اكسوم لمخاطبة اصحمة نجاشي الحبشة في تسليم اللاجئين اليه من المهاجرين المسلمين فاخفق في سفارته

ويسرد عمرو والبواعث التي بعثته على الدخول في الاسلام بعد ما كان من اشد مقاوميه ويقول : « لما انصرفنا مع الاحزاب عن الخندق ، جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأبي ويسمعون مني ، فقلت لهم تعلمون اني ارى امر محمد يعلو الامور علوا مطردا ، لقد رأيت امر فيه فما ترون ؟

– ماذا رأيت

– رأيت ان نلحق بالنجاشي فتكون عنده ، فان ظهر محمد على قومنا كئنا

عند النجاشي ، فانا ان نكون تحت يديه احب الينا من ان نكون تحت يدي محمد .
وان ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم الا خير»
ويستمر في ايراد هذه القصة حتى آخرها ، وتتضمن وصف رحلته الى الحبشة
وعودته منها وقد صح عزمه على الاسلام فيجتمع بخالد بن الوليد ، وذلك قبل فتح
مكة فيقول له الى اين يا أبا سليمان

– لقد والله استقام الميسم وان الرجل والله انبي اذهب والله فاسلم فالى متى !

– والله ما جئت الا لاسلم

ثم يقصدان المدينة ويدخلان في الاسلام

وسأل رجل عمرو بن العاص عن سبب ابطائه في الاسلام وهو المشهور برجاجة
العقل ووفرة الذكاء فقال له : « كنا مع قوم لهم علينا تقدم ، وكانوا ممن توازن
احلامهم الجبال ، فلذنا بهم ، فاما ذهبوا وصار الامر الينا نظرنا وتدبرنا فاذا حق ميين
فوقع الاسلام في قلبي »

وقلد النبي عمرو بن العاص قيادة بعض سراياه واستخدمه في بعض المهام
العسكرية والادارية ، وكان عامله على عمان (مسقط) حين وفاته ، وقلده ابو بكر قيادة
الجيش الذي ارسله لفتح فلسطين ، واشترك في معركة اليرموك وكان يقود جناح
المسلمين فيها فابلى احسن بلاء ، وقام بحركة التفاف على جناح الروم الايسر عجبت
في انهزامه وتمزيقه

وتم على يده فتح فلسطين كما تم على يده فتح مصر ايضا فاهدى هذين

القطرين الى الاسلام وفتح برقة وطرابلس الغرب بعد ذلك

وكان عمر بن الخطاب يعجب بدكائه ومهارته . ولما قيل له ان قائد الروم في
اجنادين وهو اريطون من اذكي القواد وامهرهم ايتسم وقال « لقد رمينا اريطون
العرب باريطون الروم » وكان عمرو بن العاص ينازله ويقاتبه . وقد فاز عليه
في النهاية والجأء الى الانسحاب الى مصر ثم لحق به اليها وقتلته في معركة بلبس
كما سيأتي

وكان من دأب عمر بن الخطاب ان يقول لمن يريد ان يعيره بقلة الذكاء والفهم « سبحان من خلقك وخلق عمرو بن العاص ، وقيل انه كان يقول « اشهد ان خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد »

والتفق عليه بين رواة التاريخ ان عمرو بن العاص كان يشتغل بالتجارة كبقية اعيان فريش ، وانه زار مصر في تجارة له قبل الاسلام ، فجاب بعض مدنها ، وشاهد عظمتها وادرك اهميتها ولذلك لم يتالك عن السعي لدى الخليفة ليدفع له بالمسير اليها وفتحها بعد ما فتحت الشام وفلسطين ولم يبق ما يحول دون الزحف عليها وانضم الى معاوية في اثناء الفتنة الداخلية فولاد مصر مكافأة له ومات فيها على فراشه يوم اول شوال سنة ٤٣هـ وقد نيف على السبعين ، ودفن في سفح جبل المقطم بقرب « مدخل الشعب » وقد درس موضع قبره ولا يعرف احد مكانه الآن والغالب ان العلويين هم الذين محوه انتقاما منه وقد فعلوا ذلك مع اكثر خصومهم السياسيين

طرق المواصلات بين مصر والحجاز

يحد الحجاز مصر من الشرق برا ، فأراضيها متصلة بأراضيه ، وحدودها مشتبكة بحدوده ، كما يجاورها من البحر الأحمر غربا ، فهو يقوم على ضفته الشرقية وتقوم على الضفة الغربية ، ويرى السائر في هذا البحر اراضى البلدين وسواحلهما تبدو من الجانبين على السواء

وكان ثمة علاقات اقتصادية بين هذين القطرين قبل الاسلام فكان تجار الحجاز يقصدون الاسكندرية وغيرها من مدن القطر للتجارة ، وكانت سفن مصر تقصد ميناء الشعبية (١) في الحجاز ، وكان ثغر مكة التجارى ، قبل انشاء مدينة جدة - وقد انشئت في عهد عثمان بن عفان - حاملة نتاج مصر ومحصولاتها فتبذعه لأهل الحجاز ، وكان في مكة ايضا جالية قبطية ، ويقول رواة السير ان النجار الذى استخدمته قریش في تجديد بناء الكعبة ، قبل ظهور الدعوة الاسلامية كان من الاقباط النازلين في تلك الحاضرة الكبرى ، وقد اثبتنا من قبل انه كان فيها جالية

(١) على نحو اثني عشر كيلو مترا من ثغر جدة الى الجنوب وهى تناوح الجزيرة المعروفة بجزيرة ابى سعد وهى محجر الحجاز وكان بقربها صنم يقال له سعد وفيه يقول الشاعر :

اتينا الى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وما سعد الا صخرة بمفازة من الارض لاتهدى لخير ولا رشد
وكان الشاعر جاء بابله فى التماس البركة من سعد فشردت ابله فقال ذلك

مسيحية تمثل طوائف المسيحيين من روم وقبط وعراقيين وسوريين يزاولون شتى الصناعات والمهن ويقول بعض المؤرخين انه كان لهؤلاء مقبرة خاصة بهم يدفنون فيها موتاهم وقد ظلت قائمة حتى اجلوا عن الحجاز فاندثرت وبادت

وكانت الصلات الودية بين هؤلاء والمسلمين في ابتداء ظهور دعوتهم حسنة وكانوا يعطفون عليهم ويتقربون اليهم ، وقد نوه القرآن بما بينهم وبين المسلمين من مودة حسنة وصلات طيبة

وكانت هنالك مواصلات برية وبحرية تصل بين هذين القطرين وتربط بينهما وقد ازداد شأنها بعد الفتح الاسلامي ونصفها وصفا اجماليا فنقول :

١ - طريق المدينة - العقبة - الفسطاط

واول هذه الطرق واعظمها شأننا طريق المدينة - العقبة - الفسطاط . فقد كان المسافر يغادر المدينة الى العقبة والمسافة بينهما نحو ٧٥٠ كيلو مترا فيسلك طريق القوافل بين الشام والحجاز حتى المدورة (سرغ) ومنها يتجه الى العقبة ثم يدخل في حدود مصر الشرقية ويقصد الفسطاط وتبلغ المسافة بينهما نحو ٤٠٠ كيلو متر وقد ازداد شأن هذا الطريق بعد الفتح ولا سيما في العصور الاخيرة ونظم تنظيميا جديدا بين القاهرة (الفسطاط) وبين العقبة ومكة ونذكر اسماء محطاته مع مسافاتها بالساعة على المنوال الذي اتبعناه في وصف طريق الحج الشامي :

المسافة بالساعة	اسم المحطة
	١ - القاهرة
٦	٢ - بركة الحاج
١٤	٣ - الدار البيضاء
١٢	٤ - عجرود جنوب غربي السويس وتبعد عنها ٢٠ كيلو مترا
٨	٥ - الناطور الاول والثاني والثالث
٥	٦ - العلوه

المسافة بالساعة	اسم المحطة
١١	٧ - جنادل حسن
١٢	٨ - نخل
١٢	٩ - بئر قريص
٧	١٠ - العقبة
٩	١١ - ظهر حمار
١٤	١٢ - الشرفا او ام العظام
١٢	١٣ - مغاير شعيب
١٤	١٤ - عيون القصب
١٢	١٥ - المويلح
١٢	١٦ - سامي
١٢	١٧ - اصطبل عنتر
١٢	١٨ - الوجه
١٦	١٩ - عكرمة
١٢	٢٠ - الحنك
١٢	٢١ - الحوراء
١٥	٢٢ - الخضيرة
١٠	٢٣ - ينبع
١٨	٢٤ - السقيفة
١٠	٢٥ - مستورة
١٤	٢٦ - رابع

٢٩١ المجموع

تلك هي اسماء المحطات بين القاهرة ورابع والطريق منها الى المدينة معروفة

وكذلك الى مكة ، وقد كان بعضهم يقصد الوجه ومنها يسافر بحرا الى المدينة بطريق ينبع او يقصد المدينة بطريق العلاء والمسافة بين الوجه وتبوك نحو ١٠٠ كيلومتر

٢ - طريق عمرو بهم العاصى البحرى

ولما اشتدت المجاعة فى الحجاز سنة ٢٢ هـ كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يطلب اليه ان يمد المدينة بالاقوات والميرة فأرسل اليه القوافل بطريق العقبة اى الطريق السبرى . فوصلت متأخرة وبعد انقضاء زمن طويل فاتجهت الانظار الى حفر خليج يصل القسطاط بالبحر الاحمر فتسافر السفن حتى شواطئ الحجاز مملوءة بالحبوب والذخائر

وقد حفر هذا الخليج فوصل بين القسطاط والبحر الاحمر وسمى خليج امير المؤمنين وسافرت فيه السفن بين القطرين تحمل الركاب والبضائع على انه ردم بعد ذلك وحل محله طريق جديد هو طريق القاهرة - قوص - القصير - جدة

٣ - طريق القاهرة - قوص - القصير - جدة

كان الحجاج المصريون فى القرون الاولى للهجرة يغادرون القاهرة الى قوص والمسافة بينهما ٦٥٠ كيلومترا ومن قوص يسيرون فى الصحراء الى عيذاب او القصير والمسافة بينهما ١٥ يوما ومن القصير يركبون البحر الى جدة فى سفن شرعية خاصة

٤ - طريق السويس - جدة البحرى

ولما تقدم فن الملاحة فى القرن الماضى اخذت السفن تسافر بين السويس وجدة وكانت تبلغها فى ٢٠ يوما والمسافة بينهما نحو ٦٧٤ ميلا بحريا

وتقطع البواخر هذه المسافة بين السويس وجدة في ٧٢ ساعة تقريبا في

عصرنا الحالى

ولا بد لنا من القول ان جيش الفتح الاسلامى لم يأت مصر من الحجاز وانما جاءها من طريق فلسطين ، اى انه اجتاز صحراء سينا او صحراء التيه وطولها من الشمال الى الجنوب نحو ٣٠٠ كيلومتر وهى طريق الفاتحين من اقدم ازمنة التاريخ ، فقد سلكها الرعاة او الهكسوس ، ويقولون انهم من عرب الجزيرة ، كما مشى عليها الاسكندر وقييز وشاهين وعمرو بن العاص ، وسليم العثماني وجمال باشا واللورد اللنبي وكان سير هذا معكوسا ، وربما كانت المرة الاولى في التاريخ المعروف ، يأتى فيها جيش من الجنوب فيفتح بلاد الشام وقد جرت العادة ان تذهب الجيوش منها الى مصر فتفتحها اذا استثنينا غزوات ملوك مصر الاقدمين للشام والعراق وآسيا الوسطى

طريق العرب الى مصر

هنالك طرق ثلاثة الى مصر يسلكها القادمون من الشام وهى :

١ - طريق البحر

٢ - طريق الساحل

٣ - طريق الصحراء

ومع اننا لا نملك بيانات مفصلة عن الطريق التى سلكها عمرو فى سيره من قيسارية الى العريش ، والمسافة بينهما ٢٤٥ كيلومترا الا ان الحال تدل على انه سلك طريق الساحل ، لانه اسهل وايسر واقرب ، ولانه ما كان هنالك اسطول رومى يرقبه ويترصده حركاته من البحر فيضطر الى سلوك طريق الصحراء وهو أصعب واشق

ولقد سلك معظم الفاتحين الى مصر هذه الطريق فسار عليه الفرس فى غزوتهم ، وسلكه عمرو بن العاص وسلكه السلطان سليم العثمانى سنة ١٥٧٤ كما سلكه نابليون الأول سنة ١٨٠١ حينما زحف على فلسطين . واختار العثمانيون فى سنة ١٩١٥ طريق الصحراء حينما حملوا على مصر ، حذرا من سفن الاسطول الانكليزى ، التى كانت منتشرة على طول الساحل بين العريش وحيفا ترقب حركات الجيش التركى وسكناته ، وتهدد خط مواصلاته الساحلية . وما كانت تحجم عن اطلاق النار على وحداته لو ظهرت على هذا الطريق او حاولت سلوكه

طريق الصحراء

وطريق الصحراء هذا يبتدىء من جنوبى القدس ويسير حتى خايل الرحمن والمسافة بينهما ٤٠ كيلو مترا فبئر السبع والمسافة بينهما ٤٠ كيلو مترا ايضا فالخفير فرفح وتبعد عن القدس ٢٦٠ كيلو مترا وهنا تبتدىء الحدود المصرية ويدخل المسافرون ارض مصر فاما ان يقصدوا السويس ، كما هو الحال الآن فى الطريق الجديدة التى ينشئونها فى طريق الصحراء والمسافة من السويس الى القدس ٤٦٠ كيلو مترا . واما ان يقصدوا العريش سالكين طريق الساحل

وواصلت الحملة التركية العسكرية السير فى وسط الصحراء ، من دون ان تجسر على الاقتراب من الساحل حتى ظهرت فى منطقة الاسماعيلية من قناة السويس اى فى وسط القناة تقريبا بين مدينتى السويس وبور سعيد . وما كان فى استطاعتها ان تفعل غير هذا لان ظهورها هنا وهناك يعرضها لنيران الاسطول الانكليزى . وكان يحمى مدخلى القناة وكانت بعض سفنه تجول فى القناة نفسها لحمايتها والدفاع عنها . وقد استهدف الترك لنيرانها ، حينما اقتربوا من ضفة القناة الشرقية يوم ٢ فبراير سنة ١٩١٥ وعبرها بعضهم فعلا ولما ادركوا عجزهم عن التقدم ارتدوا موغلين فى الصحراء نفسها وعائدين من حيث جاءوا ، وكان الانكليز قد احسنوا تحصين ضفة القناة الغربية ، ووقفوا على اتم استعداد للقاء الترك من اى ناحية تقدموا

وبهذه المناسبة نقول ايضا ان بنى اسرائيل سلكوا فى طريق هجرتهم من مصر الى فلسطين نفس الطريق التى سلكها الترك فى حملتهم ، اى انهم جاءوا من منطقة السويس وتبطنوا الصحراء ، فتاهوا وضلوا اربعين سنة ، وصلوا بعدها الى القدس ، فاستقروا فيها وانشأوا حكومات وآخر نكبة نكبوا بها ، تلك التى نزلت بهم فى سنة ٦٥ على يد القائد بومبيوس الرومى ، فقد هزمهم وشتهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة ، وحلت الدولة العربية الاسلامية محل الدولة الرومية فى حكم فلسطين ،

وساد العرب هذا الاقليم من ذلك العهد ، ولا يزالون اصحابه ولا يزالون يؤلفون الاكثرية المطلقة فيه ، ويعمل اليهود في هذه الايام على ارجاع ملكهم القديم في فلسطين ، وقد مضى على اندراسه ٢١٦٣ سنة ويقاومهم العرب والنضال على اشده بين الفريقين

طريق الساحل

ومما يصح الاستدلال به على تأييد الرأى الذى ذهبنا اليه عن سلوك العرب لطريق الساحل ، هو انهم بدأوا زحفهم من الساحل نفسه اى من قيسارية وكانت قاعدة الروم البحرية في فلسطين كما قدمنا ، فساروا جريدة حتى غزة والمسافة بين قيسارية وغزة ١٧٥ كيلومترا . ومن غزة الى العريش والمسافة ٧٠ كيلو مترا تقريبا .

ومن تحصيل الحاصل القول ان هذا الطريق وخصوصا لمن يأتي من قيسارية اسهل واقرب . وقد يختلف الحال لو سار عمرو من القدس الى مصر ، ولم يسر من قيسارية لانه بدلا من ان يتجه الى الساحل يخرق الصحراء مباشرة الى العريش . والطريق من هنا ابعد واصعب كما قدمنا . واذا قيل ان العرب - وهم الذين عاشوا في الصحراء ونشأوا فيها والفوا قيظها وقلة مائها - لا يعنون كثيرا بهذه الاعتبار ، نجيب اننا مع تسليمنا بصحة هذه النظرية لانرى هنالك ما يحمل عمرا على تغيير وجهة سيره ، مادام مقبلا بالساحل فهو بدلا من ان يقصد القدس والمسافة بينها وبين قيسارية لاتقل عن ١٥٠ كيلو مترا تقريبا ، يقصد العريش ولا يعرض نفسه وجيشه لتحمل مشقات ليس ثمة ما يستدعى تحملها

وصف صحراء سيناء

وصحراء سيناء التى سلكها عمرو بن العاص فى طريقه الى مصر هى نفس صحراء التيه التى سلكها بنو اسرائيل وتاهوا فيها وهى تفصل بين الشام (فلسطين) ومصر ،

كما تفصل صحراء الشام بين العراق والشام ايضا ، اى ان الشام واقع بين صحراويين صحراء فى الشرق تفصله عن العراق . وصحراء فى الجنوب تفصله عن مصر ، وتمتد صحراء سيناء من البحر الابيض حتى البحر الاحمر فتتصل بالحدود الحجازية نفسها . وسكان هذه الصحارى هم من العرب وحدهم . وقد يعثر المسافر فى صحراء سيناء على منازل وقرى منثورة فى بعض اطرافها ، ولكنه لا يجد شيئا من ذلك فى صحراء الشام بعد ما يتعد ٧٠ كيلومترا من شرقى دمشق حتى يبلغ الرطبة وهى اول الحدود العراقية من ناحية الشام فى الوقت الحاضر ، وتبعد عن بغداد نحو ٤٥٠ كيلومترا منها ٣١٥ كيلومترا عن الفرات و ١٣٠ كيلومترا من الفرات الى بغداد

سكة حديد سيناء

لما سحت عزيمة الانكليز فى ايام الحرب العظمى على مهاجمة الترك فى فلسطين عولوا على انشاء سكة حديدية ينقلون عليها الجنود والعتاد والميرة وكل شىء يلزم للحرب فابتدأوا بانشاءها من القنطرة ثم ساحلوا بها وتقدموا تحت حماية الاسطول الانكليزى . فكان لهم ما ارادوا وفازوا فى ذلك الميدان ولولا السكة الحديدية ما شاموا بارقة الظفر - وكان الابتداء بعمل السكة الحديدية سنة ١٩١٦ وهى باقية الى الآن وهى اهم طريق للمواصلات بين مصر وفلسطين بل هى شريان الحياة بين البلدين

وما سلك الانكليز طريق الساحل الا لانه اقرب وايسر واقل خطرا وكانوا يتقدمون عسكريا ، بنسبة تقدم الاعمال فى سكة الحديد ، فبلغوا غزة فى سنة ١٩١٧ بعد عناء شديد ومعارك حامية دارت بينهم وبين الترك ثم اكلوا فتح فلسطين واكلوا معه انشاء هذه السكة حتى بلغوا حيفا والمسافة بينها وبين القنطرة

الشرقية (قناة السويس) وهي رأس هذه السكة ١٣٤ كيلو مترا . تغدو عليها القطارات وتروح يوميا بين مصر والشام حاملة الركاب والمتاجر وتقطعها في ٩ ساعات بعد ما كانت القوافل تقطعها في عشرة ايام

ولقد بث انشاء هذه السكة في الصحراء روحا جديدة ، وقرب المسافات بين اجزائها فاتعشت قليلا ، وهي تفضل صحراء الشام من وجوه كثيرة ، وقد اجتاز كاتب هذه السطور هاتين الصحراوين في رحلته المتتابعة ، فالعمران هنا اكثر ، والسكان اوفر ، والواقع ان الجزء الغامر من هذه السكة لا يزيد عن ١٢٠ كيلو مترا اى من جنوبى خان يونس حتى شمالى العريش

وتبلغ المسافة من العريش الى القنطرة ١٥٥ كيلو مترا ويقطعها القطار في ثلاث ساعات تقريبا . وتعد عامرة اجمالا بالنسبة للاجزاء الاخرى ، ويشاهد المسافر فيها من وقت الى آخر اشجار نخيل باسقات ومضارب وقطارات الابل ، مما يدل على الحياة ، ولا اثر لذلك فى الصحارى الاخرى . ويمكن القول ان الجزء الجنوبى منها اى الجزء الممتد من القنطرة حتى العريش ، اعمر من الجزء المتوسط الممتد من العريش حتى خان يونس ، اما الجزء الممتد من هذا حتى غزة فدلائل العمران مشهودة فى ارجائه ، والمنطقة الممتدة من غزة حتى حيفا او القدس ، منطقة زراعية مأهولة مملوءة بالسكان

ويختلف الحال فى طريق الصحراء ، اى طريق القدس - السويس الجديد ، وهو الطريق الذى سلكته حملة الترك الاتحادين ، وكان مطروقا فى العهد الرومى فالعمران هنا لك قليل وكذلك الماء والسكان اقل . ولا يسلك هذا الطريق سوى ركاب السيارات وقد انشأت الحكومة محطات لهم وان شئت فقل انها جددت المحطات التى انشأها الترك فى سنة ١٩١٥ واسترشدوا بها فى عبور الصحراء

اسماء محطات سكة الحديد بين حيفا والقنطرة

وبيان مسافاتهما بالكيلو متر

المسافة بالكيلو متر	اسم المحطة
	حيفا
٣	الكرمل
٢١	عتليت
٣٥	زخرون يعقوب
٤٢	بنيامينا
٥٠	الحضيرة
٦٧	طولكرم
٧٩	قليلية
٩٢	رأس العين
١٠٥	كفر جنس
١١١	اللد
١١٦	بئر يعقوب
١٢٠	رخبوت
١٢٥	يبنى
١٤١	اسدود
١٥٣	المجدل
١٦٦	دير سنيد
١٧٧	غزة
١٩٣	دير البلح
٢٠١	خان يونس

٢١٣

المسافة بالكيلو متر

٢١٣

٢٥٩

٣٠١

٣٢٢

٣٣٩

٣٦٣

٤١٣

اسم المحطة

رفح

العريش

المزار

مصفق

بئر العبد

رمانة (روماني)

القنطرة

المسلمون في العريش

ماكاد عمرو بن العاص يتلقى « تصريح » القائد العام من المدينة بالزحف الى مصر ، وكان على حصار قيسارية ، حتى عكف على اعداد معدات الحملة الصغيرة التي ازمع ان يتولى قيادتها ، وقد التزم ادق شروط الكتمان ، عملا بتوصية الخليفة وتعليماته ؛ والتكتم من دأب العرب وطبائعهم الاصلية ، وهو اشد ما يكون لزوما في الحروب فاعلان اى خطة من الخطط العسكرية ، قبل تنفيذها ، مؤذن بفشلها وحبوطها ، وتمزيق الجيش الذي يباشرها ، فيأخذ عدوه ، حينما يبدأ العمل ، ويكون قد استعد له من قبل ، واعد معداته للقائه ، والحرب خدعة ومباغطة وبراعة

واتم عمرو اعداد جيشه . والرأى الارجح انه ما كان يزيد عن اربعة آلاف ، وقيل ٣٥٠٠ معظمهم من اهل اليمن ، وكانوا جميعا من الفرسان (الحيلة) وقد اختارهم اختيارا ، وانتقاهم من الابطال المجريين ، الذين خبرهم وبلاهم في حرب فلسطين وقد خاضوها تحت رايته ، وبقيادته

وسار عمرو على بركة الله وتوفيقه من قيسارية يقصد العريش ، ولم يك في جيشه احد من المشاة ، لئلا يعوقوا تقدمه وزحفه ، في تلك الصحراء الجافة المحرقة . وكان ذلك في اواخر فصل الخريف من سنة ٦٣٩ وهو زمن مناسب لاجتياز الصحراء حتى دخل رفح (اول مناطق الحدود وتبعد عن العريش ٥٥ كيلومترا وهى اى شماليها) فنزل فيها واستراح واراوح جنده ، وكانت تعليمات القيادة العليا اليه بان لا يرهقهم في الاسفار والتنقلات

تعليمات هديررة مصر الخليفة

ويقول المؤرخون ان رسل الخليفة ادركت عمرا وهو في رفح تحمل اليه تعليمات جديدة منه ، وخاف هذا ان يكون فيها ما لايتفق مع رغبته في فتح مصر ، فامسك عن تسلمها ومشى بالجيش حتى اقترب من العريش وعبر الوادى الصغير القريب منها ، وهنالك تسلم كتاب الخليفة وقد امره فيه بأن يعود الى مقره ، ويعدل عن تنفيذ خطته ، اذا كان لايزال في ارض فلسطين ، اما اذا كان اجتازها ودخل مصر فليمض في سبيله على بركة الله

هذه خلاصة الكتاب الذى يقولون ان الخليفة كتبه الى عمرو وقد بعثه على كتابته حبه للسلامة ، وعدم رغبته في تعريض الساميين للخطر لانه كان يخاف عاقبة هذه المجازفة التى يقدم عليها عمرو بن العاص ، وقد وصفه عثمان بن عفان بان « فيه جرأة وتهورا » ويخشى ان يفسلوا في مصر فيضطروه الى حشد جيوش كثيرة ويشغلوه عن الميادين الاخرى وما كان شأنها يقل عن شأن مصر عنده

وخاف الخليفة - وهو يرسل هذه التعليمات الى ابن العاص - ان لا تصل اليه ، الا بعد دخوله مصر ، وادرك ان فى استرجاع الجيش بعد ان يكون اوغل في حدودها واشتبك مع الروم ، ما يطمع هؤلاء بالعرب ويحفزهم لقتالهم ، فاحتاط للامر ، وقال له اذا بلغك كتابى وانت فى داخل حدود مصر فامض على بركة الله فانا ممدوك والله ناصرك

والظاهر ان ما حاذره الخليفة حاذره قائده ، ولم يك هذا دونه ذكاء وكفاءة ، فقد امسك قليلا عن تسلم كتابه ليجعل الخليفة امام امر واقع ، فلما بلغ منطقة العريش - ولا اختلاف فى كونها من اراضى مصر - تسلم الكتاب وفتحها وقرأه على الناس ثم قال لهم :

- اين نحن الآن ؟ افى مصر ام فى الشام ؟

- فى مصر

– نسير في سبيلنا على بركة الله كما يامرنا امير المؤمنين

واقرا جميع الخطة ، ومضوا في سبيلهم حتى وصلوا العريش ، فاستولوا عليها ساعا فكانت اول مدينة مصرية دخلت في حوزة الاسلام . وفي العريش عيدوا عيد الأضحى من سنة ١٨ للهجرة ، فكان فرحهم مضاعفا ، بما بلغوه من توفيق وفتح وشجعهم على الاستمرار في تنفيذ خطتهم والمضى في سبيلهم لا يصددهم صاد ، ولا يمنعهم مانع

وصف العريش

ومدينة العريش لاتزال قائمة في مكانها على شاطئ البحر الابيض ، وهي الآن عاصمة الصحراء الشرقية ، وتتم بها سكة حديد سيناء ، ولها فيها محطة كبيرة وللحكومة المصرية فيها بنايات جميلة

ولم يلق المسلمون فيها حامية عسكرية للروم . واذا قيل لنا ان هؤلاء جلوا عنها حينما علموا بقرب وصول المسامين نجيب ان عمرا كتم خبر خطته عن كل انسان ولذلك نستبعد ان يكون الروم عرفوا شيئا عنها . والذي نرجحه ، ان ولاة الروم العسكريين ما كانوا يرون حاجة لاقامة حامية عسكرية في هذه المدينة الصحراوية لانها واقعة بين ممتلكاتهم في الشمال وفي الجنوب وفي الشرق فلا خطر يهددها مطلقا فاكثفوا بالبوليس المحلى للمحافظة على النظام في الداخل ، ومثل هذا لا يستطيع الدفاع

الانكليز يجاورون عمه العريش

ولما اعتزم الترك العثمانيون في ابتداء الحرب العظمى الزحف على مصر وقرروا تجهيز حملة كبيرة لعبور الصحراء ، اصدر القائد الانكليزي العام في مصر اوامر الى القوى المصرية والانكليزية في صحراء سيناء كلها بالارتداد الى ما وراء ضفة القفة

الغربية ، وفي جملتها العريش تجنبنا للاصطدام بالترك ، ونفذت هذه الخطة وجاءت قوة عسكرية صغيرة تركية فاحتلت العريش في اواخر سنة ١٩١٤ وتسلمها الترك من ايدي ابناءها بدون مقاومة . وظنوا فيها حتى بدأ الانكليز زحفهم الكبير من الضفة الشرقية في سنة ١٩١٦ فاستردوها واخرجوا الترك منها . ولا بد لنا من التنبيه الى ان حملة الترك الكبرى لم تمر بالعريش في زحفها الى القناة ، لثلا تستهدف لقنابل الاسطول البريطاني ، بل سلكت الطريق الشرقى - طريق وسط الصحراء - مارة بقاعة النخل ، وقد اتخذ الترك قاعدة لأعمالهم العسكرية ولا تبعد كثيرا عن العريش

صم العريش الى الفرما

لم تك قناة السويس ، قد شقت يوم زحف عمرو الى مصر ، ولم يك هذا « الحاجز المائى » قد فصل بين افريقية وآسيا وشرق الصحراء نفسها الى شطرين فوصل البحر الاحمر بالبحر الابيض

والواقع ان شق هذه القناة احدث انقلابا كبيرا فى نظام الدفاع العسكرى عن مصر ، وبعده ان كان الغزاة ، القادمون من الشام او من الحجاز ، يواصلون التقدم فى الصحراء حتى مصر السفلى ، صار عليهم ان يقفوا عند حدود القناة وينظروا فى اعداد الوسائل التى تساعدهم على عبورها واجتيازها . واول جيش اصطدم بهذه القناة وارتد عنها هو الجيش التركى الذى زحف فى سنة ١٩١٥ فقد وجد نفسه امام خط دفاع منظم احسن قادة الجيش البريطانى اعداده ونصبوا فيه المدافع الضخمة والاسلاك الشائكة وحشروا فيه الجندي كما بثوا المدفيعات والطرادات على طوله لتحويل دون عبور الترك اذا حاولوه

ولم يهرب الترك هذا الاستعداد العسكرى ، حينما بلغوا الضفة بل اقدموا على نصب جسور يعبرون عليها ، وقد عبر بعضهم فعلا فسقط فى الاسر ، لان رماة الانكليز نسفوا الجسور على الاثر وقطعوا خط رجعة هؤلاء ، كما امطروا الذين ظلوا فى الضفة الشرقية وابلا من نيرانهم الشديدة ، فارتدوا على الفور موعلين فى الصحراء نحو

الشمال ، وتلك هي المرة الاولى في التاريخ ، التي يرتد فيها مغير على مصر ولا يتاح له ان يدخلها بعد تجشمه عناء في سبيلها وكانت الصعوبة عند الاقدمين في اجتياز الصحراء ، لافي احتلال الوادى نفسه وامره سهل بالنسبة اليها

عمرو يستأنف الزحف

ونفض عمرو بجيشه الصغير ، بعد ما استراح اياما ، وعيد في العريش وتمتع بهوائها الجميل ومائها العذب ، وكرومها ونخيلها
 وواصل هذا الجيش تقدمه تاركا البحر الابيض عن يمينه وموغلا نحو الغرب
 ووجهته مدينة الفرما (بادت واندثرت ومكانها اليوم قاطية قرب محطة رومانة وتبعد عن القنطرة ٣٥ كيلو مترا)

مدينة الفرما

وكانت الفرما مدينة كبيرة حصينة ، وكانت مفتاح مصر من الشرق ، تشرف على طريق الصحراء وعلى ناصية البحر ، وكانت على نهر من الارض وتبعد عن البحر نحو ١٠ كيلو مترات ، وكانت ذات مرفأ بحرى ترسو فيه السفن ، وكان فرع النيل يصب في البحر بقربها وكانت فيها حامية عسكرية كبيرة

الروم بمحضون الفرما

وانزل الفرس مدينة الفرما عند قدومهم لغزو الوادى وقضوا مدة حول اسوارها ثم تغلبوا على حاميتها وفتحوها وواصلوا تقدمهم الى حصن بابليون (مصر القديمة) فاستولوا عليه بعد حصار ايضا ومنه ساروا الى الاسكندرية ففتحوها على المنوال الذى

بسطناه آنفا . وطبق عمر وهذه الخطة تقريبا فسار الى مصر القديمة بطريق بليس
بعد ما استولى على الفرما ولم يحاصر الاسكندرية الا بعد الاستيلاء على حصن بابليون
وفتح هذين الحصنين : بابليون والاسكندرية كفيل باخضاع وادى النيل كله ، وما
استولى عليهما احد الا اخضعه و بسط ظه عليه من اسوان حتى رشيد

مصر في آخر العهد الرومي

دخلت مصر في حكم الرومان سنة ٣٠ ق . م . على يد اغسطس قيصر انتزعها من كليوباترة خاتمة ملوك البطالسة فانقرض بموتها الحكم اليوناني بمصر ، وصارت من جملة ولايات رومه

وطبق الروم في مصر شرائعهم ونظمهم ، وكانت اقسى من الشرائع والقوانين اليونانية واشد ، ومنحوا السكان الاجانب (اى غير الوطنيين) من اليونانيين والرومان واليهود امتيازات خاصة في المحاكم وغيرها ، ميزتهم عن العنصر المصرى الوطنى ، فكان هذا التفريق في المعاملة ، فاتحة نضال بين الحاكمين والمحكومين ظهر في صور واشكال شتى ، وكانت الانقسامات المذهبية في عهد قيرس (المقوقس) احدى صوره

ويبان ما حدث ان الامبراطور هركليوس راى بعد ما استتب له الامر وبعد طرد الفرس واجلائهم على النوال الذى سردناه ان يقضى على الخلافات المذهبية ، وان يحمل رعاياه كلهم على اتباع عقيدة واحدة وهى عقيدة الكنيسة اليونانية او عقيدة الملكيين ، ونبد كل ما عداها من المذاهب والشيع الاخرى ، لما رسخ في ذهنه وهو ان ذلك افضل لمصلحة الامبراطورية لانه يقيها شر الانقسامات المذهبية والاختلافات الدينية ، وقد برحت بها وطحنتها طحنا ، وكادت تودى بها وتقضى عليها

ووقع اختيار الامبراطور على الاسقف قيرس فعينه بطريركا على مصر ، وخوله

سلطنة مطلقة ، بعد ما رفع درجته ، وامره بأن يعمل على نشر مذهب الدولة وان يحمل
المصريين الوطنيين (القبط) على انبائه والنخلى عن المذهب القبطى الارثوذكسى

المذاهب الدينية وانتماءاتها

وكان فى الامبراطورية الرومية يومئذ مذاهب دينية عدة يعتنقها الناس ،
واولها المذهب الملكى وهو مذهب الدولة نفسها ويقوم على الاعتقاد بان للاقنوم
الثانى طبيعتين ومشيئتين

٢ - مذهب اليعاقبة او النسطوريين ومداره الاعتقاد بان اللاهوتية والماسونية
موجودتان فى المسيح وليستا متحدتين

٣ - المذهب القبطى : ومداره الاعتقاد بان الله ذات واحدة مثلث الاقنوم :
اقنوم الاب واقنوم الابن واقنوم الروح القدس . وان الاقنوم الثانى اى اقنوم الابن
تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء فصيرا هذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية
جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستالة بريئة من الانفصال . وبهذا الاتحاد
صار الابن الجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة
وكان هنالك مذاهب اخرى لا تدخل فى نطاق بحثنا

وقاوم القبط وعلى رأسهم البطريك بنيامين (٦٢٠ - ٦٣٨) هذه الحركة
مقاومة شديدة ، ولجأ البطريك نفسه الى دير صيفر فى الصحراء قرب مدينة قوص
فى الصعيد واختفى فيه مدة ١٣ سنة اى من ابتداء ولاية قيرس على مصر حتى دخولها
فى حكم المسلمين . ولما ازعم البطريك الرحيل جمع جمعا كبيرا من القسس والزعية
وخطب فيهم يحثهم على الثبات فى عقيدتهم حتى الموت واذاغ مشورا على اساقفته
بأمرهم جميعا بالهجرة الى الجبال والصحارى والمواراة فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه .
وقال « ان وبالا سيحل بالبلاد وانها ستلقى عسفا ويظل عشر سنوات ثم يرفع عنها »

واختفى معه ايضا فريق كبير خوف الظلم . وقد امعن قيرس فيه ليحمل الناس على اتباع مذهب كنيسة الدولة او على اتباع عقيدة الطبيعتين كما جاء في كتاب تاريخ الامة القبطية للجنة التاريخ القبطى . وتقول اللجنة ايضا ان قيرس اندرك بعض نجاح فانقاد اليه كثيرون ، وعين اساقفة من مذهبه لسائر ابرشيات القطر

وكتب التاريخ القبطى مشحونة بوصف الاضطهادات التى صب جامها قيرس على رءوس ابناء الكنيسة القبطية لهم على تغيير مذهبهم وعقيدتهم ، فهو لم يدع وسيلة ليفتنهم الا اتباعها ونفذهها ، ولئن قن بعض العامة خوف الاضطهاد ، او طمعا بمغرم مادي فقد عادوا الى الحظيرة حينما انكشفت الغمة ، وزال كابوس الروم واشرق صبح الاسلام وشعاره المساواة المطلقة ، ولا اكراد في الدين

ولم يقتصر الضغط على القبط وحدهم بل شمل اليهود ايضا فقد حاول قيرس أن يحملهم على تغيير دينهم ، والدخول في الدين المسيحى ، وكان الخلاف بينهم وبين الامبراطورية الرومية يومئذ على اشده ، وقد وصفنا ما انزله بهم الروم من فظائع وكيف ذبحوهم وقتلواهم ، حين زيارة هركليوس لفلسطين في سنة ٦٢٨ اى ان اليهود كانوا في مصر يعانون ما كان يعانيه اخوانهم في فلسطين من ظلم واضطهاد ، وكانوا كلقبط ناقلين على الامبراطورية مستائين من تصرفات رجالها

وكان ذلك ايضا شأن السوريين وكانت في مصر جالية سورية كبيرة نالها نصيب من رشاش الاضطهاد الرومى وهكذا كانت العناصر الثلاثة الكبرى التى يتألف منها سكان وادى النيل في اواخر العهد الرومانى وهى :

١ - القبط

٢ - اليهود

٣ - السورىون

غير مرتاحين . وكانت هنالك جالية عربية ايضا تعتبر اقلية بالنسبة للعناصر

وما كانت شكوى المصريين من الحكم الرومى قاصرة على هذه الناحية وحدها - الناحية الدينية - بل كانوا يشكون ايضا من فداحه الضرائب وكثرتها ، ومن ظلم الموظفين ، وكان القبط يتألمون لانهم طردوا من وظائف الحكومة . ويقول يعقوب نخلة روفيلة فى كتاب تاريخ الامة القبطية (ص ٣٦) ان هركليوس انفذ امرا الى نائبه بمصر بطرد جميع الاقباط من خدمة الحكومة ودواوينها ، وعدم قبول احد منهم فى مصالحها ، رغبة منه فى اذلالهم ، فكان ذلك من جملة اسباب قنوطهم واعتزالهم الروم بالكلية وقطع كل علاقة فتأصلت الكراهة بين الفريقين ونمت مع الايام

ويجب ان لانسى ما تركته غزوة الفرس لمصر - وقد اقاموا فيها عشر سنوات تقريبا - من اثر فى نفوس المصريين ، فقد اجمعت المصادر التاريخية على ان الفرس لم يتعرضوا للمعتقدات المذهبية ولم يحاولوا التدخل فى الشئون الدينية بل تركوا الناس احرارا فى معتقداتهم ، بعكس الروم ، يضاف الى هذا ما سببته الحرب نفسها من خسارة لوادى النيل وما ولدته من خراب ودمار زاد فى حقد الناس على الروم

وخلاصة القول ان الحالة الاجتماعية العامة فى وادى النيل ، ما كانت تختلف عنها فى كل قطر من اقطار الامبراطورية الرومية عند ظهور الاسلام ، فقد كان ابناء البلاد فى الشام وفلسطين ومصر ، غير مرتاحين الى الحكم الرومى يرجون زواله ، ويتمنون انقراضه ، كما كانت الدولة نفسها فى حالة التردى والاضمحلال ، لا يرجي لها معها حياة ولا بقاء ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

القبط

جاء في كتاب تاريخ الامة القبطية وقد وضعته لجنة التاريخ القبطى : ان اول من سكن ارض وادى النيل هو مصرام بن حام بن نوح جاءها هو وبنود ومن بعدهم من القبائل الاسيوية عن طريق برزخ السويس واستوطنوها وعمروها . فدعى وادى النيل (مصرين) نسبة اليه (التعبير عن المصريين فى العبرية « مصرام » وعن ارض مصر « مصراما »)

وتبعاً لهذه التسمية دعى سكان وادى النيل مصرام فى لغة التوراة وفى اللغة القبطية يدعون « كيمى » وهى كلمة قد تفيد النسبة الى حام ابى مصرام اذ اسم الوادى فى لغة التوراة (ارض حام) وقد تكون مصحفة عن كلمة « كام » ومعناها اسود اشارة الى سواد تربته

ويسمى الافرنج هذه البلاد ايجبت « Egypte » وقد نقلوا هذه التسمية عن اليونان الذين اطلقوا عليها اسم « Aigaptos » تصحيحاً للكلمة المصرية « ها كابتاح » Ha - Ka - Ptah المركبة من (ها) بمعنى بيت او معبد و (كا) بمعنى روح (وبتاح) وهو الاله فتاح معبود منف وهذه الكلمة هى احد اسماء منف عاصمة مصر ثم اطلق اسم ها كابتاح على كل القطر

ودعا العرب مصر (دار القبط) نسبة الى قبط وهى اقرب مدن وادى النيل الى البحر الاحمر ، وعليه تكون كلمتا قبطى ومصرى بمعنى واحد - اه

وجاء فى تاريخ الامة القبطية ليعقوب نخلة روفيه « ان الاقباط هم بقايا تارك الامة المصرية العريقة فى الحضارة التى اجمع الكل على انها اقدم الامم فى المدينة واسبقها

الى التمدن وقد شهدت التوار يخ بانها هى السبب الوحيد والعامل المؤثر فى ايجاد التمدن فى العالم وانتشاره على وجه البسيطة

ومصر اسم لتلك البلاد التى كانت استوطنتها هذه الامة ، وهى كلمة عبرانية الاصل مشتقة من مصرايم بن حام بن نوح الذى اتى بعشيرته الى وادى النيل واتخذه مقرا له ولاولاده من بعده ، وذلك عقب تبلبل اللسان ببابل وتفرق اولاد نوح على وجه الارض كما جاء فى التوراة . وقيل ان مصر عند العبرانيين مشتق من (صبر) اى الشدة ويعنون بذلك ما لاقوه من الشدة والعنف فى الاستعباد ، ويدعى بعض المؤرخين ان اول ملوك مصر (مصرايم) ولكن لادليل على ذلك

ويسمى الافرنج مصر Egypte نقلا عن اليونان الذين لما فتحوا مصر على يد اسكندر المقدونى الشهير بالكبر اطلقوا عليها اسم (ايجبتوس) ويقول بعض الباحثين ان لفظة ايجبتوس مركبة من كلمتين (اى) بمعنى ارض او دار ، وجبتوس اى قفط او (جفط) كما ينطقها اهل الصعيد للآن فيكون معنى الكلمتين معا ، ارض القبط او دار القبط

وقيل ان قبط من قفطيم احد اولاد مصرايم وهو الذى بنى مدينة قفط بالصعيد الاعلى فسميت باسمه وكانت مدينة عامرة اشتهرت قديما - وخصوصا فى عهد البطالسة - بكونها محط رحال التجار الذين كانوا يقصدون مصر من بلاد العرب والهند لبيع بضائعهم وكان بها قلعة حصينة وجنود للحفاظة ، اما الآن فهى قرية حقيرة تسمى دفاذف قفط وقلعة قفط ايضا

وجاء ايضا ان ايجبت من (هيكتاه) وهى كلمة مصرية مركبة من (هيكى) بمعنى ارض و (بتاه) وهو اسم المعبود الاله الذى كان يعبده قدماء المصريين ومعناه الخالق او المبدع

وضبط نطق كلمة هيكتاه هو (كاهى بتاه) لان (كاهى) فى اللغة القبطية معناه ارض ، والافرنج تصرفوا فيها وحرفوها عن اصلها كتحر يفهم الاسماء المنقولة

الى لغتهم . اما اسم مصر في اللغة القبطية فهو كيمي او خيمي نسبة الى حام ابى
 مصرام وقيل بل هى لفظة مشتقة من كيمي بمعنى اسود نسبة الى سواد طينتها
 وقد اجمع المؤرخون المتأخرون على ان سكان وادى النيل كانوا قبل انضمامهم
 الى امة واحدة ، عبارة عن جملة قبائل - اشبه بقبائل العرب ، ولذلك لا يبعد ان يكون
 بينها قبيلة تسمى فقط نسبة الى قفطيم بن مصرام ، وربما كانت هذه القبيلة اكبر
 القبائل واشهرها كما يؤخذ مما نقله المقرئى ، وجميع هذه القبائل تجمعها كلمة
 (مصرين) نسبة الى مصرام الذى هو ابو جميع اولاده المسماة باسمائهم ، وهذا هو
 رأى الموافق لما جاء فى السفر الاول من التوراة فعلى هذا يكون كل قبطى مصرى
 وكل مصرى قبطيا الا فى حالة التمييز بين المسيحى والمسلم من المصرين

عدد سكان مصر بين الفتح العربى

لا يعرف بالضبط عدد سكان مصر عند فتح العرب لها ، بيد ان دائرة المعارف
 الاسلامية قدرتهم باربعة وعشرين مليوناً من النفوس وقد اعتمدت فى تقديرها هذا
 على نصوص المعاهدة التى عقدت بين العرب والروم وقالت ان عدد المسيحيين الذين
 شملتهم الضريبة كان يتفاوت بين ٦ - ٨ ملايين يضاف اليهم النساء والاطفال
 والشيوخ الطاعنون فى السن فلا يقل مجموع السكان عن ٢٤ مليوناً
 ثم قالت : والاحصاء الذى جرى فى سنة ١١٢ (٧٣٠ م) اثبت ان عدد القبط
 الخاضعين للضرائب هو خمسة ملايين

المقوقس

كان كتاب النبي الى المقوقس (عظيم القبط في مصر) - وقد حمله حاطب بن ابى بلتعة ، وكان قد زار مصر في الجاهلية وعرف الكثير من شؤونها - فاتحة عهد جديد بين مصر والحجاز

ويقول المؤرخون ان النبي ، وقف بين اصحابه في المدينة على اثر وصوله من الحديبية فقال : ايكم ينطلق بكتابي هذا الى صاحب مصر فاجابه حاطب انا يا رسول الله - بارك الله فيك -

وتسلم حاطب الكتاب وقصد مصر على الفور وذلك في السنة السادسة للهجرة (سنة ٦٢٨ م)

والكتاب المرسل الى المقوقس (انظر ص ١٢٥ من الكتاب الاول) نسخة من المنشور الذي وزعه النبي يومئذ على الملوك والامراء ورؤساء الحكومات التي كانت معروفة لهم في ذلك العهد ولها صلة بالحجاز وبلاد العرب ، وقد اجاب قليل منهم بالقبول والرضاء ، واني الاكثرون فحاربهم المسلمون وتغلبوا عليهم ، واستولوا على بلادهم الواحدة بعد الاخرى ، ولم يشذ عن ذلك سوى الحبشة فقد ابقى المسلمون لها استقلالها وتركوها وشأنها حرمة لما بينها وبين اجدادهم من صلوات ومودة وقد بسطنا ذلك باسهاب في الكتاب الاول (انظر ص ١٢٨)

والذي عليه المؤرخون الاسلاميون ان حاطبا قوبل مقابلة حسنة في مصر ، وان المقوقس اكرم مشواه ، واعاده مع هدايا الى المدينة . ويزيد بعضهم فيقول ان المقوقس ضم كتاب النبي الى صدره وجعله في حق عاج ، ودعا كاتبه يكتب بالعربية ،

فكتب كتابا رقيقا ، يوردون خلاصته ، ولا يثبتون نصه وقد جاء فيه انه قال
«علمنا ان نبيا قد بقى وانه سيخرج بالشام»

شخصية المقوقس

و بين المؤرخين الاسلاميين ومؤرخي القبط الذين عاصروا الفتوحات الاسلامية
او جاءوا بعدها بزمان غير بعيد والمستشرقين الذين عكفوا في الازمنة المتأخرة على
دراسة تاريخ الاسلام ، ونبشوا دفائن المكتبات الاوربية ، اختلاف كبير على
شخصية المقوقس فقد اثاروا حولها كثيرا من الشبهات ، وخلاصة ما ذهب اليه
الاكثرون منهم :

١ - ان المقوقس الذي تلقى كتاب النبي هو غير المقوقس الذي فتح عمرو بن
العاص مصر في زمنه ، وتسلمها منه . وان المقوقس كان عند العرب لقباً لمن يحكم
مصر كما كان كسرى لقباً عندهم لمن يملك فارس وقيصر لمن يملك الروم

٢ - ان المقوقس الذي هاجم المسلمون مصر في زمنه ، عين حاكماً عاماً لمصر
بعد جلاء الفرس عنها وبعد عقد الصلح بينهم وبين الروم . وان هركليوس
ارسله بحراً في شتاء سنة ٦٢٨ - ٦٢٩ ليتسلم مصر من الفرس وليعيدها الى الدولة
الرومية ويتولى تنظيمها الادارى والمالى

ويقول هؤلاء استنادا الى مصادر تاريخية موثوقة ان اسمه الصحيح هو
« قيرس » (١) لا المقوقس ويؤكدون انه كان روميا لا قبطيا ، وكان اسقف مدينة
فايس في القفقاس وان امبراطور الروم اختاره لهذا المنصب العظيم لما خبره فيه من
الكفاءة والذكاء بعد مارقاه وقلده السلطين المدنية والدينية ، فهو البطريرك رئيس

(١) اثبت ذلك ساويرس بن المقفع صاحب تاريخ بطاركة الاقباط في ترجمته
للبطريرك بنيامين وقد كتب كتابه في القرن العاشر المسيحى وهنالك وثائق خطية
قديمة اخرى في خزانة المكتبة القبطية تؤيد ذلك

السلطة الدينية وهو الحاكم الادارى العام رئيس السلطة التنفيذية وممثل الدولة الرومية في البلاد ونائب امبراطورها للعظيم

ويحمل المستشرقون الذين درسوا التاريخ الاسلامى - ولا سيما تاريخ فتح العرب لمصر ، وكتبوا فيه الكتب والمقالات والبحوث - حملات عنيفة على المقوقس هذا (قيرس) ويتهمونه بالخور والضعف والجبن ، ويصمونه بوصمة الخيانة العظمى لوطنه ودينه وقومه ، لانه سهل فتح البلاد للمسلمين باضطهاده القبط ومحاولته حملهم على تغيير عقيدتهم المذهبية ، ولانه لم ينظم الدفاع عن مصر التنظيم المطلوب حينما شعر بقرب مهاجمة المسلمين لها ولم يتخذ الاحتياطات اللازمة لصدهم عن الحدود ومنعهم من دخول البلاد ، ولانه سلم اليهم الاسكندرية ، وعقد معهم صلحا غير شريف مع انه لو اراد لصدهم وردهم ولقاومهم سنوات ، ولحال دون استيلائهم على ذلك الثغر العظيم ، وما كان في امكانهم اقتحام اسواره والتغلب عليها ، وكانت سفن الروم تقصده وتلجأ اليه ، وكانت المواصلات البحرية بينه وبين العاصمة الكبرى (القسطنطينية) على احسن ما يرام

وليس من شأننا هنا ان نثير بحثا تاريخيا عويضا مبهما كهذا البحث ولا ان نناقش هؤلاء ونجادلهم ولا ان ندافع عن قيرس وقد مات من ثلاثة عشر قرنا فأمر ذلك يطول فضلا عن كونه لا يدخل في نطاق بحثنا كما اتنا لا نعرف باى منطلق يطلب هؤلاء العلماء من قائد من قواد الدولة الرومية ، ان يقف وحده امام المسلمين ، ويقاومهم ويردهم بعدما عجز الامبراطور نفسه عن الوقوف امامهم في الشام ، وكان يملك من القوى ما لا يقل عن ربع مليون جندى ، وارث الى عاصمته مهزوما ، وكان ذلك شأن امبراطورية الفرس ، فلم تستطع ثباتا في وجههم ، ولا منعهم عن احتلال عواصمها وثغورها ، وكان ذلك قبل مسيرهم الى مصر بزمان غير قصير ، فقد ظلوا يضر بون فيها حتى قضوا عليها و بسطوا سلطانهم عليها كما بسطوه على اقاليم الشام وفلسطين وكيليكية وكانت من اعظم اقاليم الدولة الرومية ، وكان للروم فيها من الحصون والمعدات والمراكز العسكرية ما لا تذكر في

جانبه قواهم ومراكزهم في مصر، وما كان لهم فيها سوى ثلاثة مراكز كبرى وهي :

١ - حصون الاسكندرية وكانت اعظمها شأنًا

٢ - حصن نقيوس (المنوفية)

٣ - حصن بابلون (مصر القديمة - القاهرة)

وما كان جندهم يزيد هنا في جميع أدوار النضال عن مائة الف جندي ، وهو عدد قليل بالنسبة للقوى التي حشدها الفرس والروم في ميداني الشام والعراق واذا قيل لنا ان عدد القوى التي سيرها المسلمون الى فتح مصر كانت اقل من القوى التي سيروها الى الشام والعراق نجيب ان الجيش الذي سار به عمرو الى مصر ما كان يزيد كثيرا عن عدد الجيش الذي سار به الى فلسطين يوم قصدها لفتحها ، كما انه ما كان يزيد كثيرا عن عدد الجيوش الاخرى التي سيرها ابو بكر لفتح الشام والعراق .

وتلك كانت خطة الساميين العسكرية في سنى الفتح الاولى ، فما كانوا يسوقون قوات كبيرة الى البلاد التي يحملون عليها ، بل كانوا يرسلون قواهم تدريجيا ، وبعبارة اخرى انه لم يكن لديهم جيش قوى نظامي ، يسوقونه من مكان الى آخر كما كان شأن الروم والفرس ، وانما كانوا يجمعون قواهم من القبائل ، وكلما اقبلت قبيلة ارسلوها الى ميدان القتال بلا ابطاء ، لان وسائل التموين لم تكن معروفة عندهم حتى ذلك الوقت . ومن يقابل بين عدد الجيوش التي سيرها ابو بكر الى الشام ، وما كان مجموعها يزيد عن ١٨ الف جندي وبين ما وصلت اليه يوم اليرموك اذ بلغت اربعين الفا يجد هذه الحقيقة ظاهرة فقد نما عددها وازداد بفضل النجيدات التي كانت ترسل اليها بدون انقطاع من ابناء القبائل العربية ، وكانوا يستنفرونها من سائر انحاء الجزيرة

واتبع المسلمون هذه الخطة ايضا في فتح مصر فقد انجد الخليفة قائد جيشه

بنجيدات قوية بلغ عددها ٨ آلاف مقاتل وباضافتها الى القوى التي جاءت مع عمرو يبلغ المجموع اثني عشر الف مقاتل ، علاوة على نجيدات اخرى جاءت فيما بعد حتى قدر عددهم في الآخر بعشرين الف جندي او نحو نصف جيش اليرموك ، وهو على كل حال رقم كبير لا يستهان به ولا نظن انه كان في استطاعة قيرس ان يفعل غير ما فعله ، وفي تسليم قيسارية بعد حصار دام سبع سنوات وكان يدافع عنها ابن الامبراطور بالذات ما ينقض دعوى المستشرقين ويبرهن على تحاملهم على قيرس وعدم انصافهم اياه ، فانه رغم اتصالها (قيسارية) بالعاصمة اتصال الاسكندرية ، ورغم وجود ابن هركليوس نفسه يدافع عنها وهو غير متهم عند هؤلاء بالخيانة ، ورغم كون جيشها اعظم من جيش الاسكندرية عددا وقد قدره بعضهم بمئة وخمسين الفا ، نقول رغم ذلك كله فقد اضطرت الى الاستسلام والخضوع في آخر الامر لان اتصالها بالعاصمة بحرا لم يعن عنها شيئا ولم يكشف عنها ضرا ولم يحل دون تغلب المسلمين عليها . والفرق الوحيد بينها وبين حصون الاسكندرية ان حصار هذه لم يزد على سنة ، وحصارها امتد سبع سنوات وقد خضعت في آخر الامر ودخلت في حوزة المسلمين بعد ما فقدت الالوف المؤلفة من ابنائها . ولا نشك في ان قيرس حقن بعمله دم ابرياء وصان بلاده من الخراب والدمار ووقاها شرا كبيرا بتصرفه الحكيم فما كان في الامكان المحافظة عليها بعد ما سقطت كل حصون الروم وانهارت امبراطوريتهم

قوات الروم في مصر

كانت حكومة الروم في مصر منفصلة عن حكومتهم بالشام ومثل ذلك قواتهم العسكرية فلم يك ثمة اى صلة ادارية او عسكرية بينهما الا كونهما يتبعان امبراطورية واحدة يسبحان في فلكها ، ويدوران في دائرة ابراجها ، وكانت الاسكندرية وهي عاصمة الديار المصرية في العهد اليونانى ثم الرومى متصل بالقسطنطينية مباشرة ، ويتلقى حاكمها العام التعليمات والوامر منها ، ويرسل اليها الاموال . وكان جندها منفصلا ايضا عن جند الشام ، طبقا للخطة التى كان الروم يسيرون عليها فى ادارة ممالكهم وهى تشبه من وجوه الخطة التى يسير عليها الانكليز اليوم مع المستعمرات المستقلة (الدومينيون) فكان لكل اقليم منها استقلال ادارى (داخلى) تقريبا ، واطالما اغرى هذا الاستقلال قواد الروم بالانفصال عن دولتهم او بالاستيلاء على عرشها ، واطالما جمعوا الجموع لنزالها ، وتجهزوا لقتالها طلبا للعرش ، وكان هركليوس نفسه ، آخر من مثل هذا الدور ، قبل الفتح الاسلامى ، فقد جمع الجموع واستكثرت من الانصار والاعوان حينما كان حاكما على افريقية الرومية ، ثم خرج على الامبراطور فوكاس ، سيده ومولاه ، فاستولى على مصر نفسها ، ثم غادر الاسكندرية الى القسطنطينية بحرا بما انضم اليه من سفن الاسطول الرومى ، فنزل سلانيك واتخذها قاعدة لاعماله ، وعكف على اعداد جيش قوى وعلى تجهيز اسطول بحرى يقتحم به

الدردييل

وغادر قاعدته (سلانيك) فى سنة ٦١٠ قاصدا الدردييل ، وسرت انباء مسيره فى العاصمة الكبرى فثار الرعاع على الامبراطور ، كما جاهر انصاره والمتصلون

به سرا من رجال الدولة بالانضمام اليه وخلع طاعة الامبراطور وتخلى الجند عن سيدهم في ساعة الشدة وخذله ضباطه وكبار رجاله وانفضوا من حوله ، ولذلك لم يلق هركليوس مقاومة ، فدخل العاصمة دخول الفاتحين ، وقبض بعض انصار الثورة على الامبراطور السابق (فوكاس) ووضعوا الاغلال والسلاسل في عنقه ويديه ورجليه ، ومزقوا ثيابه وقادوه وهو على هذه الحال الى الميناء ، فعرضوه على الجيش المنتصر ليزداد حماسة وابتهاجا ، ثم نقلوه الى بيعة من بيعهم فاجتمع رجال الدولة وكبارها لمحاكمته على الذنوب التي اقترفها كما قالوا . ولما تلى عليه « قرار الاتهام » خاطبه هركليوس قائلا :

- اهذا سبيل حكمك

- وهل انت من يحكم بخير من هذا

وانتهت المحاكمة « الصورية » بالحكم عليه بالاعدام ونفذوا حكمهم فورا فقطعوا يديه ثم ذراعيه ثم شوهوا وجهه ثم بتروا رأسه ثم جروا جسده على الارض حتى ميدان السباق فعرض على الانظار ثم نقلوه الى سوق الثيران ثم احرقوه وذرروا رماده في الهواء زيادة في التشفي والانتقام . اما الرأس فقد وضعوه على قضيب وعرضوه في اعظم شوارع مدينتهم

وامتدت يد الانتقام الى بعض رجال فوكاس وقواده ففتك بهم العامة نغلا بذلك الجوهر لهركليوس فلبس التاج وتقلد الصولجان ، فكان عمله اسوأ مثال لقواد تلك الامبراطورية الواسعة ، وان لم يكن اولهم ، فقد سبقه غيره ، وتلك كانت الوسيلة الوحيدة لارتقاء العرش عندهم في بعض العهود

ولقد اردنا من هذا الاستطراد التاريخي ، ان نقيم الدليل على ان روح التمرد والعصيان كانت منتشرة في الجيش الرومي ، ولا سيما بين حامية مصر ، فقد اشترك بعضها في مؤامرة هركليوس ، وقاومها البعض ووقعت وقائع ودارت معارك بين الفريقين انتهت بفوز الهركليوسيين واستيلائهم على هذا الاقليم ، فجاءه هذا وابحر منه

الى سلانيك واتخذها قاعدة لاعماله العسكرية على النوال الذى وصفناه . وكافأ الامبراطور الجديد ، بعد فوزه ، رجال هذه الحامية بما يستحقون

بين الشام ومصر

وإذا صح ما رواه مؤرخو الدولة الرومية فتكون قوات الروم العسكرية فى الشام اكبر واعظم ، فقد كان لهم فيه جيش يزيد عدد رجاله كثيرا على عدد حامية مصر كما ان حصونهم وقواعدهم العسكرية هنالك كانت اكثر منها هنا ، ويلوح لنا ان مصدر ذلك اختلاف الوضع الجغرافى بين البلادين وتباينه ، فقد كانت الامبراطورية الرومية تحاد الفرس فى شرقى الشام وفى شرقىها الشمالى ، كما كانت تحاد بلاد العرب من الجنوب والجنوب الشرقى . ويجب ان لانسى عداة يهود فلسطين للامبراطورية لكثرة ما اضطهدتهم واذتهم ، ولطالما حدثت مذابح فى هذا الاقليم كان اليهود ضحيتها . وبديهي ان وضع مصر الجغرافى كان يختلف عن هذا الوضع فكانت تحاد بلاد الامبراطورية فى الشرق والغرب (اى من جهة برقة والشام) وكانت للروم السيطرة المطلقة على البحار ، وما كان هنالك اى خطر من الحدود الجنوبية . ومعنى ذلك انها كانت فى امن وامان من جهة حدودها . واذا استثنينا فطنا داخلية كانت تحدث من آونة الى اخرى بين القبط وبين قوات الحكومة فالحالة كانت ساكنة مستقرة ، فى هذا الوادى المبارك ، وما كان هنالك خطر عسكرى يهدده فى ناحية من نواحيه ، لا من جهة الفرس ، ووصولهم اليه يكلفهم كثيرا من المشاق والمصاعب ، ولم يبلغوه سوى مرتين : الاولى فى عهد قميز ، والثانية فى عهد خسرو الاول ، وفيما عدا ذلك كانوا يكتفون بغزو الشام ولطالما بلغوا انطاكية واتجهوا منها الى الشمال قاصدين العاصمة

ويجب ان لا يؤخذ من هذا ان الروم اهملوا شأن مصر من الوجهة العسكرية ، ولم ينشئوا فيها من الحصون والاستحكامات ما يدرك عنها اخطار المهاجمات الخارجية المفاجئة فقد انشأوا حول الاسكندرية ، حاضرة البلاد ، سلسلة من

الحصون والاستحكامات العسكرية ، كقيلة برد المهاجرين من اى ناحية جاءوا كما
انشأوا حصونا اخرى فى شتى المناطق

ويبالغ مؤرخو الدولة الرومية فى وصف عظمة هذه الحصون ، ويسهبون فى
الكلام عن خطورتها ، وقد سخرت مرتين فى خلال فترة قصيرة ، فقد استولى عليها
القائد الفارسى سالار شاهين حينما غزا مصر سنة ٦١٧ ونصب عليها راية دولته بعد
حصار لم يدم اكثر من بضعة اشهر . ثم خضعت بعد ذلك فى سنة ٦٤٠ للمسلمين صلحا
بعد ما حاصروها ١٣ شهرا

ومما يستوقف النظر بوجه خاص ان القوتين العسكريتين اللتين حملتا على
وادي النيل فى ذلك العهد وانتزعتاه من ايدى الروم ، كاتتا غير مسيحيين ، ولئن تم
للروم اجلاء الفرس عن الوادى بعد احتلاله فقد عجزوا عن ذلك مع المسلمين الذين
ما زالوا يطاردونهم ويحملون عليهم حتى استولوا على عاصمتهم ، واستصفوا بلادهم ،
ويزعم المستشرقون من كتاب تاريخ مصر ان الاسكندرية ذهبت ضحية الغدر فى
المرتين ويصبون جام غضبهم على رأس شاب من اهل البحرين اسمه بطرس كان فى
الاسكندرية حين حصار الفرس لها ، يطلب العلم فى مدارسها ويقولون انه هو الذى
ساعد الفرس وهيا لهم سبل الاستيلاء عليها كما يصبون جام غضبهم على قبرس نفسه
سواء بسواء فالاثنان متهمان بالتدالة لانهما ساعدا على اخراج هذه الحصون من ايد
مسيحية الى ايد غير مسيحية

حصون مصر

يؤخذ مما لدينا من الاخبار انه كان للروم في مصر ثلاثة مراكز عسكرية كبيرة وهى :

١ - حصون الاسكندرية

٢ - حصن بابليون (القاهرة)

٣ - حصن نقيوس

وكان لهم مراكز عسكرية اخرى اقاموا فيها حامياتهم العديدة ونحن نذكر

ما عرفناه من اخبارها

١ - حصن كريون

٢ - حصن سمبود

٣ - حصن دمياط

٤ - حصن الفيوم

٥ - حصن البهنسا (المنيا)

هذا بعض ماوصل الينا من اخبار مراكز الروم العسكرية في هذا الوادى ومع انها مما لا يستهان بها ، الا انها دون حصون الشام في القوة والمنعة ، لا اختلاف الوضع الجغرافى كما قدمنا ولان تلك واقعة في قلب الامبراطورية تحاد دولة كانت تنافس الروم وتحاول الاستيلاء على بلادهم وتملك جيشا قويا مدربا منظما ، يحسب حسابه ويخشى جانبه ، وما كان هنالك شىء من ذلك بالنسبة لمصر . ولا نشك في انه لو تطوع احد الجهابذة العسكريين ونقب عن اخبار حصون الروم في الشام ولا سيما

حصون قيسارية ، واجنادين ، وبيت المقدس ، وقنسرين ، ودمشق ، لعرف الناس انها ما كانت ثقل عظيمة وفخامة وتنظيما عن حصون الاسكندرية و بابلليون لان حاجة الروم الى اتقانها هنالك اكثر بسبب الوضع العسكري الخاص كما قلنا وما يقال في عدد الحصون وخطوط الدفاع وكثرتها في الشام وقتها في مصر ، يقال ايضا في عدد الجند ، فالنسبة تكاد تكون واحدة تقريبا . فقد كانت قواهم هنا اقل منها هنالك . وما زادت في هذا الميدان من اول الحرب حتى آخرها عن مئة الف مقاتل ، اقيمت في مراكز متعددة ، في حين انهم جمعوا للبرموك وحدها ما لا يقل عن مئتي الف مقاتل ، وكذلك حشدوا قوات كبيرة اخرى قاتلت المسلمين في كل مكان او على كل شبر

ويجب ان نذكر أيضا ان المواصلات كانت سهلة بين الشام والقسطنطينية مما اتاح للروم حشد قواهم الكبرى ، وكانوا يأتون بها من الاناضول وارمينية وقفقاسيا وسائر انحاء مملكتهم الواسعة ، وما كان هذا يتيسر لهم بمصر ، فقد اودت حروب الشام ودارت قبل حروب مصر بزهرة جيشهم ، واستنفد معظم قواهم ومعداتهم . ولذلك ما كان في استطاعتهم ان ينجدوا مصر ، ولا ان يرسلوا اليها قوى كبيرة لصد المهاجمين الذين كانوا سكارى بنخمرة الانتصارات العظيمة التي نالوها في ميادين فلسطين والشام والعراق وايران ، بعكس عدوهم ، فقد زلزه انتصار المسلمين ، زلزلا شديدا وأضعف قواه المعنوية ، وعليها قبل القوى المادية المعول في الحروب اذا لم نقل انهم كانوا يحسون في انفسهم العجز عن لقاء العرب او الوقوف في وجههم بعد ما هزموا جيوش الامبراطورية كلها

حصون الروم في مصر

نعود بعد هذا التعميم الى التخصيص فنصف حصون الاسكندرية و بابلون و بقية المراكز الاخرى فلا نخلو ذلك من فائدة :

١ - حصون الاسكندرية

يقول الامير عمر طوسن في رسالته (يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢) ان الاسكندرية كانت في عهدها القديم مدينة منيعة ، حصينة ، غاية الحصانة ، مشهورة باسوارها العديدة و خنادقها العميقة و ابوابها المحكمة ، و ابراجها الكثيرة الباذخة ، و حصونها العديدة الشائخة

و يقول الدكتور بطر في كتاب فتح العرب لمصر ان اسوار الاسكندرية كانت منيعة تحميها الآلات القوية و كانت الاقوات و افرّة تزيد على حاجة حامية المدينة و كانت تقدر بخمسين الفا من الجند و كان فيها مجانيق قوية كانت ترمى من فوق الاسوار و ابلا عظيمًا من الحجارة

« و كان البحر يحميها من الشمال و ترعة النيل و بحيرة مريوط يحميانها من الجنوب و كانت من اعظم الحصون و القلاع في ذلك العصر و قد بذل الروم جهدا كبيرا في تحصينها »

ولقد دكت اسوار مدينة الاسكندرية ، دكها المسلمون في زمن خلافة عثمان بن عفان على اثر ثورة ثارها الروم للقضاء على السلطة الاسلامية و محوها ثم جدوها بعد

ذلك على منوال آخر ثم دمرت ولا تزال بقية منها انشئت في عهد الخديوية العلوية
قائمة حتى الآن

٢ - حصن بابليون

كان سمك سور هذا الحصن ١٨ قدما ، وهو مبني بالحجارة والآجر طبقة من
هذا وطبقة من تلك . وكان محيط الاسوار على شكل مربع غير منتظم ولا تعرف حتى
الآن مساحته بالضبط . وانما تقدر مساحة الحصن بنحو نصف كيلو متر مربع

وكان له اربعة ابراج تمتد من الجنوب الى الشرق

وكان علو الاسوار يبلغ ٦٠ قدما في بعض الامكنة

وكان للحصن بابان : الباب الجنوبي وهو الاكبر وهو باب كنيسة العلقة في

الوقت الحاضر ، و باب آخر تجاه النهر . وكان الحصن على جانب النهر يتجه اليه على
طول جانبه وقد افردنا لوصفه فصلا خاصا

وكانت جزيرة الروضة كذلك وهي غربي بابليون ذات حصون ومنعة وكانت

زيد في قوة حصن بابليون وخطره الحربي بانها كانت في وسط نهر النيل تملك زمامه

٣ - حصن نقيوس

نقيوس هي اليوم قرية ابشادي وهي في الشمال الغربي من منوف . وكانت

ذات شأن عظيم وكان حصنها قويا وهي على الشاطئ الشرقى لفرع النيل الغربى وتقع

على مسافة ٨٦ كيلو مترا من بابليون و ١٠ كيلو مترات من منوف

٤ - حصن كربول

رسم الروم حصون هذه المدينة ، وكانت تؤلف خط الدفاع الاول عن الاسكندرية

للقادم اليها برا من جهة الجنوب ، عندما بدأ المسلمون حركاتهم العسكرية في وادى النيل ،

وشحنوها بالمقاتلة واعدوها اعدادا مناسبة ولئن لم يكن لها مالصون الاسكندرية وبابلون من المنعة الا انها كانت من الحصون المدودة في ذلك العهد وتبعد (الكريون) ٣٦ كيلو مترا عن الاسكندرية فقط وهي معروفة الآن في مديرية البحيرة

٥ - حصون اخرى

وكانت هنالك ايضا حصون ومراكز عسكرية اخرى منبثة في انحاء القطر ويدل وجودها على عناية الروم بامر الدفاع عن هذا القطر وعلى انهم لم يهملوا امره وانهم غلبوا وخضعوا للقوة القاهرة التي هاجتهم

الروم يستعدون

لئن جهل ولاة امور الروم في مصر خبر الحملة الصغيرة التي تم الاتفاق على اعدادها سرا بين الخليفة وقائد جيشه العام في ميدان الشام ، ولئن جهلوا خبر مغادرتها قيسارية ، وقد فصلت عنها ليلا فلم يدر احد بسفرها ، وما كان رجالها يعرفون الى اين يسرون ، ولئن جهلوا خبر دنوها من الحدود المصرية ، فان نبأ اقتحامها هذه الحدود واستيلائها على رفح ثم على العريش لم يعد سرا من الاسرار ولا خبرا من الاخبار التي تكتم ولا تنشر

ويلوح لنا ان ولاة الامور العسكريين في مصر فوجئوا بدنو الجيش العربي مفاجأة ما كانت تخطر لهم ببال ولعل هذا افضل تفسير يفسر عدم اتخاذهم شيئا من التدابير لصدده ووقفه في الصحراء او في مناطق الحدود على الاقل ولعل هؤلاء كانوا يظنون ان بجيش الروم الكبير في الشام القدرة على مقاومة العرب فارتاحوا الى هذه العقيدة وناموا ملء اجفانهم

وتبدل الموقف حينما وصل عمرو الى العريش وظهر انه يقصد مصر ويسعى للاستيلاء عليها وبتراها من جسم الامبراطورية الرومية ، كما بتر جارتها فلسطين ، فاضطرب ولاة الامور حينما سمعوا ناقوس الخطر يقرع وادركوا ان ما وقع في الشام وفلسطين والبلقاء وحويران واقع بهم ، وان مصيرهم سيكون مصير اخوانهم ، والامور تقاس باشباهها ونظائرهما ، ولكنهم تجلدوا وعزموا على استنفاد الجهد في النضال والمقاومة ، ولا بد لنا من الاعتراف هنا بان الروم ابدوا بسالة زائدة في حروبهم العديدة مع العرب واتوا بالحوارق من ضروب الشجاعة ، ولئن لم يوفقوا الى اتقاء

الخطر الذى احدثق بهم وجرفهم فالذنب ليس بذنبهم ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها
ويقول مؤرخو الدولة الرومية ، ان قيرس (الحاكم الرومى العام لوادى النيل
يومئذ) غادر مقره فى الاسكندرية وجاء الى حصن بابلينون مسرعا لينظر فى اعداد
المعدات العسكرية وليتخذ من التدابير ما تقضى الحاجة باتخاذها ، فلا يستولى العدو على
البلاذ بسهولة ولا تسلم اليه بلا ثمن . ويقولون انه كان فى مقدمة ما عماله انه اصدر
الأوامر بارسال قوة عسكرية كبيرة الى الفرما (قاطية) وتؤلف خط الدفاع الاول عن
بابلينون من جهة الشرق ، فارسلت اليها ، وعكف رجالها على تحصينها واعدادها للقاء
الغزاة فلا يقتحمونها

الفرما

واصل عمرو والتقدم من العريش متجها الى الجنوب فبلغ مدينة الفرما
وتبعد عن العريش ١٢٠ كيلومترا وتقع في جنوبيها وعن القنطرة ٣٥ كيلومترا
وتقع الى شماليها فنزل حولها وضرب الحصار عليها
ويقول الجغرافيون في وصف الفرما انها كانت مدينة قديمة بين العريش
والفسطاط وشرقي تنيس على ساحل البحر الابيض

اما الفرما اليوم فهى تل ينزله بعض البدو ويسمونه قاطية وهو قريب من خط
سكة حديد فلسطين

ونحن في غنى عن القول ان حملة عمرو الصغيرة ما كانت تملك شيئا من معدات
الحصار التى لا بد من الاستعانة بها في ضرب الحصون واخضاعها ، ولقد قلنا في
ما سبق ان العرب ما كانوا يعرفون هذا الضرب من ضروب الفنون الحربية
وضرب عمرو نطاقا حول الفرما واقام يرقب حركة الحامية ودعاها الى النزال
فخرجت اليه ودارت معارك ليست بذات شأن كان الروم يسرعون بعدها الى
دخول حصنهم

واغتم احد ابطال العرب واسمه اسميقع بن وعله السبأى فرصة اشتباك
العرب والروم في قتال ، فاندفع نحو باب الحصن فاقتحمه ، وحال بين الروم وبين
الرجوع الى الحصن ، حينما ارتدوا بعد المعركة ، واسرع بعض اخوانه فانضموا
اليه فوقعت الحامية الرومية بين نارين فاستسلمت ، واستولى العرب على المدينة

وحصونها ، وكان هذا اول فوز عسكري نالوه في هذا الميدان
 والمؤرخون مختلفون في تحديد زمن حصار الفرما ، فيجعله بعضهم شهرا
 واحدا ويعدده آخرون شهرين . وعلى كل فقد شجع فتح الفرما في خلال هذه المدة
 القصيرة العرب ، مع خلوايديهم من ادوات الحصار فاندفعوا الى الامام واستبشروا
 وكتب عمرو بن العاص من الفرما الى الخليفة يبشره بما حازه من نصر في
 العريش والفرما ويطلب اليه ان يوافيه بالنجدة الكافية ، لان عمرا ما كان
 يبجل عظمة حصون مصر ومناعتها وكثرتها ، كما انه ما كان يبجل ان احتلال قطر
 عظيم كمصر لايتسر باربعة آلاف جندي مهما اتوا من الشجاعة والقوة والنجدة
 ولكل شئ ، حد وقياس

بليس

لم يطل عمر و الإقامة في الفرما بل واصل زحفه ، فبلغ مدينة مجدول (القنطرة اليوم) ثم سار الى القصاصين فوادى الطميلات وظل يمشى بدون مقاومة حتى بلغ بليس وهي مدينة معروفة اليوم في القطر المصري ومن اعمال مديرية الشرقية تقع في طرف الصحراء الشرقية الغربي على الطريق بين القاهرة والسويس وتبعد عن الاولى ٥٥ كيلو مترا فقط وتمر بها سكة حديد تسير من القاهرة حتى المنصورة وتبعد عن الفرما ١٤٥ كيلو مترا منها ٣٥ الى القنطرة و ١١٠ من هذه الى بليس

وزار كاتب هذه السطور بليس للبحث عما قد يكون هنالك من آثار فألفاها قائمة في نفس المكان الذي كانت تقوم فيه بليس القديمة يؤيد ذلك وجود كثير من الاحجار الرومية والفرعونية منبثة في ارجائها ، ولمصلحة الآثار المصرية خفراء لمراقبة الحفر ومصادرة ما قد يعثر عليه السكان من آثار قديمة

ومما عثر عليه في اثناء بحته مقبرة قديمة يزورها سكان المدينة المسلمون للتبرك ويقولون انها مقبرة القتلى الذين سقطوا في معركة بليس بين عمرو والروم ويسمونها « مقبرة السادة » ويحوطنها بالرعاية والاحترام

وكذلك ارشد الى ضريح آخر يقولون انه ضريح سيدى عبد الله امير الجيش ويصفونه بانه كان من قواد جيش عمرو وانه سقط في تلك المعركة فدفن هنالك وقبره محترم ، وقبره مسجد للصلاة ويزوره المسلمون للتبرك . والضريحان : ضريح السادة وضريح سيدى عبد الله واقعان في وسط البلدة الحاضرة وهما الأثران الوحيدان الباقيان من آثار تلك الغزوة الكبرى

استعداد الروم في بلبس

وكان الروم قد استعدوا للقاء عمرو في بلبس وحشدوا فيها قوات كبيرة ، املا بان يتسنى لهم درء الخطر الذى يهدد مركزهم في وادى النيل ومعنى ذلك ان القوة التى اقاموها هنا تؤلف خط الدفاع الثانى عن حصن بابليون بعد ما سقط خط الدفاع الاول فى الفرما ولم يقو على الثبات امام المهاجمين

ويقول بعض المؤرخين ان اريطبون قائد الروم الاكبر فى فلسطين كان يقود قواهم فى هذا الميدان ، فقد خرج هذا على رأس القوة الى بلبس محاولا ان يثأر لنفسه وقومه من العرب الذين هزموه فى فلسطين واضطروه ان يلجأ الى مصر فدارت عليه وعلى جيشه الدائرة ، وكان اريطبون نفسه من جملة القتلى واستولى عمرو على بلبس بعد حصار امتد نحو شهر وبذلك فتح طريق بابليون (مصر) امامه ولم يبق عائق يعوق تقدمه اليها ، وذلك فوز لا يستهان به ، ناله المسلمون بعد معركتين خاضوها مع الروم وهزموا جيشين كبيرين من جيوشهما يفوقانهم اضعافا مضاعفة فى العدد والعدد ، وقد لانعدو الصواب اذا قدرنا الجيش الذى استقبلهم فى سهول بلبس بعشرات الالوف ، وما كان الروم ليجازفوا بارساله لولا وثوقهم من قدرته على المقاومة والثبات

عمرو يستميل القبط

يقول ابن كثير وهو من ثقات المؤرخين الاسلاميين انه لما بلغ عمرو بن العاص باب مصر لقيه جند ارسله المقوقس فلما تصافوا قال لهم عمرو لاتعجلوا حتى نغدر اليكم ليرز الى ابو مريم وابو مريام فبرزا اليه فقال لهما :
اتما راهبا هذه البلاد فاسمعا :

ان الله بعث محمدا بالحق وامره به وامرنا به محمد وأدى الينا كل الذي امر به ، ثم مضى وتركنا على الواضحة ، وكان مما امرنا به الاعذار الى الناس ، فنحن ندعوكم الى الاسلام ، فمن اجابنا فمثلنا ، ومن لم يجيبنا عرضنا عليه الجزية ، وبذلنا له المنعة ، وقد اعلمنا اننا فاتحوكم واوصينا بكم حفظا لرحمنا منكم . وان لكم ان اجبتمونا بذلك ذمة الى ذمته ، وما عهد الينا اميرنا « استوصوا بالقبطيين خيرا » فان رسول الله اوصانا بالقبطيين خيرا لان لهم ذمة ورحمنا »

- مرحبا بك واهلا وامنا حتى نرجع اليك

- ان مثلي لا يندع ، ولكنني امهلكما ثلاثا ، لتنظرا ولتنظرا قومكما ، والا

ناجزتكم

- زدنا

- از يدكم يوما

- زدنا

- از يدكم يوما

فرجعا الى المقوقس ، فابى ان يطبون ان يجيبهما ، وامر بمناهدتهم ، وقال لأهل مصر : اما نحن فانا نجتهد ان ندفع عنكم

تلك هى خلاصة ما اورده ابن كثير فى تاريخه ، دون بعض المؤرخين الآخرين ، وما نقلنا هذه الرواية الا لانها تتفق اجمالا والخطبة التى كان المسلمون يسرون عليها فى حروبهم فما كانوا يهاجمون بلدا من البلدان الا بعد ان يندروا اهله ويدعوهم الى الاسلام فان ابوا فالجزية والا فالقتال

وعلى كل فالعلاقات الودية بين القبط والعرب قديمة ، وكان فى مكة كما يؤكد بعض الباحثين جالية قبطية يحوطها العرب بالعبارة والرعاية ، وكذلك فيجب ان لانسى ان السيدة مارية وهى قبطية ولدت للرسول نجله الوحيد ابراهيم ولم يعش طويلا

ولما كان من عادة العرب ، ان يحرصوا على صلة النسب ويرعوا حرمتها ، فقد اوصى الخليفة عمر بن الخطاب قائد حملته الى مصر بالقبط لان لهم صلة ورحما . وقد نوه عمرو فى حديثه مع رسولى المقوقس (قيرس) بهذه الصلة ويقول اصحاب السير ان هاجر ام اسماعيل جد العرب كانت قبطية

وعامل العرب القبط معاملة حسنة عند ما تم لهم فتح مصر فاعادوا البطريرك بنيامين الى رئاسة كنيسة القديس مرقس ، كما اعادوا رؤساء الابريشيات الآخرين وازالوا الاضطهاد الدينى ، واستعانوا بالقبط فى ادارة مصالح الحكومة واصطفوهم وقربوهم ، ويقول يعقوب نخلة روفيله فى كتاب « تاريخ الامة القبطية » ص ٥٤ ما نصه « ولما ثبت قدم العرب فى مصر ، شرع عمرو بن العاص فى تطمين خواطر الاهلين واستمالة قلوبهم اليه ، واكتساب ثقتهم ، واول شئ فعله من هذا القبيل استدعاؤه بنيامين البطريرك وقد سبق القول بانه كان محتفيا ، وكتب امانا وارسله الى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور ولا خوف عليه ولا تريب . ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع اكرمه ، واطهر له الولاء ، وأقدم له بالايامن

على نفسه وعلى رعيته ، وعزل البطريرك الذى كان اقامه هركليوس ، ورد بنيامين الى مركزه الاصلى معززا مكرما ، وكان بنيامين هذا موصوفا بالعقل والمعرفة حتى سماه بعضهم بالحكيم ، وقيل ان عمرا لما تحقق ذلك منه قربه اليه ، وصار يدعوه فى بعض الاوقات ، ويستشيره فى بعض الاحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها ، وقد حسب القبط هذا الالتفات منة عظيمة وفضلا جزيلا لعمر و ، الى ان قال :

« ثم اخذ عمرو فى تنظيم البلاد ، ولما كان يعلم ان صاحب الدار ادرى بما فيها ، استعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة ، تضمن راحة الاهالى والوالى معا ، فقسم البلاد الى اقسام يرأس كلا منها حاكم قبطى له اختصاصات وحدود معينة ينظر فى قضايا الناس ، ويحكم بينهم ، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من اعضاء ذوى نزاهة واستقامة ، وعين نوابا مخصوصين من القبط ومنحهم حق التدخل فى القضايا الخاصة ببناء طائفتهم ، والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والاهلية فكانوا بذلك فى نوع من الحرية والاستقلال المدنى وهى ميزة جردوا منها فى ايام الدولة الرومانية . ولذلك لم يجعلوا الحكومة فى راحة بال كما تقدم

« وضرب الخراج على البلاد بطريقة عادلة وولى عليها متوليا من ذويه يقبضه على اقساط فى آجال معينة حتى لا يتضايق اهل البلاد

« ورتب الدواوين فاخصت القبط بمسك الدفاتر وسائر الاعمال الكتابية والحسابية ، وكانت كلها تجرى باللغة القبطية ، وبلغ ما جباه من الخراج فى السنة اثنى عشر مليوناً من الدنانير ، مع ان الذى كان يجبيه المقوقس فى ايام الروم لم يكن اقل من ثمانية عشر مليوناً . وبالجملة فان القبط نالوا فى ايام عمرو بن العاص راحة لم يروها منذ ازمان - اه

وفى كتب التاريخ الاسلاى كثير من الاخبار والروايات الدالة على ان القبط كانوا يعطفون على العرب ويعجبون بهم وبالاعمال التى عملوها ، ويرون فيهم منقذين من ظلم الروم الذين جاروا عليهم واقصوهم عن الوظائف الحكومية بامر الامبراطور هركليوس كما تقدم ، ومنعوا استخدامهم واضطهدوهم دينيا ، وحاولوا حملهم على تغيير

مذهبهم وعقيدتهم مما اضطر البطريرك نفسه ورؤساء الابريشيات الى الاختفاء تخلف
من الاضطهادات كما ارهقوهم بالضرائب

ويحاول بعض المستشرقين جحد هذه الحقائق ، مناديا بان القبط كانوا ضالعين
مع الروم وانه لاصحة لكل ما يرويه المؤرخون عن عطفهم على العرب
وتأييدهم لهم ويأتي بادلة وهمية ، استقاها من مصادر يونانية اورومية كتبت بعد
الحوادث بزمن بعيد ، ولا يمكن اقامة برهان مادي على صحتها ، فغير طبيعي ان يقف
القبط الى جانب الروم في نضالهم ذاك وهم يشاهدون الامبراطورية الرومية تنهار
وتداعى ويشاهدون العرب ويطاردون الروم في كل مكان ، ويقترحون الممالك ،
ويكتسحون الامصار ، ويحملون مصباح العدل والمساواة والاحياء الحقيقي ، ويأتون
لانقاذهم من الذين ظلموهم ، وجاروا عليهم ، واضطهدوا رؤساءهم ، وانتكوا
حرمة كنائسهم وديارهم وصادروها ، واخرجوهم من مناصبهم وعاملوهم اسوأ معاملة ،
ثم يقفون في جانبهم ، وهم يعرفون ان امرهم الى زوال وفناء لاجرم ان المنطق السليم
ينكر هذا ولا يقره

وخلاصة القول اننا نعتقد ان المستشرقين الذين يحاولون فيما يكتبونه عن فتح
العرب لمصر جرح ما يرويه المؤرخون الاسلاميون من عطف القبط على العرب
وتطوع بعضهم في خدمتهم ، وتمنيهم الفوز والنجاح لهم ، لينقذوهم من ظلم الروم
واضطهادهم الديني والسياسي والاداري ، يرمون الى اغراض مضمرة بانكار تلك
العلاقات التاريخية الوثيقة بين هذين الشعبين ، واظهار القبط بمظهر المقاوم للفتح
العربي ، الكارده له ، مع ان العرب لم يعتدوا عليهم كما اعتدى غيرهم من الفاتحين ، بل
اطلقوا لهم الحرية الدينية وقربوهم منهم عملا بتعليمات خليفتهم ، فقد اوصاهم بالقبط
خيرا ، حينما وجههم الى مصر لما بينهم وبين المسلمين من صلة ورحم ، وامثالاً لأوامر
نبيهم وقد قال لهم قبل وفاته « ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا
فان لهم ذمة ورحما »

وجاء في حديث آخر « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ،
فذلك الجند خير اجناد الارض »

وجاء في حديث آخر « استوصوا باهل مصر خيرا فان لهم نسبا وصهرا »
وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول « اهل مصر (القبط) اكرم
الاعاجم كلها ، واسمهم يدا ، وفضلهم عنصرا ، واقربهم رحما بالعرب عامة ،
وبقريش خاصة »

استحر القتال بين المسلمين والروم في منطقة بليس ودارت معارك شديدة بينهما فقد جمع هؤلاء جموعا كثيرة بقيادة اريطبون ، وصمموا على المقاومة والنضال حتى النفس الاخير ، املا بان يردوا العرب من حيث جاءوا . فلم يغن عنهم ثباتهم شيئا ، بل هزمهم عمرو وشتتهم ففروا مذعورين تاركين ثلاثة آلاف اسير . وبديهي ان جيشا يترك مثل هذا العدد من الاسرى يضاف اليهم الف قتيل لا يقل عدده عن بضعة عشر الفا على اقل تقدير ، في حين ان جيش المسلمين ما كان يزيد على ثلاثة آلاف ، اذا استثنينا الذين قتلوا في المعارك التي دارت او الذين فقدوا او مرضوا او تخلفوا ولا يخلو الامر من ذلك عادة في الجيوش زمن الحرب واثري نفوس المصريين انتصار العرب في بليس وكانت تعد من المراكز الكبرى في المنطقة الشرقية ، وكان الروم يعتمدون على الجيش الذي حشدوه فيها ووقع الذعر والاضطراب في صفوفهم ، وكانت اخبار الفتح الاسلامي في الشام والعراق وفارس ، تملأ الدنيا دويا ، والآذان طينا ، وكانت حديث الناس في خلواتهم وجلواتهم ، فازدادوا للعرب تبجيلا وتعظيما ، والناس مفظورون على احترام الشجاعة والفروسية ، وعلى حب الشجاع الباسل ، يهتفون له ويحذبون عليه مهما كان دينه وجنسه، ويحتمقرون المغلوب الذليل ، ويزدرونه مهما كان قريبا منهم محبا اليهم

الى الخانكة

وبعد ما استراح عمرو في بليس ودفن قتلاه ورتب صفوفه واعد عدته ،
اصدر الاوامر الى قواده بالزحف فصار ملتزما جانب الصحراء الشرقية ، غير مبتعد
عنها ، حتى بلغ الخانكة وتبعد عنها ٣٠ كيلومترا ومنها تقدم الى المطرية وتبعد عن
حصن بابليون ١٧ كيلومترا فقط ، ولم يلق ادنى مقاومة فظل مواصلا التقدم حتى
ام دينين وكانت فيها حامية للروم اعدت لمقاومة عمرو ومنازلته

امتثل اسم دينين

وام دينين هذه كانت قرية صغيرة على ضفة النيل الشرقية في شمال حصن
بابليون بادت واندثرت وقام في مكانها حى الازبكية وهو الآن في قلب القاهرة وكانت
تسمى المقس ايضا ، وكان الروم قد جمعوا فيها جموعا غفيرة لملاقاة عمرو وكانت بمثابة
الخط الامامى لحصن بابليون

ووقف عمرو في ام دينين لمناجزة الروم ، وكانوا بقيادة الجنرال تيدور قائد
الروم العام في مصر وقد جاء الى هذا الميدان ليدبر حركة القتال بالذات ، وكان هنالك
ايضا قيرس الحاكم الادارى العام

وكان ثمة نشاط مشهود بين ولاة الامور الروم ، وقد اقلقهم تقدم العرب
وايغالهم في البلاد ، وكانوا يحشدون القوى من هنا وهناك ويجندون الانصار
ويتخذون من التدابير ما يظنون انه يدرأ الخطر وينقذهم منه

وحفر الروم الخنادق في منطقة ام دينين وانشأوا الحصون للدفاع وملاؤها
بالمقاتلة ، واثاروا الحماسة والغيرة في صدور جندهم

ولم ترهب استعدادات الروم في ام دينين عمرا ولم ترعجه ولم تحمله على تغيير
شئ من خطته ، لانه الف منهم ذلك ، والف ان يهزمهم ويشتت جموعهم فقد اتصر

عليهم في جميع المعارك التي دارت بينه وبينهم ، ولم يفوزوا عليه في معركة واحدة ودارت بين عمرو والروم معارك في هذا الميدان انتهت بما جرت العادة ان تنتهى به المعارك التي تدور بينهم وبينه اى بهزيمتهم وتشتيت جموعهم والاستيلاء على هذا المركز العسكرى الكبير ، فكان اول فرضة على النيل تدخل في حوزة العرب ، وقد اتخذها عمرو وازعا عسكريا لجيشه في تلك الفترة العصيبة من فترات حربه مع الروم

حصن بابلين

تدل بقايا حصن بابلين المائثة اليوم في مصر القديمة ويثبت الرسم الذي وضعناه له انه كان من امنع حصون الروم في وادى النيل بعد الاسكندرية ومن اعظم مرا كزهم العسكرية في مصر الوسطى

وحشد الروم في هذا الحصن وفي الاما كن المجاورة له قوى عظيمة ولوها كبار قوادهم وضباطهم وملاؤوا ابراجه وشرفاته بالجنود والمقاتلة استعدادا للدفاع والنضال

وواصل عمرو زحفه بعد ما احتل ام دين الى حصن بابلين لمحاصرته اذ لم يبق هنالك عائق يعوق تقدمه بعد ما هزم الروم وانتصر عليهم في بليس وام دين

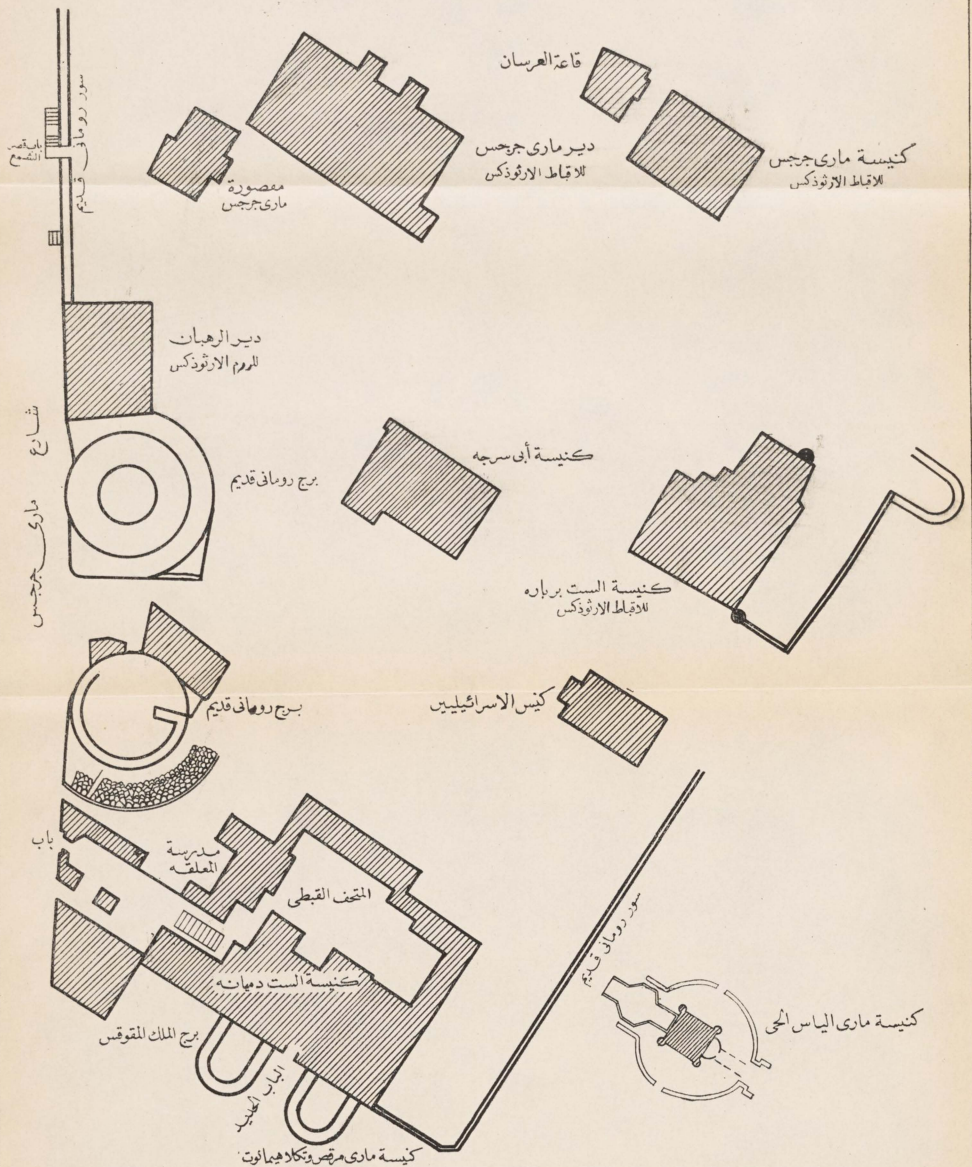
وكان على عمرو - بعد ما بسط سلطانه على الجانب الشرقى من مصر السفلى واستولى على تلك المنطقه الواسعة الممتدة من رفح حتى العريش فالقنطرة فبليس فام دين (الازبكية) ولا يقل طولها عن ٣٣٠ كيلو مترا - ان يختار احدى خطتين فاما ان يهاجم الحصن ويضايقه ويعمل للاستيلاء عليه فاذا نجح وفاز خضعت له مصر العليا مع الجزء الاكبر من مصر الوسطى حتى حدود الساحل ، فيسير بعد ذلك الى الاسكندرية وكانت عاصمة انتظر العسكرية والسياسية والادارية ويهاجم حصونها واما ان يقصدها (اى الاسكندرية) مباشرة ويهاجمها فاذا تم له الاستيلاء عليها خضع له الوادى بخضوعها

واختار عمرو والشق الاول لانه اسلم واسهل وفضل البدء بمهاجمة الحصن على

ان يسير بعد ذلك سيرا طبيعيا هادئا الى الاسكندرية فيحاصرها ويفتحها كما فتح غيرها من العواصم والمراكز فليست مما يستعصى عليه او يقف في سبيله . ويكون خط رجعتة في هذه الحالة مضمونا ، وتكون مواصلاته مع الشام والحجاز مصنونة ، بعكس ما لو سار الى الاسكندرية وترك الروم وراءه في الحصن فلا يضمن خط رجعتة وعدم مهاجمتهم له من الورا

ورأى عمرو بعد ما استقر قراره على تنفيذ هذه الخطة ان يعبر النيل من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية فعبه بالسفن التي وضع يده عليها حينما استولى على ام دنين ، وقام بجولة عسكرية في مصر الوسطى لارهاب عدوه وازعاجه وحمله على تجزئة قواه الكبرى المحشودة في الحصن قبل ان يتقدم لحوض المعركة الكبرى ، وكان ينتظر ورود النجيدات التي طلب من الخليفة ان يمد بها لاتمام فتح وادى النيل . على ان بعض المؤرخين يزعم ان عمرا ارتفع بجنده بعد معركة ام دنين الى الجبل الاحمر في طرف العباسية الشرقى الشمالى ، ولئن كان ذلك معقولا لان الجيش حينئذ يكون في مأمن من غارات الروم فانتا نرجح ان يكون بدأ بكرته على الجزيرة والفيوم ثم عاد فاتخذ هذا الجبل مقراله ، وتعدكرته تلك من اعظم المناورات العسكرية كما تدل على جرأته وسعة حيلته وقد اورد حنا النقيوسى تفصيلاتها في تاريخه

بقايا حصن بابلْيُون (قصر الشمع)



الجزيرة والفيوم والبهنسا

نفذ عمرو خطته العسكرية بجرأة ومهارة فعبّر النيل الى الضفة الغربية بعد ما اقام حامية في ام دينين للمحافظة عليها ولصيانة خط مواصلاته مع بلاده ، وواصل تقدمه حتى مدينة ممفيس (عاصمة الفراعنة القدماء) وقد بادت واندثرت اليوم وقامت في مكانها مدينة البدرشين من مديرية الجزيرة وتبعد عن العاصمة نحو ٢٠ كيلومترا الى الجنوب ، وكانت عامرة نامية ذلك العهد ، فاستولى عليها بدون عناء ثم اتجه نحو الغرب قاصدا اقليم مدينة الفيوم . وتبعد مدينة الفيوم عن مصر القديمة نحو ١٠٠ كيلومتر بطريق الصحراء (الجليل) وقبل ان يبلغها جاءت الاخبار بان الروم في الفيوم استعدوا للقاءه فقرر عدم الاشتباك معهم وقصد البهنسا وتبعد عن الفيوم نحو ١٠٠ كيلومترا

البهنسا

ولقد بادت مدينة البهنسا القديمة واندثرت اليوم وكانت تقوم في البر الغربي للنيل على بعد ١٦ كيلومترا من الشاطئ في سفح الجبل الغربي واحتلها من دون مقاومة وفي مركز بني مزار من اعمال مديرية المنيا تل اسمه تل البهنسا وهو مثبت في خرائط مصلحة المساحة والى جانبه اسمه بالرومية (او كسير نختوس) ويظن انه البهنسا القديمة

عمرو ينازل الروم

واتصل بعمر و وهو في البهنسا ان قائد الروم في الفيوم واسمه حنا يسير وراءه بقوة قلباية ففكر عليه ، فاضطرب هذا وحاول الرجوع الى معسكره في ابويط (غير معروف اليوم ويرجح ان يكون مركزها شرقى اللاهون) فأدركه وحاصره وقتك به ومزق قواه

وحشد الروم قوات كبيرة على الأثر في ابويط وعززوا حامياتهم في اقليم الفيوم ولكن بعد فوات الوقت ، لان عمرا ارتد الى الشمال ، بعد ما اتى الرعب في مصر الوسطى (الجيزة والفيوم وبنى سويف) وحمل الروم على القيام بتعبئة جديدة ، ولا بد لنا من القول ، انه مع قلة عدد جيشه ، بالنسبة لجيش الروم ومع انه كان يعمل في ارض عدوه ، فقد كان ينفذ حركاته العسكرية بجرأة ومهارة واقدام ، ويسير شرقا وجنوبا وغربا غير حاسب لعدوه كبير حساب ولا عانى بما يعده من معدات ويحشد من قوى ، وقد لانكون مبالغين اذا قلنا انه كان للروم يومئذ في منطقتى القاهرة والفيوم ما لا يقل عن ٦٠ الف جندي يستندون الى سلسلة منيعة من خطوط الدفاع والابراج الحصينة ، ولديهم كل ما يحتاجون اليه من المعدات العسكرية والميرة علاوة على انهم يقاقلون في وسط بلادهم ، في حين ان جيش عمرو ما كان يزيد حتى ذلك الوقت اى حتى غزوه للجيزة والفيوم وبنى سويف على ثلاثة آلاف مقاتل ، لا يكادون يملكون شيئا من معدات الحرب يهاجمون بلادا يعدون غرباء في اراضيها ، ولا يعرفون سوى القليل من شؤونها واخبارها ، فلسانهم غير لسانها ، ودينهم غير دينها ، والميزة الوحيدة التى كانوا يمتازون بها على الروم - وقد ضمنت لهم التفوق - هى القوة الادبية او الروحية او قوة الايمان الصحيح وقد ملأت صدورهم وملكت شعورهم وحواسهم فاندفعوا بقوتها فدكوا الحصون والخنادق ، وفتحوا العواصم والثغور ، لا يقف حصن فى سبيلهم ، ولا تستطيع قوة مهما كبرت ان تصدهم ، ففعلوا فى خلال بضعة سنوات ما لا يزال يرن صدها فى اذن التاريخ

وعملوا من الاعمال العسكرية ما يعد خارقة الخوارق ومعجزة المعجزات ، فهدم
امبراطوريتين عظيمتين وكاتتا تمتلكان اعظم جيوش العالم ليس من الحوادث
التي يسهل تعليلها ، والخوارق والمعجزات لا تعلق ولا تدخل في دائرة المحسوسات

هليليو بوليس

استغرقت مظاهرة عمرو العسكرية اسابيع في مديريات الجيزة والفيوم وبنى سويف ، وتحاد بعضها بعضا وتتصل اتصالا وثيقا ، فقد ابتدأت في اواخر شهر مايو سنة ٦٤١ وانتهت في اواسط شهر يونيو ، وعاد عمرو بعدها الى ام دينين لاستقبال النجديات العسكرية التي ارسلت اليه ، ولم يجد مشقة في عبور النيل ولم يحاول الروه ان يقطعوا خط رجعتهم ، ويحولوا بينه وبين الاتصال بالنجديات الجديدة التي وصلت اليه ، وقد كان ذلك في امكانهم واستطاعتهم لو ارادوه لكثرة جيشهم ، ولو فعناوا لزعجوا العرب وضيقوهم على الاقل وحالوا دون اجتماع قواهم وتكاملها وفي اجتماعها الخطر كل الخطر عليهم

ولم يطل عمرو المكث في ام دينين بل قصد برجاله هليليو بوليس (عين شمس او المطرية اليوم وتعد من ضواحي القاهرة وتبعد عنها ١٠ كيلو مترات وتقع في شماليها الغربي وتتصل بالصحراء اتصالا وثيقا) فنزل فيها واتخذها مقرا له وقاعدة لأعماله العسكرية في المرحلة الجديدة ، لان ماءها كثير ولانها متصلة بالصحراء وواقعة على طريق الشام والحجاز

النجديات الجديدة

وفي هليليو بوليس التقى عمرو بن العاص بالزبير بن العوام قائد النجدة التي ارسلها الخليفة اليه من الشام وعدد رجالها اربعة آلاف مقاتل ، وجاءت بعد ذلك قوة

اخرى عددها اربعة آلاف ايضا اى ان مجموع المدد كان ثمانية آلاف جاءوا ارسالا اى متتابعين

ويقول بعض المؤرخين ان عدد المدد ١٠ او ١٢ الفا والرأى الاول هو الارجح وكان فى جيش مصر من المهاجرين الزبير بن العوام وعبد الله بن عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوى وعبد الله بن عمر بن الخطاب وقيس بن ابى العاص السهمى والتقداد بن الاسود وعبد الله بن سعد بن ابى سرح العامرى ونافع بن عبد القيس النهرى ، وابو رافع مولى رسول الله ، وابن عبدة ، وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل ابن حسنة ووردان مولى عمرو بن العاص

وكان فيه من الانصار عبادة بن الصامت ، ومحمد بن مسامة الانصارى ، ومسامة ابن مخلد الانصارى ، وابو ايوب زيد بن خالد الانصارى ، وابو الدرداء عويمر بن عامر ، وقيل عويمر بن زيد

كبار رجال القبائل

واشترك فى هذا الجيش من رجال القبائل ابو ذر جندب بن جنادة الغفارى ، وابو بصرة وقيل ابو نصر بن بصرة الغفارى ، وهيب بن مغفل

معركة العباسية

استقر عمرو في المطرية (هيليو بوليس) وعكف على تنظيم قواه بعد وصول الامدادات الجديدة ، استعدادا للمعركة الفاصلة التي قرر ان يخوضها لاحتلال بابلون وانجاز امر الروم في هذا الميدان

والدلائل متوفرة على انه كان يميل الى التآني والى جر الروم واغرائهم بالخروج الى لقاءه فينازلهم في معركة ميدان ، بدلا من ان يسير اليهم ويهاجمهم حول حصنهم ، لان الفوز في الحالة الاولى اضمن ، ولانه يرجوان يوفق الى ضربهم ضربة قاضية تمزق صفوفهم

وسارت الحوادث طبق ما اشتهاه وامله . فقد جاءت الاخبار وهو في مقره بالمطرية بان الروم كرهوا المقام وراء حصنهم ، وانهم قرروا ان يخرجوا بقيادة تيدور لقتاله بقواهم الكبرى املا بان يتم لهم التغلب عليه ، قبل وصول نجدات اخرى اليه . ويقول مؤرخو الدولة الرومية انه كان للروم في داخل الحصن ٥٠ الف مقاتل . خرج تيدور على رأس ٤٠ الفا منها وترك العشرة الباقية للحفاظ عليه فلا يفاجئه مفاجئ

كبن عمرو

ووضع عمرو وخطة عسكرية محكمة ، للقاء الروم القادمين نفذها وقواده بمهارة واتقان ، ومدارها وضع العدو بين ثلاث نيران ، بعد خروجه من حصنه وقطع خنا رجعتهم ثم تمزيقه والقضاء على جيشه

وعملا بما تقضى به هذه الحطة ، سير عمرو وقوتين من رجاله : الاولى الى ام دين في الغرب . والاخرى الى ثنية الجبل في الشرق (قرب موضع قلعة القاهرة اليوم) وامر قائدهما بان يهاجما جناحي جيش الروم ويضربا مؤخرته اذا تسنى لهما ذلك ، كما نهض هو بمن بقي معه من القوى وسار الى لقاء تيدور سالكا طريق العباسية الحالى بين المطرية والقاهرة

وواصل الروم زحفهم وهم آمنون مطمئنون حتى بلغوا مكانا يظن انه حى العباسية ، فالتقوا بعمر وقادما للقائهم فوقف الجيشان وتضافتم تقائلا ودارت بينهما معركة حامية ، وكان جند العرب مستبلا في النضال وامنية كل واحد من رجاله ان يسبق غيره فينال الشهادة ويفوز باجر الشهداء

واستقتل الروم واستبسلا ، وثبتوا وقاوموا ، لانهم ادركوا ان خذلانهم هنا يتبعه

القضاء على سلطانهم في وادى النيل ، وسقوطهم في ايدى المسلمين

واقبلت - والمعركة دائرة - القوة التي كانت تكمن في الجبل بقيادة خارجه بن حذافة تنحدر انحدارا ، وحملت على مؤخرة الروم واختلطت بجناحهم الايمن فأوقعت فيه الذعر والاضطراب ، فاتجه نحو اليسار الى ناحية ام دين فاستقبلته القوة الاخرى التي كانت تكمن هنالك ، وهكذا وضع العرب جيش الروم بين ثلاث قوات وانقضوا عليه يمعنون في رجاله قتلا وجرحا فتمزق شمله ، وتشتت رجاله ، وفروا لايلون على شئ ، ولاد من استطاع النجاة منهم بحصن بابليون . واغلقوا عليهم الابواب واحكموها ، وغنم العرب غنائم عظيمة ، وامتلكوا سلاحا ومعدات ، وسيطروا على المنطقة الممتدة من هيليو بوليس حتى الحصن نفسه وكان من نتائج هذا النصر ان جلت الحامية الرومية عن الفيوم وابويط فأرسل عمرو وكتيبة فاستولت عليهما

مفاوضات الصلح الاولى

استغل عمرو و نصر العباسية على احسن منوال ، فأرسل جنده الى الجنوب والشمال والغرب يحوس خلال الديار ، فاستولى على الفيوم والجيزة ومنف وأثريب والمناطق المجاورة ، ونشر نفوذ العرب في كل مكان ويقول المؤرخون ان الفترة بين معركة العباسية - وقد حدثت في اواسط شهر يوليو- وبين حصار بابلين امتدت اسابيع شغل عمرو فيها بفتح الاقاليم الوسطى فلما اتم فتحها جاء يضرب نطاقا حول الحصن وكان ذلك اوائل شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ ويقولون ان قوات الروم في داخله ما كانت تزيد على بضعة آلاف ، فقد افنت المعارك التي دارت ، معظم رجالهم ، وشنتهم ، وكانت عندهم كميات كبيرة من الذخائر والميرة وادوات الحرب والقتال

وتولى الدفاع عن الحصن القائد تيدور ، قائد الروم العسكري العام في مصر ، وكان قيرس الحاكم الادارى العام ونائب الملك الى جانبه ، وكان الجميع في خوف ووجل من العرب الذين حالفهم التوفيق وبسم لهم الحظ ففعلوا العجائب وآتوا بالبعجزات ورأى قيرس ان خير ما يفعله لانقاذ البلاد ، ودفع ويلات الحرب ، هو السعي عند عمرو لعقد صلح ينهى النضال ويحقرن الدم . وبديهي انه ما كان في استطاعة قادة الروم ان يفعلوا غير ذلك ، بعد ما استنفدوا الجهد في الكر والفر ، يضاف الى هذا ان حالة الامبراطورية في المناطق الاخرى ولا سما في الشام وكيلسيكية

ما كانت تساعد على ارسال نجيدات قوية الى القطر المصرى تدرأ عنه الخطر المحقق به ويتفاهم يوما بعد يوم

وفاتح قيرس من حوله من القادة وذوى رأى واقترح السعى لانهاء هذه الحالة ، وعقد صلح مع العرب يعيد الى البلاد سلامها وامانها ، وقال لهم انه لا امل هنالك ولا رجاء فى الفوز عليهم وطردهم بعد ما دانت لهم معظم البلدان ، وهابهم الناس ، وبعد ما فنى معظم قوات الروم سيما وحكومة الامبراطورية فى شغل منهم شاغل فلا تستطيع ان تمدنا ولا ان تساعدنا ، فلذلك يجب علينا ان ننظر فى الامر مليا وان نفعل ما نرى ان المصلحة تقضى بفعله ولا بد للعرب من التغلب على هذا الحصن واخذه مهما طال المطال فكل محصور مأخوذ

وأصغى هؤلاء الى بيانه ووافقوا على الاخذ برأيه وأجازوا له ان يتصل بالعرب ويسعى لعقد صلح ملائم ينهى حالة الحرب ويعيد السيوف الى اغمادها . وتم الاتفاق على ان يذهب قيرس سرا الى جزيرة الروضة (بطريق النيل) فيفتح المحادثات معهم ويبذل جهده لارضائهم بالمال ، واجلائهم عن البلاد سلما وصلحا فتعود الى حضن الامبراطورية كما كانت

وفاة قيرس فى الفسطاط

وارسل قيرس من مقامه فى الروضة وفدا الى عمرو ، وكان يقيم فى الفسطاط ، وكان فيها نخيم الجيش العربى ، فاستقبلهم فى نخيمه واكرم وفادتهم ثم سمع اقوالهم ، وكان المتكلم منهم اسقف بابليون فقال لعمرو :

« لقد ولجتم بلادنا ، والحتم فى قتالنا ، وطال مقامكم فى ارضنا ، وانما اتم عصبة صغيرة ، وقد اظلتكم الروم ، وجهزوا اليكم ، ومعهم العدة والسلاح ، وقد احاط بكم هذا النيل . وانما اتم اسارى فى ايدينا ، فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلهذا ان يأتى الامر فيما بيننا على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل

ان تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم تندمون ان كان الامر مخالفا لطلبكم ورجائكم . فابعثوا الينا رجالا من اصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شئ »

سُرُوطِ عَمْرُو

ورد عليهم عمرو ردا مختصرا فقال لهم :

ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث :

١ - اما ان تدخلوا في الاسلام فتكونوا اخواننا لكم مالنا وعليكم ما علينا

٢ - واما ان تدفعوا الجزية عن يد واتم صاغرون

٣ - واما ان نجاهدكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير

الحاكمين

وفد الروم بصف العرب

ويقول المؤرخون العرب ان عمرا استبقي وفد الروم في معسكره يومين وليلتين ، وابع لهم حرية التجول في انحاءهم ، خلافا لما تقضى به القواعد العسكرية ، وانه اراد بذلك ان يشاهدوا حالة جنده ويدرسوها عن كثب ، فلتقى الرعب والخوف في صدورهم فادرك ما اراد ، فقد اجاب الوفد قيرس حينما سأله عن حالة العرب وجيشهم بما يأتي :

« رأينا قوما الموت احب الى احدهم من الحياة ، والتواضع احب اليهم من

الرفعة ، ليس لأحد في الدنيا رغبة ، ولا نهمة ، وانما جلوسهم على التراب ، وأكلهم

على ركبهم ، واميرهم كواحد منهم ، لا يعرف رفيعهم من وضعهم ، ولا السيد من

العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف احد عنها منهم ، يفسلون اطرافهم بالماء ،

وينحشعون في صلاتهم »

وفد العرب في معسكر الروم

ولبي عمرو واقتراح قيرس فأرسل اليه وفدا من رجاله قوامه عشرة اشخاص وزوده حين سفره بالتعليمات الآتية وقد حدد بها مهمته واختصاصاته قال :

١ - يتولى رئاسة الوفد عبادة بن الصامت

٢ - يكون له وحده حق الكلام

٣ - ليس لعبادة ، ان يخرج في محادثاته عن منطوق اوامر الخليفة وتعليماته ولا ان يتجاوز دائرة الطلبات الثلاثة وقد عهد الى في تنفيذها فاما الاسلام واما الجزية واما الحرب وليس هنالك غير ذلك

الجلسة الاولى للمفاوضة

واستقبل قيرس وفد العرب واكرم مشواهم ووفادتهم ولما اراد عبادة الكلام ، وكان اسود اللون ، هابه هذا وطلب تنحيته واقصاه ، فأجابوه انه رئيسهم والمقدم فيهم ، وانه هو وحده الذى يملك حق الكلام

- اذن تكلم

- لقد سمعت مقالك . وان فيمن خلفت من اصحابي الف رجل ، كاهم مثل واشد سوادا مني ، وافظع منظرا ، ولو رأيتهم لكنت اهيب لهم مني ، وانا قد وليت وادبر شبابي ، واني مع ذلك والحمد لله ما اهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلوني جميعا وكذلك اصحابي . وذلك انما رغبتنا وهمنا الجهاد في الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا حاجة للاستكثار منها ، الا ان الله عز وجل قد احل لنا ذلك وجعل ما غنمنا لنا حلالا ، وما يبالي احدنا أ كان له قناطر من ذهب ام كان لا يملك الا درهما ، لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يسد بها جوعه ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وان كان احدنا لا يملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب انفقه في طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا الذى بيده ، ويبلغه ما كان في الدنيا لان

تعييم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاؤها ليس برضاء ، انما النعيم والرخاء في الآخرة ، بذلك امرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا به الا تكون هممة احدنا في الدنيا الا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغاه في رضاء ربه ، وجهاد عدوه «
ورد عليه قيرس قائلا :

لقد سمعت مقاتلك ، وما ذكرت عنك وعن اصحابك ، ولعمري ما بلغتكم ما بلغتكم
الا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لجهيم الدنيا ورغبتكم عنها
لقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معروفون
بالنجدة والشدّة ، ممن لا يبالي احدهم من لقي ولا من قاتل ، وانا لنعلم انكم لن تقتدروا
عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم . وقد اقمتم بين اظهرنا اشهرنا ، واتم في ضيق
وشدة من معاشكم وحالكم . ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم ، وقاة ما بأيديكم
ونحن تطيب انفسنا ان نصلحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين
ولأميركم مائة دينار ولخليفتم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان
يفشاكم ما لا قوة لكم به

عبارة برفض افتراءات قيرس

واجاب عبادة بالرد والرفض وكرر طلباته الاولى وقال له مهديدا ومنذرا ، شأن
القوى الواثق من نفسه ومن رجاله
يا هذا :

لا تعترن بنفسك واصحابك . اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم
وانا لانقوى عليهم ، فلعمري ما هذا الذي نخوف به ، ولا بالذي يكسرننا عما نحن فيه
ان كان ما قلتم حقا فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشد حرصا عليهم
لان ذلك اعذبه لنا عند الله ، واذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا ، كان امكن لنا من
رضوانه وجنته ، وما من شيء اقر لاعيننا ولا احب الينا من ذلك ، وانا منكم

حينئذ على احدى الحسينين ، اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، وانها لأحب الحصلتين الينا بعد الاجتهاد منا ، وان الله عز وجل قال لنا في كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »

وما منا من رجل الا ويدعو ربه صباحا ومساء ان يرزقه الشهادة والا يردده الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وولده ، وليس لأحد منهم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه اهله وولده ، وانما همنا ما امامنا . واما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا ، فنحن في اوسع السعة ، لو كانت لنا الدنيا كلها ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن فيه ، فانظر الذي تريد فينبه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة تتقبلها منك ، ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث ، فاختر ايها شئت ، ولا تطمع نفسك في الباطل ، بذلك امرنى الامير ، وبها امر امير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله من قبله الينا

فاما اجابتمكم الى الاسلام الذى هو الدين الذى لا يقبل الله غيره وهو دين نبينا وانبيائه ورسله وملائكته ، صلوات الله عليهم ، امرنا الله تعالى ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فان فعل كان له مالنا وعليه ما علينا ، وكان اخانا فى دين الاسلام

فان قبلت ذلك انت واصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل اذاكم ، ولا العرض لكم

وان ايتم الا الجزية فأدوا لنا الجزية عن يد واتم صاغرون نعاملكم على شئ رضاه نحن واتم فى كل عام ، ابدا ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم ، وعرض لكم فى شئ من ارضكم ودمائكم واموالكم ، ونقوم بذلك عنكم اذا كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا ، وان ايتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة الى السيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم

هذا ديننا الذى ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا
لأنفسكم»

ورد قيرس فقال انا لن نقبل هذه الطلبات فانظروا لنا قاعدة اخرى غير هذه
القاعدة تدور عليها المفاوضات ، فقال عبادة ليس عندنا غير ما قلت

قيرس يستبصر اصحابه ويرفض الشروط

واستشار قيرس اصحابه وقال لهم هذا رأى القوم فهم يأبون تساهلا ولينا فما
هو رأيكم وبما ذا نجيب ؟ فاتفقت كلمتهم على رفض شروط العرب لشدتها وفداحتها
وقالوا ان الموت ايسر واسهل
ولما رأى هذا اصرار اصحابه على الرفض قال لعبادة لقد رأيت اصرار القوم
فارجع الى صاحبك فكلمه
وغادر الوفد العربى على الإثر الحصن الى الخيم فأبلغ عمرا ما رأى ،
وحدثه بما سمع

العرب ومفاوضات الصلح

على هذا المنوال انتهت مفاوضات الصلح الاولى ، وهي اول مفاوضات رسمية تدور بين الغزاة العرب والمستعمرين الروم . وقد حاول فيها هؤلاء هنا - كما حاول اخوانهم من قبل في اليرموك - ان يسترضوا العرب بمال يدفع لهم فيكفوا عن الحرب ويرجعوا الى بلادهم متخليين عما فتحوه واستولوا عليه . ولقد حدد قيرس في اثناء المفاوضات المبلغ الذى يدفع لهم فقال ان نصيب الحندي سيكون دينارين ونصيب القائد مائة دينار وللخليفة الف دينار ، يقبضها العرب ويعودون الى بلادهم فيحسم الخلاف ، وتضع الحرب اوزارها

ورفض المفاوض العربي ، هذه الاقتراحات وابتى ان يدخل في مناقشة تدور على اساسها ، وقال لقيرس انه يخيره فى الاخذ بواحدة من ثلاث : الاسلام او الجزية او الحرب

وحاول هذا عن طريق التهديد والوعيد ، اقناع المفاوض العربي ، بتعديل الاساس ، فلم يوفق وكرر هذا عليه بانه لا مناقشة ولا جدل فاما رفض واما قبول ولا وسط هنالك

وقد كشفت هذه المفاوضات الغطاء عن بصر الروم فتبينوا ان العرب ما جاءوا طامعين فى مال او نوال ، ولا راغبين فى سلب او نهب ، بل جاءوا لأعظم من هذا واسمى ، وانهم لن يرجعوا الا اذا ادركوا اغراضهم او غلبوا على امرهم واستشار قيرس اصحابه واقطاب دولته ، واطلعهم على شروط المفاوضات العربي وذكر تلبه وسألهم عما يفعل وهل يقبل او يرفض ، فانفقوا على الرفض لفداحة المطالب وشدتها ، ولان معناها

القضاء على سلطان الروم في مصر ، واجمعوا كلمتهم على مواصلة النضال حتى النفس الاخير ، فاما ان يخرجوا العرب ويعيشوا كراما واما ان يغلبوا فيموتوا كراما وينصفهم التاريخ ، ويذكرهم الناس بالخير

ولا بد لنا من التنبيه الى امر خطير ، نرى انه كان من جملة العوامل التي ساعدت العرب في حروبهم مع الامبراطورية الرومية ومكنتهم من القضاء عليها ، ونعني به استهانة قواد الروم بشأن العرب ، فقد دل سير الحوادث على ان رجال الدولة الرومية في مصر وقعوا فيما وقع فيه زملائهم بالشام اى انهم استهانوا بالعرب عند قدومهم واعتقدوا ان امرهم ينتهي اما بارسال حملة قوية تطردهم او ببذل قليل من المال لهم ، وذلك لما رسخ في آذانهم وهو ان هؤلاء ضعفاء فقراء لاقدرة لهم على الصدام ولا معرفة لهم بأساليب الحرب ، وانهم ما خرجوا من جزيرتهم الا طمعا في الحصول على المال ، فمتى نالوه ينتهى امرهم ، ويمتنع خطرهم ، ولقد بذله قيرس لهم بعد ما عجز عن طردهم حربا و بعد ما هزموه في معارك عدة ، فلم يجده ذلك ولم يغن عنه شيئا

ولا يخفى ان قادة الروم في الشام عملوا نفس هذا العمل ، فحاول تيدور قبل اليرموك و بعد ما اوغل العرب في البلاد وذاقوا لذة النصر ، ان يصلحهم على نصف غلة الشام ، فلم يتم له ذلك ، ويقال ان ذلك كان رأى الامبراطور نفسه فقبول اقتراحه بالرفض هنالك كما قوبل هنا ، ومن تحصيل الحاصل القول ، بان قادة الجيش العربى ، ما كانوا على استعداد للدخول فى اى مفاوضة تدور على هذا الاساس ولو بذلوا لهم كل ثروة الامبراطورية ، لانهم جاءوا لغير هذا ، جاءوا لنشر الدين لا لاكتساب المال ، ولا للفتح والاستعمار ؛ وبديهي ، انه لو كان المال وحده مطلوبهم ، لدارت عليهم الدائرة ، ولما استطاعوا تحطى الصحراء فضلا عن الاستيلاء على اثنى اجزاء الامبراطورية الرومية ، لان شأنهم فى تلك الحالة ، يختلف عن شأنهم ، وهم يحاربون فى سبيل الله وفى سبيل نشر دينهم ورجاء الحصول على مرتبة

الشهادة . وما سعى وراء الدرهم والدينار ساع الا كان مصيره الفشل والاختفاق ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغيره انقطع وانفصل

وانتهت مفاوضات « الروضة » بما انتهت به مفاوضات اليرموك ، ووقف عبادة هنا موقف ابى عبيدة هنالك (انظر ص ١١٦) وكان رئيس الوفد العربى لمفاوضة الروم ، فقد رفض كل منهما الدخول فى اى مناقشة مع المفاوض الرومى وقال له ، الاسلام او الجزية او الحرب ويحكم الله بيننا وبينكم

ووقف المغيرة بن شعبة هذا الموقف ايضا فى القادسية حينما زار رستم قبل المعركة لمفاوضا (انظر ص ٣٠٣ من المجلد الاول) وقال له لاصلح ولا سلام حتى تقبلوا احد شروطنا الثلاثة المعروفة ، وكان المسلمون يعرضونها على كل بلد يحملون عليه قبل القتال اعذارا له ، فمن قبل اولها او ثانيها صالحوه ، ومن اجاب بالرفض نازلوه وحكموا السيف بينهم وبينه ، وكانت الغلبة لهم فى كل المعارك تقريبا ، لانهم كانوا يقانلون عن عقيدة صحيحة ، وايمان راسخ ، لا يبغون عرضا دنيويا ، ولا يندسون عرضا ماديا ، ومن كان هذا شأنه فلا بد من انتصاره وفوزه ، فالانتصار والغلبة فى كل زمان ومكان لأصحاب المبادئ الصحيحة ، ولذوى الايمان الثابت الراسخ

٢٨

الهدنة

حبطت مفاوضات الصلح وانقطعت وصار الحكم لل سيف بعد ما رفض الروم قبول مقترحات العرب ، واعلنوا انهم يأبون التسليم وانهم سيدافعون حتى النفس الاخير

ورأى عمرو بن العاص بعد ما وصلت الحالة الى هذا الحد ، و بعد ما انتقطع كل امل في حقن الدم ، ان يعجل بالعمل العسكري ، وقد اوقف بعد معركة العباسية ، وان يوجه عنايته في هذه المرحلة ، الى الاستيلاء على الحصن وانتزاعه من يد حاميته ، فاحتلاله معناه انهيار الحكم الرومي في مصر الوسطى والعليا

و بينما كان عمرو يعد المعدات العسكرية ويهيء صفوفه لمباشرة القتال تلقى اقتراحا من قيرس يطلب فيه عقد هدنة لمدة شهر واحد فأجاب بالرفض ، لان مصلحته كانت في التعجيل لا بالمطاوله ، وقال لهم انه يمهلم ثلاثة ايام فقط ، فاذا قبلوا في خلالها احد شرطيه عادت السيوف الى اغمادها ، والا فلا مناص من الحرب ، ولا رجاء في العودة الى المفاوضة

الروم يهاجموه العرب

اول معركة حول الحصن

وقبل ان يتلقى عمرو جواب الروم على رده ، وقبل ان يبت في اقتراح الهدنة وقبل ان تنقضى الايام الثلاثة التي اعلنهم انه يمهلم اياها ، خرجوا بقضيمهم وقضيضهم من الحصن ، يتسابقون الى قتال العرب ونزالهم ، ويرجون ان ينالوا منهم غرة ، فيهمزموهم

والظاهر ان الروم استعدوا لهذا الهجوم في داخل الحصن ، ورتبوا على افضل منوال ثم خرجوا وهم يرجون ان يأخذوا العرب على غرة وينكلوها بهم ، فلم تجر سفن الاقدار بما كانوا يشتهون ، فقد كان هؤلاء على مثل اهبتهم ، فلقوهم وصدوا لهم ، وقتلواهم واتته المعركة بانهمزام الروم في المساء فلاذوا باكناف حصنهم ، وغادوا اليه واحكموا غلق ابوابه ووقفوا فوق الشرفات للدفاع عنه

وغنى عن البيان ان انكسارهم في هذه المعركة ، اضعف عزيمتهم ، واتخذ ثورة الحماسة في نفوسهم ، وجعلهم يعتقدون بانه لا قبل لهم بمقاومة العرب ولا بالوقوف في وجههم ، ولم يفوزوا عليهم في معركة واحدة ، فكثرت بينهم الداعون الى السلام والراغبون فيه لانهم ادركوا انه الوسيلة الوحيدة لانقاذهم وصيانة ارواحهم ، ولا فائدة من بذلها فيما لا يفيد ولا يجدى ، فرجحت كفة السلم كفة الحرب ، واخذوا يتحدثون في العسكرين عن مفاوضات جديدة واقتراحات جديدة

وقف الحرب حول الحصن

الجزية عند العرب

كان الروم هم الذين طلبوا الدخول في مفاوضات الصلح ايضا ، ولكن لاعلى غير اساس ، ولا على امل ارضاء العرب بالمال ، بل على قاعدة قبولهم للشرط الثانى اى دفع الجزية ، والدخول تحت حماية دولة العرب الجديدة

واجاب عمرو وحينما وصل اليه اقتراح قيرس بانه على اتم استعداد لوقف رحى الحرب وعقد الصلح متى اعلنوا قبولهم لأحد مطلبيه فأبلغه قيرس انه يقبل الشرط الثانى اى الجزية ، او الحماية ، وهو المعنى الشرعى او القانونى الذى يجب ان تفسر به ، فقد كان المسلمون يأخذون مال الجزية ، من البلاد التى تفتح لهم سالما مقابل حمايتهم لها ، وبذلهم الامان الخارجى لسكانها ، فضلا عن الامن الداخلى . وقد بسط ذلك عبادة بن الصامت بجلاء فى مفاوضاته الاولى مع قيرس ، كما طبقها ابو عبيدة عمليا فى حمص حين فتحها للمرة الاولى (انظر ص ١٠٤) فأعاد الى اهلها الجزية حينما قرر الجلاء عنها ، والذهاب الى اليرموك للاشتراك فى المعركة الفاصلة ، ولما حادثه سكانها فى الامر ، قال لهم ما معناه « اخذنا منكم هذا المال مقابل حمايتكم والدفاع عنكم . وحيث اننا شغلنا عنكم الآن ، وليس فى استطاعتنا ان نؤدى هذا الواجب الذى اخذناه على عاتقنا ، فنحن نعيد مالكم اليكم ، فاذا رجعنا ثانية اخذناه والا فهو لكم واتم احرار فى التصرف فيه »

نعم هكذا كان قادة الجيش الاسلامى يفهمون معنى الحماية وهكذا كانوا يفسرونها ، فهم يتناولون مال الجزية باسم الحماية ، او باسم الاشتراك فى نفقات الدفاع العسكرى ، ولا بد لكل بلاد من جيش يحميها ، ويصون حدودها ، ويدافع عنها ، وقد كان العرب يقومون بهذه المهمة فى البلاد التى يفتحونها او تدخل فى عهدهم وحمايتهم

معاهدة الصلح بين العرب والروم

وقفت رحى الحرب حول الحصن ، حينما اعلن قيرس قبوله الجزية واستؤنفت المفاوضات بين العسكريين فتم الاتفاق على الشروط الآتية وهى اول معاهدة تعقد بين العرب والروم فى مصر ، وقد علقوا تنفيذها على اقرار امبراطور القسطنطينية لها وهى :

١ - تصالح مصر على الجزية (الحماية)

٢ - يعلق نفاذ هذا الصلح على اقرار الامبراطور له

٣ - يلغى هذا الصلح اذا رفضه الامبراطور

٤ - تقف رحى الحرب لمدة شهر ويلزم كل جيش موافقه ولا يتعدها

ولما تم الاتفاق ووقعت شروطه غادر قيرس الحصن عائدا الى الاسكندرية على الفور ، وكتب الى الامبراطور بما حدث وبسط له الحالة ، وذكر له الشروط التى اتفق عليها مع عمرو وطلب اقرارها لانه ليس فى الامكان الحصول على افضل منها كما انه ليس فى الاستطاعة التغلب على الغزاة واخراجهم من البلاد

دعوة قيرس الى العاصمة

ويقول مؤرخو الدولة الرومية ان الامبراطور ارسل يدعو قيرس اليه لسماع رأيه فى الصلح ، وللوقوف على امور غمت عليه ، ويقولون ايضا ان هذا لى الدعوة وسافر على عجل ، وان سفره كان فى شهر نوفمبر سنة ٦٤٠ كما يقولون ان صلح بابليون كان فى شهر اكتوبر من تلك السنة

وقابل قيصر الامبراطور ، وبسط له العوامل والاسباب التي بعثته على عقد الصلح ، وقال ان العرب قد يحملون بواسطته على الخروج الى مصر ، وان الجزية التي تدفع اليهم ، تجبي بسهولة من تجار الاسكندرية ومن مموليها ، فلا تخسر خزينة الامبراطورية بذلك شيئاً ويكون الشعب هو الذي دفع ، ويروى انه قال للامبراطور ما نصه :

« لو رأيت هؤلاء العرب و بلاءهم في القتال ، لعرفت انهم قوم لا يغلبون ، فليس لنا من سبيل خير من الصلح قبل ان يفتح عمر و حصن بابلون عنوة و تصبح البلاد غنيمة لهم »

الامبراطور يرفض الصلح

ويعزل قيصر وينفيه

يغتتم بعض مؤرخى الدولة الرومية فرصة سفر قيصر الى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور فيحملون عليه حملات قاسيات ويتهمونه بالجبن ويرمون به بالخيانة ويقولون ان الامبراطور انه واسمعه كلاما مرا وحكم عليه بانه « مرتكب مجرم » واسلمه الى محافظ العاصمة فشهروه واهانته ثم نفاه من البلاد وطرده منها

و يعلق هؤلاء على تصرف الامبراطور معربين عن ارتياحهم اليه ومنادين بانه كان جزاء وفاقا لاقاه قيصر على تصرفاته وعلى ما اظهره من الجبن وخور الغزيمة والعجز عن طرد العرب الذين غزوه باثنى عشر الف مقاتل ، مع ان رجاله ما كانوا يقلون عن مائة الف ، وفات هؤلاء ان جيش الامبراطور العظيم فى الشام استهدف لما استهدف له جيش قيصر فهزم يوم اليرموك وشتت ومزق مع ان عدد العرب ما كان يزيد عن اربعمائة الف لاقوا مائتى الف من الروم اويز بدون اى ان النسبة تكاد تكون واحدة تقريبا. يضاف الى هذا ان حامية الروم فى مصر لم تجتمع كلها لقتال العرب ، كما جرى فى اليرموك بل كانت متفرقة بين الاسكندرية وبابلليون وعلى طول الطريق بينها ، فكانت هنالك حاميات كبيرة فى نقيوس وسمنود وكريون ودمياط ، وما كان فى استطاعة القيادة العامة للجيش الرومى زجها كلها فى المعركة الكبرى لعدم جواز اخلاء هذه المناطق من الوجهة الحربية الفنية

والامر المتفق عليه عند معظم هؤلاء ان قيرس لم يعد في تلك الحقبة الى الاسكندرية بل حل محله القائد ماريوس ، وكان الامبراطور قد ندبه من قبل فسافر اليها ليشارك مع قيرس في اعداد معدات الدفاع وتنظيمه ، وقبض هذا على مقاليد الحكم حينما دعى قيرس وقام مقامه

الرجوع الى القتال

و بينما كان عمرو و يترقب رجوع قيرس من القسطنطينية لينفذ شروط الاتفاق ابلغ ان الامبراطور عزله و نفاه و عين قائدا عسكريا مكانه و نقض الشروط التي تم الاتفاق عليها و ان الروم عازمون على مواصلة الحرب و الكفاح ، فأمر باتخاذ التدابير اللازمة لاستئناف القتال و كان ذلك في اولخر سنة ٦٤٠

و وقعت معارك عديدة بين المسلمين و الروم ، و كان هؤلاء يخرجون الى قتالهم ، في فترات متقطعة اما لان يصيبوا منهم غرة ، او ينالوا منهم منالا ، فيهزمون و يعودون الى ملجأهم خاسرين ، فأثر تتابع الهزائم في نفوسهم كما آلمها انقطاع الامل من وصول امدادات جديدة تنقذهم ، و تفرج كربهم . فكفوا عن الخروج و اكتفوا بالوقوف وراء الاسوار

و شدد عمرو الحصار عليهم و اكثر من مضايقتهم ، ليحملهم على الاستسلام و الخضوع ، و كان يود الاسراع ليحمل على الاسكندرية فتم له ما اراد فما لبث المحصورون ان جنحوا للسلم فاستولى على الحصن و كان فتحه فتحا عظيما

كيف سلم الحصن

استغرق حصار الحصن نحو سبعة أشهر ، وهنت في خلالها قوى المحصورين وزاد في وهنها عدم وصول نجدات جديدة من البحر تمدهم بها حكومة القسطنطينية ، وكانت في شغل شاغل عنهم ، وما كان في استطاعتها ، ان ترسل اليهم سوى كلمات التشجيع ، تثير بها حماسهم ، وتضرم نار الغيرة في صدورهم

ومما ضاعف في آلامهم ، ما عرفوه في مطلع فصل الربيع من شهور سنة ٦٤١ ، عن وفاة امبراطورهم (هركليوس) فقد اصاب بحبل في عقله ، وضعف في جسمه ، لم يعيش معهما طويلا ، والظاهر ان المصائب التي اصبحت بها الامبراطورية في عهده ، اثرت في قواه فمات في شهر مارس من شهور تلك السنة مخلفا امبراطوريته في اسوأ حال

واستقر قرار العرب ، على القيام بهجوم عام على الحصن ، ينجزون به امره ، فعكفوا على اعداد المعدات وتأهبوا للعمل العظيم الذي اعزموا الاقدام عليه فاكلوه تحت ستار الكتمان

ومثل الزبير بن العوام ، في فتح الحصن ، الدور الذي مثله خالد بن الوليد في فتح دمشق ، وعمل هذا هنا ماعمله ذاك هناك ، فقد اختار نفرا من شجعانه الابطال وتقدم في الليلة التي تقرر ان يبدأ فيها الهجوم ، الى جدران الحصن ، ومعه السلام ، فقدم جانبا من الخندق ، ثم نصبها وصعد عليها حتى بلغ رأس الحصن والروم غافلون عنه فكبر وكبر الذين معه ، فاضطرب اهل الحصن ، وذهلوا ، ومشى الزبير والذين معه الى داخل الحصن تحت حماية الرماة وكانوا يقومون مقام المدفعية تقريبا في حروب

هذه الايام ، فقد شدد هؤلاء الحملة على الروم ليشغلوهم عن الزبير وكان يحاول بلوغ الباب فيفتحه لاخوانه

وادرک قادة الحصن وولاية اموره العسكريون انه لا مناص من الاستسلام ، فاجتمعوا على الفور وارسلوا الى عمرو في الصباح الباكر ان يصلحهم على الامان للذين ظلوا منهم احياء فقبل وتم الصلح فورا على الشروط الآتية :

١ - تسليم الحصن

٢ - الامان للحاميته

٣ - تغادر الحامية الحصن في خلال ثلاثة ايام بالنيل مع ما تحتاج اليه من ميرة لبضعة ايام فقط

٤ - يسلم الروم للعرب كل ما في الحصن من امتعة وذخائر وغيرها من آلات

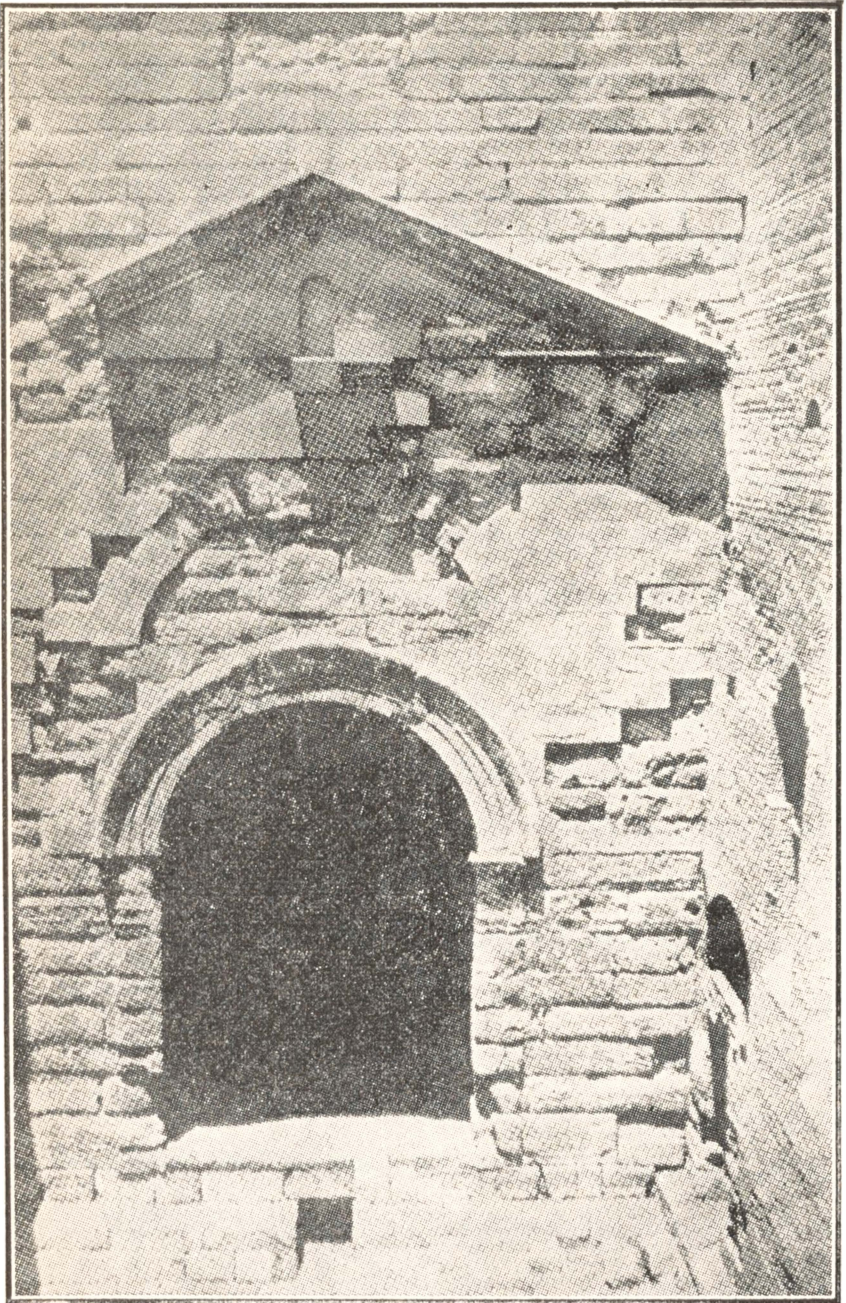
الحرب والقتال

٥ - يؤدي السكان الجزية

تلك هي الشروط التي اتفق عليها صبح ليلة الهجوم بين عمرو وجورج قائد الحصن ، ويقول بعض المؤرخين ان الزبير عارض في اقرارها ، وقال لعمرو « لو صبرت قليلا ، لنزلت الى السور وفتحت الابواب ولكن الامر على ما تشتهي »

وبين المؤرخين خلاف في وصف المكان الذي وضع فيه الزبير سامه ، فالمقریزی وابو المحاسن يذكران انه كان قرب الموضع الذي كان يعرف بسوق الحمام في ايامهما . ويقول ياقوت « انه كان بقرب الموضع الذي بنى فيه فيما بعد « بيت ابي صالح الحراني ، بقرب حمامات ابي نصر السراج ، بجوار سوق الحمامات » ويقول ابن بطريق انه كان بجوار سوق الحمام في الجانب الجنوبي من الحصن

ويقول البلاذري انه عند اختطاط الفسطاط بنى الزبير لنفسه بيتا ، واحتفظ بالسلم بداخله وورثها ابنه من بعده ، وظلت السلم محفوظة في منزل بسوق وردان بالفسطاط حتى احترقت سنة ٣٩٠ هـ مع المنزل



الباب القبلي لحصن بابليون بمصر القديمة

حصن بابليون في القديم والحديث

لقد آن لنا ان نقول كلمة عن هذا الحصن العظيم الذى استولى عليه العرب بسيوفهم وامتلكوه بفضل شجاعتهم واخلصهم
 انشأ هذا الحصن الرومان فى زمن حكمهم لوادى النيل واختاروا له نقطة
 عسكرية خطيرة ، فهو يسيطر على طريق الصحراء شرقا ، وعلى طريق النيل المؤدية
 للوجهين القبلى والبحرى وعلى مدينة بابليون نفسها (مصر القديمة) وكانت من المدن
 الكبرى فى العهد القديم

ولا يعرف تاريخ انشائه بالضبط ، لان اللوح الرخامى الذى كان يعلو بابه الجنوبي
 ويظن انهم نقشوا عليه تاريخ انشائه مفقود كما يرى من الصورة الفوتوغرافية المنشورة
 هنا وقد شاهد مؤلف هذا الكتاب مكان اللوح خاليا حين زيارته لهذا الحصن
 والراجح انه اسس فى عهد الامبراطور تراجان فى القرن الثانى للميلاد

وتدل حجارة الحصن وهى ضخمة على انها مأخوذة من مبان فرعونية قديمة ،
 يؤيد ذلك وجود نقوش هير وغليفية على بعضها . ومساحته غير معروفة بالضبط ولا
 تقل فى كل حال عن نصف كيلو متر مربع . ولم يبق منه الآن سوى بابه الجنوبي .
 يكتنفه برجان كبيران يبلغ ارتفاعهما نحو عشرين مترا وسمك جدرانهما مترين .
 وهنالك قناة لتصريف ماء المطر الى النيل بنيت فى وسط الدهليز الداخلى . وارض هذا
 الدهليز مرصوفة بالحجارة وينزل اليه بسلام ولا يقل عمقه عن ١٠ امتار تقريبا من
 مستوى سطح الشارع الخارجى

ولا تزال بقايا سور الحصن قائمة فى الجهات الشرقية والجنوبية الغربية .

وهناك ايضا برجان مستديران يعلوان السور : احدهما امام المتحف القبطى الحالى وقد انشئ فى سنة ١٩٢٠ والآخر مقابل له ويمتلكه الروم الارثوذكس من القديم وقد انشأوا على قمته كنيسة باسم القديس مارجورجيوس

وتقوم فى داخل الحصن - عدا كنيسة الروم ودار المتحف القبطى - ست كنائس للقبط وهى : المعلقة ، وابو سرجه ، والست بربرة ، ومار جرجس ، وقيصرية الرياحان ، وكنيسة دير البنات

وفيه ايضا كنيسة لليهود وكنيسة لاروم الكاثوليك الملكيين وقد أثبتنا ذلك فى الرسم الذى وضعناه لهذا الحصن التاريخى العظيم

وبين المؤرخين اختلاف ايضا على اسمه فيسميه بعضهم قصر الشمع ، ويسميه آخرون بابليون وقلعة بابليون ، ويقول المقريزى انه سمي بقصر الشمع لان العادة جرت ان توقد فى اعلى ابراجه الشموع ليلة انتقال الشمس من برج الى آخر . ويرى غيره ان كلمة الشمع محرفة من الكلمة القبطية كامي ومعناها قصر مصر . ويقولون ان بابليون او باب اليون مشتقة من الهير وغليفية « برهاني ان اون - بيت الله - مدينة الشمس » ووصفه المقريزى فقال فى وصفه « هو الحصن الذى يعرف اليوم بقصر الشمع واقع فى ارض فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى ويرى مطلا على النيل ، وتصل السفن فى النيل الى بابه الغربى الذى يعرف بباب الحديد » ولا اثر لشيء من هذا اليوم تقريبا فالنيل يبعد عنه مسافة تبلغ نحو كيلومتر . ويقال ان النيل ظل يمر تحت اسواره الغربية حتى سنة ١٨٠٠ ثم ابتعد عنه تدريجا الى مكانه الحالى

وللحصن الآن بابان الغربى وكان على النيل والباب الشرقى ويظن ان العرب دخلوا منه وهو فى منخفض عن ارض الشارع

وبالاجمال فان بقايا هذا الحصن لا تزال ناطقه بعظمته وهو لا يكاد يختلف فى

شيء عن بقية الابراج والحصون الباقية من العهد الرومانى فى الضخامة والاتساع

الطريق الى الاسكندرية

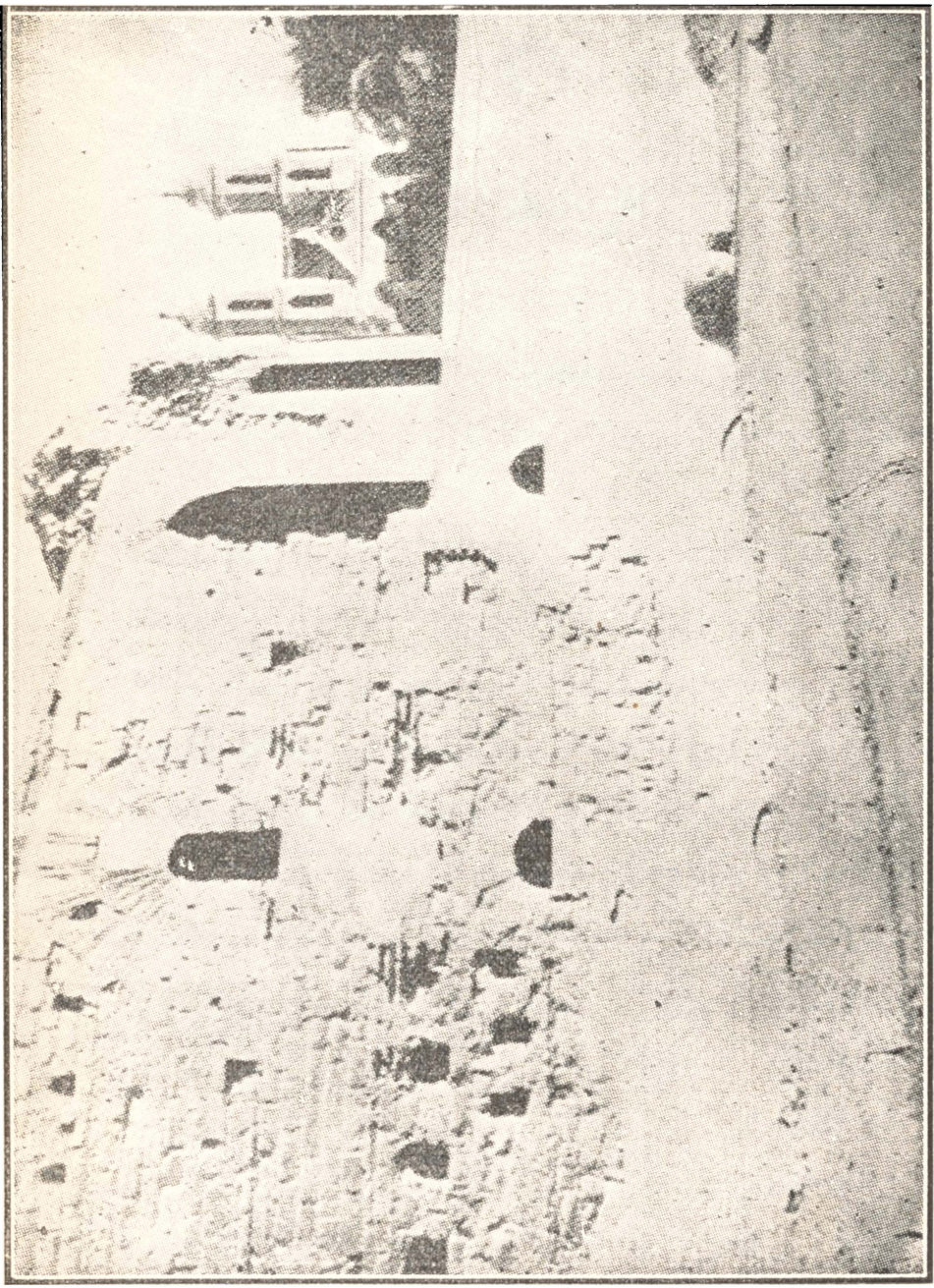
خفقت راية الاسلام على حصن بابلون فى صباح يوم الجمعة ٦ ابريل (نيسان) سنة ٦٤١ ، بعد حصار استمر سبعة اشهر تقريبا ، فدخله العرب وانبثوا فى ارجائه ، وقضى الروم ايام الجمعة والسبت والاحد فى الخروج بحرا وسلموه نهائيا يوم الاثنين ٩ منه

وامر عمرو باقامة جسرين على النيل بين الحصن والروضة وبين الروضة والجيزة فوصل بذلك بين الشاطئين ، وسيطر على حركة النقل ، كما ارسل السرايا الى هيليو بوليس والبلاد المجاورة لما يدعوها الى الدخول فى الصلح الذى صالح عليه اهل الحصن فدخلت ودفعت الجزية ، ودفعها سكان الاقاليم المجاورة ، ولا ريب ان الاستيلاء على الحصن زاد فى نفوذ العرب وهيبتهم وادى الى خضوع الاقاليم الوسطى ، واذا اضفنا الى ذلك خضوع المنطقة الشرقية عرفنا ان فتح الحصن كان معناه دخول معظم اجزاء القطر فى سلطان العرب ، وانه لم يبق هناك سوى الجانب الغربى من مصر السفلى مع القسم الساحلى وبعض مناطق مصر العليا

ولم يطل عمرو الاقامة فى الحصن ، الا زيثا رمه واعاده الى ماكان عليه ثم غادره بعد ما اقام فيه حامية بقيادة عبد الله بن حذافة السهمى ، وهو قرشى من بنى سهم ومنهم عمرو بن العاص نفسه ، وعينه محافظا له

ولم يدخل شهر مايو حتى كان عمرو يسير على رأس جيشه الى الاسكندرية

بطريق الصحراء الغربية ، بعد ما كتب الى الخليفة ، يصف له فتح الحصن ، ويذكر
ما لقيه من نجاح وتوفيق ، ويطلب اليه ان يوافيه بنجدات جديدة يستعين بها في
اخضاع حصون الروم الاخرى ولا سيما حصون الاسكندرية



احد برجى حصن باليون كما يظهر الآن والى يمينه كنيسة المعلقة عصر القديمة

الى الطرارة

سلك عمر و في سيره الى الاسكندرية طريق الصحراء الغربية فسار من
الفسطاط الى امبابه ومنها الى عزبة المناشى فالطرارة اى انه لم يسلك الطريق السلطانى
المتعاد وان كان اقرب وايسر

وتبعد الطرارة نحو ٨٠ كيلو مترا عن بابليون ولا تزال قائمة في مكانها القديم
بمديرية المنوفية ثم قصد نقيوس (ايشادى اليوم) وتبعد عنها نحو ٢٠ كيلو مترا
وكانت نقيوس حصنا منيعا للروم في المنطقة . ومن نقيوس سار الى الدلنجات والمسافة
بينهما ٣٨ كيلو مترا ومن الدلنجات الى سنطيس وتبعد عنها ١٨ كيلو مترا ومن
سنطيس الى الكريون وتبعد عنها ٦٨ كيلو مترا ومن الكريون الى الاسكندرية
(الانفوشى) والمسافة بينهما ٣٦ كيلو مترا ومجموع ذلك ٢٦٠ كيلو مترا

وقد استغرقت رحلته هذه بضعة اسابيع (مايو - يونيو) اشتبك في خلالها مع
الروم في المواقع الآتية :

١ - الطرارة

٢ - نقيوس

٣ - سنطيس

٤ - كوم شريك

٥ - الكريون

فاتتصر فيها كلها وهزم القوى التي اعدّها الروم لقتاله وبلغ حصون الاسكندرية
فنزل حولها وضرب خيامه امامها، وظل يطاولها حتى استولى عليها واخضعها كما
ستقرؤ مفصلا

المبارك على طريق الاسكندرية

ما كان عدد الجيش الذى قاده عمرو الى الاسكندرية يزيد عن بضعة آلاف مقاتل من العرب ، يضاف اليهم عدد من الروم والقبط الذين انضموا الى العرب وتطوعوا فى جيشهم كما يقول حنا النقيوسى فى كتابه وقاتلوا معهم ومشى هذا الجيش من بابليون سالكا طريق الصحراء الغربية ومتجها الى الشمال فظل يتقدم حتى بلغ الطرانة او طرنوط . وقد اثبتنا اسمها على الخريطة ومكانها وهى قرية من اعمال مركز الشهداء (مديرية المنوفية) وتبعد عن بابليون ٨٠ كيلو مترا وتقع على الضفة النيل الغربية وكانت فيها فرضة لابد للمسافر الى الاسكندرية من المرور بها والعبور منها

١ - معركة الطرانة

واقامت القيادة العامة للروم قوة عسكرية فى الطرانة لتعرقل زحف عمرو وتعوق تقدمه الى الشمال ، فهاجمها وهزمها فلجأ الذين سلموا من رجالها الى نقيوس (قرية ابشادى اليوم) وكانت فى الجانب الشرقى من النيل وكانت حصينة ايضا وكان للروم فيها حامية كبيرة بقيادة الجنرال (دومنتيايوس) اعدت لمقاومة العرب

٢ - معركة نقيوس

ولم يتردد عمرو فى عبور النهر من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية وخاف الجنرال الرومى العاقبة حينما رأى الجيش العربى يعبر النيل فركب سفينة الى

الاسكندرية فوقع الذعر والاضطراب في جيشه واغتم العرب الفرصة فاستولوا على الحصن بدون مقاومة . وكان ذلك يوم الاحد ١٣ مايو وكان فتحها فتحاً ميبناً

٣ - معركة كوم شريك

وجاءت الاخبار الى عمرو وهو في نقيوس (ابادى) بان الروم جمعوا قوات كبيرة في كوم شريك (قرية في مديرية البحيرة بين ابو حمص وكفر الدوار وتبعد عن ابادى نحو ٣٠ كيلو مترا وتقع غربى النيل) فوجه شريكا احد قواده لمطاردتهم فدارت معركة بينه وبينهم استمرت ثلاثة ايام انجد فيها عمرو شريكا بقوات كثيرة فهزم الروم واضيف المكان اليه وسمى باسمه

الى الدلتجات

وسار عمرو من ابادى ، بعد انتهاء معركة كوم شريك ، الى الدلتجات وهى من اعمال مديرية البحيرة اليوم وتقع على الضفة الغربية ، اى انه عبر النيل ثانية امام ابادى فبلغ الدلتجات واستولى عليها من دون مقاومة وتبعد ٣٨ كيلو مترا عن ابادى

٤ - معركة سنطيس

وحاول الروم مرة اخرى ان يعترضوا الجيش العربى في زحفه الى الشمال ، وجاءوا بقوات جديدة جمعوها من هنا وهناك ووقفوا في سنطيس وهى قرية في جنوبى دمنهور معروفة الآن وقد اثبتناها على الخريطة وتبعد عن الدلتجات ١٨ كيلو مترا فقدمهم عمرو ، ففروا امامه حتى وصلوا الى حصن الكريون ، وكان من حصونهم الكبرى ، ويؤلف الخط الدفاعى الاول عن مدينة الاسكندرية من الشمال

٥ - معركة الكريون

وصمم تيدور قائد جيش الروم المنسحب ، على ان يقف للعرب في الكريون ، وينازلهم في معركة فاصلة ، وكانت الكريون مدينة كبيرة في ذلك العهد ، وكان لها شأن عظيم في التجارة ، وكانت تشرف على الترع التي كان عليها جل اعتماد الاسكندرية في طعامها وشرابها ، وتبعد عنها نحو ٣٦ كيلو مترا الى الشمال كما تبعد سنطيس عنها نحو ٣٠ كيلو مترا الى الجنوب

ودارت في الكريون ، (وقد عفا اثر هذه المدينة الآن وقامت مقامها قرية صغيرة تسمى باسمها) معارك شديدة . اتفق مؤرخو العرب والروم والقبط على انها من اعظم المعارك التي دارت في حروب الفتح ، فقد خاض الروم الميدان بجنود جديدة ، جاءوا بها من الاسكندرية ومن البلاد الساحلية لم تفقد قواها الادبية ، ولم يسبق لها ان قاتلت العرب وخبرتهم ، وعرفت شدة بأسهم ، علاوة على انها كانت تستند الى سلسلة قوية من الحصون ، وكانت على صلة تامة بمدينة الاسكندرية وقد لا يبعد ان يكون بعض حامية الاسكندرية نفسها اشترك في القتال وكان للروم فيها يومئذ ما لا يقل عن ٥٠ الف مقاتل

ولقي العرب عناء شديدا في معارك الكريون فقد استبسل فيها الروم وحشدوا لها كل ما استطاعوا حشده من قوى وجند ومعدات ، وكانوا يعرفون ان انتصار العرب فيها معناه استيلائهم على الاسكندرية والاستيلاء على هذا الثغر معناه خروج مصر من يد الامبراطورية الرومية وانهيار ملكهم في افريقية فلن تقوم لهم قائمة

ولم يغن عن الروم ثباتهم وشجاعتهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم ، ولا معداتهم ، ولم تقدمهم استماتتهم . فواصل عمرو وقاتلهم ونضالهم حتى انهك قواهم وشتت جموعهم ، فتفرقوا تاركين الكريون وحصنها بين يديه ، مع المعدات والغنائم والاسلاب . ففرح المسلمون وابتهجوا وبيهي ان معارك الكريون - ويبالغ المؤرخون في

وصفها - كانت خاتمة المعارك الكبرى التي خاضها العرب ، فقد فتحت لهم طريق الاسكندرية كما القت اليهم مقاليد مصر السفلى
ولم يضيع عمرو شيئاً من الوقت ولم يطل الاقامة هنا ، الا ريثما استراح جنده واعد معداته ، فواصل الزحف حتى اسوار الاسكندرية العظيمة ،
فيحط رحاله امامها ، وعكف على وضع الخطط التي تضمن له فتحها واخضاعها

حول اسوار الاسكندرية

المعول عليه من اقوال المؤرخين ان معركة الكريون كانت في اوائل يونيو سنة ٦٤١ وان عمرا تابع سيره بعدها حتى بلغ منطقة الاسوار ، وكانت واسعة تمتد الى مسافات واسعة في الجنوب والشرق والغرب ، وكانت حصون الاسكندرية تعد من اعظم الحصون العسكرية وانغمها في ذلك العصر ، وكان ذلك شأن المدينة نفسها ، فكانت من اعظم المدن ، وانغمها واكبرها ، وكانت تأتي بعد رومة في العظمة والفضامة ، اى انهم كانوا يفضاونها على القسطنطينية من جهة العمران واتساع الرقعة وغفامة المباني

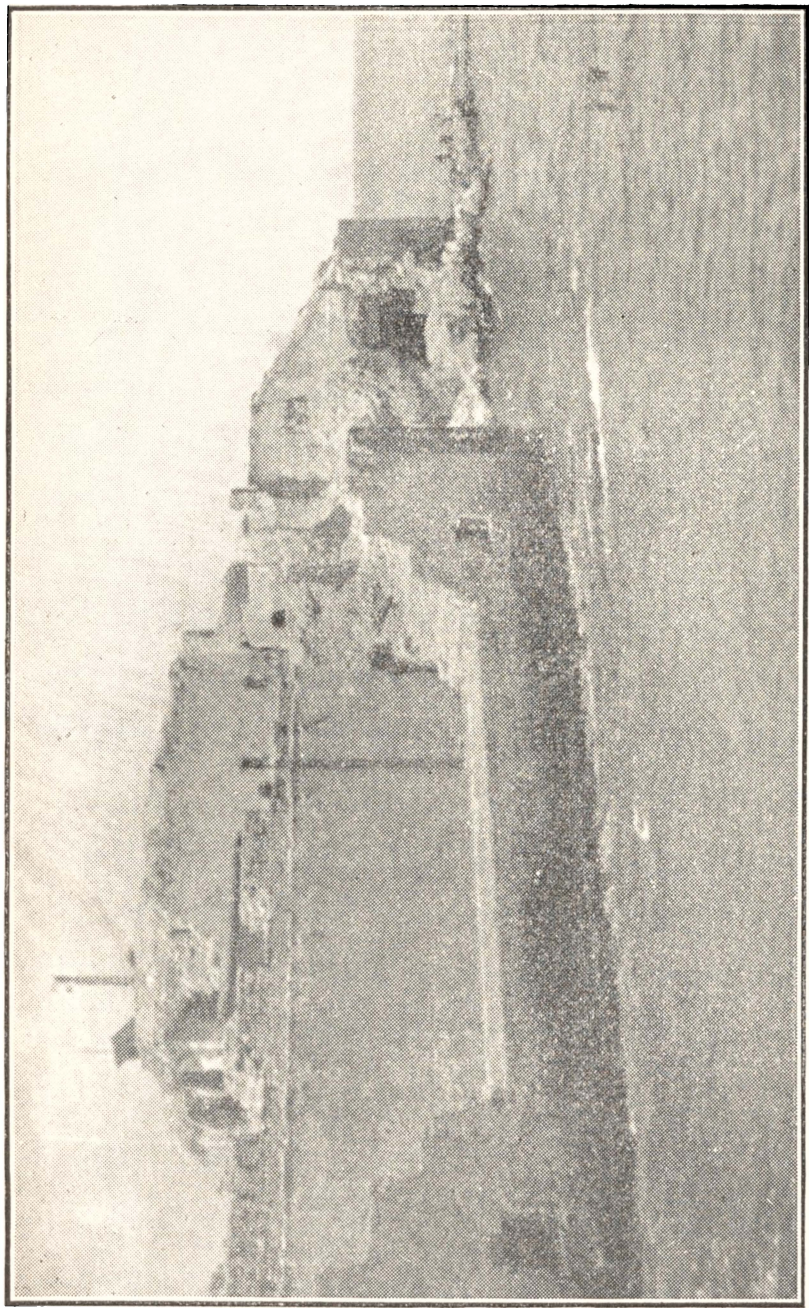
وكانت قوات الروم في الاسكندرية لاتقل عن ٥٠ الف مقاتل لديها السلاح الوافر ، والمعدات الزائدة ، والميرة الكثيرة ، يحميها البحر من الورا ، والاسوار من الامام والجناحين ولذلك كانت مهمة غزوها اشق من مهمة غزو حصن بابلون ، والحصون الاخرى ، ويشبه موقف عمرو الجديد امام الاسكندرية من وجوه كثيرة موقف معاوية امام قيسارية ، وقد اشترك عمرو نفسه في حصارها ، فاستعصت على المسلمين سبع سنوات ولم يفتحوها الا بعد عناء شديد ، لانها كانت متصل - كالاسكندرية بالقسطنطينية بحرا فتأتيها النجدات بدون انقطاع

ولا بد لنا من الاعتراف بانه لم يكن هنالك حصار برى على الاسكندرية بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، وانما كانت هنالك « مضايقة » ، ولا يخفى ان امتداد زمن الحصار او المضايقة ، يزعج السكان ويقلقهم ويشل الحركة الاقتصادية ويعطل التجارة ، وكان الاسكندريون يعولون في معاشهم عليها ، فمدينتهم هي المركز

التجارى الكبير وثمر القطر المصرى العظيم . فضلا عن ان سكان المدينة نفسها ما كانوا يقولون عن ٣٠٠ الف فى تلك الايام ، يستوردون معظم حاجياتهم من الداخلية ؛ فانقطاع المواصلات بينهم وبينها ، يرهقهم ويضطرهم الى الخضوع والاستسلام لان الاسوار وحدها لا تنقذهم ، ما دامت القوى المرابطة وراءها لا تكفى لطرد العدو المرابط امامها واخراجه من البلاد

وما يقال فى الحصون ومهمتها يقال ايضا فى المواصلات البحرية ، فما كان فى استطاعة الاسطول الرومى ، ان يضرب العرب من البحر ولا ان يعرقل حركاتهم العسكرية ، وكانت مهمته فى ذلك العصر ، تنتهى عند حد ضمان النقلات العسكرية وحمل النجديات وما كان لدى الامبراطورية يومئذ قوات كبيرة زائدة تستطيع ارسالها الى مصر ، وكان الماسمون يحاربونها فى كيليكية وفى جبال طوروس

وخلاصة القول ان الاسكندرية وان لم تكن محصورة ماديا فقد كانت محصورة ادبيا ، فالعرب حولها يحرقون بها من جهاتها الثلاث ، والمواصلات مقطوعة بينها وبين مدن القطر الاخرى وبنادره ، والدولة عاجزة عن ارسال نجديات كبيرة اليها لانقاذها ورد عادية المغيرين عنها



بقايا حصون الاسكندرية (قلعة قايتباي)

المعركة الاولى

بلغ عمرو وحصون الاسكندرية في اواخر شهر يونيو بعد ما هزم الروم على طول الطريق من حصن بابلينون حتى شمالي الكريون واحتل مرا كزهم وحصونهم فلجأوا وحدانا وزرافات الى حصون الاسكندرية . ويقول حنا النقيوسى فى تاريخه ان مدينة الاسكندرية ازدحمت فى تلك الايام بوفود المهاجرين الذين تدفقوا من جميع انحاء القطر

وضرب عمرو مخيمه فى مكان لا تبلغه قذائف منجنىقات الروم ولا تصل اليه نبالهم ثم قام بحركة هجوم بسيطة على الحصون ليعجم عودها ويعرف موضع الضعف والقوة منها ، فأصلاه الروم نارا حامية ، وصبوا عليه الاحجار من افواه منجنىقاتهم فارتد الى الوراء وابى المجازفة

وانصرف عمرو فى الايام الاولى الى تنظيم قواه وترتيب جنوده استعدادا للاحصار لانه ما كان يجهل عظمة هذه الحصون ووفرة القوى التى اعدت خلفها ويقول بعض المؤرخين انه تلقى وهو على اسوار الاسكندرية نبذات جديدة ارسلها اليه عمرو بن الخطاب فازعج ووصلها الروم وزاد فى مخاوفهم

قيصر في الاسكندرية

اعتزل الامبراطور هركليوس العمل ، على اثر رجوعه من الشام في سنة ٦٣٦ لخلل اصاب به في قواه العقلية فأقام في خليدونية (احدى جزر اليونان القريبة من الدردنيل) مستشفى ، فاسترد جانباً من صحته وقواه ، فقصده الى عاصمة ملكه ، يزاول عمله ، ويسوس دولته ويسعى لانقاذ مصر من ايدي الغزاة العرب

وكان من جملة التدابير التي نفذها في هذه المرحلة استدعاؤه قيصر ، خليفته في مصر وتعيينه ماريوس مكانه وقد كان يرجو تحسين الحالة بعد وصول هذا الى مقر عمله وتسامه زمام الامر ، وجرت الرياح بما لم يشتهه الامبراطور ، ومات في سنة ٦٤١ اي بعد انقضاء ٣١ سنة على صعوده العرش ، والعرب يحاصرون حصن بابلين ، فزاد موته في اضطراب الروم وفي تلبلهم ، كما شجع العرب ، وزادهم اقداماً فاكثسحوا الحصون التي كانت واقفة امامهم واخضعوا معظم انحاء القطر ، واقبلوا حتى نزلوا على ابواب الاسكندرية يحاصرونها من البر ، ويرجون ان تفتح لهم وان تلقى مقاليدها اليهم وقام بالامر بعده ولداه قسطنطين وهو الاكبر وهركلوناس وهو الاصغر وجعلت الامباطورة مرتنيه والدة الثاني شريكة لهما وترسم اقطاب الدولة الجديدة ، خطوات الامبراطور في العمل لانقاذ مصر

وبدأ قسطنطين فدعا اليه تيدور قائد الروم العام في الاسكندرية فجاء على عجل ، كما ارسل فاستقدم قيصر من منفاه ، وقد نفي بأمر الامبراطور نفسه كما تقدم ليستشيرهما فيما يجب عمله لانقاذ وادي النيل

وكان من رأى تيدور عدم ترك مصر للعرب والدفاع عنها ، وارسال القوى
والنجدات اليها ؛ فان للروم هنالك مراكز منيعة قادرة على صد العرب متى
تلقت نجدات كبيرة ، فلا تخرج من حضن الامبراطورية

واستمال تيدور الامبراطور بحسن بيانه ، فوعده بارسال حملة في فصل الصيف
ولم يلبث الموت ان عاجله فتوفى في شهر مايو من تلك السنة ، لاحقا بأبيه ، فقبضت
على زمام الامر الامبراطورة مرتنيه بالنيابة عن ابنها الصغير

واعاد الامبراطور الجديد (هركلوناس) قيرس الى منصبه القديم ، بعدما زوده
بسلطان واسع ، وابع له ان يصاخ العرب ، وينهى القتال ، ويعمل على توطيد
سلطان الروم في مصر ، فغادر العاصمة الى الاسكندرية بحرا ، وارسل الامبراطور
حملة جديدة الى مصر ، لمواصلة الحرب اذا لم يتم الصلح ولم يقبل العرب الاقتراحات التي
تعرض عليهم

ونزل قيرس الاسكندرية في شهر سبتمبر سنة ٦٤١ ، وعاد اليها في الوقت نفسه
ايضا ، الجنرال تيدور قائد الروم في القطر ، فاستقبل الاول بالحفاوة الزائدة ، ورحب
به الروم وعدوه منقذا ومحررا

الصلح بين العرب والروم

اسرع قيرس بعد نزوله الاسكندرية فركب النيل سرا في اواخر شهر اكتوبر الى الفسطاط ليجتمع بعمر و بن العاص ، وكان ينزله في تلك الايام ، تاركا جنده وقواده حول الاسكندرية لمضايقتها ، وصد الحامية اذا حاولت الخروج ، فرحب به واكرم وفادته ، واحسن استقباله

ودارت مفاوضات بين القائدين لعقد صلح ، ينهى حالة الحرب ، ويعيد السلام والاستقرار الى القطر وينقذ الاسكندرية من ضيقها ، استمرت اياما وانتهت يوم ٨ نوفمبر سنة ٦٤١ بالاتفاق على الشروط الآتية كما يرونها حنا النقيوسى في كتابه :

١ - تعقد هدنة بين الفريقين لمدة احد عشر شهرا
٢ - يبقى العرب في اماكنهم مدة الهدنة ، معتزلين وحدهم ولا يسعوا اى سعى لافتتاح الاسكندرية

٣ - يكف الروم عن القتال
٤ - ترحل حامية الاسكندرية الى بلادها بحرا ، ويحمل جندها متاعهم على ان يدفع من يريد الرحيل برا ، جزءا معلوما في كل شهر مادام في ارض

مصر

٥ - لا يعود جيش الروم الى مصر ولا يسعى لردھا
٦ - يكف المسلمون عن اخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في امورھا

الدينية

٧- تدفع الجزية عن كل من دخل في العقد

٨- تباح لليهود الاقامة في الاسكندرية

٩- يسلم الروم رهائن للعرب ١٥٠ ضابطا و ٥٠ من السكان لضمان

تنفيذ العقد

هذا ما يقول حنا النقيوسى ان الاتفاق تم عليه بين عمرو وقيرس . اما

المؤرخون العرب فيذكرون ان الصلح تم بعد فتح حصن بابلون ويقولون ان عمرا كتب الى اهل مصر العهد الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ، وملتهم ،

واموالهم ، وكنائسهم ، وصلبهم ، وبرهم ، وبحرهم لايدخل عليه شئ من ذلك ولا ينتقض ، ولا تساكنتهم النوبة

وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية ، اذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت

زيادة نهرهم خمسين الف الف ، وعليهم ماجنى لصوتهم (لصوصهم) فان ابى احد منهم

ان يجب رفع عنهم من الجزية بقدرهم ، وذمتنا بمن ابى بريئة ، وان نقص نهرهم

عن غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله

مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن ابى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ

مأمنه او يخرج من سلطاننا

عليهم ما عليهم اثلاثا ، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب ،

عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين

وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأسا ، وكذا وكذا فرسا ،

على الا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة »

شهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر

نعم : هذا ما اتفق المؤرخون العرب على ايراده وتسميته بالشروط التى

فتحت بها مصر ، وهو يتفق في جوهره مع الشروط التي يوردها مؤرخو الدولة الرومية وحنا النقيوسى وقد عاصر تلك الحوادث ودون اخبارها وتختلف عنه من نواح اخرى فلم يرد في النص الاسلامى اى ذكر لليهود ، ولا ذكر للهدنة ايضا ، ولم يرد فيه اى بحث عن حامية الروم فى الاسكندرية وجلائها ، ولعل ذلك مما اتفق عليه شفاها بين عمرو وقيرس حين اجتماعهما بالفسطاط ، والواقع ان المؤرخين العرب القدماء لم يعنوا بتدوين اخبار فتح مصر العناية الكافية وما اوردوه عنها فى ثنايا كتبهم لا يروى غليلا ، ولا يشفى عليلا

ابلاغ الاتفاق الى المدينة والقطنية

حمل قيرس ، الشروط التي تم الاتفاق عليها في الفسطاط الى الاسكندرية وعاد اليها سرا ، كما برحها سرا ، وارسلها الى الامبراطور مع كتاب وصف فيه الحالة واقترح اقرار العقد الذي عقده لانه ليس في الامكان الحصول على افضل منه ، لمن كان في حالتهم فجاءه الجواب بالموافقة

واتدب عمرو معاوية بن خديج الكندي احد رجاله ، للسفر الى المدينة وابلاغ الخليفة ما حصل ، فطلب اليه ان يكتب اليه كتابا ، فقال له :

– الست امرأ عربيا تقدر على وصف امر شهنه

– نعم

– اذن فسر

واناخ معاوية ناقته عند باب المسجد حينما وصل الى المدينة ، ودخل وكان الوقت ظهرا ، فخرجت جارية من بيت عمر ، فاستوقف نظرها ، فسألته عن اسمه فقال انه رسول عمرو بن العاص ، فرجعت الى المنزل وابلغت عمر ماسمعت ثم عادت مسرعة وامرته ان يتبعها فتبعها حتى دخل على الخليفة فلما رآه قال له ما وراؤك ؟

– خير يا امير المؤمنين ، لقد فتح الله علينا الاسكندرية

– ولماذا لم تبادر الى ابلاغى ذلك عند وصولك

– لقد وصلت وقت القيلولة وظننت انك نائم فلم اشأ ان ازعجك

– بئس ما قلت ، و بئس ما ظننت ، لئن نمت في النهار لاضيعن الرعية ، ولئن

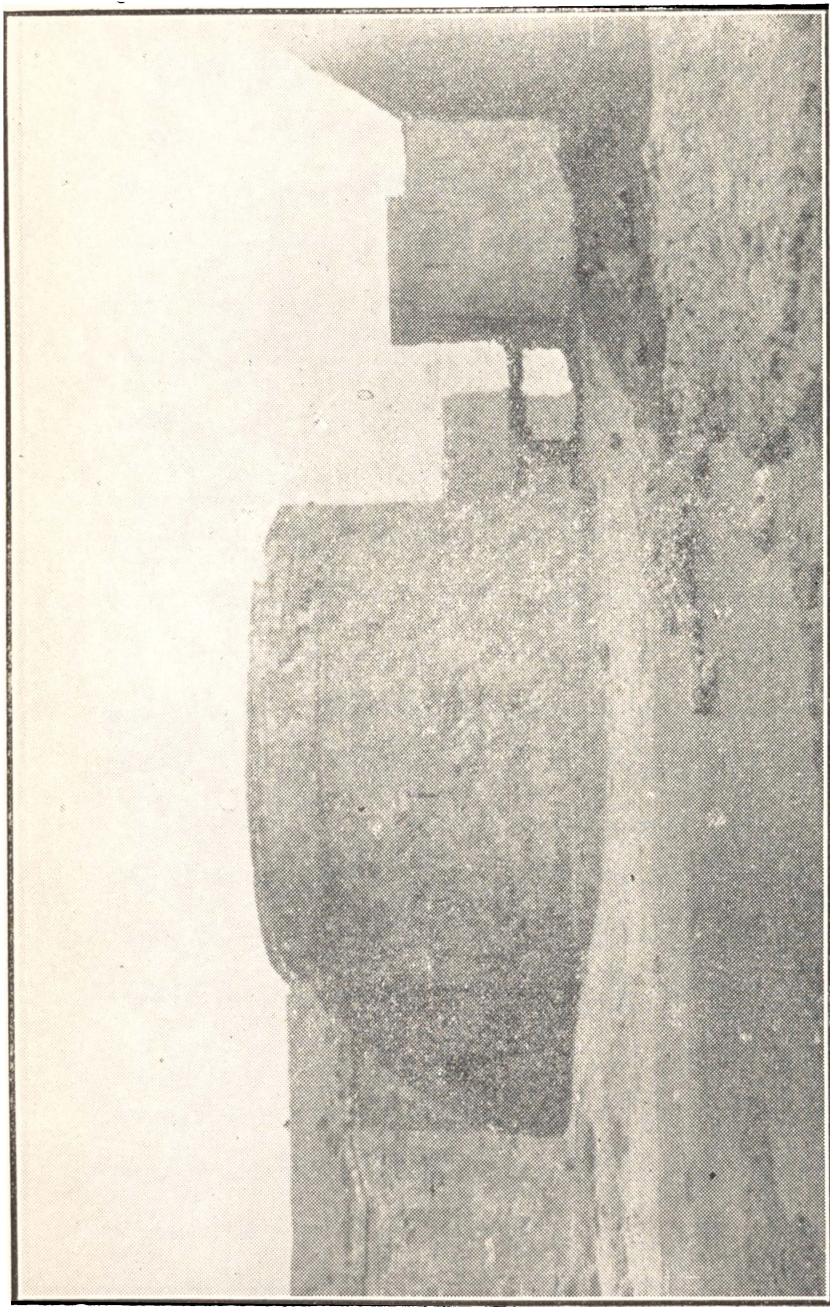
نمت في الليل لاضيعن نفسى ، فكيف بالنوم مع هذين

عمر يبشر بالفتح

واسرع عمر الى المسجد وامر بالأذان فاقبل المسلمون فصعد المنبر وبعد ما حمد الله واثني عليه بشرهم بفتح الاسكندرية ودخولها في عهد المسلمين

عمر ويصف مصر

ويقول المؤرخون ان عمر كتب الى عمر ويسأله ان يصف له مصر فقال :
 « اعلم يا امير المؤمنين ان مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل اغبر ، ورمل اعفر . يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له اوان يدر حلابه ، ويكثر فيه دبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى اذا ما اصلختم عجاجه ، وتعظمت امواجه ، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كانهن في الخايل ، ورق الاوائل .
 فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كالول ما بدا في جريته ، وطها في درته ، فعند ذلك تخرج اهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون الارض ويبندرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ماسعوا من كدهم ، فنالهم بغير جدهم فاذا احدق الزرع واثمرق ، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى ، فيبدا مصر يا امير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، اذا هي عنبرة سوداء ، فاذا هي زمردة خضراء فاذا هي ديباجة رقصاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، الا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، والا يستأدى خراج ثمرة الا في اوانها . وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل »



بقايا حصون الاسكندرية (حصن نابليون بأبي قير)

كيف اذيع الخبر في الاسكندرية

كان تيدور قائد جيش الروم العام ، في مقدمة الذين عنى قيرس بابلاغهم خبر العقد الذي عقده في القسطنطينية ، مع ان اللياقة - اذا لم نقل الواجب - كانت تقضى عليه بان يطلعهم مقدما على ما نواه وقرره بصفته القائد الاعلى ولان المسألة من اختصاص رجال الجيش في جملتها ، والظاهر ان قيرس ما كان يقيم لهؤلاء وزنا منذ ما تحقق عجزهم ، وادرك انهم لا يستطيعون ان يدفعوا عن البلد ضيا ، فعكف على معالجة الازمة بالطرق الديبلوماسية لانها افضل واجدى لمن كان في مثل حالتهم من الضعف والعجز وفقد الحيلة

واعتزم قيرس تنفيذ الاتفاق الذي عقده مع عمرو ، بلباقة وكياسة اى انه لم يشأ ان يفاجئ الجمهور ، فيثور ويضطرب ، وقد انتهى ثورته واضطرابه برفض العقد فيحقيق به الفشل والاحقاق ، ولم ينس ما اصاب به في المرة الاولى حينما عقد صلح بابليون . فاحتاط للامر الاحتياط اللازم ، واخذ يتدرج في اتمام عمله وكان يعتقد ان فيه ضمانا لمصلحة مصر ، ولمصلحة الروم انفسهم ، فستان بين ان تخرج حاميتهم بأسلحتها وعددها ومعداتها ، وبين ان تقتل وتمزق ، وتفقد كل شيء ، كما انه شان بين حالة جالية الروم ، وما كان عددها في القطر المصرى يقل حين الفتح الاسلامى عن ٣٠٠ الف اذا فتح المسلمون البلاد بالقوة ، وبين حالها في التسليم صلحا ، فتصان لها كنائسها واديارها ، ويمتنع الاذى عنها ، وتستطيع البقاء اذا ارادت

والخلاصة اننا من الذين يرون ان قيرس لم يفعل سوى ما اعتقد ان مصلحة قومه تقتضى فعله ، بعد ان عرف ما عرف من اضطراب شؤون الدولة ، وبعد ان خبر ما خبره من عجزها وضعفها ، ونضوب مواردها ، وفراغ خزائنها ، وبعد ان شاهد ماشاهده من فعال العرب واقدامهم وجراتهم ، وتحقق انه لا بد لهم من الاستيلاء على

الاسكندرية في آخر الامر كما استولوا على قيسارية والحصون الاخرى - فضل الصلح والسلام من باب اختيار اهون الشرين رجاء ان يخفف وقع الكارثة على قومه بقدر جهده واستطاعته

الروم يقرونه الصلح

وما كاد قيرس ينتهى من « تمهيداته » السرية ويستوثق من تأييد رجال الدولة في الاسكندرية له وفي مقدمتهم كبار القواد العسكريين حتى دعا الى اجتماع عام تصدره وحضره بعض كبار القوم واعيانهم وكثير من اولى الرأى والوجاهة ، فلما تكامل الجمع ، خطبهم خطبة طويلة ، وصف فيها حالة الدولة الرومية وما تطرق اليها من ضعف ووهن ثم تكلم عن غزو العرب لمصر واستطرد فاشار الى الصلح الذى عقده مع قائدهم واسهب فى وصف البواعث التى بعثته على عقده ونوه بما فيه من مزايا ، ودعا الى اقراره وتنفيذه لانه افضل ما يستطيع الحصول عليه لمن كان فى حال كحالمهم ، فاقر الحاضرون عمله ووافقوا عليه ، وكتبوا بذلك الى الامبراطور فاقره وأمر بتنفيذه

كيف سلمت الإسكندرية

لم يبق مانع يمنع تنفيذ عقد الصلح ، بعد ما وقع الحاكم العام وارتضاه الامبراطور واقره ، ووافق عليه اقطاب الحكومة الرومية في مصر مع ممثلى السلطة العسكرية الذين عكفوا منذ ما اتصل بهم خبره على اعداد جندهم لقبوله ، فلا يؤخذ على غرة ، ولا يشور عليه ، ويطلب نقضه

ولما انتهى كل شئ ، وذلت العقبات وازف الموعد المضروب للتنفيذ اتصل ولاية الروم في داخل المدينة ، بولاية الامور العرب المرابطين حولها ، واتفقوا سرا على ان تقترب كتيبة عربية من الاسوار فيفتح لها فتدخلها ، وتتسلم المدينة والجزء الاول من مال الحماية (ضريبة الجزية وقد نص في العقد على ان تدفع على ثلاثة اقساط)

ودنت الكتيبة العربية من الاسوار في الوقت المعين وشاع ذلك في المدينة ، وما كان العامة يعرفون ماهالك ، وما اهتم ولاية الامور باطلاعهم على تفاصيل الاتفاق ، فاسرع الناس الى الابراج ليروا ماذا يكون بين العرب وبين الحماية ، وما كان اشد دهشتهم حينما رأوا اولئك ، يدنون من الابواب فتفتح لهم فيدخلونها في امن وسلام

وهاج الناس وماجوا ، حينما عرفوا بان الامر انتهى ، وبان صلحا عقد ، وبان العرب جاءوا لتسلم اول قسط من اقساط الجزية ، ونادى منادهم هيا بنا الى قصر الحاكم العام فنستوضحه الامر ونعرف ماجرى

وازدحم الناس حول القصر واقبلوا من كل حذب وصوب ، وقد علا ضجيجهم

ونار نأثرهم . فخرج اليهم قيرس ، و اشار اليهم بالسكون فسكنوا ثم خطبهم خطبة بليغة ، سكنت روعهم ، وخففت من نأثرتهم ، فبسط لهم الموقف ، وقال « انه انما اراد من العقد الذى عقده مصلحة قومه ، ودفع الاذى عنهم ، فالعرب قوم اقوياء ، لا يصددهم صاد ، ولا يعوقهم عائق ، ولا تنفع معهم المقاومة

» لقد اراد الله ان يملكوا مصر ، ولاراد لقضائه ، ولذلك كان على الروم ان يصلحوهم فان لم يفعلوا تغلبوا عليهم وجرت الدماء انهارا ونهبت الاموال وزهقت الارواح ، وخسر الذين يبقون فى قيد الحياة ما يملكونه من ثروة وعاشوا اذلاء مشتتين مشردين

» لقد ضمن الصلح للناس فى الاسكندرية حياتهم وامانهم على اموالهم ، وحفظ لهم دينهم ، فمن اراد ان يعيش فى ارض مسيحية كان له ذلك ورحل ومن اراد البقاء بقى » ثم بكى وابكى الجمهور واشهد الله على انه لم يفعل ما فعله الا خدمة لامته وحرصا على مصلحتها

واثرت اقواله ، كما اثرت دموعه فى النفوس ، فارتاح الجمهور اليها وتفرق الناس ، وسكنت الضجة وعاد كل الى عمله ، وعكف ولاة الامور من الفريقين على معالجة الشؤون التى يجب ان يعالجوها بالاشترك

ولما تم جمع المال المطلوب ، وضع فى سفينة غادرت الاسكندرية من الباب الجنوبى الى المعسكر العربى وكان قيرس بين ركابها فسلم المال المطلوب ويقال ان الروم زادوا عليه مقدارا كبيرا من الذهب . وكان ذلك يوم اول المحرم سنة ٢١ للهجرة و ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ وهو يوم استيلاء العرب رسميا على الاسكندرية ، اما تسليمها نهائيا فتم يوم ٢٩ سبتمبر اى يوم انتهاء الهدنة ، ففتحت لهم ابوابها ودخلها عمرو ابن العاص على رأس جيشه وقبض على زمامها

غابر الفسطاط وماضيه

كان على عمرو بعد ما احتل الاسكندرية واصبح سيد وادى النيل وصاحب السلطان فيه ان يتخذ له عاصمة ينزلها جنده على مثال الطريقة التي اتبعت في البصرة وفي الكوفة

ومال عمرو الى اتخاذ الاسكندرية عاصمة للدولة الجديدة والى النزول في منازل الروم والجلوس في مجالسهم فكتب الى الخليفة يستأذنه في ذلك وارسل الكتاب الى المدينة مع رسول خاص

وسأل الخليفة الرسول قائلا : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟

- نعم : اذا جرى النيل

فكتب الى عمرو يقول : «انى لا احب ان تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى اردت ان اركب اليكم راحتي حتى اقدم عليكم قدمت »

واستقر قرار عمرو على اختيار السهل الذى نزل فيه حينما حاصر حصن بابليون مقرا لمعسكره فعهد الى معاوية بن حديج الكونى وشريك بن سمى النطيفى وعمرو بن قحزم الغطفانى وحيويل بن ناشرة المعافرى بتخطيط المعسكر الجديد او المدينة وذلك في سنة ٢١ ثم شرع في بناء المسجد الجامع (جامع عمرو المعروف في مصر القديمة) واطلقوا على المدينة الجديدة اسم الفسطاط ، والكلمة يونانية الاصل . قالوا وسبب تسميتها بذلك ان عمرا لما تحول من مقره حول حصن بابليون الى الاسكندرية

امر بنزغ فسطاطه (خيمته) فاذا فيها يمامة قد فرخت فأمر عمرو بعدم ازعاجها وتركها في مكانها وقال « لقد تحرم منا بمتحرم »

ولما عاد العرب من الاسكندرية قالوا اين نزل ف قيل لهم في فسطاط عمرو و فنزلوا فيه و غلب عليه اسم الفسطاط

و وصف المقرئى الفسطاط فقال « ان موضع الفسطاط الذى يقال له مدينة مصر اليوم كان فضاء و مزارع في ما بين النيل و الجبل الشرقى (جبل المقطم) ليس فيه من البناء سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع بالقلعة ينزل به شرطة المتولى في مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية و يقيم فيه ما يشاء ثم يعود الى دار الامارة »

الفسطاط اليوم

هذا وصف ما كان عليه الفسطاط في العهد القديم اما الفسطاط اليوم فهو سهل واسع في منطقة مصر القديمة يمتد حتى قرب سفح جبل المقطم شرقا و جهة فم الخليج شمالا و قناطر السباع و جبل يشكر غربا حتى النيل و ساحل اثر النبي جنوبا و منطقة الفسطاط مهملة خربة و تكثر فيها الفواخير انشئت جنوبى جامع عمرو و المقابر فى شماله و فيها حفر و اخاديد . و كل ما فيها يشهد باهمالها و انصراف الناس عنها

جامع عمرو ابن العاص واليوم

انشأ عمرو هذا الجامع في سنة ٢١ اى حين انشاء الفسطاط وكان في مكانه خان لقيسة بن كاثوم التجيبي ابو عبد الله فاقترح عليه عمرو ان يبيعه اياه فيجعله مسجدا فقال انى اتصدق به

وكان طول الجامع حين انشائه ٥٠ ذراعا فى عرض ٣٠ ويقولون انه وقف على اقامة قبلته ٨٠ صحابيا منهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وابو ذر الغفارى وابو بصرة الغفارى وغيرهم

وكان للمسجد (حين انشائه) بابان يقابلان دار عمرو و بابان فى بحريه و بابان فى غريبه ، وكان الخارج من زقاق القناديل يحد ركن الجامع الشرقى محاذيا لركن دار عمرو الغربى وكان طوله من القبلة الى البحرى مثل طول دار عمرو وسقفه منخفضا جدا ولا فناء له وكان الناس يصطفون بفنائه ، وكان بينه وبين دار عمرو سبعة اذرع وكان الطريق محاطا به من جميع جوانبه

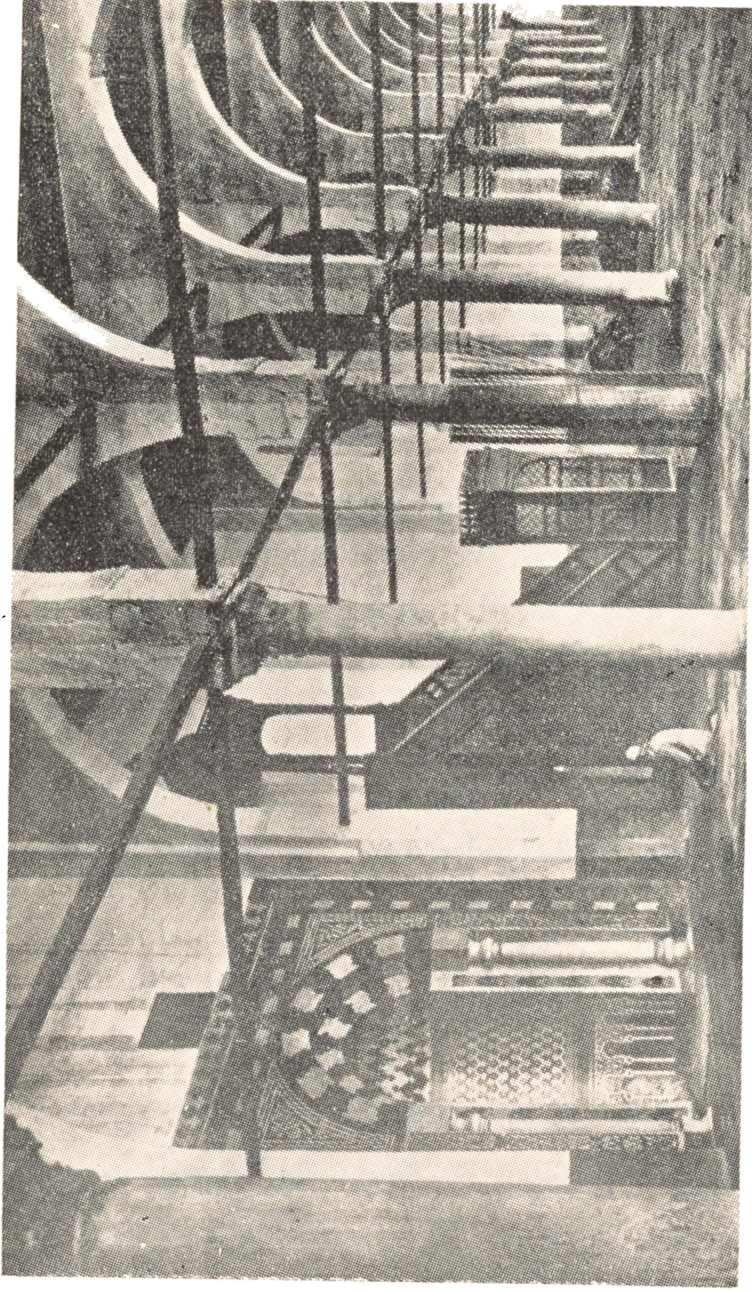
واتخذ عمرو به منبرا فبلغ ذلك امير المؤمنين عمر فكتب اليه يأمره بأن يكسره فكسره

واول من زاد فى الجامع مسامعة بن مخلد الانصارى امير مصر فى عهد معاوية (سنة ٥٣) فزاد فيه من بحريه وجعله رحبة فى البحرى وبيضه وزخرفه ولم يغير البناء القديم ولا احدث فى قبله ولا غريبه شيئا . وقيل انه زاد فى شرقيه حتى ضاق الطريق بينه وبين دار عمرو بن العاص وفرشه بالحصر وكان مفروشا قبل ذلك بالحصاء

ثم ان عبد العزيز بن مروان هدمه سنة تسع وسبعين وزاد فيه من ناحية الغرب وادخل فيه الرحبة التي كانت في بحريه ولم يجد في شرقيه موضعا يوسعه به
وامر عبد العزيز هذا برفع سقفه وضع له منبرا
وهدمه قرة بن شريك العبسى بن قيس عيلان في سنة ٩٢ بأمر الوليد بن عبد الملك وجدده ونصب فيه منبرا جديدا بدلا من منبر عبد العزيز بن مروان
وجدد بناءه عبد الله بن طاهر بعد ذلك في ايام الدولة العباسية فظل قائما حتى
جاء مراد بك الكبير بحدده في سنة ١٢١٢ هـ واصلح سقفه وبنى فيه منارتين وميضأة
جميلة ثم خرب على عهد الحملة الفرنسية ثم اصلح في عهد الخديوى اسماعيل

الجامع البيروم

هذا موجز تاريخ هذا المسجد الاسلامى وقد زاره كاتب هذه السطور ويتألف من جزأين : داخلى للصلاة ، ولا تقام فيه سوى صلاة واحدة فى الاسبوع هى صلاة الجمعة . اما فى ايام الاسبوع الاخرى فهو شبه معطل ومغلق
وخارجى ويؤلف الفناء (الصحن) وهو اكبر واوسع من ذلك . ولا فاصل بينهما الا ان الجزء الداخلى مسقوف والصحن غير مسقوف وتبلغ مساحة الجامع نحو ٩٠ مترا طولاً فى مثلها عرضاً
ويقوم السقف على اعمدة وهى مصفوفة على شكل هندسى مستطيل فكل ١٥ منها فى صف واحد ويبلغ عدد اعمدة الصف الواحد طولاً ٢١ عموداً و ٦ من الداخلى عرضاً وقد نشرنا رسمه الشمسى
وفى وسط حائط المسجد الداخلى المحراب والى جانبه المنبر ، وفى الزاوية القبلىة الشمالية من الجزء الداخلى ضريح يقولون انه ضريح عبد الله بن عمرو بن العاص وقد ولى مصر بعد وفاة ابيه وتجدد كسوته كل سنة . وهنالك محراب صغير فى الجانب الشمالى عند اول الجزء المسقوف يقولون ان السيدة نفيسة كانت تتعبد فيه
وللجامع ثلاثة ابواب متجهة الى الشمال وامامه ميدان فسيح يسمونه ميدان



القسم الداخلي المد للصلاة من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ويظهر المنبر في وسطه

جامع عمرو ويتصل هذا الميدان بشارع يسمونه شارع جامع عمرو ويمتد من الجامع حتى يتصل بالطريق السلطاني بين القاهرة ومصر القديمة وللجامع منارتان الاولى فوق ركن الباب الغربي . والثانية في مقابلها بانحراف الى جهة الشرق ويغلب على الظن انهما المنارتان اللتان بناهما مراد بنك الكبير . والجامع مهمل اهمالا شائنا يبعث على الاسى والاسف فالقواخير في غربيه تفسد جوه . ولولا ان العادة جرت بان يؤدى فيه الجالس على عرش مصر صلاة آخر جمعة من شهر رمضان في كل سنة لباد واندر . وهو الأثر الوحيد الباقي في القطر المصرى تذكارا لغزو العرب وفتحهم هذا الوادى المبارك

خطبة لعمرو في الفسطاط

ونختم هذا الفصل باثبات خطبة منبرية خطبها عمرو في الفسطاط على اثر انشاء مسجده التاريخى وتناقلها الرواة لما فيها من المعانى السامية ولانها تدل على عظيم اهتمام عمرو بامر القبط قال
يا معشر الناس :

اياكم وخلال اربعة فاتها تدعو الى النصب بعد الراحة ، الى الضيق بعد السعة ،
الى الذلة بعد العزة

اياكم وكثرة العيال ، واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقييل والقال ، فى غير
درك ولا نوال

ثم انه لابد من فراغ يؤول اليه الرد فى توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته
بين نفسه وبين شهواتها ، ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ، ولا
يضيع المرء فى فراغه نصيب العلم من نفسه ، فيحور من الخير عاطلا ، وعن حلال الله
وحرامه غافلا

يامعشر الناس :

انه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعري ، واقلعت السماء ، وارتفع الوباء وقبل
الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى بحسن
رعيته حسن النظر (١)

فحى لكم على بركة الله الى ريفكم تناولوا من خيره ولبنه ، وخرافه وصيده ،
واربعوا خيلكم واسمنوها ، وصونوها ، واكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم وبها
مغانمكم وانفالكم

استوصوا بمن جاورتهم من القبط خيرا ، واياكم والمشمومات والمعسولات فانهم
يفسدن الدين ويقصرن المهمم

حدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان
الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة »
فكفوا ايديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا ابصاركم ، ولا اعلمن ما اتى رجل قد اسمن
جسمه ، واهزل فرسه

واعلموا انى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن اهزل فرسه من غير علة
حطت من فريضته قدر ذلك

واعلموا انكم فى رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم ، وتشوق قلوبهم
اليكم ، والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع ، والبركة النامية

حدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا
فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كشيئا فذلك الجند خير اجناد الارض فقال
له ابو بكر ولم يارسول الله قال لانهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة »

فاحمدوا الله معشر الناس على ما اولاكم ، فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ،
 فاذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ،
 وانقطع الورد من الشجر فحى الى فسطاطكم على بركة الله ، ولا يقدمن احد منكم
 ذو عيال على عياله الا ومعه تحفة لعياله على ما اطاق من سعته او عسرتة . اقول قولى
 هذا واستحفظ الله عليكم »

فتح اجزاء القطر الباقية

كانت المدة ، بين ابتداء حصار الاسكندرية وبين اعلان الهدنة اربعة اشهر (يونيو - سبتمبر) لم يشأ الجيش العربى ان يقضيها بدون عمل ، فقد اثبت المؤرخون ان عمرا قسم رجاله الى قسمين : ابقى جانبا منهم حول الاسوار لمحاصرتها ، وقطع الاتصال بينها وبين الداخلية ، وسار بنفسه على رأس القسم الآخر ، فجاب اقليم الغربية ، الواقع شرق النيل ولم يك المسلمون قد طرقوه ، وقام بمظاهرة عسكرية فى تلك المنطقة الواسعة فقد مشى من الاسكندرية حتى الكريون ومنها الى دمنهور ، ثم اتجه الى الشرق ، حتى بلغ مدينة سخا وهى شمالى مدينة طنطا وكانت قاعدة مديرية الغربية ، قبل المحلة الكبرى ، وقد خلفت طنطا المحلة الكبرى من نحو سبعين سنة وكانت من مراكز الروم العسكرية الحصينة ، ثم واصل سيره نحو الجنوب الى طوخ القليوبية ومنها الى ميت دمسيس . ولا تزال سخا وطوخ وميت دمسيس على حالها ثم اتجه الى الفسطاط ففضى فيه اسابيع ، ثم سار منه الى الصعيد ، على رأس قوة صغيرة لاتمام فتحه ، وانجاز امره ، وظل يتقدم بلا غناء ولا مقاومة حتى بلغ انطنوية المعروفة الآن باسم (انضا) وكانت اذ ذلك عاصمة اقليم طيبة . وكان للروم بقية جند هنالك ، فانسحبت بطريق الصحراء الى الاسكندرية ، عند ما علمت بقرب وصول العرب ، ولم تجسر على الوقوف فى وجوههم او مقاومتهم وكان ذلك فى شهر اكتوبر سنة ٦٤١ وهكذا فتح الصعيد وخضع للغزاة من دون ان يشهروا فى افتتاحه سيفا او يريقوا قطرة دم

ومما يجب التنويه به هنا ما رواه مؤرخو الدولة الرومية انفسهم ، وهو ان السكان في اقليم الفيوم ، هاجموا البقية الباقية من جند الدولة الرومية وذبحوه ، حينما وصل العرب الى بلادهم ، انتقاما منهم ، لما الحقوه بهم من المظالم وانزلوا بهم من الاضطهادات والمغارم

وما كاد عمرو يعود من رحلته الى الصعيد وقد ضمنت له خضوع الاقاليم العليا والوسطى ، حتى وافاه قيرس الى الفسطاط فعد معه الصلح ووضع قواعد الهدنة على النوال الذي بسطناه آنفا . فارتاح باله من هذه الجهة فعكف على وضع الخطط التي تضمن له فتح الساحل والمناطق الاخرى في شمال الدلتا ، وما كانت مما يخشى منه بعد ان فتحت الحصون والمراكز الكبرى فسار على رأس قوة من رجاله في ربيع سنة ٦٤٢ الى مدينة إخنا (بادت الآن ولا يعرف مقرها بالضبط) وكانت قاعدة اقليم اسمه (الجوف الغربي) فنزل بقربها وارسل الى حاكمها الرومي ، كتابا يطلب اليه فيه ان يصالح على الشروط التي صالح عليها قيرس ويدخل في عهد المسلمين ، فارسل يطلب الاجتماع الى عمرو فاجابه الى طلبه

وسأله حينما اجتمعا عن مقدار الجزية فاجابه جوابا لم يرضه ، فاعلن المقاومة ، فهاجم المسلمون المدينة واضطروها الى التسليم

وسار العرب من اخنا الى بلهيب ، وكانت مدينة منيعة في جنوبي رشيد (ربما كانت مطوبس اوديبي في الوقت الحاضر) فاخضعها وخضعت ايضا البرلس ورشيد وهي من مدن السواحل وصالحت على ما صالحت عليه المدن الاخرى وكذلك صالحت دمياط ودخلت في طاعة العرب بلا مقاومة

ويقول البلاذري ان عميرة بن وهب الجمحي ، هو الذي ارسل الى هذا الاقليم ، ففتحه سالما وبذلك خضع القطر للعرب ولم تبق سوى رقعة صغيرة في الساحل الشرقي تحصن اهلها بموانع طبيعة من بحيرات وغيرها كأهل المنزلة وقد سامت

تدریجا ولم تنقض سنة ٢٢ للهجرة (سنة ٦٤٢) حتى زالت سيطرة الروم عن القطر
المصرى زوالا ابدیا ، وتسلم العرب مقالیده وانصرفوا الى انشاء نظام حكم جدید بدلا
من النظام القديم الذى زال وانهار

نামع عمرو

من القواعد التي سار عليها المسلمون في ابتداء نهضتهم وطبقوها في فتوحاتهم (وهي تشبه شرائع الحرب في عصرنا) قاعدة تقسيم البلاد المفتوحة الى قسمين :

١ - قسم يفتح حربا

٢ - قسم يفتح ساما

فالبلاد التي تفتح حربا يكون للمسلمين مطلق التصرف في شؤونها وفي تقرير مصيرها ، والقصد من ذلك ارباب الامة التي يحملون عليها او يسرون لفتحها والقاء الرعب في قلوب ابنائها ، فلا تقاومهم ولا تأبى الدخول في طاعتهم اما البلاد التي تستسلم صلحا ، وتأبى قتالهم ، وشهر السيف في وجوههم ، فمعاملتهم لها تختلف باختلاف حالها ، فاذا دخلت في الاسلام ، فيكون لاهلها بالمسلمين وعليهم ما عليهم بلا تفضيل او ميزة ، فالاسلام ينكر نظام الطبقات والفوارق الاجتماعية ، ويجعل الكل متساوين امام الشرع والدين ، لافضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى

واما اذا ارادت الاحتفاظ بدينها ، وعدم الخروج عنه فلها ذلك بشرط ان تدفع الجزية ، وتخضع للشرائع الاسلامية ، وتتقيد باحكامها ولقد تكلمنا من قبل عن ضريبة الجزية ، التي كانوا يتقاضونها من البلاد التي

تسلم صلحا وتحفظ دينها ، وقلنا انهم كانوا يعتبرونها اجرا يتقاضونه مقابل ضمان امنها الخارجى ، فهى اشبه ما يكون بضريبة الدم او الضريبة العسكرية فى هذا العصر ، وقد جبوا هذه الضريبة فى مصر باعتبار دينارين عن الشخص الواحد ولا يخفى ان بعض قواد المسلمين اعاد هذه الضريبة فى الشام الى اصحابها حينما جلا عن بلدهم قائلا انه تناولها منهم باسم الدفاع عن امنهم وسلامتهم ، وبما انه شغل عنهم واصبح غير قادر على الاضطلاع بهذا العبء فهو يعيد اليهم اموالهم

وفعل عمرو بن العاص فى مصر اكثر من هذا فقد رضى ان يعوض عن القبط من سكان بعض قرى مصر السفلى خسارة نزلت بهم بسبب ثورة الاسكندرية حينما جاءوا اليه مطالبين بان يعوض بيت المال عليهم ما خسروه وحجتهم انه لولا اهمال المسلمين فى اتخاذ التدابير اللازمة للدفاع لما كانت الثورة ولما نكبوا فاقروا وجهة نظرهم وعوضهم وطيب خاطرهم

وفضلا عن ذلك فما كان خلفاء المسلمين يتمسكون كثيرا بالشق الثانى من القاعدة ، فكثير من المدن التى لم تخضع الاحزاب وبعدهم مقاومة شديدة ، عوملت - بامر الخليفة نفسه - معاملة البلاد التى سامت صلحا - او صالحت بحسب اصطلاحهم - رحمة بها ورأفة بسكانها وصيانة لها من الحراب والدمار ، اذا طبق عليها نظام البلاد المفتوحة حربا . وفى مقدمة المدن التى فتحت حربا وعوملت معاملة البلاد المصالحة دمشق وذلك بامر الخليفة عمر بن الخطاب نفسه مع ان المسلمين قضوا نحو ستة اشهر حول اسوارها وذاقوا الامرين فى سبيل الاستيلاء عليها ، اما القدس فقد سلمت بعقد وعهد ، وعوملت معاملة البلاد المصالحة مع انها لم تخضع الا للقوة ولم تستسلم الا حينما رأت انه لا قبل لها بالمقاومة ، وحينما تقطعت بها الاسباب وتحققت عجز الامبراطورية عن انقاذها .

وما حدث فى القدس حدث حين تسلم حصن بابليون فى مصر ، فقد علا المسلمون اسواره بعد حصار طالت مدته ، وامتد زمنه ، فاسقط فى يدي حاميته ،

فاسرعت تطلب الصلح ، وتقدم الطاعة والخضوع مع انها رفضت هذا الصلح حينما عرض عليها بواسطة عبادة بن الصامت ، ولم يتردد عمرو بن العاص في مصالحتها ، ومنحها الامان فابحرت لاحقة بالاسكندرية من دون ان تصاب باذى او تفقد من متاعها شيئاً

وسار عمرو على هذه القاعدة ، في فتوحاته بالقطر المصرى ، فعامل الناس بالرحمة والرفقة ولم يأخذهم بالقسوة والشدة ، مع ان بعضهم قاومه ، فلا يكون الفتح الاسلامى اداة للخراب والدمار ، يؤيد ذلك ما رواه الامام احمد كما جاء في تاريخ ابن كثير عن عتاب عن عبد الله بن عقبة عن يزيد بن ابى حبيب عن عبد الله بن المغيرة ابن ابى بردة قال سمعت سفيان بن وهب الخولانى يقول : لما افتتحنا مصر بغير عهد ، قام الزبير بن العوام فقال :

- يا عمرو بن العاص اقسمها

- لا اقسمها

- والله لتقسمننها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خبير

- والله لا اقسمها حتى اكتب الى امير المؤمنين

وكتب الى عمر فاجابه اقرها حتى يغزو منها حبل الحبلية (يريد حتى يغزو منها اولاد الاولاد ويكون عاما فى الناس والدواب ، اى يكثر المسمون فيها بالتوالد فاذا قسمت لم يكن قد انفرد بها الاباء دون الاولاد ، او يكون اراد المنع من القسمة حيث علقه على امر مجهول)

وعلى كل فقد عوملت مصر معاملة البلاد التى صالحت وقبل منها الفاتحون

الجزية ، وبذلوا لاهلها الامان وعاملوهم بالرفقة والاحسان

ولا بد لنا من القول ان شرائع الحرب الرومية كانت اقسى واشد من شرائع

الحرب التى وضعها المسلمون ، فالاسلام يساوى بين اتباعه وبين الذين يدخلون فى دينهم من اهل البلاد التى يفتحونها ويزيل كل فارق وحاجز ، بخلاف شرائع الروم الحربية

والمدنية فما كانت الجنسية الرومية تمنح لآبناء البلاد المفتوحة ، ولو دخلوا في دين الفآحين وسلكوا سبيلهم واندمجوا في آجامعتهم ، الا طبقا لآنظمة وقواعد خاصة لآبد من مراعاتها في منح الجنسية ، علاوة على آنهم كانوا يآخسون آبناء قومهم بآمميزات خاصة في هذه البلاد تميزهم وتفضلهم على آبناءها الاصليين ، وتشبه معاملتهم لها المعاملة التي يعامل بها المستعمرون بعض اللدان الشرقية في هذه الايام فهم يآحقرونهم ويزدرونهم ويعملون على استآصلهم وآبادتهم . وقد اتبع الايريكيون هذه القاعدة فآبادوا العنصر الهندي الاصلى واستآصلوه تقريبا ، ولا يقر الاسلام هذا المبدأ

وفضلا عن ذلك فان ضريبة الجزية نفسها ، لم تك مرهقة ، ولم تك مما لا يطاق ولا يآتمل ، وكانوا في ابتداء امرهم يآجبونها على ثلاثة اقساط ، يبلغ كل قسط ٣٣ قرشا صاغا بعملة هذه الايام او بمعدل ٨ قروش صاغ في الشهر ، وهو مبلغ غير كبير ، يسهل دفعه . ومع آنا لانعرف بالضبط ، ما كان يصيب المكلف في العهد الرومى وما كان يدفعه لآزينة الامبراطورية الا آنا لآرتاب في ان الضريبة التي فرضها العرب على المصريين كانت اقل كثيرا من ضرائب الروم لان نفقات العرب الادارية والعسكرية اخف ، ولان خطتهم كانت تقوم على اصطناع الناس واستمالتهم ، لا ارهاقهم بالضرائب والرسوم ، وطالما ولدت كثرتها ثورات وفتنا ، وثلت عروشها وممالك ، وبديهي ان سياسة التساهل واللين التي سار عليها عمرو في ابتداء الفتح ومعاملته الناس بالرأفة والحلم ، هي التي مكنت له في مصر ، وجعلت المصريين يقبلون عليه ، ويلتفون حوله ، ويساعدونه في محاربة الروم ، فضلا عن انه خفض الضرائب والرسوم وقد ارهق الروم بها عائق المصريين ولا ريب ان نفقات الادارتين المدنية والعسكرية التي انشأها عمرو ولا تكاد تذكر في جانب نفقات الروم وكانوا يملكون حامية كبيرة ولهم قواد وحكام يتقاضون مرتباتهم ونفقاتهم من مال البلاد ، وكان الحاكم العام مضطرا الى مد خزينة الامبراطورية بالاموال بدون انقطاع لانفاقها في

المصالح العديدة، ويسلم مؤرخو الدولة الرومية ان ارهاق الروم للناس بكثرة الضرائب في السنوات التي تقدمت الغزو العربي ، كان من جملة العوامل التي نفرت الناس منهم وجعلتهم ينضمون الى العرب ويوالونهم لما خبروه من عدلهم وصدقهم واخلاصهم وحبهم للمساواة ، ولما امتازوا به من الشجاعة والاقدام والجرأة والعدل وهي الخصال المحببة المدوحة في كل آن وزمان ، وما تحلى بها شعب الافاز وساد وامتلك القلوب

نظرة في اعمال العرب العسكرية

على هذا المنوال المنظم اتم عمرو بن العاص فتح القطر المصري ، فانتزعه من الامبراطورية الرومية واهداه الى الدولة العربية الجديدة ، فكان ذلك مقدمة لانتشار الاسلام في ربوعه ، وذيوع اللغة العربية في ارجائه ، فحلت محل اللغتين اللتين كانتا معروفتين في ذلك الزمن وهما القبطية والرومية وصارت ولا تزال اللغة الرسمية لأبناء هذا القطر كاه ، كما صار (القطر) من اعظم مراكزها القوية وحصونها المنيعه

وما يقال عن انتشار اللغة العربية ، لغة الفاتحين ، يقال ايضا عن انتشار دينهم ، فقد اقبل الناس على الدخول فيه افواجا ، وما زال عددهم ينمو ويزداد حتى صاروا يؤلفون القسم الاعظم من السكان

ومما لا ريب فيه ان الدين الاسلامي واللغة العربية هما من مخلفات عمرو بن العاص الخالدة في هذه الديار فهو الذي جاء بهما ونشرهما ، وسار خلفاؤه سيرته فاستقرت قواعدهما ، ورسخت اركانهما ، وصارا على تمادى الايام من مقومات الحياة الاجتماعية بل من اعظم دعائمها واركانها

لقد استغرق فتح مصر سنتين وشهرين (ذو الحجة سنة ١٩ - المحرم سنة ٢٢) اى منذ دخول جيش عمرو بن العاص العريش اول حدود مصر الشرقية حتى فتح دمياط والمنطقة الساحلية وشمالى الدلتا ، وقد فتحت في خلال سنة واحدة تقريبا بعد فتح الاسكندرية ، وهى مدة غير طويلة فيما نعتقد . ويقر الذين درسوا

الفن العسكري او تذوقوه على الاقل بصفة هذه النظرية ، فقد كان هنالك يون شاسع بين القوتين اللتين كانتا تتنازعاں السيادة على وادى النيل ، قوة العرب المهاجمة وقوة الروم المدافعة

ولا يخفى ان من مقتضى القواعد العسكرية ان يكون عدد الجيش المهاجم اكثر من عدد الجيش المدافع ، وان تكون قواه المادية اوفر واغزر ، لان مهمة المهاجم اشق من مهمة المدافع واصعب ، ولان مهمة الدفاع نفسها لاتحتاج الى كثير من القوى ، وخصوصا متى كان المدافع يأوى الى حصون منيعة ، واسوار قوية عظيمة ، وابراج شامخة عالية ؛ كما كان الامر في مصر يوم هاجمها العرب فما عرف التاريخ ان قائدا عسكريا مشى الى بلاد لفتحها والاستيلاء عليها ولا تكاد قواه المادية تذكر في جانب القوى المدفعة عنها ، الا كان نصيبه الفشل والاختفاق ، ولا يستثنى من ذلك الا الجيش العربي الذى قاده الصحابة الى الشام ومصر والعراق ويران ، فقد نازل قوى عظيمة لاتكاد تذكر في جانبها قواه المادية ، وقد لانبالغ اذا قلنا ان نسبة الجند العربي لاتكاد تبلغ نسبة واحد الى سبعة من جند الروم والفرس الذين نالهم في هذين الميدانين فهزمهم وورث ارضهم وديارهم

لقد اتفق جميع المؤرخين من قبط وروم يونانيين ومسلمين من الذين كتبوا تاريخ مصر على ان مجموع القوى التى مشى بها عمرو بن العاص الى القطر المصرى واقتحم بها حدوده الشرقية ما كانت تزيد عن اربعة آلاف مقاتل ويجعلها بعضهم ثلاثة آلاف وخمسائه فقط ، كما اتفقوا على ان مجموع رجال الحامية الرومية فى مصر من روم وقبط ، وكانت هنالك فرق محلية قبطية يجندها الروم ويعتمدون عليها فى صيانة الامن الداخلى - ما كانت تقل عن مائة الف جندى بثت فى انحاء القطر ، من الاسكندرية حتى الصعيد ، ومن الفرما حتى الفيوم علاوة على شبكة واسعة النطاق من الاستحكامات والحصون وخطوط الدفاع وصفناها من قبل فلا نعود اليها

هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى ، فان عمرا جاء يغزو بلادا يكاد

يكون كل شئ فيها غريبا عنه ، فدينه غير دينها ، ولغته غير لغتها ، وعاداته غير عاداتها ، ونظم بلاده غير نظمها ، وحالته الاقتصادية غير حالتها ، وقواه المادية غير قواها . بل كان كل شئ في مصر خصما لعمره ، وعدواله ، وغريبا عنه . ويجب ان لا ننسى ما بذله اقطاب الكنيسة المسيحية ورجالها في مصر - وكانوا ذوى نفوذ عظيم - من مجهود في مقاومته ، فهم لم يدخروا وسعا في تشويه سمعة المسلمين ، وفي بث الدعوة لمقاومتهم ، وفي اثاره الناس عليهم وحضهم على نزالهم

واذا قيل لنا ان الفاتحين الذين جاءوا بعد ذلك لغزو مصر من افريقية او من آسيا لم يلقوا ما لقيه عمرو من مقاومة ولم يقضوا من المدة ما قضاه في فتحها نجيب ان هنالك بونا شاسعا وفرقا عظيما بين حالة هؤلاء وحالة عمرو ، فاما المسلمون منهم ، فقد كانوا يدخلون بلادا اسلامية ، يستقبلهم سكانها بالترحاب وينزلونهم في منازلهم وبيوتهم لانهم من ابناء دينهم وذوى رحمهم ، اى انهم ما كانوا ينظرون اليهم نظره الى الاعداء الذين جاءوا لاجراهم من دينهم ، وتبديل عقائدهم ، وظلمهم واضطهادهم وقد صور الاكبروس الرومى المسلمين بأبشع الصور يوم غزاها عمرو ، وهذه كتب المؤلفين من ابناء ذلك العصر وما قرب منه ككتاب حنا النقيوسى وسعيد بن البطريق والاول عاصر الفتح تقريبا والثانى جاء بعده بنحو قرنين ، مشحونة بالظعن في العرب والاسلام ، وكان ذلك مما يستسيغه ذلك العصر ولا ينكره ، علاوة على ان الفريقين كانا في نضال عنيف وفي حرب ممت او حياة ، تبيح لهما العمل بكل ما يعتقدان ان فيه مصلحة لهما . والضرورات تبيح المحظورات

ويختلف غزو الحملة الفرنسوية في اواخر القرن الثامن عشر لمصر ، عن غزو عمرو ولها في اواسط القرن السابع فقد جاءت بجرا ولم تأت من طريق البر ، وطريق البحر ايسر واسهل واقرب ، فاحتلت الاسكندرية بدون كبير عناء ، لان مدافعها ومعداتها كانت اقوى من مدافع حصون الاسكندرية . وقصدت القاهرة

مباشرة والمسافة بينهما ٢١٥ كيلو مترا فقط في حين ان المسافة من العريش الى موضع القاهرة لا تقل عن ٣٦٠ كيلو مترا

ولم يكن في مصر من الحصون والخوانق ومعدات الدفاع يوم هاجمها الفرنسيون ما كان فيها يوم هاجمها العرب ، كما انه لم يكن فيها من القوى العسكرية المنظمة ما كان يومئذ ، فقد مشى اليها نابليون بحملة عسكرية منظمة قوية ومدربة ، وما كان في مصر يومئذ جيش مدرب منظم يقف في وجهها ، بل كانت هنالك شراذم ضعيفة ليست بذات قيمة عسكرية كبيرة ، والمقاومة التي لقيها نابليون كانت من الشعب المصرى نفسه ، ومع ان الفرنسيين قضوا في مصر سنتين فلم يخضعوا القطر كله ولم يستولوا عليه ، مع تفوقهم في العدد والمعدات والوسائل المادية والادبية ايضا ، فقد كانت فرنسا يومئذ في نهضة فكرية عظيمة

وحال الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ يختلف عن حال الاحتلال العربى ، فقد دخل الانكليز هذا القطر باسم حماية العرش والدفاع عنه ، وبالتفاق مع ربه وصاحبه بعد ما اعلنوا وادعوا ان احتلالهم ينتهى عند ما تستقر الامور وتهدأ الاحوال وانه لا غاية لهم ولا مطمع . ولولا هذه الاعتبارات للقي الانكليز عناء ، ولاضطروا الى خوض معارك كثيرة

وسيظل عمل الحملة العربية التي قادها عمرو بن العاص الى هذا القطر ، من الاعمال الفذة الخالدة في التاريخ العسكرى ، لا شبيه له ولا مثيل ، ولا يدانيه في العظمة سوى تلك الاعمال الحارقة الاخرى التي عملها زملاء عمرو في اليرموك واجنادين والقادسية ونهاوند وجالولاء ولم يعرف التاريخ العسكرى الى الآن لها نظيرا ، ولم يزل كبار القواد في هذا العصر يدرسون الخطط العسكرية التي ابتكرها قواد العرب في تلك المعارك فضمنت لهم التفوق والاتصار على جيوش كانت من ارقى جيوش العالم في زمنها بل من اعظم الجيوش التي دون التاريخ العسكرى اخبارها والخالصة اننا من الذين يعتقدون بان فتح عمرو بن العاص لمصر ، وما تحلله

من الاعمال العسكرية الباهرة ، وما نفذ فيه من الخطط الحربية المتقنة ، يعد من اعظم الاعمال العسكرية التي شهدها هذا الوادى من فجر التاريخ الى يومنا هذا ، فلم يسبق لفتاح من الفاتحين ان اغار عليه بقوة ضئيلة ضعيفة ، مجردة من جميع الوسائل والوسائل المادية تقريبا ، كتلك التي اغار بها عمرو ، فقاتل وكافح مدة سنتين قوات عسكرية عظيمة تفوقه اضعافا مضاعفة ، وما زال بها حتى فتح الوادى كله ، ويوشك ان يكون قاتل على كل شبر من الفرما الى الفسطاط ومن هذا الى الاسكندرية ونشر فيه دينه ولغته ، اى انه لم يكتف بالقضاء على حكم الروم السياسى والعسكرى بل قضى على لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وشرائعهم ونظمهم ، واحل محلها لغة بلاده وعاداتها وتقاليدها ونظمها ودينها وذلك هو الفتح الحقيقى المبين وسيرى الناس عجباً متى قام احد الجهابذة العسكرين فدرس الخطط العسكرية التى وضعها عمرو وطبقها فى فتح مصر ، وتوصل الى رسم مصور خاص لحصون الروم وقواهم العسكرية فى ارجائه وجاء باحصاء دقيق لما كانوا يملكونه من قوى مادية عظيمة ، فيعرف الناس ان فتح مصر لا يقاس به فتح آخر ، وان نجاح قادة العرب فى هذا الوادى كان عظيماً ، وان ما بذلوه فى الاستيلاء عليه وانزاعه من ايدى الروم يشبه ان يكون من اعمال الجبارة ، وخارقة الخوارق ، ومعجزة المعجزات .

والمعجزات والخوارق لا تتكرر كل يوم فالدهر بها ضنين

فتح السودان

كانت حدود مصر الجنوبية في العهد الروماني ، هي تقريبا نفس حدودها في عهدنا الحالي ، اى انها كانت تنتهى جنوبي مدينة اسوان
 وكان السودان - ويسميه مؤرخو العرب بلاد النوبة - منفصلا عن مصر ،
 وقد اعتصم سكانه بجبالهم وادغالهم ، ولاذوا بها ، ولم يخضعوا حقيقيا للدول
 العديدة التى تعاقبت على وادى النيل ، لبعدها ديارهم ، ولانه ليس فيها ما يعرى ، ولا
 يزال الفتح منذ اقدم ازمنة التاريخ عملية تجارية ، يقدم عليها المقدمون
 طمعا فى الربح والمغنم ، ويتجنبها المتجنبون هربا من الحسارة ، الا اذا كانت
 هنالك ضرورة عسكرية ، او سياسية ، او كان هنالك غرض دينى وهو ما كان
 العرب يرمون اليه

وكان من دأب قبائل السودان النازلة وراء الشلال وفى المناطق المجاورة له -
 وتبعد منازلها عن الاسكندرية ، وكانت عاصمة الروم فى العهد الرومى ، نحو ١٥٠٠
 كيلومتر او ١٣٠٠ اذا كانت العاصمة القسطاط او منف - ان تغير على حدود مصر
 الجنوبية للسلب والنهب وابتزاز الاموال

النوبة فى صلح مصر

ولما صالح عمرو واهل مصر وكتب لهم عهده (انظر ص ٣٠١) ورد فيه عن
 النوبة قوله « ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل

ما عليهم . ومن ابى منهم واختار الذهب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه او يخرج من
سلطاننا عليهم ما عليه اثلاثا

« وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا
على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة »

هذا ما ورد في العهد وهو يحدد العلاقات بين السلطنة العربية الاسلامية الجديدة
والرعايا السودانيين في مصر تحديدا صريحا فيمنحهم :

١ - حق الدخول في عقد الصلح والاقامة في مصر اذا شاءوا . على ان يعاملوا
نفس المعاملة التي يعامل بها قبط مصر اى انه ساواهم بالتبطن وجعلهم والروم سواء ،
باعتبارهم رعايا غير مصريين

٢ - منح الذين يريدون منهم الخروج وعدم الخضوع للسلطة العربية الجديدة
الامان حتى يبلغوا بلادهم

٣ - حدد الجزية التي يجب على اهل النوبة الذين يدخلون في عقد الاسلام
بمقدار معين من الخيل

٤ - منع هؤلاء من الغزو والغارة . ومن الاعتداء على السابلة وعرقلة طرق
التجارة ، وكان هذا شأنهم والغاية من هذا التدبير هو ضمان الامن على حدود مصر
الجنوبية وتأمين سير قوافل التجارة بين مصر واواسط افريقية

العرب في السودان

يقول المقرئى ان عمرا بعث عبد الله بن سعد بن ابى سرح بعشرين الفا الى
 النوبة فكث فيها زمنا وصالح اهلها وقرر عليهم شيئا من المال
 وعاد عبد الله نفسه فغزاهم فى سنة ٢٥ اى بعد ما صار اميرا وظل يتقدم حتى
 بلغ دنقاة فحاصرها وقاتل اهلها لانهم نقضوا الصلح
 ثم رجع عبد الله الى مصر بعد ما اخضع السودان ، على ان فتحه نهائيا تم
 بعد ذلك على يد عقبة بن نافع الفهري فى زمن ولاية عتبة بن ابى سفيان على مصر
 كما سياتى

ومنذ ذلك اليوم استقرت العربية واستقر الدين الاسلامى فى تلك الربوع

تورة الاسكندرية

ما كاد عمرو بن العاص يستقر في القسطنطينية بعد رجوعه من غزوه في المغرب وقد ختم بافتتاح برقة وطرابلس حتى وقعت الكارثة العظمى بمقتل عمر بن الخطاب وتقلد عثمان بن عفان الحكم خلفا له وذلك في اواخر سنة ٢٤

وعملا بالخطبة التي سار عليها هذا من اقضاء عمال عمر وقواده وابدالمم بغيرهم من الذين يثق بهم او من ذوى قرباه ورحمه أقال عمرو بن العاص من عمله في مصر وما كان رأى عثمان بن عفان - كما تدل بعض الروايات التاريخية - يتفق مع رأى عمر بن الخطاب ، فيه وكان هذا يعجب به وبمزاياه ، في حين ان ذلك كان يجد عليه اشياء ، ولذلك لم يتردد في اقالته رغم ما اداه من خدم جليلة لقومه ودينه ، وابدله بعبد الله بن سعد بن ابى سرح ، وهو شقيقه في الرضاة ، وكان من امراء جيش عمرو فقد قاد جناحه الايمن في زحفه من قيسارية حتى حصن بابلين . ثم كان رئيس الجباية (وزير ماليته) ثم كان اميرا للقيوم والصعيد

واغتم بعض روم الاسكندرية (وكانوا يحنون الى العهد القديم) فرصة خروج عمرو ، وخلو العرين من الاسد ، فأوفدوا سرا الى القسطنطينية وفدا من زعمائهم قابل الامبراطور قسطنزا وبسط على مسامعه تعلق الاسكندريين بعرش بيزانطية وذكر له ان قوات العرب ضئيلة جدا في القطر المصرى وان امرهم الى انحطاط خصوصا بعد استدعاء عمرو ، وان في الامكان انتزاع القطر منهم على اهون سبيل ، لان حاميته قليلة ، وما كان للمسلمين في الاسكندرية يومئذ اكثر من الف جندي ، وان السكان سيهبون هبة واحدة ، متى طلعت سفن الروم

وآثر في نفس الامبراطور ما سمعه من هؤلاء ، وظن ان في الامكان انتزاع القطر من فاتحيه فمال الى اجابة مطلبهم ونسى أن هنالك عهدا مقطوعا بينه وبينهم ، تنازل فيه لهم عن حقه في وادي النيل ، وانه لم يبس من هؤلاء ما يدل على نقضهم له

الروم بمنازل الاسكندرية

وعملا بأوامر الامبراطور اعد في القسطنطينية اسطول كبير يبلغ عدده ٣٠٠ سفينة اقل حمالة عسكرية كبيرة غادرت القرن الذهبي في خريف سنة ٦٤٥ بقيادة البطريق مانويل وواصلت سيرها حتى ميناء الاسكندرية فدخلته ليلا واقت مراسيها فيه واحتلت المدينة عسكريا بتأييد السكان الروم الذين انضموا اليها . وكانت فيها جالية كبيرة وقتل معظم رجال الحامية العرب ولم ينج منهم الا القليل وزحف مانويل بعد استيلائه على الاسكندرية وقد اتخذها قاعدة له الى الضواحي والاطراف ، فاستولى عليها بتأييد الروم وانصارهم ، فقد انضموا اليه ونصروه . ووقف القبط في جانب المسلمين ، لما خبروه من عدلهم وانصافهم ، لا سيما وقد كانت العلاقات الودية بين رجال الفتح والكنيسة المرقسية على ما يرام ، فقد قرب عمرو في زمن ولايته البطريك بنيامين وادناه منه وكان يستشيريه في كثير من الاحيان

عمرو يعود الى مصر

وارتفعت الاصوات في كل مكان تنادى بوجوب اعادة عمرو الى مقامه في القسطنطينية ، لعظيم هيئته وكفاءته ، وكتب كثيرون من امراء العرب الى الخليفة يقترحون عليه ذلك ويلحون بتنفيذه عاجلا لاتقاء خطر الروم فتلقي عمرو امر الخليفة وهو في مكة بالسفر الى مصر فغادر الحجاز الى القسطنطينية

وقبض على مقاليد الامور فهدأت النفوس واطمأنت ، وعكف على وضع الخطط العسكرية لمنازلة الحملة الرومية والقضاء عليها

المعركة الاولى

ويلاوم بعض مؤرخى الدولة الرومية البطريق مانويل (قائد الحملة) ويقول انه اضاع فرصا ثمينة باهماله وضعف رأيه فهو بدلا من ان يسير مباشرة الى حصن بابلون ويقتحمه ويستولى عليه ، ويقبض على هذا المركز الحربى الكبير ، فيسيطر بذلك على مصر السفلى كلها ، شغل نفسه بامور ثانوية فى المناطق المجاورة للاسكندرية ، وترك للعرب وقتا كافيا ، جمعوا فيه شملهم واعادوا تنظيم قواهم ، واستقدموا فيه قائدهم الداهية الاكبر ، فأثر وصوله فى رأى العام المصرى ، فمال الى جانب العرب ، وانضم اليهم ، ويعترف هؤلاء ايضا بان مانويل جار على القبط ونهب اموالهم واغتصب حلالهم ويقرون بان القبط مالوا الى العرب ووقفوا الى جانبهم فى هذه المرة ، لانهم ادركوا ان مصلحتهم هى فى تأييدهم وزادت اعمال مانويل وقد صب على القبط البلاء فى البلاد التى اكتسحها فى كرههم للروم

مازنا تربص عمرو

ومع ان خارجة بن حذافة قائد بابلون ومحافظه العسكرى الح على عمرو بان ينهض لقتال الروم ويسير اليهم قبل ان يسيروا اليه ، فيكتسحوا البلاد ويضعفوا مركز العرب العسكرى ، الا ان عمرا كان يرى غير رأيه فقال له : « سادعهم حتى يسيروا الى مامنهم فيصيبوا من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض » وقد جاءت الحوادث مؤيدة لرأيه فقد انتقض القبط على الروم ومالوا الى المسلمين وساعدوهم وعلى رأسهم البطريق بنيامين ورجال الاكابر وس القبط ونحن فى غنى عن القول ان القبط لم يقفوا هذا الموقف من الروم الا لانهم

ظاموهم وجاروا عليهم ، ولم يؤيدوا العرب الا لانهم عرفوا عدلهم وهذا يؤيد النظرية التي طالما رددناها وهي انه لولا عدل العرب وتسامحهم ، وحسن معاملتهم لابناء البلاد التي دخلوها ، واحترامهم لعاداتهم وتقاليدهم ، وعدم الاعتداء عليهم لما استقرت لهم قسمة ، ولا خرجوا منها كما اخرج الروم ، ولثار عليهم الناس وقتلواهم

مول نقيوس

وجاءت الاخبار الى الفسطاط بان الحملة الرومية تتقدم في اتجاه بابلون وانها توشك ان تدنو من حصن نقيوس فنهض عمرو للقائهم يقود جيشا يقدره بعضهم بخمسة عشر الف مقاتل ، فالتقى بهم حول نقيوس ، وليس هنالك مايدل على ان الروم استولوا على هذا الحصن ودارت بينهما معركة عنيفة جدا ، وحارب عمرو بين الصفوف ، وعقر فرسه تحته فقاتل راجلا وانتهت المعركة بهزيمة الروم فولوا الادبار يتصدون الاسكندرية ولجأوا الى اسوارها وتحصنوا وراءها

وسار عمرو في أثرهم ، وواصل مطاردتهم والمؤرخون المسلمون ومؤرخو الدولة الرومية والقبط مجتمعون ، على ان القبط من سكان القرى القائمة على طول الطريق بين نقيوس والاسكندرية وتبلغ المسافة نحو ١٦٠ كيلو مترا ، بذلوا اعظم مساعدة للجيش العربي في زحفه ، واعانوه في نصب الجسور ، وقدموا له عن طيبة خاطر كل ماسلم لهم من ايدي الغزاة الروم

فتح الاسكندرية الثاني

وبلغ عمرو بن العاص اسوار الاسكندرية وحاصرها للمرة الثانية وآلى ليهدم اسوارها ان مكنه الله منها فلا يترك للروم سبيلا اليها ونزل العرب في الجانب الشرقي من المدينة وضربوا مخيمهم وباشروا الحصار ، وجاءوا بادواته في هذه المرة فرموا الاسوار فزلزلوها وبين المؤرخين خلاف في اسباب تسليمها ، فبعض مؤرخي العرب يقول ان احد بوابيها واسمه ابن بسامة او ابن بسام

اقترح على عمرو ان يؤمنه على نفسه واهله وارضه على ان يفتح له الباب فلم يتردد عمرو في ان يبذل له ما طلبه . ويقول آخرون ان عمراً اقتحمها حرباً ويلوح لنا ان الرأى الثانى هو الاصبوب فقد ثبت ان العرب اخذوها عنوة ودخلوها يضربون ويقتلون حتى بلغوا وسطها فامرهم عمرو ان يرفعوا ايديهم

وبنى في هذا المكان المسجد المسمى (مسجد الرحمة) نذكارا لهذا الحادث . وقتل مانويل قائد الحملة فيمن قتلوا في ذلك اليوم ولجأ الذين سلموا من رجالها وهم الاقلون الى السفن فامتلات بهم وكانت نكبة عظيمة ، نكب بها الروم ونكبت بها الاسكندرية نفسها ، فقد ذهبت الفتنة بكثير من منازلها ومغانيتها ، كما ذلك عمرو بعد ذلك اسوارها الشرقية وارجاها واستقر العرب فيها ، وكان ذلك في صيف سنة ٦٤٦ م

وادم عمرو ايضا بعد ذلك العمال الروم الذين استبقاهم في مناصبهم لانهم انضموا الى رجال الفتنة وكانوا من اعوانها وقبض على عدد من زعمائهم وارسلهم الى المدينة فعفا عنهم الخليفة عثمان واعادهم الى بلادهم ، وامر بالمحافظة على عهد الصلح القديم وبان يعاملوا معاملة اهل الذمة و بعدم الاسراف فى العقوبات جريا على طريقة التساهل التى امتاز بها العرب فى عهد الفتح

فتح العرب لمصر

كما يصفه تاريخ البطارقة الاقباط

رأينا ان نتبع ما كتيناه عن فتح العرب لمصر بهذا الفصل الذى لحصناه من سيرة البطريرك بنيامين المنشورة فى كتاب تاريخ بطارقة الكنيسة القبطية وقد حافظنا على الاصل بقدر الامكان واغفلنا فقرات دينية لاصاة لها بموضوعنا قال :

« ولما ملك هرقل بعد انتصاره على الفرس اقام الولاة فى كل موضع وانفذ واليا الى ارض مصر يدعى قيرس ليكون بطريركا واليا معا فلما وصل الى الاسكندرية اعلم الاب بنيامين (البطريرك) ملاك الاب وامره ان يهرب لان شدايد عظيمة تنزل بهم ومدتها ١٠ سنوات فكتب الى جميع الاساقفة فى كرسيه ليخفوا (يختفوا) حتى يجوز غضب الرب فدبر الاب بنيامين حال البيعة ورتبها وتقدم الكهنة والشعب واوصاهم بالتمسك بالامانة المستقيمة حتى الى الموت ثم كتب الى سائر اساقفة كورة مصر بان يخفوا . و بعد هذا خرج من طريق مريوط وهو ماش على رجليه ليلا ومعه اثنان من تلاميذه حتى وصل الى المنى ومن هناك مضى الى وادى هيب وكان الراهبان هنالك قليلا لانه عقب الحراب الذى كان فى ايام دميانوس البطريرك وكانت البربر لاتدعهم يكثرون هنالك . ثم انه خرج من الديارات بوادى هيب ومضى الى الصعيد واقام محتفيا هناك فى دير صغير فى البرية الى كمال عشر سنوات كما قال له ملاك

الرب وهى السنون التى كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر ولعظم البلاء والضيق والعذاب الذى انزله بالارثوذكسين لكى يدخلوا فى الامة الخلفدونية ودخل جماعة منهم لا يحصى عددها : قوم منهم بالعذاب وقوم بالهدايا والتشريف وقوم بالسؤال والحداع حتى ان قيرس اسقف نقيوس وبقطر اسقف الفيوم وكثيرا مثلهم خالفوا الامانة

« ومن بعد ايام يسيرة ثار رجل من العرب من نواحي القبلة من مكة وضواحيها اسمه محمد بن عبد الله فرد عباد الاوثان الى معرفة الله وحده وان يقولوا ان محمدا رسول الله . وكانت امته محتونة بالجسد لا بالناموس ويصلون الى الجهة القبلىة مشرقين الى موضع يسمونه الكعبة وملك دمشق والشام وبحر الاردن وسادومه وكان الرب يخذل جيش الروم قدامه لاجل اماتهم الفاسدة والحروب التى حلت بهم لاجل مجمع خلقدونية من الاباء الاولين ، فلما علم هرقل ذلك جمع جيشه من مصر الى حدود اسوان ومكث يدفع القطيعة التى سأل حتى يقررها على نفسه وعلى جميع جيوشه ثلاث سنين للمسامين وكانوا يسمون المقرر القطر اى انه يقطر رؤوسهم الى ان دفع لهم معظم ماله ومات كثير من الناس من التعب الذى كانوا يقاسونه

فالما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقس وهو يطلب بنيامين البطريرك وهو هارب منه من مكان الى مكان محتفيا فى الحصينة انفذ ملك المسامين سرية مع امين من اصحابه يسمى عمرو بن العاص فى سنة ٣٥٧ لديقلايانوس قاتل الشهداء فنزل عسكر الاسلام الى مصر بقوة عظيمة فى اليوم الثانى عشر من بؤة وهو السادس من يونيوس من شهور الروم وكان الامير عمرو قد هدم الحصن واحرق المراكب بالنار واذل الروم وملك بعض البلاد وكان مجيؤه بالبرية فاخذوا الخيل الجبل حتى دخلوا الى قصر بالمجارة بين الصعيد والريف يسمى بابليون فضربوا خيمهم هنالك حتى تربتوا لمقاتلة الروم ومحاربتهم ثم انهم سموا ذلك الموضع اعنى القصر بلغتهم

بابلون الفسطاظ وهو اسمه الى الآن . و بعد قتالهم ثلاث دفعات غلب المسلمون الروم فلما رأى رؤساء المدينة هذه الامور مضوا الى عمرو واخذوا امانا على المدينة لثلا تنهب وهذا العهد الذى اعطاهم اياه محمد رئيسهم سموه الناموس يقول فيه كورة مصر تستقر مع اهلها ومع الخراج لكم وان تعبد لسلطانكم عاهدوهم ولا تظلموهم ومن لا يرضى ذلك ويخالفكم انهوهم واسيروهم فلذلك مسكوا ايديهم عن الكورة واهلها واهلكوا جنس الروم و بطريقهم المسمى ماريانوس ومن سلم منهم هرب الى الاسكندرية واغلقوا ابوابها عليهم وتحصنوا فيها . وفي سنة ٣٦٠ لديقلايانوس في شهر وكبزيوس من بعد ان ملك عمرو مصر بثلث سنين ملك المسلمون مدينة الاسكندرية وهدموا سورها واحرقوا بيعا كثيرة وبيعة ماري جرجس

وعرف سانوتيوس التمسك المؤمن في الاسكندرية عمرا بسبب الاب المجاهد بنيامين البطريك وانه هارب من الروم خوفا منهم فكتب عمرو الى عمال مصر كتابا يقول فيه الموضع الذى فيه بنيامين بطريك النصرى القبط له العهد والامان والسلامة من الله فليحضر آمانا مطمئنا ويدبر حال بيعته وسياسة طائفة . فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد الى الاسكندرية بفرح عظيم بعد غيبته ١٣ سنة منها ١٠ سنوات لهرقل الرومى الكافر وثلث سنوات قبل ان يفتح المسلمون الاسكندرية لابسا اكليل البصر وشدة الجهاد الذى كان على الشعب الارثوذكسى من الاضطهاد من المخالفين فلما ظهر فرح الشعب وامر الامير عمرو باحضاره بكرامة واعزاز ومحبة فلما رآه اكرمه وقال لاصحابه وخواصه ان فى جميع الكور التى ملكناها الى الآن ماريت رجل الله يشبه هذا وكان الاب بنيامين حسن المنظر جيد الكلام بسكون ووقار

ثم التفت عمرو اليه وقال جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر احوالهم . واذا انت صليت على حتى احضر الى المغرب والخمس مدن^(١) واملكها مثل مصر واعدود

(١) المدن الخمسة هي : برقة وفزان والقيروان وطرابلس الغرب وافريقية

اليك سالما بسرعة فعلت لك كلما تطلبه منى فدعا له القديس بنيامين واورذ له كلاما حسنا
اعجبه هو والحاضرين عنده فيه وعظ ورجح كثير لمن يسمعه وادى اليه باشياء
وانصرف من عنده مكرما مبيجلا . وكما قاله الاب للامير عمرو وجده صحيجا لم يسقط
منه حرف واحد الخ

فتح برت

برقة

معلومات جغرافية موجزة

برقة مقاطعة عربية تقع غربى مصر يحدها من الشرق القطر المصرى ومن الغرب طرابلس الغرب ومن الشمال البحر الابيض ومن الجنوب الصحراء ويطلقون اسم برقة على المنطقة الممتدة من غربى السلوم حتى نهاية خليج سرت على شاطئ البحر الابيض فى مكان يقال له المقطاع وهى بلاد برقة الحقيقية واسمها بالرومية (Ciranica)

وعاصمتها السياسة فى الوقت الحاضر مدينة بنغازى وقد بنيت على انقاض مدينة برنيق القديمة ، وهى تشغل قسما كبيرا من مكانها . والمدينة العربية المسماة برقة هى المرج

وتبلغ مساحة برقة السطحية ٣٤٥ الف كيلومتر مربع ، ويقدر سكانها بربع مليون كما تقول دائرة المعارف البريطانية وهم عرب مسلمون

١ برقة

يطلق الجغرافيون القدماء اسم پنطابولس (Pentapoulos) ومعناه المدن الخمسة على الاقليم الواسع الواقع غربى طرابلس الغرب وشرق خليج السلوم ، بين البحر المتوسط شمالا والصحراء جنوبا

والمدن الخمسة التى تعنيها الكلمة اللاتينية هى :

١ - برنيق (نفس مدينة بنغازى الحاضرة)

٢ - طوكرة

٣ - المرج

٤ - سوسة

٥ - فرنة

وتبعد برنيق او بنغازى عن الاسكندرية ١١٠٨ كيلو مترات منها ٦٩٧ من

الاسكندرية حتى آخر حدود مصر تقريبا والباقي الى بنغازى نفسها

ولقد انتزع الرومان هذه المقاطعة مع مقاطعة طرابلس المجاورة لها من ايدى

القرطاجنيين سنة ١٤٦ للميلاد وظلوا يسيطرون عليها حتى سنة ٤٣٥ م فانتزعها منهم

جنسريك ملك الفندال وقد جاءها غازيا من الغرب وعاد اليها الرومان بعد ٩٨ سنة

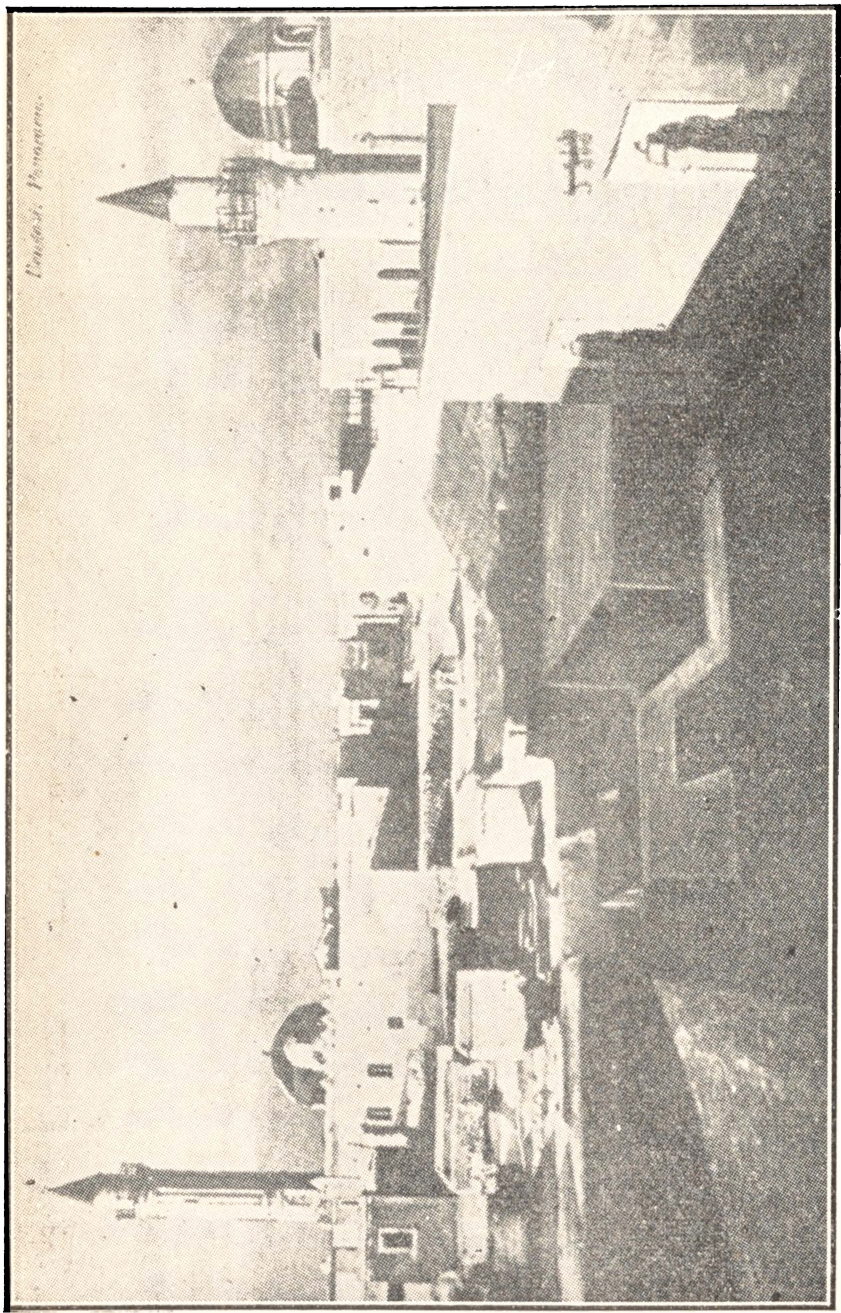
أى سنة ٥٣٧ على يد قائدهم (بيليساريوس) وظلوا فيها حتى جاء الاسلام فانتزعها

منهم و بسط سلطانه عليها ، فدخلها العرب بدخوله واستوطنوها وتغلبوا عليها وصارت

جزءا من اجزاء الوطن العربى الاسلامى ، ولم تزل الدول الاسلامية تتعاقب عليها حتى

اغار الايطاليون عليها فى شهر سبتمبر ١٩١١ - شهر شوال سنة ١٣٢٩ هـ فقاومهم

ابناؤها واستماتوا فى الدفاع عن حوزتهم



Bagdad, Persien.

مدینه بنغازی (عاصمة برقة) کاتری اليوم

منه بنطابوليس الى القسطنطينية

كان هركليوس - وهو الامبراطور الذي غزى العرب في عهده الامبراطورية الرومية وانتزعوا منها ممتلكاتها الجنوبية من جبال طوروس حتى اقصى حدود افريقية الشمالية - قائدا من قواد هذه الدولة العسكريين ، وقد امتاز ببلائه في حروب الفرس على عهد الامبراطور موريق ، فكافأه بان عينه حاكما لاقليم بنطابوليس (برقة) وكان من الاقاليم الكبرى الزاهرة في ذلك العصر

وطمحت نفس هركليوس الى عرش القياصرة ، ووضع نصب عينيه بلوغه ، وكانت الامبراطورية يومئذ تتردى في هاوية الانحلال والاضمحلال ، وكانت الثورة هي الوسيلة الوحيدة لبلوغ العرش ولبس التاج ، وقد قفز كثيرون من صفوف الجيش الى عرش الامبراطورية ، وكان آخرهم الامبراطور فوكاس وهو الذي ثار هركليوس عليه ، فقد كان في ابتداء امره جنديا عاديا

واستطاع هركليوس ان يجمع حوله بضعة آلاف من الانصار بعضهم من البربر وبعضهم من الروم استمالهم بالمال كما يقول حنا النقيوسى وسلحهم بالسلاح الكامل ، ثم نقض بيعة الامبراطور وخلع طاعته ، جاء قائد الروم العسكري في طرابلس الغرب لقتاله ، فهزمه وصار سيد هذين الاقليمين المتجاورين : طرابلس وبرقة ، وانضم الى هركليوس « نيقثاس » نائبه في الحكم وصديقه فاقسما العمل فسار الاول على رأس قسم من الانصار الى سلانيك بحرا فنزلها واستقر فيها واتخذها قاعدة لأعماله ، وعكف بعد المعدات لمهاجمة القسطنطينية بحرا واختراق الدردنيل والقضاء على حكم فوكاس

وسار الثاني الى الاسكندرية فانضم اليه حاكم مريوط الرومي في الطريق .
وحاول قائد الاسكندرية صد الثوار فهزموه وقتلوه وقصعوا رأسه وجعلوه على سنان
رمح ، وفتحت لهم المدينة على الأثر ، فاشتد ساعدهم واتسع نطاق حركتهم ،
واستولوا على معظم اجزاء القطر الاخرى

عمر وبنه العاص في برقة

ما كانت مطامع عمرو وبن العاص تقف عند حد ، وما كانت همته تضعف او تسكل ، وما كان من الرجال الذين تعرف الراحة سبيلا الى انفسهم ، او يعرفون الى الراحة سبيلا ، فأمنيته العظمى ان يقارع الابطال ويفتح الاقطار ، وينازل الجيوش ، ويمزق الصفوف ، ويفوز بالنصر ، ويحظى بالظفر

ويلوح لنا ان البواعث التي بعثته على فتح برقة وغزوها ، هي نفس الاسباب التي بعثته على فتح مصر ، فقد اتجهت همته الى فتح مصر ، وكان قد زارها وجاس خلالها - بعد ما فتح فلسطين ، وقال للخليفة انه لا يأمن ان يأتي الروم من جانب الحدود الجنوبية اى من مصر فيجب ان يحمل عليهم وينهض لقتالهم قبل ان ينهضوا لقتاله ، وان يهاجمهم قبل ان يهاجموه ، واقر الخليفة هذه الخطة بتحفظ وشروط ولم يسعه حينها رأى اقدام عمرو الا ان يجاريه ، فأرسل اليه الامدادات والنجادات فكان الفتح وكان النصر

ولئن استأذن عمرو الخليفة ونال موافقته مقدما على غزو مصر ، فالروايات التي رواها المؤرخون العرب ومؤرخو الدولة الرومية والقبط تدل على انه لم يستأذنه في غزو برقة جارة مصر الغربية ، مع انها كانت قطرا مستقلا عن مصر في ادارتها الداخلية والعسكرية ، ومع انها تبعد عنها مئات الكيلومترات . ولعل عمرا اراد من عمله ان يجعل الخليفة امام امر واقع ، لانه ما كان يخشى معارضته ، بعد ما هزم الروم في القطر المصرى وقضى على نفوذهم العسكرى والسياسى ، يضاف الى هذا ان رجال الدولة الاسلامية في مصر - كما تدل المكاتبات التي دارت بينهم

وبين المدينة - ما كانوا يعدون مصر و برقة و طرابلس الغرب من افريقية ، بل كانت حدود افريقية عندهم تنتهى عند انتهاء حدود طرابلس الغربية ، وابتداء حدود تونس (قرطاجنة) يؤيد ذلك ما كتبه عمرو بن العاص الى الخليفة عمرو بعد افتتاحه طرابلس و برقة ، فقد ارسل يستأذنه فى فتح ما اسماه افريقية ، فأجابه بعدم الموافقة وامره بالرجوع وهذا نص الكتابين اللذين تبادلتهما :

« من عمرو بن العاص الى عبد الله امير المؤمنين

« ان الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة ايام فان

رأى امير المؤمنين ان يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل »

من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص

« لا . انها ليست افريقية ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها احد

« ما بقيت »

من الاسكندرية الى برقة

بين برقة وبين القطر المصرى طريقان للواصلات يسلكهما السالكون من اقدم عصور التاريخ :

١ - طريق البحر الابيض

٢ - طريق الساحل ويمتد من الاسكندرية حتى برقة على ساحل البحر الابيض وهو الطريق السلطانى بينهما ، كما هو طريق الحج ، فقد كان الحجاج المسلمون القادمون من افريقية يسلكونه في ذهابهم الى الحج وايابهم منه قبل عصر البخار

طريق الساحل

وبديهى ان المسلمين في سيرهم الى برقة سلكوا الطريق الثانى طريق الساحل لانهم ما كانوا حتى ذلك العهد يملكون اسطولا يعتمدون عليه في غزواتهم ومواصلاتهم البحرية وكان الروم يسيطرون في ذلك العصر على البحر الابيض وكان يعد بحيرة رومية

وصف هذا الطريق

ويبلغ طول هذا الطريق ١١٠٨ كيلو مترات كما قلنا وينقسم الى خمس مناطق في الوقت الحاضر وهذا وصفها :

١ - منطقة الاسكندرية - فوكا واتصل بينهما سكة حديد طولها ٢٣٥ كيلو مترا

تبتدىء من محطة الاسكندرية الكبرى ويسمى هذا الخط خط مريوط - الحمام

٢ - منطقة فوكا - مرسى مطروح والمسافة بينهما ٧٥ كيلو مترا
 ٣ - منطقة مرسى مطروح - السلوم والمسافة بينهما ٢٠٠ كيلو مترا وتنتهى
 حدود مصر غربى السلوم ، وتبتدىء حدود برقة او حدود ايطاليا فى الوقت الحاضر ،
 وتفصل بينهما صحراء واسعة تنتهى عند طبروق والمسافة بين السلوم وطبرق ٩٠
 كيلو مترا

٤ - طبروق - درنه ١٦٨ كيلو مترا

٥ - درنه - بنغازى ٢٥٠ كيلو مترا

هذه هى المناطق التى يتألف منها الطريق بين الاسكندرية وبرقة ، واكثرها
 غير معبد وتسير عليها السيارات بصعوبة ومعظم هذا الطريق غامر ولا سيما الجزء الممتد
 من مريوط حتى طبرق فدرنه

وصف هذا الطريق فى العهد الرومى

ويقول مؤرخو الدولة الرومية ان هذا الطريق كان عامرا فى اواخر العهد
 الرومى ، قامت على جانبيه الحدائق والبساتين وما كان الطراق يلقون عناء ولا إُنصبا
 فى اجتيازه

ويقول هؤلاء المؤرخون ان سهولة هذا الطريق وعمرانه كانت فى مقدمة
 الاسباب التى اغرت عمرا باجتيازه ، وبعثته على سلوكه من دون استئذان الخليفة لانه
 ما كان يرى داعيا لذلك ، سيما وانه كان يرمى من وراء عمله الى صيانة حدود مصر
 الغربية فلا يهدده الروم منها ، ولا يسير قوادهم الى الاسكندرية من هذه الناحية
 كما سار اليها نتماس ، حليف هركليوس وصديقه فى اثناء ثورتها المشتركة
 سنة ٦٠٩ م

ويؤكد بعض المؤرخين ان حدود مصر فى ذلك العهد كانت تنتهى حيث
 يتبديء اقليم قرنه « قيرين » وتنتهى عند الجانب الشرقى لمدينة درنه « دارنيس »

ومن ثم يبدأ اقليم مار مارريكا ، وكانت « اكسيس » و « بالوفياس » و بطراقس
وانتيرجوس من مدن هذا الاقليم

اما اقليم لوبيسا فكان يتدىء من مدينة پانورموس ومن مدنه المعروفة
قطابتموس وسيلنوس وامونيا او بر يطونوم وكانت قاعدة الاقليم

وكانت قاعدة اقليم مريوط مدينة اسمها مارية وهى مريوط نفسها فى الوقت
الحاضر ، ومن مدنه المعروفة پلنطين وتابسوريس وغيرها

وعلى كل حال فان ذكر اسماء هذه المدن وقد ورد بعضها محرفا فى كتب
المؤرخين العرب ، يدل على ان هذه المنطقة كانت عامرة لاغامرة كما هى اليوم ،
كثيرة الاشجار والماء ، مما يسهل مهمة الجيش الزاحف فلا يلقى فى اجتيازها تعباً
ولا نصبا

البربر

كان اقليم برقة يوم قصده ابن العاص مأهولا بعنصرين كبيرين : البربر وهم سكان البلاد الاصيلون ، والروم وهم الجالية المستعمرة من ابناء الدولة الفاتحة ، ويحاط هؤلاء عادة بالرعاية الزائدة ، ويمنحون من الامتيازات الاقتصادية والادارية والسياسية ما يكسبهم التفوق ويجعلهم سادة البلاد الحقيقيين ، ويجعل سكانها الاصيلين خولا لهم وعبيدا ، يخدمونهم ويحملون اليهم خيرات بلادهم ، ويجبون اليهم ثمراتها ، شأن الاستعمار والمستعمرين في جميع ادوار التاريخ ولا سيما في العهد الروماني فالبيزنطى وفي القرون الوسطى وفي العصر الحاضر

ولا بد لنا من القول بهذه المناسبة ان اقطاب اوربا المستعمرة يستثرون دفائن تاريخ الاستعمار الرومانى ، ويبحثونه فصلا فصلا وبابا بابا ، ليقتمدوا بالرومان ويأخذوا باساليبهم وخططهم فى ادارة البلاد التى كتب عليها ان تكون تحت نيرهم الاستعمارى الثقيل ، وفى اذلال ابناءها وسكانها ، اى انهم يحاولون الرجوع فى ادارة مستعمرانهم ١٦ قرنا الى الوراء ، مع ان العالم يسير الى الامام ويعمل على الغاء النظام الاستعمارى الظالم القاسى

اصل البربر

ولقد بحثنا مليا فيما لدينا من الكتب العامية عن اصل هذا الشعب ونشأته فألفينا اضطرابا وتباينا فى الروايات والاقوال عن اصله ونشأته ، ونحن ننقل ما عثرنا عليه فى شتى المصادر من عربية وافرنجية

قالت دائرة المعارف البريطانية : يطلق اسم البربر على الجنس الليبي الذى استوطن منذ فجر التاريخ المنطقة الواقعة بين البحر الابيض المتوسط والصحراء الكبرى ، والبقعة التى تمتد من مصر الى الاوقيانوس الاطلانتيكى
 واصل اسمهم مشكوك فيه فكان المصريون يسمونهم « لابو » « وشوشا »
 وغير ذلك من الاسماء ودعاهم الروم « نوميدىن » و « المور »

والبربر شعب ابيض ، لم يؤثر عليهم احد من الفاتحين تأثير العرب . ومع ذلك
 فـهـ يـتمـزـج هذان الشعبان امتزاجا تاما

وقرية البربرى هى دولته ، والحكومة عبارة عن الجماعة واعضاء القرية يقررون
 ما ينبغى عمله فى الداخل او فى الخارج ، ومع ان كل قرية مستقلة استقلاللا داخليا
 فقد تتحد احيانا قريتان او اكثر فتؤلف قبيلة ويؤلف عدد من القبائل اتحادا
 ومع ان لغة البربر تدل على وجود صلة بينها وبين اللغات السامية الا انها مستقلة
 عنها . ولهم كتابة خاصة بهم قديمة جدا ، تدل على وجودها الآثار القديمة الباقية فى
 افريقية الشمالية

وجاء فى دائرة المعارف العربية للبستاني فى مادة « بربر » ما خلاصته :

« بربر » اسم اطلقه العرب على كل القبائل التى كانت مواطنها بلاد المغرب
 بفريقية على حدود المملكة الرومانية القديمة هنالك . وقيل ان هذا الاسم مأخوذ
 من لفظه بر بارى الذى كان القدماء يسمون به القبائل المغربية ولم يكن فى الاصل
 مختصا بامة واحدة . ولفظة فر فارس باليونانية كلفظة بليوس باللاتينية مأخوذة من
 اللفظ او الصوت الذى يصدره الالغ . ثم صار عند اليونان يراد به كل من يتكلم بلغة
 تختلف عن لغتهم ، ولذلك سمو ايطاليا بر باريا ثم استعمل الرومان هذه الكلمة
 فدلّت فى زمان الجمهورية المتأخرة وفى السنين الاولى من دولتهم على كل الطوائف التى
 ليست يونانية ولا ايطالية

ولما اخضع الامبراطرة قبائل وشعوبا صاروا يطلقون اسم رومانى على كل

تبعثهم من اى طائفة كانوا ، واسم بربرى على من لم يخضع لهم من الامم ولذلك سميت كل بلاد لم تخضع للرومان او خضعت ثم عصت وخرجت عن طاعتهم باسم برباريكوم اى بلاد البربر

وقيل ان بربارى تولد منها لفظة برباريكوم و برباريكوم تولد منها لفظة برباريسى التى كانوا يسمون بها احيانا البرابرة الساكنين خارج حدود مملكتهم . والذين سكنوا برضى الامبراطرة فى الولايات الرومانية كانوا يسمونهم برابرة لطفاء ، ومن ذلك سميت قبيلة فى سردينيا باسم برباريسنى او براباجيا وهى موجودة الى الآن ، والناحية التى يسكنونها تسمى مستعمرة مغربية وهذه القبيلة نقلها الفنديون الى هناك ولم تخضع للرومان

وكذلك كانوا يسمون بحر الهند بالبحر البربرى ، لانه لم يكن يتصل ببلاد الرومان او هو خليج عدن . وسموا برباريكوم امبريوم فرضة على مصب نهر الهند . وسموا بربارى مدينة ذكر بطليموس انها كانت فى وسط الدلتا . وسموا بابارباس سواحل المانيا وما على ضفاف الدانوب لان الالمان استولوا عليها فسموا اذن باباريا القسم الواقع جنوبى مصر من افريقية

وفى قوانين كنيسة افريقية ان اسم فرفار يكون ، كان يطلق على الذين كانوا فى حدود موريتانيا . واما العرب فلما كان مركزهم الجغرافى يؤذن باتصالهم بأهل افريقية الشمالية بواسطة الرومان اقتضى ان يسموهم بالاسم الذى اطلقه الرومان . فيكون اسم بربر عند العرب يطلق على الذين كانوا على حدود مملكة الرومان اى الذين الى جنوبى مصر وهم البربر الاثوبيون والذين الى جنوبى وغربى ولايات افريقية القديمة وهم البربر الغربيون او الاطلانطيكيون

ويقول ابن خلدون فى تاريخه وهو مغربى الاصل ، ان اسم البربر مأخوذ من رطانة لغتهم وان افريقس بن قيس بن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا افريقية وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والامصار ، وباسمه كما زعموا سميت افريقية ، سمع رطانة

هذا الجيل من الاعاجم ووعى اختلافها وتنوعها فتعجب من ذلك وقال ما اكثر
بربرتكم فسموا بالبربر

ويقول الاستاذ فيفيه ان كل هذه الالفاظ يظهر انها مأخوذة من درورا باللغة
السنسكريتية ومعناها غريب

وقال غيره من العلماء الافرنج ان اسم بربر لا يطلق على امة مخصوصة والبرهان
على ذلك كون بربرة المغرب لم يكونوا يعرفون بهذا الاسم فكان اسمهم « امازيغ »
ومعناه عندهم حرا وسيدا ويظهر انهم كانوا يفتخرون منذ القديم بانهم حافظوا على
لنتهم واستقلالهم بين الامم الغربية . وقال شهاب الدين الفاسي ان وفد البربر لما
حضر امام الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح مصر قال له انهم من اولاد امازيغ الذين
كانوا دائما اصحاب البلاد الواقعة بين خليج العرب والبحر المتوسط . قالوا وقبل عهد
العرب كان اسم مازيس يطلق على شعب قوى اقلق الرومان كثيرا بثوراته . وذكر
بطليموس ان هذا الشعب لم يكن الا في قسم من موريتانيا . واما اسطفانوس
البيزنطي واتيكوس وكثير غيرهما من المؤلفين القدماء فقد لوحوا ان اسم مازيس
يطلق على اهل افريقية وهذا مما ينفي الريب في كون الامة العظيمة التي كانت في
شمال افريقية كانت تسمى في عهد الرومان بنفس اسم لامازيغ . وكل هذا
الاختلاف في الاسماء والآراء وما ذكره بعد ذلك لا ينافي اتفاق العرب على كون اسم
« بربر » اختص بهذه الامة في شمال افريقية ، وان كانوا قد اطلقوه على الامة
الأثوية

اقوال علماء النسب من البربر

ويقول ابن خلدون ان علماء النسب من البربر جمعون على انه يجمعهم جدان^{١٥}
عظيمان : وهما برنس ومادغيس ويلقب هذا بالابتر ويقال لشعوبه البتر ، ويقال
لشعوب برنس البرانس وهما من ابناء بر . وبين النسابين خلاف هل هما لاب واحد
فابن حزم يقول انهما لاب واحد

وقال سالم بن سليم الحطماطي وصابي بن مسرور الكوجي وكهلان بن ابي له
 وهم نسبة البربر ان البرانس بتر وهم من نسل مازيغ بن كنعان والبر بنو بر بن
 قيس بن عيلان الخ

واختلف النسابون ايضا في نسب هذه الامة والى اى اصل يرجع من الاصول
 فمنهم من قال انهم من العرب وانهم من اولاد قيس بن عيلان ، وهو قول غير صحيح
 على انه لاخلاف في ان كتامة وضمهاجة من حمير بقوا هناك لافريقش حينما غزا
 المغرب

وقيل ان البربر اخلاط من كنعان والعاليق وانهم من بقية قوم جالوت
 الجبارين الذين قاتلهم داود وطالوت فلما قتل جالوت دخلوا المغرب فحلوا في جبالها
 وقتلوا اهل بلادها ثم صالحوهم على شئ يأخذونه منهم واقاموا في الجبال الحصينة .
 وقيل لما قتل جالوت وكانت منازلهم في فلسطين تفرقوا في البلاد ونقلهم افريقش من
 سواحل الشام واسكنهم افريقية وسماهم بربرا . وقيل هم من ولد فازان بن عمليق
 بلعم بن عامر بن اشيلخ بن لاوذ بن سام بن نوح ، وقيل من ولد حام بن نوح بن
 بربر بن تملان مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح . وقيل من ولد بربر بن كسلاجم
 ابن مصرايم بن حام بن نوح ، وقيل من ولد بربر بن تملان بن مارب بن فاران
 المذكور ، وقيل هم من ولد ابراهيم وقيل اوزاع من اليمن من غسان وغيرهم ،
 تفرقوا عند ما كان سيل العرم . وقيل تخلفهم ابرهة ذو المنار بالمغرب . وقيل من لحم
 وجذام وكانت منازلهم فلسطين فاخرجهم منها بعض ملوك فارس فاما وصلوا الى مصر
 منعمهم ملوك مصر النزول فعبروا النيل وانتشروا في البلاد . وقيل هم من ولد النعمان
 ابن حمير بن سبأ وان النعمان هذا استدعى ابناءه وقال لهم اريد ان ابعث منكم الى
 المغرب من يعمره فراجعوه في ذلك فلم يقبل الا ما قصد وبعث منهم لمت ابا لمتونه
 ومسفو ابا مسفورة ومرطا ابا هسكورة واطال ابا ضنهاجة ولط ابا لمطة وايلان ابا
 هيلانة فنزل بعضهم ببجل درن ، وبعضهم بالسوس ، وبعضهم بزرعة ، ونزل لمط عند
 كزول وتزوج ابنته ونزل جانا وهو ابو زناتة بوادي شلف ، ونزل بنو مرتجين ومغراو

باطراف افريقية من جهة المغرب ، ونزل مقرونة بمقرته من طنجه

وقال بعضهم : البربر قبائل شتى من حمير ومصر والقبط والعالقة وكنعان
وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسامهم افريقش البربر لكثرة كلامهم وانه استجاشهم
افتح افريقية

والارجح على ما ذكر مؤرخو اليونان والعرب واليهود انهم من فلسطين او
الجزيرة جالية هاجرت من آسيا على طريق افريقية الى المغرب ، او كما ذكر
البكرى والمسعودى انهم فروا بعد ما قتل جالوت الى مصر فاجلتهم القبط فسكنوا
برقة وافريقية والمغرب بعد حرب الافرنج والافارقة واجازوهم الى صقلية وسردينيا
وميورقة بالاندلس . ثم اصطلحوا على ان المدن للافرنج وهم يسكنون القفار في
الحيام . وانتجعوا الامصار من الاسكندرية الى البحر والى طنجة والسوس حتى جاء
الاسلام . وكان منهم من تهود ومن تنصر ، وآخرون بقوا مجوسا يعبدون الشمس
والقمر والاصنام ولهم ملوك ورؤساء

هذا ما اردنا اثباته من اقوال متقدمى العلماء ومتأخريهم من عرب واوربيين
في اصل البربر ونشأتهم ، والذي عليه المعول هو انهم شعب مستقل ، وانهم من ولد
كنعان بن حام بن نوح وان اسم ايهم مازيغ وانهم هاجروا من فلسطين على اثر
حروبهم مع الاسرائيليين الى افريقية الشمالية وتديروها ولا يزالون فيها حتى الآن .
وقد دخلوا في الاسلام حينما وصل المسلمون الى بلادهم ، وساعدوا في فتح الاندلس
واسبانيا وسنفضل ذلك في مكانه

الإسلام والبربر

لم تكن هنالك صلات مادية او اديبية او اقتصادية تصل بين العرب والبربر ، لاختلاف الدار وبعدها ، ولصعوبة المواصلات وقتها ، فهؤلاء ينزلون في شمالي افريقية وهؤلاء يقطنون في غرب آسيا ، وبينهم شاسع المسافات ، ومئات الاميال وتبدل الحال حينما احتل المسلمون الشام وفلسطين وامتلكوا مصر وبلغوا حدود برقة ، وهي اول بلاد البربر ، والمتفق عليه ان حدود بلادهم كانت تمتد من اقصى حدود مصر الغربية حتى المحيط الاطلسي وتشمل مقاطعات هذا الاقليم الخمسة وهي : برقة (بنغازى) وطرابلس الغرب ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الاقصى ، فقد كانت باديتها وجبالها وبعض مدنها مأهولة بآبناء هذا العنصر ، وكانت هنالك بالطبع جالية رومية كبيرة تقطن العواصم والمدن الكبرى ، ولا يخلو الامر من جالية يهودية صغيرة وكان الروم يسيطرون على هذه البلاد ، وقد فصلوا بين اجزائها سياسيا واداريا ، على الطريقة التي يتبعها الفرنسيون والاطليان الآن في ادارة هذه لاقليم ، فكان لكل مقاطعة منها حاكم ادارى يرجع الى القسطنطينية مباشرة ، فلبرقة حاكم وطرابلس الغرب حاكم ، وتونس حاكم . والقصد من ذلك تمزيق وحدة الشعب البربرى ، فلا يجتمع ولا يتفق . ويسير الفرنسيون ايضا على هذا المنوال في حكم الاقطار الخاضعة لهم بافريقية الشمالية ، فكل قطر منها - وهي الجزائر وتونس والمغرب الاقصى - حكومة مستقلة قائمة بذاتها ، ومنفصلة عن جارتها انفصالا تاما . ويرجع حكام هذه المقاطعات الى باريس ويتلقون التعليمات منها مباشرة . وانشأ الايطاليون حكومة مستقلة في طرابلس الغرب ولهم مثلها في بنغازى مع تجاوز المقاطعتين

وقد وافق مجلس وزراء ايطاليا في اكتوبر سنة ١٩٣٤ على مشروع يقضى بتقسيم البلاد الى اربعة اقاليم في كل واحد منها حاكم مستقل وهذه الاقاليم هي طرابلس ، مصراته ، بنغازى ، درنه

والمرّة الاولى التي اتصل فيها الاسلام بالبربر ، كانت حينما زحف عمرو بن العاص الى برقة فاخضعها واخضع طرابلس الغرب ، واقام فيهما حامية عسكرية واستأذن عمرو من مقامه في طرابلس الغرب الخليفة في الزحف الى تونس وفتحها فعارضه وامره بالرجوع كما تقدم فتوقف بذلك الفتح العربي في عهد عمر على انه مالبث ان استؤنف في عهد عثمان كما يأتي فاتحد الشعبان العربي والبربري تحت راية الاسلام وصاروا ولا يزالون من جنده المخلصين

البربر في آخر العهد الرومي

كانت الشرائع الرومية هي الشرائع النافذة في افريقية الشمالية اى فى المقاطعات الخمس وهى : برقة ، وطرابلس الغرب ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الاقصى ، عند ظهور الاسلام

وكان لكل مقاطعة من المقاطعات الثلاث الاول حاكم رومى يمثل حكومة القسطنطينية وينفذ شرائعها وتعليماتها ، ويرسل اليها الاموال اى انه لم تكن هنالك صلة مباشرة بين هؤلاء الولاة

وكان البربر وهم الاكثرية المطلقة فى هذه الاقاليم يسكنون الجبال والصحارى والمدن الداخلية ، اما الاجانب من روم واسبانيين ويهود فكانوا ينزلون المدن الساحلية بقرب ممثلى الحكومة والجند ، وكان عدد الذين يوغلون فى الداخل منهم او ينزلون الجبال قليلا

ويرى بعض مؤرخى الدولة الرومية ان قبائل البربر كانت تتمتع بشبه استقلال داخلى ، وكانت تدير شؤونها طبقا لاعرافها وتقاليدها ، فلا يتدخل ولاة الامور الا عند الحاجة ، ويقولون ايضا ان النظم الداخلية لهذه القبائل ما كانت تختلف كثيرا عن النظم الداخلية للقبائل العربية ، فهنالك كما هنا قبائل وانغاذ و بطون وزعامات وشياخات ينقادون اليها ويلتفون حولها

ولقد اصاب سكان هذه الاقليم فى اواخر عهد الدولة الرومية من الظلم والاضطهاد وسوء الادارة ما اصاب سكان المقاطعات الاخرى من رعايا تلك الامبراطورية

الواسعة الاكفاف ، جأر عليهم العمال واضطهدوهم ، واسرفوا في فرض الضرائب
وابتزاز الاموال ، فنفر الناس منهم ، وفي جملةهم البربر ومقتوهم ، وملوا حكمهم ، ولم
يجد المسلمون كبير عناء في افتتاح اقليمي برقة وطرابلس حينما زحفوا عليهما .
ودارت بين المسلمين والبربر في خلال فتح تونس وبعده ولا سيما في العهد الاموى
معارك سيأتى وصفها

البربر والاسلام وفرننا

نريد بهذه المناسبة ان نقول كلمة عن حالة البربر اليوم وعن الصلات القائمة بينهم وبين الحكومة الفرنسية ، وهي تحتل المقاطعات الثلاث : تونس والجزائر والمغرب الأقصى وتسيطر عليها سياسيا وعسكريا فقد لا يخالو ذلك من فائدة

بدأ الاحتلال الفرنسي في افريقية الشمالية سنة ١٨٣٠ فقد اغار الفرنسيون على ذلك الاقليم العربي متذرعين ببعض الاسباب فقاومهم سكانه مقاومة عنيفة فتغلبوا عليهم واخضعوهم وفي سنة ١٨٨٢ احتلوا تونس وسيطروا عليها وفي سنة ١٩١٢ اتبعوا بهما المغرب الأقصى

وكان في مقدمة المشروعات التي فكر الفرنسيون في تنفيذها بعد الاحتلال مشروع يقوم على احياء القومية البربرية وبعثها من مرقدتها ، ونشر اللغة البربرية القديمة ، واحياء التقاليد البربرية البالية

وبديهى ان الغاية من هذا التدبير ، هو التفريق بين العرب والبربر وفصلهما بعضهما عن بعض ، واستمالة العنصر البربرى لانه الاضعف فعدد نفوسه في الاقطار الثلاثة لا يزيد على الاربعة ملايين - كما يؤكد بعض الباحثين من المغاربة - يسكنون الجبال في المغرب الأقصى والبادية في الجزائر ، ومعظمهم اميون ، في حين ان سكان المقاطعات الثلاثة لا يقاون عن ١٩ مليوناً ، هذا بيان تقريبي عنهم :

المغرب الاقصى	١٠
تونس	٥
الجزائر	٤
	<hr/>
	١٩

على ان هنالك من يدعى ان عدد النفوس في هذه الاقطار اكثر مما ذكرنا ويقاوم العرب المسلمون في الجزائر والمغرب الاقصى - حيث يقطن البربر ، وعددهم قليل في تونس كما يظهر - هذه السياسة مقاومة شديدة ويعملون على احباطها ، لانهم ادركوا مراميها وعرفوا ان الغاية منها تمزيق الوحدة الوطنية في بلادهم وتفريق كلمتهم ، واقضاء اخوانهم في الدين والوطنية عنهم

لقد بدأت فرنسا عملها من سنة ١٨٥٩ ، اى بعد استيلائها على الجزائر باحدى عشرة سنة فقط ، فأصدرت قانونا يقضى بمنع القبائل البربرية من الخضوع لأحكام الشريعة الاسلامية ، مع انهم مسلمون قلبا وقالبا

وثارت القبائل البربرية في سنة ١٨٧١ على الفرنسيين بقيادة سيدى المقرانى وكانت فرنسا خارجة من حربها مع المانيا مهيضة الجناح ، فأصلتها نارا حامية ، وهزمتها في معارك كثيرة ، وحاصرت الفرنسيين في معسكراتهم فباءوا بقوات كبيرة من فرنسا اخضعت القبائل وصادرت اراضيها وممتلكاتها ووزعتها على المهاجرين الفرنسيين الذين جاءوا من الازراس واللورين

واصدرت فرنسا في سنة ١٨٧٤ قانونا جديدا يقضى على القبائل البربرية بان تحتكم الى قضاة من الفرنسيين ، يولون للحكم بينها ، باسم قضاة الصلح ، ويطبقون عليها « العوائد البربرية » فيما يتعلق بالاحوال الشخصية والموارث والعقود المدنية او التجارية والعقارات ، ومع ان هذا القانون كان يلزم القاضى الفرنسى ان يستعين باحد البربر في اصدار احكامه الا ان قانونا آخر صدر في سنة ١٨٩٩ فحدد هذه المساعدة وضيق نطاقها وحصرها في الاحوال الشخصية ، فأصبح الفرنسيون

بذلك يسيطرون على القضاء ويخضعون هذه القبائل للشريعة الفرنسية بدلا من الشريعة الاسلامية وهي دينهم ومذهبهم

وما كاد الفرنسيون يحتلون المغرب الاقصى في سنة ١٩١٢ حتى عكفوا على احياء القومية البربرية وتطبيق الخطط التي طبقوها في الجزائر فأنشأوا مدرسة اسمها « مدرسة اللغة العربية واللهجات البربرية » ثم استصدروا في سنة ١٩١٤ مرسوما من سلطان المغرب الاقصى جاء في مقدمته « نظرا الى ان قبائل جديدة تنضم يوما فيوما الى الامبراطورية المغربية ، ونظرا الى ان هذه القبائل من الجنس البربري لها قوانين وعادات خاصة ، تستعمل من القديم ولها بها تعلق شديد ، ونظرا الى انه يلزم لخير رعايانا وطمانينة اياتنا السعيدة رعاية الحالة العرفية التي تدبر هذه القبائل اصدر جلالة السلطان امره بما يأتي :

المادة الاولى - قبائل العرف البربري تكون محكومة ومنظمة طبق قوانينها واعرافها الخاصة ، تحت مراقبة السلطات وتبقي محكومة ومنظمة كذلك

المادة الثانية - تصدر قرارات من وزيرنا الاكبر (رئيس الوزراء) بالاتفاق مع الكاتب العام للحكومة الشريفة تعين شيئا فشيئا وحسب الحاجة :

١ - القبائل التي تدخل في دائرة الوطن البربري

٢ - نصوص القوانين والتنظيمات التي تطبق على قبائل العرف البربري

وكان صدور هذا المرسوم اول نجاح ادركته السياسة الفرنسية في تنفيذ خطتها القائمة على التفريق بين العرب والبربر ، كما كان اول مرسوم سلطاني ينطوي على الاعتراف بالقومية البربرية ، وقد انقضت القرون والدهور والبربر يحكمون بأحكام الشريعة الاسلامية ويخضعون لها

وفي سنة ١٩١٥ الف المارشال ليوتي ممثل الحكومة الفرنسية في المغرب الاقصى وهو الذي تم على يده احتلال هذا الاقليم لجنة للباحث البربرية مهمتها جمع المعلومات المتعلقة بالقبائل البربرية من جهة اطراف المغرب واستخراج نتائج عملية من هذه المعلومات تساعد على تنظيم هذه القبائل وادارتها على منوال يتفق مع المصلحة

الفرنسوية ، وقد ادت هذه اللجنة مهمتها ووضعت تقارير مطولة ، وكان من نتائج
 أبحاثها انشاء « جماعات بربرية » ووضع انظمة قضائية لها ، ويبلغ عدد هذه الجماعات
 الآن نحو ٨٩ جماعة في المغرب الاقصى ، تقضى في ٤٠ مركزا من المراكز الادارية
 وجهزت كل جماعة من هذه الجماعات بكتاب فرنسويين اختاروهم من بين الضباط
 العسكريين او الضباط المترجمين . ثم صدر في سنة ١٩١٥ قرار يقضى بان تكون
 اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية لهذه الجماعات تكتب بها القرارات وتسجل العقود
 وكانت الخطوة الكبرى التي خطاها الفرنسيون ، استصدارهم في سنة
 ١٩٣٠ مرسوما سلطانيا آخر جاء في المادة الاولى منه « ان جميع المخالفات التي يرتكبها
 المغاربة في القبائل ذات العوائد البربرية والتي ينظر فيها القواد « المحافظون والمدبرون »
 في نواحي مملكتنا السعيدة يفصل فيها رؤساء القبائل انفسهم

وجاء في المادة الثانية : ان القضايا المدنية والتجارية والمختصة بالعقارات
 والمنقولات تنظر فيها محاكم خصوصية تدعى بالمحاكم العرفية ابتداءيا او نهائيا طبقا
 للحدود التي يجرى تعيينها بقرارات وزارية كما تنظر هذه المحاكم نفسها في جميع
 القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية او بامور الارث وتطبق في كل هذه الاحوال العوائد
 المحلية

وجاء في المادة الرابعة : ان المحاكم الاستثنائية العرفية تنظر في القضايا الجنائية
 ابتداءيا ونهائيا ، وتنظر كذلك في جميع المخالفات التي يرتكبها اعضاء المحاكم العرفية
 التي في دائرة اختصاصاتها الاعتيادية رئيس القبيلة

وجاء في المادة الخامسة : انه يجعل لدى كل محكمة عرفية ابتداءية او
 استثنائية مندوب مفوض من قبل الحكومة الفرنسية بالناحية التي يرجع اليها امر
 المحكمة

وجاء في المادة السادسة : ان المحاكم الفرنسية التي تفصل في القضايا الجنائية
 طبقا للقوانين الخاصة بها لها الحق في نظر الجنايات التي ترتكب في النواحي البربرية ،
 كيفما كانت حالة مرتكب الجناية

ولقد اثار نشر هذا المرسوم ضجة شديدة في المغرب الاقصى وهزه هذا عنيفا فاحتج الناس عليه . ولا يزال النضال دائرا بين المسلمين المغاربة وبين الفرنسيين على مصير البربر ، فهؤلاء يحاولون انتزاعهم من الاسلام مستعينين على ادراك اغراضهم بما يملكون من قوى مادية و بطوائف المبشرين الكاثوليك وقد انتشروا في كل مكان وبما يتخذونه من تدابير تشريعية وقضائية وادارية يظنون انها كفيلة بتحقيق ما يصبون اليه ، ويعمل العرب جهدهم لاحباط هذه السياسة وهي في نظرهم مخالفة لجميع القواعد المدنية والسياسية وللاتفاقات المعقودة بين حكومة المغرب وفرنسا

عمرو في برقة

المتفق عليه بين المؤرخين ان غزو برقة كان في اواخر سنة ٢٢ واول سنة ٢٣ اى بعد فتح الاسكندرية الاول وقبل ثورة مانويل ، فقد اعد عمرو عدته لغزوها بعد اجلاء الروم نهائيا عن مصر وفراغ الجيش الذي كان يحاصر الاسكندرية من كل عمل عسكري

و يدل سير الحوادث على ان عمرا عاد الى الفسطاط من الاسكندرية بعد ما نظم امورها ، واقام فيها حامية للمحافظة على حصونها ، ولم يطل الاقامة هنا بل اسار على رأس حملة الى جهات مصر السفلى فأخضع المدن المقيمة على عهد الروم كما اخضع بعض مدن الدلتا الشمالية ، ثم قصد برقة لعدم وجود عائق يعوقه بعد ما خضعت البلدان الواقعة على حدودها وقدمت الطاعة

ولا يخفى ان المسافة بين منتهى حدود مصر الغربية وبين برقة غير بعيدة فهي لا تزيد على ٥٠٠ كيلومتر تقريبا ، اى انها لا تحتاج الى معدات خاصة للاستيلاء عليها ، ولم تكن فيها - كما تدل الدلائل - حامية رومية كبيرة ، فقد غادرت الحامية الاصلية مقرها في اثناء هركليوس الاولى ، واستقرت في الاسكندرية بعد ما حاربت انصار الامبراطور فوكاس في القطر المصرى ونازلتهم في معارك كثيرة فهزمتهم وانزعت القطر منهم ، وجاء الفرس بعد ذلك فانزعوه منها ، وشتوا شملها ، ويكاد يكون من المحقق ان الفرس وصلوا في غزوهم غربا الى برقة ، مدة احتلالهم للقطر المصرى نفضت لهم وانقادت اليهم ، ثم عاد الروم فاستولوا عليها بعد جلاء الفرس وانشأوا حكومة جديدة هي الحكومة التى قضى عليها عمرو حين زحفه

ولم يكن في مقاطعتي بركة وطرابلس الغرب من الحصون وخطوط الدفاع
ما كان في الشام وفلسطين ومصر لانها واقعة في وسط ممتلكات الروم ، ولانه ما كانت
هنالك دولة محادة لهما يخشى من غارة تغيرها

ويستثنى من ذلك مدينة طرابلس الغرب فقد كانت محصنة بعض تحصين
ومدينة بركة عاصمة هذا الاقليم ، فقد وصفها المؤرخون بانها كانت محصنة
كجارتها وشقيقتها

برقة تسلّمهم

لانظن ان عدد الجيش الذى زحف به عمرو الى برقة زاد عن بضعة آلاف سالك بهم طريق الساحل ، فبلغ برقة من دون عناء فلم يلق مقاومة فى الاستيلاء على هذا الاقليم كما يقول المؤرخون العرب ومؤرخو الدولة الرومية والقبط ، ولم يشهر سيفاً ، بل اسرع حاكمها الرومى فصالحهم على الجزية ، ومما نص عليه فى شروط الصلح :

- ١ - ان يحمل هؤلاء الجزية الى مصر ويدفعوها الى خزينتها ، فلا يتولى جباة المسامين جمعها مباشرة
- ٢ - ان يباح لهم بيع اولادهم ليتداركوا الجزية المضروبة عليهم

فتح طرابلس الغرب

طرابلس الغرب

معلومات جغرافية موجزة عنها

طرابلس الغرب احدى مقاطعات افريقية الشمالية يحدها من الشمال البحر الابيض ومن الغرب تونس وافريقية الغربية الفرنسية وافريقية الاستوائية الفرنسية ، ومن الشرق برقة ، ومن الجنوب الصحراء ، ومساحتها السطحية ٤٩٠ الف كيلومتر

وسكانها فى الوقت الحاضر ٥٥٠ الف وهم عرب مسلمون . وقد هاجمها الايطاليون فى سنة ١٩١١ واخرجوا منها الترك ، واستولوا عليها

الرومان في طرابلس

طرابلس او اطرابلس مدينة قديمة في افريقية الشمالية ، عاصمة الاقليم المعروف باسمها ، ويقال انها كانت تسمى او ايات وهو لفظ بربرى ، حرفه الروم الى (او) ومعناه بالاغريقية واللاتينية المدن الثلاث والمقصود بها طرابلس نفسها وسبراتا ويسمىها العرب صبرة واسمها البربرى زواغة ، وليدس وتسمى الآن لبدة ، ولم يبق منها الا آثار ماثلة هنا وهناك

ولقد خضعت طرابلس للفينيقيين (حكومة صور) واتطمت في عداد مستعمراتهم ثم ضمت الى ممتلكات قرطاجنة حينما نشأت هذه سنة ٨٤٦ قبل الميلاد ، ولما غلبت روما قرطاجنة ودوختها سنة ١٤٦ ق . م ضمت اليها طرابلس تخضعت لها حتى سنة ٤٣٥ ميلادية اى حتى غزوة جنسريك ملك الفندال فقد جاءها من اسبانيا واستولى عليها وعلى برقة واقام فيها الفندال حتى سنة ٥٣٣ م فهاجمها القائد بيليساريوس واستولى عليها كما استولى على برقة وانضمت بعد ذلك الى حكومة الروم البيزنطية حتى جاء العرب هذا الاقليم فاستولوا عليه بدون مقاومة تذكر في سنة ٦٣٣ هـ و ٦٤٦ م فدخلها بدخولهم الاسلام وانتشرت فيها اللغة العربية ولا تزال لغتها ولا يزال الاسلام دينها

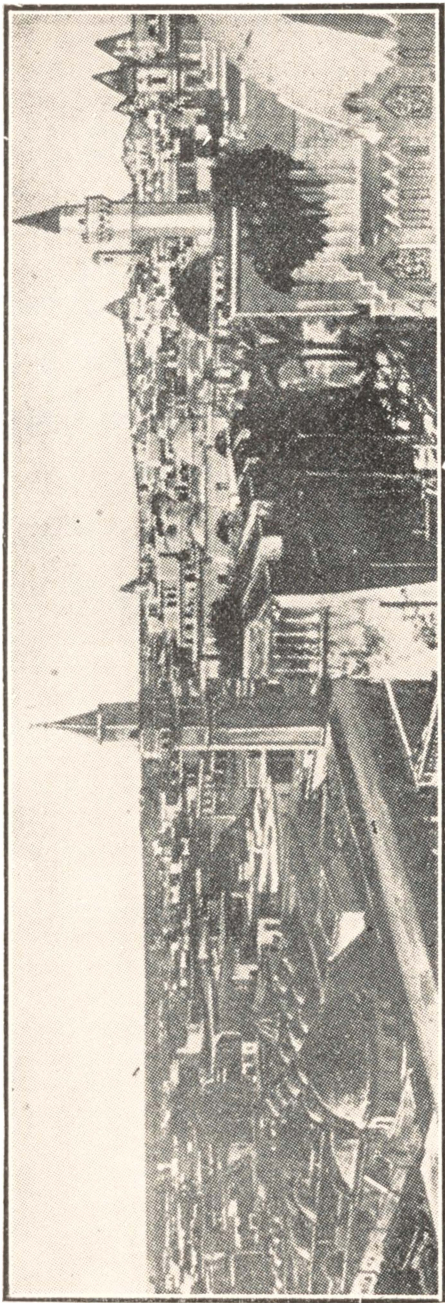
عمرو يفتح طرابلس الغرب

واصل عمرو الزحف بجيشه نحو الغرب بعد ما فتحت له برقة واستسلمت اليه فتصد طرابلس الغرب ، وهي جارتها وشقيقتها ، وحدودهما متصلة وتبعد مدينة برقة عن مدينة طرابلس ١٢٠٠ كيلومترا

وسلك عمرو في سيره الى طرابلس طريق الساحل طبعاً ، لانها الاسهل والاقرّب فسار الى سرت ومنها الى عين تاورغا فمصراته وزليطن والخمس وترهونة وتاجوراء وهي آخر مراحل هذا الطريق . وبلغ طرابلس بدون حادث وكان للروم فيها حامية عسكرية كما تدل الدلائل ، وكانت ذات حصون وابراج ، فلجأت الحامية الى الحصون واغلقت الابواب

وضرب عمرو الحصار على المدينة ونزل حول اسوارها من الشرق والغرب والجنوب ، ولم يكن له سبيل الى حصارها بحراً ، وبين المؤرخين خلاف في تحديد مدة الحصار فبعضهم يقول انها شهر ويقول آخرون انها ثلاثة اشهر ، ونزل عمرو في شرقي المدينة واقام يتحين الفرص لافتتاحها ، وخرج يوماً من المعسكر العربي رجل من مدح يتصيد ومعه ستة من اخوانه فمضوا غربى المدينة حتى امعنوا في البعد عن المعسكر ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقا بالمدينة ، ولم يكن بينهما سور ، وكانت سفن الروم شارعة في مرساها الى بيوتهم ، فنظر المدلجى وامحابه

فاذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ، ووجدوا مسلكا لها من الموضع الذى انحسر عنه ، فدخلوا حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا فلبجأ الروم الى سفنهم وابصر عمرو اصحابه الستة فى جوف المدينة فأقبل بجيشه فلم يفلت الروم الا بما خف فى مراكزهم وغنم العرب ما كان فى المدينة واستولوا عليها



مدینة طرابلس الغرب كما ترى اليوم

فتح جبرة

وما كاد عمرو يتم فتح مدينة طرابلس حتى جهز سرية سارت الى سبرة واسمها الآن صبرة وهي الى غربى طرابلس على الطريق بينها وبين زوارة وتبعد عنها ٦٠ كيلو مترا وكانت محصنة فبلغتها خياله واهلها غافلون لا يعرفون شيئا عن مصير طرابلس فدخلتها ، واستولت عليها ، وهدمت سورها وارتحل عمرو بعد فتح طرابلس الى شروس (مدينة قديمة فى جبل نفوسه - الجبل الغربى) ففتحها ومعنى ذلك انه كان يسير غربا فى اتجاه تونس

لماذا لم تفتح تونس؟

اتم عمرو وفتح برقة وطرابلس الغرب وصبرة واحتل شروس وهي مدينة في جبل نفوسة (الجبل الغربي) بينها وبين طرابلس ١٥٠ كيلومترا وخرب سورها ، ووجه عمرو حينما كان ببرقة عقبة بن نافع الى زويلة فافتتحها بصلح . وارسل وهو يحاصر طرابلس بشر بن ارطاة الى ودان فافتتحها وهي قلعة حصينة واراد عمرو بعد ما تم له اخضاع هذين الاقليمين الكبيرين العظيمين ، ولم يلق في احتلالهما عناء ولا نصبا ، ان يحتل تونس والجزائر وبقية اقطار افريقية الشمالية والغربية فكتب الى الخليفة من مقامه في طرابلس - وهو ما نرجحه - يستأذنه في الزحف على افريقية ويريد بها الاقطار الواقعة غربي طرابلس ، وما كان رجال ذلك العصر يعدون طرابلس وبرقة من افريقية كما تدل كتبهم وآثارهم . لانه ادرك ان مثل هذه الحركة تحتاج الى اجازة خاصة ، وليست كغزو طرابلس وبرقة ، فاباها الخليفة عليه وامره بان يكف عنها فلم يسعه سوى الاذعان والخضوع

فتوحات عمرو بن العاص

كان فتح هذين الاقليمين العظيمين آخر فتوحات عمرو بن العاص ، فهو لم يفتح بعدهما بلادا ، اذا استثنينا ثورة الاسكندرية ، وقد وقعت بعد فتحهما ، وقد ابلى البلاء الحسن في اطفائها كما تقدم
 واذا اضفنا فتح هذين الاقليمين الى فتوحات عمرو الاخرى علمنا انه فتح الاقطار الآتية :

- ١ - فلسطين فقد فتحت على يده وكان قائد اول جيش اسلامي وجه اليها وقد استمر خمس سنوات يقاتل فيها
- ٢ - مصر وقد تم فتحها على يده
- ٣ - برقة
- ٤ - طرابلس الغرب
- ٥ - السودان

وفضلا عن ذلك فقد اشترك في معركة اليرموك الكبرى وكان قائد جناح العرب الايمن وقام بحركة التفاف على جناح الروم الايسر عجلت في هزيمتهم وسن سنة فتح افريقية ، ولا نشك في انه لو اجاز له الخليفة مواصلة الزحف غربا لما وقفت خيله الا على شواطئ المحيط الاطلسي اى في نهاية المغرب الاقصى ، وهو ما تم بعد ذلك على يد عبد الله بن ابي سرح وعقبة بن نافع ، وبالاجمال فان عمرو بن العاص هو اول من نبه اذهان المسلمين الى فتح مصر والى فتح افريقية الشمالية ففتحت هذه الاقطار كلها بعد ذلك كما فتحت الاندلس وايطالية وجنوبي فرنسا وانتشر الاسلام في تلك الربوع

فتح تونس

تونس

معلومات جغرافية موجزة

تونس قطر عربي اسلامي يقع على شواطئ افريقية الغربية الشمالية تحده
طرابلس شرقا والصحراء جنوبا والجزائر غربا والبحر الابيض شمالا
ومساحة هذا القطر السطحية اليوم ١٦٧٤٠٠ كيلومتر وعدد سكانه خمسة
ملايين من المسلمين العرب

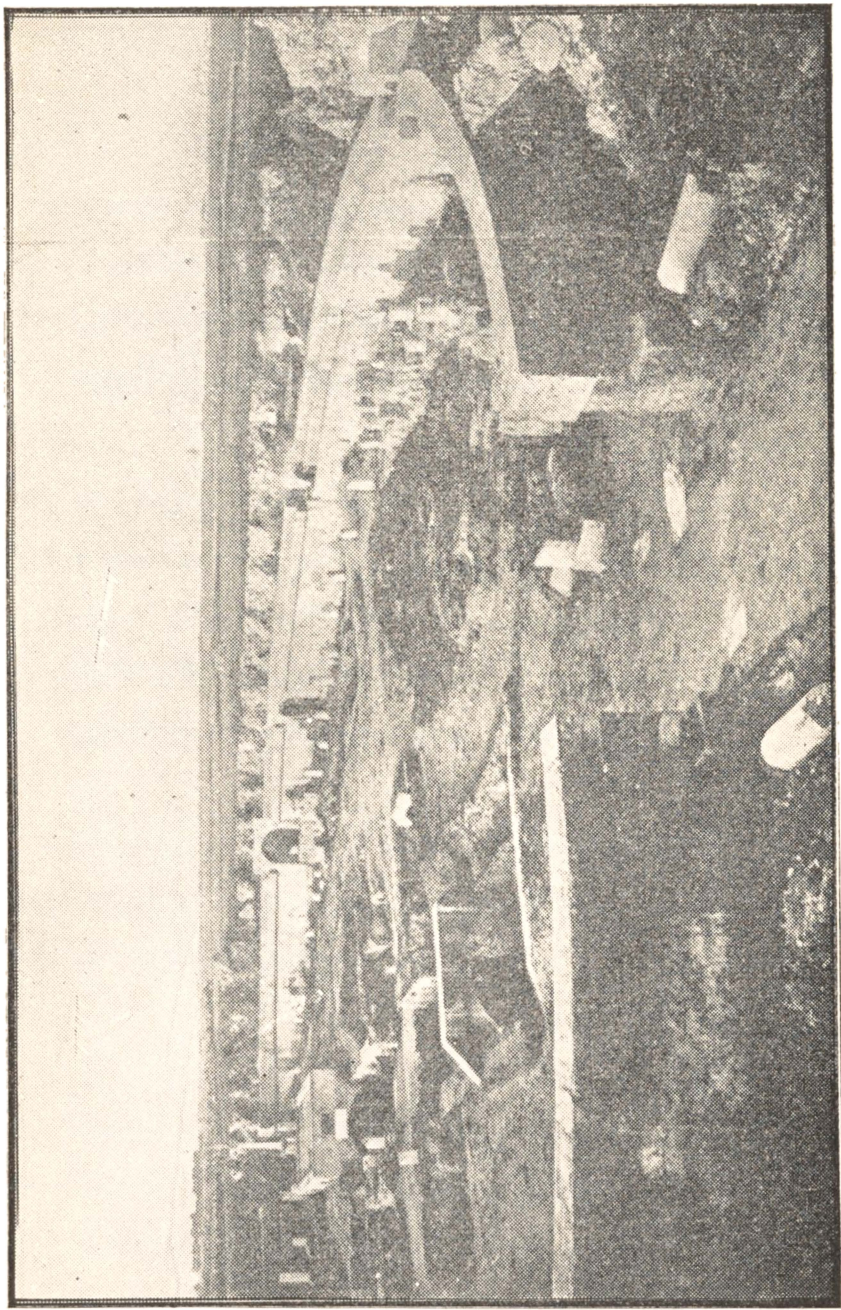
قرطاجنة في التاريخ

لم تكن مدينة تونس الحاضرة - وهي عاصمة هذا الاقليم اليوم - ذات شهرة
 لا في العهد الفينيقي ولا في العهد الروماني ، وانما كانت قرطاجنة - ولا تزال آثارها
 بقرب تونس ، عاصمة البلاد - وكان نفوذها يشمل المنطقة الممتدة من شرقي طرابلس
 الغرب حتى المحيط الاطلسي اى انها كانت تضم في ذلك الوقت تونس والجزائر والمغرب
 الاقصى ، وهي الآن مقاطعات عربية كبيرة تخضع لفرنسا وتستظل برايتها
 ولا بد للباحث في تاريخ تونس القديم من الالمام بتاريخ قرطاجنة لانه تاريخها
 فقد بسطت نفوذها على الاقاليم المجاورة لها في ابتداء امرها ثم تغلب عليها الرومان
 ودمروها تدميراً ثم جددوا بناءها بعد ذلك فظلت قائمة حتى جاء العرب من المشرق
 فقهروها واستولوا عليها

ولقد قسمت دائرة المعارف البريطانية تاريخ قرطاجنة الى خمسة ادوار :

الدور الاول : وهو دور الانشاء والتأسيس

وخلاصة ما يقال في هذا الدور ان الفينيقيين من سكان صور (مدينة صغيرة
 الآن في جنوبي سورية من اعمال بيروت كانت عاصمة فينيقية الكبرى) ويكاد علماء
 التاريخ الحديث يجمعون على ان اصل الفينيقيين عرب هاجروا من البحرين (شرقي
 جزيرة العرب الشمالي) الى جنوبي سورية وتديرها واسسوا فيها تلك النهضة
 العظيمة ومعنى ذلك ان فينيقية العربية هي التي انشأت مستعمرة قرطاجنة في خليج
 تونس سنة ٨١٣ - ٨١٤ قبل الميلاد بعد مادمر نبوخذ نصر الكلداني عاصمتها



مدينة قرطاجنة اليوم - تونس

وتم قرطاجنة نموها عظيما في هذا الدور واصبحت سيدة البحر المتوسط وبسطت نفوذها على ساحل اسبانيا وساحل صقلية والجزر المجاورة للساحل الاسباني وبلغت منتهى العظمة والسؤدد

٢ - الدور الثاني : هو دور النزاع مع اثينا ويبدأ هذا الدور في سنة ٥٥٠ قبل الميلاد وفيه بدأت الحروب بين قرطاجنة واليونان واستمرت حتى سنة ٢٦٥ قبل الميلاد ، فتغلبت قرطاجنة على الاغريق ، واحتلت جزيرة صقلية وفي سنة ٥٠٩ عقد اول اتفاق سياسى بين قرطاجنة و روما ضمت بموجبه افريقية للاولى وايطاليا للثانية ، وبذلك صارت جزيرة صقلية منطقة حياد بين هاتين الحكومتين وبسط القرطاجنيون نفوذهم في هذا الدور على اسبانيا

٣ - الدور الثالث : وهو دور النزاع مع روما . اشتد النزاع في هذا الدور بين روما وقرطاجنة وقد ابتدأ في سنة ٢١٥ ق . م وانهى سنة ١٤٠ بسقوط قرطاجنة تحت اقدام روما وقد امتاز في هذا الدور هنيبال القائد القرطاجنى الشهير وأبلى في الدفاع عن وطنه بلاء حسنا ومع انه انتصر في حملاته الاولى على ايطاليا الا ان الرومان فازوا عليه في النهاية فاحتل القائد سيبو الرومى قرطاجنة بعد معركة دموية . وفر هنيبال الى الشرق

وتنازلت قرطاجنة لروما بموجب المعاهدة التى عقدت في عاصمتها واملاها القائد الرومانى المنتصر عن اسطولها كله وعن سائر مستعمراتها لروما ، ولم يبق لها الرومان سوى ممتلكاتها في افريقية اى انها اضعفت في تلك الحرب اسبانيا والجزر المجاورة لها وبعض سواحل ايطاليا

٤ - الدور الرابع : وهو دور سقوطها

استأنف القرطاجنيون الحرب في هذا الدور وقاتلوا الروم قتالا شديدا محولين استرداد ما فقدوه فتغلب هؤلاء عليهم وهزموهم واحتل الروم قرطاجنة للمرة الثانية في سنة ١٤٦ ق . م ودمروها وحرثوا مساكنها ودورها ، ايذانا بانتهائها والقضاء عليها ، فلا تحدث اهلها نفوسهم بالثورة والاتفاض

على ان مجلس شيوخ روما عاد فقرر في سنة ١٢٢ ق . م انشاء مستعمرة رومانية على انقاض مدينة قرطاجنة القديمة يرسل اليها الذين لا يملكون ارضا ويقطعون الاراضى فنزح اليها كثيرون من الرومانيين وغيرهم وجددوا بناءها فنمت وتقدمت ، وعادت الى بعض ما كان لها من الازدهار والعمران وعبر الفنداليون جبل طارق في سنة ٤٢٩ م واحتلوا قرطاجنة وانتزعوها من الرومان واصبحت مركزا من مراكزهم حتى جاءت بيزانطية في سنة ٥٥٣ فاستولت عليها واخضعتها ثم جاء العرب فانزعوها منها

قرطاجنة في آخر العهد الرومي

يلوح للباحث في التاريخ السياسي لقرطاجنة ان نفوذها الادارى كان عند ظهور الاسلام يشمل الجزائر وهى واقعة وراء حدودها الغربية والمغرب الاقصى ايضا ، فكان هذان الاقليمان يخضعان لحاكم قرطاجنة الرومى الاعلى ويتلقيان منه التعليمات والوامر وهو يرجع الى حكومة القسطنطينية فاذا صح ذلك فيكون الروم جمعوا هذه الاقاليم الثلاثة لقرطاجنة وانشأوا منها حكومة واحدة ، بخلاف ما كان عليه الامر في مصر وبرقة وطرابلس الغرب

ومع اننا لانملك تفاصيل وافية عن قوات الروم العسكرية في هذه المناطق الا ان دلائل الحال ، تدل على انهم ما كانوا يملكون قوى عظيمة ، حينما هاجم العرب تلك الربوع ، يؤيد ذلك اعتزام عمرو بن العاص اقتحامها ببضعة الآلاف الذين جاء يقودهم من مصر بعد افتتاح الاسكندرية . ولا نشك في انه ما كان يحجم عن اقتحامها لو أجاز الخليفة خطته العسكرية الجديدة

وفضلا عن ذلك فقد اجمع المؤرخون على ان القوات التى سار بها عبد الله بن

أبى سرح لاحتلال افريقية (قرطاجنة) لم تزد على عشرة آلاف ، فاخضعها بها

عبد الله بن عبد الله بن سرح

هو عبد الله بن سعد بن ابى سرح بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن نصر
ابن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى ابو يحيى العامرى القرشى
اسلم فى مكة وهاجر الى المدينة مع المهاجرين وتولى الكتابة للرسول ، ثم عاد
الى مكة يعلن ارتداده عن الاسلام ورجوعه الى دين الجاهلية ، ويطعن فى الاسلام
فهدر النبي دمه فى جملة الذين هدر دمهم يوم الفتح (انظر ص ١٤٠ ك ١)
ولجأ الى عثمان بن عفان ، وكان اخاه فى الرضاة ، يسأله ان يشفع له عند
الرسول ، ويستأمن له فاخفاه اياما حتى هدأت الامور ثم جاء به الى الرسول
وقال له امنه يا رسول الله وكرر هذه الجملة ثلاثا والرسول مغض عنه واخيرا
بسط اليه يده فبايعه

والتفت الرسول الى اصحابه بعد البيعة فقال : اما كان فيكم رجل رشيد يقوم
الى هذا حيث رأى كفت يدي عن مبايعته فيقتله فقال له عباد بن بشر الانصارى
« فهلا اومأت لنا »

وتطوع عبد الله بعد ما جدد اسلامه فى الجيش العربى الذى وجه الى
الشام وانضم الى جيش عمرو بن العاص وكان بين الذين اختارهم حين زحف على
مصر فقاد مقدمته ثم قاد جناحه الايمن واشترك فى جميع المعارك التى دارت بين العرب
والروم فى هذا الوادى وكان من كبار قواد الجيش العربى واركانه

ولما تم فتح مصر عينه عمر بن الخطاب واليا على الصعيد فى سنة ٢٣ للهجرة
اى ان عمر فصل بين جزئى القطر فاختص عمرا بالوجه البحرى واختص عبد الله بن

ابى سرح بالحراج (مديرية المالية) مع ولاية الصعيد وكان يقيم في شطنوبا الفيوم فلم يرق هذا التدبير في عين عمرو بن العاص ، فقصد المدينة في ابتداء خلافة عثمان بن عفان ، وسأله عزل عبد الله عن الصعيد وارجاعه الى ما كان عليه فابى عليه ذلك وعقد لعبد الله على مصر كلها ، وذلك في سنة ٢٥ للهجرة فاعتزل عمرو السياسة وازوى بمنزله في مكة

واستأذن عبد الله بن ابى سرح عثمان بعد ولايته على مصر في غزو افريقية فاذن له ، واشترط في الاذن الصادر ان يكون له خمس الخمس من الغنيمة نفلا ، فسار اليها في سنة ٢٨ واخضعها ثم عاد الى مقره في مصر

واستمر عبد الله في عمله بمصر ١٠ سنوات وهى مدة ولاية عثمان فقد ذكروا انه غادر الفسطاط في السنة الخامسة والثلاثين الى المدينة ، وكانت الفتنة الداخلية ابان شدتها واستخلف مكانه عقبة بن عامر الجهني فوثب عليه العلويون وانزعوا منه السلطان في سنة ٣٦ وولى على بن ابى طالب قيس بن سعد بن عبادة مكانه ، ويقال انه حاول الرجوع الى مصر فمنعه العلويون ، فقصد عسقلان وهى مدينة صغيرة في جنوبي فلسطين قرب غزة فاقام فيها

وتوفى في تلك السنة (٣٦) وهو الارجح

وانشأ عبد الله في اثناء ولايته بمصر اسطولاً لصد عدوان الاسطول الرومى ومنازلته وكان يضايق المسلمين ويغزو سواحلهم ويغير عليها

وحارب عبد الله حروبا كثيرة وكان من العاملين على توسيع حدود الدولة

الجديدة ومن بناء مجدها

من الفسطاط الى سبيطة

شاء الله ان يحال بين عمرو بن العاص وبين افريقية وان ينال هذا الشرف عبد الله بن ابي سرح العامري القرشي ، وان يقرن اسمه باسمها ويؤخذ من التفاصيل التي لدينا ان عثمان بن عفان لم يترد في اصدار الاوامر الى عامله الجديد في مصر عبد الله بن ابي سرح ، في مهاجمة قرطاجنة او « افريقية » كما كانوا يسمونها ، حينما سأله ذلك . ولا نشك ان ذلك جرى بعد القضاء على ثورة الاسكندرية التي اوقدها مانويل الرومي ، واتدب عمرو بن العاص لاطفائها ، فلما اخمدت وزال كل خطر من ناحية الروم ، عاد عمرو الى مقامه بمكة ، وتسلم الامر عبد الله بن ابي سرح ، فاخذ يتأهب لغزو افريقية وافتتاحها . ولما اتم اهبطه زحف عليها

ولا تقل المسافة بين الفسطاط وبين قرطاجنة عن ثلاثة آلاف كيلومتر وكسور مقسمة على المنوال الآتي :

كيلومتر

من الفسطاط الى الاسكندرية	٢١٥
من الاسكندرية الى برقة	١١٠٨
من برقة الى طرابلس	١٢٠٠
من طرابلس حتى حدود تونس	١٧٠
من حدود تونس حتى سبيطة وهو المكان الذي وصل اليه	٥٠٠
ابن ابي سرح	٣١٩٣

تلك هي المسافات للذين يسلكون طريق الساحل . اما الذين يسلكون طريق الصحراء فتختلف حالتهم وتقصر الطريق امامهم . ويؤخذ من بعض الروايات ان عبد الله سلك الطريق الصحراوي لانه اقرب وايسر فسار من الفسطاط الى السلوم مباشرة ومن السلوم الى غدامس فظهر امام سييطة وبذلك وفر على جيشه كثيرا من العناء والمشقات

افريقية الشمالية في العهد الرومي

كانت افريقية الشمالية حسب اصطلاح الروم تتألف من مقاطعات : قرطاجنة (تونس) والجزائر والمغرب الاقصى . وكانت حدودها تمتد من غربى طرابلس حتى طنجة . وكانت تحت حاكم واحد ، يتبع القسطنطينية مباشرة ويستمد منها النفوذ ، وكانت مدينة قرطاجنة عاصمة تلك المقاطعة العظيمة الواسعة الغنية ووصف ابن عذارى المراكشى في الجزء الاول من كتاب (البيان المغرب في اخبار المغرب) هذا الاقليم وصفا ينطق بما كان عليه من عمران في ابان الفتح العربي فقال :

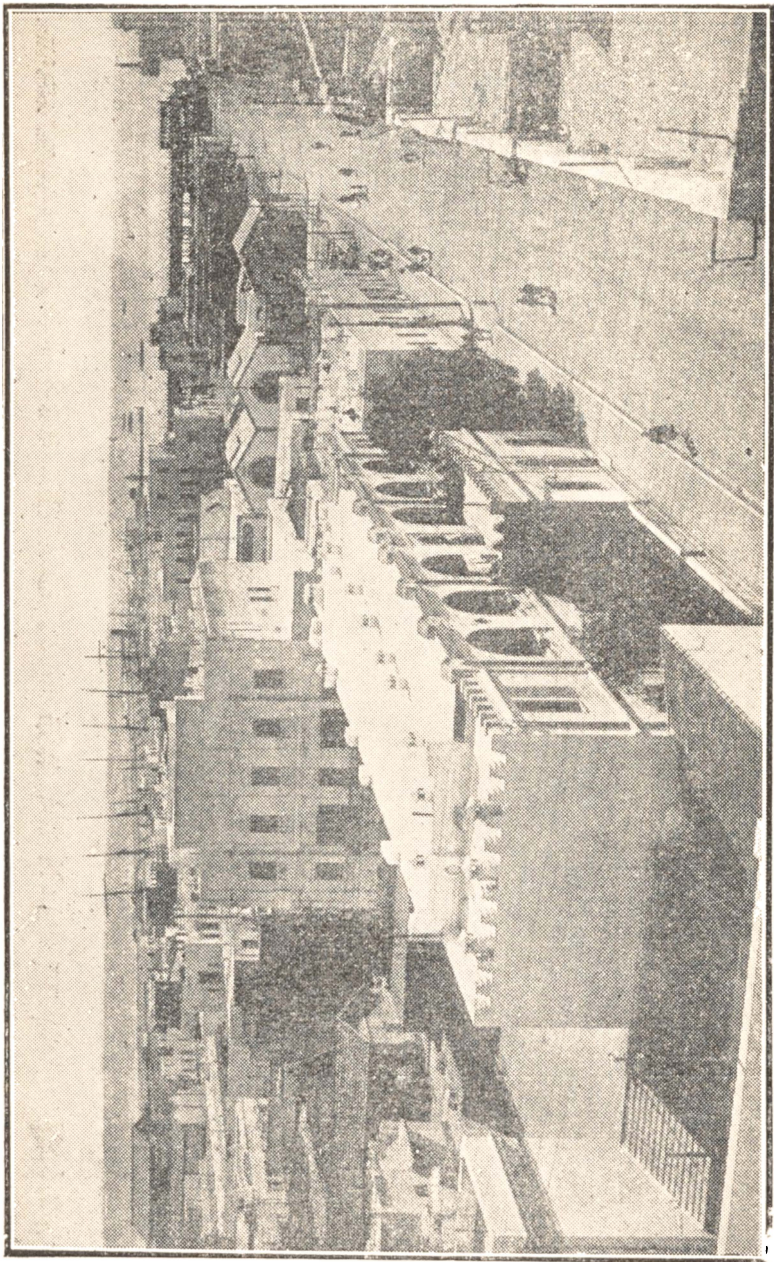
« ان افريقية كانت ظلا واحد من طرابلس الى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن في اقاليم الدنيا اكثر خيرا ولا اوصل بركات منها ولا اكثر مدائن وحصونا ، طولها مسيرة الف ميل في مثلها »

ويقول هذا المؤرخ ايضا ان غريغوار ويسميه مؤرخو العرب (جريجير) - وكان قائد الروم في افريقية الشمالية - سار بقوة عسكرية كبيرة لقتال عبد الله بن ابي سرح بلغ عددها ١٢٠ الف مقاتل حشدوا من هنا وهناك

قائد العرب بمحاط

ويؤخذ من بعض التفاصيل ان عبد الله بن ابي سرح لم يوغل في الزحف خوفا المفاجآت ، بل سار على حذر فكان يبث سراياه لسبرغور قوى الروم واستطلاع حالتهم فتوافيه بالاخبار وتحمل اليه المعلومات

مدينة صفاقس اليوم



غريغوار يزحف لقتال العرب

ولما ازمع غريغوار الزحف لقتال العرب ارسل مناديا ينادى في جيشه بان من
يقتل ابن ابى سرح ازوجه ابنتى واهبه مئة الف دينار واستعمله على بلاده . واتصل
ذلك بعبد الله فامر مناديا ينادى في جيشه بان من قتل غريغوار نفلته مئة الف
دينار وزوجته ابنته وعتاته على عماله

المعركة الكبرى

بدأت المعركة الكبرى عند الضحى قرب سببلة (مدينة معروفة اليوم في شرق تونس الجنوبي ولا تزال قائمة في مكانها القديم وقد اثبتناها على الخريطة التي وضعناها لافريقيه الشمالية) بين العرب والروم وكان عدد هؤلاء يفوق عدد العرب اضعافا مضاعفة مما جعل بعض هؤلاء يحسب حساب العواقب ، بيد ان الذي شجعهم وقوى عزائمهم وصول نجدات ارسلها اليهم عثمان ، قبل المعركة اشتركت فيها ، وثبت الروم ثباتا عظيما ، وقتلوا قتالا شديدا ، وابطأ الفتح على المسلمين فاشار ابن الزبير على ابن سعد بان يترك جماعة من ابطاله متأهبين للحرب ويقابل العدو بباقي رجاله حتى يضجر هذا فيحمل عليه بالآخرين على غرة

وآنس ابن الزبير والمعركة دائرة غرة من قائد الروم غريغوار وكان على رابية مرتفعة يركب برذونا وحواله ابنته وعدد من حاشيته ، ففكر في قتله فيكفي قومه شره ، فقصد ابن سعد فلما رآه ناداه وقال له ماجاء بك يا ابن الزبير ؟

– لقد رأيت عورة من عدونا فرجوت ان تكون فرصة هيأها الله لنا وخشيت القوات . ثم اخبره الخبر نفرج عبد الله الى خارج الخيم على الفور فرأى مارآه ابن الزبير فنادى في رجاله قائلا :

ايها الناس :

اتدبوا مع ابن الزبير الى عدوكم

فتسارع اليه القوم فاختر منهم رجلا ثم حمل بهم بعد ما قال لهم : اصرفوا

عن ظهري من ارادني وانا اكفيكم ما امامي

قال ابن الزبير :

« وحملت في الوجه الذي فيه غريغوار وحمل الذين اتدبوا (تطوعوا) معي
 واتبعوني حتى خرقت صفوف الروم ووصلت الى ارض فضاء وقفت فيها فما حسب الا
 انى رسول اليه حتى رأى مابى من اثر السلاح فقدر انى هارب اليه فلما ادركته طعنته
 فسقط فرميت نفسى وراءه واجهزت عليه ورفعت رأسه على رحى ، وحمل المسلمون
 في ناحيتى وظفروا وانهزم الروم وقتلهم المسلمون كيف شاءوا وثارت الكمائن من كل
 جهة ومكان وسبقت خيول الساميين ورجالهم الى حصن سبيطلة فمنعوه من وصوله ،
 وركبهم المسلمون يمينا وشمالا فى السهل والوعر فقتلوا انجادهم وفرسانهم واكثروا فيهم
 الاسار حتى لقد كنت ارى فى موضع واحد اكثر من الف اسير »

هذا ما تحدث به ابن الزبير نفسه ونقله عنه المؤرخون وهو يلقى نورا على اخبار
 تلك المعركة الكبرى التى كانت اول معركة انتصر فيها العرب فى افريقية ، كما كانت
 اول انتصار لابن ابي سرح على الروم . وقد نقل القائد ابن الزبير بنت غريغوار
 ففز وجها

الصلح مع الروم

استقر عبد الله بن ابي سرح في سبيطلة بعد انتصاره وأخذها قاعدة لجيشه
واخذ يث السرايا في انحاء البلاد شمالا وجنوبا وشرقا فبلغت خيوله قصور قفصة وسبت
وغنمت وسار ابن الزبير على رأس قوة الى الساحل فهاجم سوسة وافتتحها

الروم يطلبون الصلح

ولجأ الروم الى الجبال وتحصنوا فيها وخاف عقلاؤهم العواقب فاقترحوا على عبد
الله ان يقبل منهم ٣٠٠ قنطار من الذهب على ان يكف عنهم ويخرج من بلادهم
فقبل الاقتراح مبدئيا ثم جرت مفاوضات وانتهت بعقد صلح بين الفريقين على القواعد
الآتية :

- ١ - يدفع الروم غرامة حربية قدرها ٣٠٠ قنطار من الذهب (او مليونين
ونصف مليون و ٢٠ الف دينار كما يقول الواقدي)
- ٢ - يكف المسلمون عن البلاد ويجاون عنها
- ٣ - ما اصابه المسلمون قبل الصلح فهو لهم وما اصابه بعد الصلح ردوه
تلك هي الشروط التي وصلت اليها عن الاتفاق الذي عقد بين عبد الله بن ابي
سرح وولاة الامور الروم في افريقية الشمالية ، ويفهم منها ان العرب جلاوا عن
تلك البلاد بعد الصلح من دون ان يتركوا فيها حاميات عسكرية كما كانوا
يفعلون في المناطق الاخرى التي افتتحوها في مصر والشام والعراق وايران . على ان
ابن خلدون يقول ان ابن سرح عين عليهم واليا منهم

بشرى الفتح

وارسل ابن ابي سرح من مقامه فى افريقية ابن الزبير الى المدينة يبشر عثمان بما افاء الله على المسلمين ، وقد اختص عبد الله نفسه بخمس الخمس وبعث بأربعة احماسه الى عثمان وقسم اربعة احماس الغنيمة فى الجيش فاصاب الفارس ثلاثة آلاف ، دينار والراجل الف دينار

عبر الله بعود الى مصر

ورحل عبد الله بن ابي سرح بجيشه عن افريقية الشمالية عائدا الى الفسطاط ، مقر عماله ، وقد استغرقت غزوته ١٤ شهرا

الرجوع الى افريقية

لم نعر في كل ما اطلعنا عليه من اخبار فتوحات العرب في افريقية الشمالية ، على تليل معقول لحادث جلاء عبد الله بن ابي سرح عن افريقية بعد ما انتصر على حاميتها الرومية وهزمها واخضع جزءا كبيرا من القطر التونسي وبعث الرعب في قلوب سكانه وابنائهم

ولا يكاد الباحث في تاريخ تلك الحقبة يقع على حادث مماثل لهذا الحادث تقريبا . فقد حاول ولاة الامور الفرس والروم في المناطق الاخرى اغراء قواد العرب بالمال حينما هاجمهم لملهم على وقف القتال او الجلاء عن البلاد ، كما فعلوا مع عبد الله بن ابي سرح فكانوا يجيبون على مثل هذه المقترحات بالرفض والرد لانهم ما جاءوا لكسب المال ، وانما جاءوا لنشر الدين واذاعته

ويلوح لنا ان ابن ابي سرح طمع في المبلغ العظيم الذي عرضه عليه الروم وهو مليونان ونصف مليون دينار كما رأيت ، يبلغ نصيبه منه مئة الف دينار وكسورا (فقد كان له اربعة في المئة من مجموع المبلغ اى خمس نصيب بيت المال) فأخذه وقبل شرطهم بالكف عنهم وتركهم وشأنهم وقد نفذ هذا الشرط تماما فجلا عن البلاد وتركها لأهلها بعد ما قبض المال وعاد مثقلا بالغنائم مخالفا بذلك تقاليد الاسلام . ولئن كنا لا نعرف ما كان لعمله هذا من الأثر في نفوس قومه لان المؤرخين القدماء لم يعنوا ببحثه وتحليله الا ان الذى نعرفه من المصادر الصحيحة هو ان عبد الله نفسه عاد ثانية في سنة ٣٣٣ اى بعد الغزوة الاولى بثلاث سنوات ونيف ، الى افريقية فافتتحها ثانية . ويقول مؤلف كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة حينما

ترجم لعبد الله انه غزا افريقية ثانية سنة ٣٣٣ حينما نقض اهلها العهد حتى اقرهم على العهد والجزية واستشهد معه في هذه المرة بافريقية جماعة منهم معبد بن العباس بن عبد المطلب وغيره . ومعنى ذلك انه اخضعها ثانية لسلطان الدولة العربية الجديدة

انتهاء الحروب

على هذا المنوال انتهت حروب الاسلام والامبراطورية الرومية في عهد الخلفاء الراشدين ، فقد انتزعوا منها ممتلكاتها في الشرق من جبال طوروس حتى طنجة وهي منطقة عظيمة جدا تضم مقاطعات كيليكية وسورية ولبنان وشرقي الاردن وفلسطين ومصر وبرقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الاقصى ، ونشروا لغتهم ودينهم فيها

تَاخِيضٌ وَتَعْلِيْقٌ

اثبتنا في هذا الكتاب اخبار النضال الذي دار بين دولة الخلفاء الراشدين ودولة الروم البيزنطية وقد ابتداء في السنة الخامسة للهجرة (سنة ٦٣٦ م) بالحملة التي قادها الرسول بالذات الى دومة الجندل (الجوف) وكانت مشمولة بنفوذ الروم في الشام واستمر الى سنة ٣٣٥ هـ سنة ٦٥٥ اى حتى اواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، فقد شغل العرب بالفتنة الداخلية عن متابعة الحروب

ويظهر للباحث في هذه الفترات والحروب انها امتدت ٢٧ سنة : ست في عهد مؤسس الدولة واثنتان في عهد الخليفة الاول ابى بكر الصديق واحدى عشرة في عهد عمر بن الخطاب وثمانى في عهد عثمان بن عفان ومرت في ادوار خمسة :

١ - الدور الاول : وقد امتد من السنة الخامسة حتى سنة ١٣ فقد ابتداء بالغارة على دومة الجندل (الجوف) وانتهى بمعركة اليرموك الفاصلة وقد فتحت ابواب الامبراطورية الرومية في وجه العرب فدخلوها واوغلوا في احشائها

٢ - ويبتدىء الدور الثانى : بمعركة فحل سنة ١٣ وينتهى سنة ١٦ بفتح فلسطين ولبنان وسورية حتى حدود مقاطعة كيليكية الحاضرة

٤ - الدور الرابع : وقد ابتداء في سنة ١٩ وانتهى سنة ٢٤ وفيه فتحت كيليكية ومصر وبرقة وطرابلس الغرب ولولا معارضة عمر في فتح المغرب الاقصى لما وقفت خيول عمرو بن العاص الاعلى شاطئ الاطلس

٥ - الدور الخامس : وقد ابتداء في سنة ٢٥ وانتهى سنة ٣٣ وفيه هاجم عبد الله بن ابى سرح افريقية الشمالية واخضعها . وتم في هذه الفترة انشاء اصطول عربى ضخم حارب الروم ونافسهم على سيادة البحر الابيض وكاد ينتزعها منهم واستولى على جزيرتى قبرص ورودى

تلك هى الادوار الخمسة التى مرت بها الحرب بين دولة الخلفاء الراشدين والامبراطورية الرومية وانتهت بطرد الروم طردا ابدىا نهائيا من بلدان الشرق

الادنى ، ولم يوفقوا لانزاعها من العرب مع كل ما بذلوه من جهد ، ومع كل ما حاولوه من محاولات

قوات العرب في هذا المبراه

بدأ العرب حملتهم الاولى على الامبراطورية الرومية بالف محارب قادهم مؤسس الدولة الاسلامية في السنة الخامسة ، ثم كانت حملة مؤتة وبلغ عدد الذين اشتركوا فيها ثلاثة آلاف . وكانت غزوة تبوك آخر حملة جهزها الرسول لغزو الروم وقدر عدد رجالها بالالوف . وقد عادت الى مقرها بالمدينة من دون ان تشبك معهم بقتال ووقفت الاعمال العسكرية على حدود الشام بعد موته وشغل المسلمون بفتنة الردة وما كادت تنتهى حتى عادوا فجمعوا جموعهم وأشعلوا الحرب في مناطق الحدود فهاجموا فلسطين وبلاد الاردن وحواران وظلوا يتقدمون في هذا الدور حتى حمص فاستولوا عليها ثم تراجعوا الى اليرموك حينما نهض الروم لقتالهم ويقدر عدد العرب الذين اشتركوا في هذه المعركة بستة وثلاثين الفا منهم ٢٦ الفا هم مجموع جيش الشام والعشرة الآلاف الباقون من جيش العراق . وقد اعيدوا الى العراق بعد اليرموك وبعده فتح دمشق فعاد جيش الشام الى ما كان عليه وهو ٢٦ الف مقاتل هم الذين تم على يدهم تقويض الامبراطورية الرومية في الشرق الادنى وانتزاع هذه الاقطار الواسعة منها

ورب قائل يقول ان عمر كان يمد جيش الشام بنجدات من آونة الى اخرى فنجيب بان عمر شغل في اول خلافته بحرب الفرس فارسل الى ميدان القادسية كل ما كان لديه من قوى وان المؤرخين لم يرووا ان نجدات ارسلت الى هذا الميدان بعد معركة اليرموك لان الحرب الحقيقية انتهت بانتهاؤها وما حدث بعدها كان معارك ثانوية بالنسبة اليها

ولو فرضنا ان هنالك نجيدات كانت ترسل - ولا نظن ان الامر كان يخلو من ذلك - لما كانت الاملاء الفراغ الذي يحدث عادة في الصفوف بسبب الامراض والابوثة والقتلى الذين يسقطون في المعارك . وقد لانعدو الصواب اذا قدرنا مجموع الجند الذى جهزه العرب لقتال الروم في تلك الفترة بخمسين الف مقاتل ما كانوا يملكون من المعدات العسكرية ما يستحق ان يذكر في جانب معدات الروم العظمى

قوات الروم في هذا الميراث

هذا بيان تقريبي لعدد العرب الذين قاتلوا الروم في مختلف الميادين سحابة ٢٨ سنة . اما عدد جيش الروم في هذه المناطق فما كان ينقص عن ٣٥٠ الفا على اقل تقدير كانت موزعة في شتى المناطق وهذا بيان تقريبي عنها :

سورية ولبنان وكيليكية	١٥٠،٠٠٠
فلسطين	٣٠،٠٠٠
مصر	١٠٠،٠٠٠
برقة وطرابلس الغرب	٢٠،٠٠٠
شمالى افريقية (تونس والجزائر والمغرب)	٥٠،٠٠٠
المجموع العام	<u>٣٥٠،٠٠٠</u>

ولا بد لنا من القول بان الروم لم يحشدوا للعرب هذا العدد في معركة من المعارك وان قواهم كانت في ابتداء الحرب مشتتة هنا وهناك اى في سورية وفلسطين والاردن ومصر والمغرب بعكس قوات العرب فقد اجتمعت كلها في مكان واحد ونازلت الروم فلما تغلبت عليهم وهزمت قواهم الكبرى اوغلت في البلاد تقتل ، وتأسر ، وتفتح فلم يقو الروم على وقف زحفها ، ولا على عرقلة حركاتها

وقد يرى بعضهم مبالغة في هذا الرقم وهو تقريبي ولا يخفى ان الامبراطورية الرومية كانت تملك اقطارا واسعة ، وما كان عدد نفوسها يقل عن ٥٠ مليوناً

فاعداد ثلث مليون مقاتل وانزلهم الى ميادين الحرب في خلال ٢٨ سنة امر بسيط بالنسبة لها وكانت تعد اعظم دول العالم في عصرها . وكانت تملك عدا المقاطعات التي انتزعها منها العرب : الاناضول ، ومقدونية ، واليونان ، وارمينية ، وقفقاسيا ومعظم شرقي اوربا اى الجزء المعروف من العالم كما كان جيشها اعظم الجيوش على الاطلاق سواء من جهة العدد او من جهة العدد . ويبلغ مؤرخو العرب القدماء في تقدير الروم الذين قاتلوا العرب ويقولون ان عددهم في معركة اليرموك وحدها بلغ مئتين وخمسين الفا ، وان عدد الذين احتشدوا في قيسارية بلغ مئتين وثمانين الفا . ويقولون ان قواتهم بمصر ما كانت تقل في مجموعها عن ٣٠٠ الف وان قزات غريغوار في افريقية وهى التى نازلها عبد الله بن ابي سرح في سبيلطة ما كانت تقل عن ١٥٠ الف جندي ويبلغ مجموع ذلك نحو مليون جندي فضلا عن القوات التى كانت في المراكز الاخرى

المعدات الحربية

وما كان هنالك اى نسبة بين المعدات الحربية عند الروم وعند العرب فقد كان لدى الجيش الرومى افضل المعدات المعروفة في ذلك العصر واكملها . اما العرب فما كانوا يملكون سوى معدات بسيطة جاءوا بها من جزيرتهم وقد ورثوها عن اسلافهم الاولين وهى السيف والرمح والقوس والحربة . وكان نظام التعبئة عندهم قديما ايضا . وقد عدلوه يوم اليرموك وتشبهوا بالروم في تعبئتهم لانها كانت اكمل وافضل

المحصوره والحنادى والقلاع

وما كان تفوق الروم على العرب بقاصر على عدد الجند وعدده بل كانوا يتفوقون ايضا بالحصون والمعقل والقلاع وقد اكثر واكثر منها في سورية وفلسطين ومصر

وافريقية فازعجت العرب وعافت تقدمهم وعرقلت حركاتهم حول بصرى وحمص
ودمشق وقيسارية واجنادين وغل وبيت المقدس وبابلون والاسكندرية وبنطابولس
واطرابلس بيد انهم تغلبوا عليها واحدا بعد واحد واسروا رجالها ولم يعجزهم
حصن منها

التفوق البحري

وكذلك كان الروم يتفوقون على العرب باسطولهم البحري العظيم ، سيد البحر
الابيض وكان يملأه بسفنه ويتجول بلا انقطاع بين الدردنيل وقرطاجنة حاملا الجند
والقوى والقواد ، فأدى لقومه اعظم الخدمات في ذلك النضال العنيف . وظل يسيطر
على البحر حتى انشأ العرب اسطولهم في طرابلس الشام وفي الاسكندرية سنة ٢٨
فاشترك في الاعمال العسكرية التي عملت بعد ذلك ونافس الروم وانتزع منهم
الجزر المناوحة للشواطىء السورية والاناضولية وهي ارواد وقبرص ورودس

مميزات اخرى

وكان ثمة ميزات اخرى امتاز بها الروم على العرب هذا بعضها :

١ - كان العرب في حروبهم كلها مهاجمين لمدافعين . ومن البديهيات في فن
الحرب ان مهمة المهاجم اصعب من مهمة المدافع واشق ، ففي استطاعة مئات من الجند
يرابطون في مضيق او قلعة او في مكان مرتفع ان يصدوا آلافا من المهاجمين ويتغلبوا
عليهم بل ويهزموهم وكان يضاعف في صعوبة المهمة التي اخذها العرب على عاتقهم
انهم كانوا يقاتلون في مناطق حصينة محكمة اعدت اعدادا فنيا وشحنت
بالجنود والضباط المدربين المحريين . فكان ذلك من جملة الاسباب التي عاقت
الفتح لان العرب ما كانوا يملكون الوسائل الكافية لتدمير الحصون بل كانوا يلجأون

الى الطريقة البسيطة « طريقة الحصار والتضييق بقطع الزاد »

٢ - كان الروم يقاتلون في داخل بلادهم وممالكهم ، وفي اراض درسوها وخبروها ، وعرفوا مداخلها ومخارجها ، وسهلها ووعرها ، بعكس العرب الذين كانوا يقاتلون في بلاد يعدون غرباء فيها ، ولولا افراد منهم كانوا يترددون عليها في الجاهلية للتجارة او لاغراض اخرى ، لما كان هنالك احد يعرفها منهم ومعرفة جغرافية الاراضى وطبيعتها وطرقها ومسالكها من اشد الضرورات في الحروب للجيش

٣ - كان العرب يقاتلون في بلاد دينها غير دينهم وعاداتها غير عاداتهم وجوها غير جوههم واذا استثنينا مناطق صغيرة على الحدود فعدد الذين كانوا يتكلمون العربية في سورية ومصر وافريقية الشمالية قليل جدا ، لانه ما كان هنالك عامل يغري سكان هذه البلاد بدراسة هذه اللغة واتقانها

٤ - وفرة المصادر المادية وتعددتها عند الروم وضعفها وقتلتها عند العرب ، فقد كانت هنالك امبراطورية واسعة شاسعة مترامية الاطراف غزيرة الثروة نامية الموارد ، تشد ازر الجيش الرومي في الشام وتمده بالاموال والرجال تسوقها من جميع اطراف الامبراطورية ولئن استطاع الخليفة ان يمد العرب بطوائف من الجند يجمعها بين الفترة والفترة بطريق التطوع ويرسلها اليهم فان موارد بلاد العرب المالية ما كانت تساعد على ارسال مساعدات مالية الى الجيش المحارب بل كان عليه ان يكفى نفسه

هذا بعض ما يحضرنا من الميزات التي كان الروم يمتازون بها على العرب في حربهم تلك وهى ميزات عظيمة الشأن لا يستهان بها ولا يغفل شأنها ، ولولا اتفاق جميع المصادر التاريخية من عربية وقبطية ورومية على سحتها لتردد الباحث في التسليم بها لانه من غير المعقول ان يتفوق جيش صغير قليل العدد والعدد كالجيش العربي لايزيد عدد رجاله على خمسين الفا على جيش عظيم كالجيش الرومي ويسحقه

سحقا وينتزع منه اقطارا واسعة انتزاعا ابديا فلم ترتفع للروم راية في بلاد الشام ومصر وافريقية بعد ان طويت في زمن الفتح العربي ولم يوفق الروم الى استرداد هذه البلاد وانتزاعها من ايدي فاتحيها كما كانوا يفعلون مع الفرس والفنداليين وغيرهم من الامم التي حاربتهم وتغلبت عليهم فلم يلبثوا ان تغلبوا عليها وانقذوا بلادهم من ايديها

عوامل تفوق العرب

لاجرم ان هنالك عوامل ادبية ضمنت للعرب التفوق والفوز واكسبتهم النصر وهي متعددة بعضها ايجابي وبعضها سلبي ونحن نسردها العوامل الايجابية ثم نقف عليها بالعوامل السلبية :

ان العوامل الايجابية هي :

١ - تفانى العرب في نصره دينهم وتسابقهم الى الموت في سبيل تأييده ونشره وترفعهم عن تطلب العرض الدنيوي الزائل واعراضهم عن الزخارف الكاذبة وعن تطلب المال والسعي اليه

٢ - الوحدة العنصرية في صفوفهم ، فقد كانوا كلهم من عنصر واحد ومن بلاد واحدة . بعكس الجيش الرومي فكان مزيجا من امشاج شتى ومن عناصر مختلفة متعددة

٣ - اختلاف المثل العليا عند الجيشين : فقد كان العربي يقاتل في سبيل غايتين معيتين : فاما ان يفوز فينال اجر المجاهد واما ان يموت فيفوز بأجر الشهيد وفي كليهما الغنم وما كان رجال الجيش الرومي يعتقدون مثل هذه العقيدة

٤ - نشاط افراد الجيش العربي وبسالتهم وتعودهم على شطف العيش

وقناعتهم بالقليل

٥ - كفاءة القيادة عند العرب ومهارة القواد الذين اداروا المعارك وبراعتهم في

وضع الخطط وتنفيذها فقد رفعت الاعمال العسكرية التي عملت في هذه الميادين خالد

ابن الوليد وعمرو بن العاص الى مرتبة الخالدين من القواد العسكريين

٦ - المساواة التامة التي كانت شعار العرب فلم يكن هناك سيد ولا مسود ولا

كبير ولا صغير ولا امير ولا حقير بل كان الكل سواء لافضل لأحد على آخر الا بالتقوى
والاخلاص

تلك هي في نظرنا العوامل الايجابية التي ضمنت للعرب النصر ومكنتهم من

هزيمة الروم والتغلب عليهم ، مع انهم كانوا يحاربون الفرس في الشرق ويفتحون

اقطارهم

بقى علينا ان نذكر العوامل السلبية التي نرى انها ساعدت على فوز العرب

ونحن نجملها فيما يأتي :

١ - تعدد العناصر في البلاد التي هاجمها العرب ونقمة هذه العناصر على الروم

ومقتهم وفتنى زوال دولتهم ، فقد كان القبط في مصر يمتقونها لاضطهادها

زعمائهم ورؤساء دينهم ولاقصائها ابناء ملتهم عن دور الحكومة ، مقت اليهود في

فلسطين لها ، وكرههم اياها ، وكان الروم يذبجون اليهود ويضطهدونهم ويعملون

على استئصالهم . وآخر مذابحهم تلك التي حدثت في سنة ٦٢٨ اى حين زيارة هركليوس

ليبت المقدس

وكانت سورية نفسها مؤلفة من عناصر وقوميات كما هي اليوم فكان سكان

الناطق الشرقية والجنوبية من العرب الخالص وسكان السواحل من الآراميين

والاشوريين وكان سكان الشمال من اليونان والارمن لارابطة تربطهم ولا تجمع بينهم

سوى جامعة الخضوع للقوة المسيطرة عليهم

اما سكان افريقية الشمالية فكانوا من البربر وكانت هناك جالية رومية

واخرى يهودية

وتنفس سكان هذه البلاد الصعداء . وكانوا ناقلين على حكامهم اشد نقمة -

حينما جاءهم العرب ، يحملون مصباح العدالة والمساواة فأقبلوا عليهم والنفوا حولهم وايدوهم ونصروهم ، ولولا ذلك لما تسنى لهم احتلال هذه الاقطار والتغلب على جيوش الروم الكبرى التي كانت تدافع عنها وما استطاعوا توطيد سلطانهم في ربوعها

٢ - الاختلاف الشديد الذى كان سائدا بين قواد الامبراطورية سواء فى الشام وفى فلسطين او مصر فقد كان كل منهم يكدى للآخر ويعمل لقره واذلاله . لا تهمه مصلحة بلاده وقومه . وقد سجل مؤرخو الدولة الرومية هذه الحقيقة واعترفوا بها

٣ - اضطراب حال الامبراطورية بسبب الحروب المتتابة وتشتت رجالها وانقسامهم الى احزاب وشيع بعد وفاة الامبراطور هركليوس فهذا يؤيد ابنه وهذا يؤيد زوجته مما زاد فى مصائبهم واتجج زيادة الخلف والشقاق بينهم

٤ - الانقسامات الدينية بين سكان الامبراطورية ومحاوله الامبراطور فرض مذهب الدولة على الطوائف الاخرى وحملها على تغيير عقائدها الدينية

٥ - عدم وجود خطة حربية مشتركة يسير عليها قواد الروم فى حروبهم مع العرب فقد كان قائد كل منطقة يعمل منفردا عن زملائه بعكس قواد العرب

٦ - استهانة قواد الروم ورجالهم العسكريين والمساكين بالعرب وعدم سلوكمهم سبيل الجدى فى قتالهم عند ابتداء هجومهم ، واعتقادهم بان غارتهم من الغارات التى يسهل قمعها والقضاء عليها ان لم يكن بالقوة فبالمال او بوسائل اخرى

٧ - اضطراب الحالة الاقتصادية وسوءها فى معظم البلاد التى هاجمها العرب تلك هى جملة العوامل السلبية التى ساعدت العرب فى نضالهم فتغلبوا على الروم وظلوا يسوقونهم امامهم حتى جبال طوروس شمالا بعد ما انتزعوا منهم جميع الاقطار الواقعة جنوبى هذه الجبال . ولولا الفتنة الداخلية التى شبت فى زمن عثمان وقد شغل العرب بها عن الفتوحات والحروب الخارجية ، لما وقفت خيولهم الا فى

القسطنطينية ولافتتحوها كما افتتحوا المداين من قبل

الفرو بين الفتح العربى وفتوحات الامم الاخرى

وهناك فرق كبير بين الفتح العربى وغيره من فتوحات الامم الاخرى ، فقد تغلب على الاقطار التى انتزعتها العرب من الروم كثير من الفاتحين فلم يستطيعوا الاحتفاظ بها ، وكان الفرس آخر هؤلاء فوثب عليهم الروم وظلوا يضربون فى اوقيتهم حتى اوصلوهم الى المداين وهناك املوا عليهم شروط صلح قاسية ، وقعوها مكرهين ، ونفذوها مرغمين

وحاول الروم تطبيق هذه الخطة مع العرب فكروا على الشام وهاجموا الاسكندرية واحتلوا وظلوا يتقدمون حتى بلغوا نقيوس فنهض عمرو لقتالهم واجلاهم عن مصر كما اجلاهم خالد عن الشام فعادوا الى الاسكندرية بحرا فى سنة ٣٣٣ فهزموا ايضا ولم يستطيعوا ان يطأوا اليابسة . واذا استئينا مقاطعة كيليكية وقد تم للروم فى بعض الادوار احتلالها والسيطرة عليها فالاقطار الاخرى ظلت للعرب ولا تزال فى ايديهم حتى الآن مع تبدل الادوار وممرور العصور والايام

ومن تحصيل الحاصل القول بانه كان للخطة التى جرى عليها العرب فى حكم البلاد التى افتتحوها تأثير لا ينكر فى تعربها وفى دخولها فى دينهم فقد اقرؤا فى ابتداء احتلالهم الانظمة القائمة ولم يلغوا منها الا ما لا يتفق مع قواعد دينهم وفتحو باب الدخول فى هذا الدين على مصراعيه فدخله الناس افواجا افواجا . وكان فى مقدمة الزايا التى ينالها من يدخل فيه : ان توضع عنه الجزية (الضريبة السنوية) وان يمنح كل ما للعرب الفاتحين من حقوق ويجلس معهم على بساط المساواة . وما كان الروم يعاملون ابناء البلاد الاصليين بمثل هذه المعاملة يضاف الى ذلك اختلاط العرب الفاتحين بأهل البلاد اختلاطا كبيرا واتصلهم بهم اتصالا وثيقا نشأ فى الغالب عن طريق الزواج والمصاهرة

ولقد ادى رخاء العيش فى البلاد المفتوحة ، وحاجة الحكومة الجديدة الى

جيش قوى تعتمد عليه في دمد الغارات الخارجية وتوطيد الامن الداخلى ، الى نزوح كثير من القبائل العربية من الحجاز واليمن ونجد الى البلاد المفتوحة واستيطانها فنزل بعضها الشام ونزل الآخر مصر ونزل غيرها في شمالي افريقية واستبدلها بالوطن القديم ، بعد ما صارت جزءا من اجزاء الوطن العربي العام وقسما من اراضيه وبلاده

القبائل النازحة

ويؤخذ مما رواه المؤرخون ان قبائل العرب انتشرت من سواحل الفرات حتى شواطئ الاطلس فاختلفت بسكان البلاد الاصليين وامتزجت بهم امتزاج الماء بالراح وطبعتهم بالطابع العربي سواء بادخالهم في الدين الجديد او بنشر اللغة العربية بينهم ، وسواء بطريق المصاهرة والاشترك في الاعمال الاقتصادية والزراعية وغيرها وهو ما لم يكن الروم ولا غيرهم من الفاتحين الآخرين يفعلونه ، وكان من نتيجة هذا التفاعل ان تغلبت العروبة على هذه الاقطار اجتماعيا كما تغلبت عليها سياسيا وعسكريا فتوطد نفوذ العرب واستقر ملكهم . ورب قائل يقول انه كانت هنالك قنن تحدث من آونة الى اخرى ، ودول تسقط واخرى تقوم مقامها ، فنجيب بان هذا كان من الحوادث الداخلية الخاصة . والمرة الوحيدة التي حاول فيها الاجانب انتزاع هذه الاقطار من الاسلام كانت في اثناء الحروب الصليبية وقد دامت نحو قرنين وانتهت بهزيمة الصليبيين وعودتهم من حيث جاءوا . واستقر الاسلام نهائيا بعد ذلك في هذه الربوع حتى كانت النهضة الحديثة فجاءت اوربا تغزو الشرق بخيلها ورجلها مغتمنة فرصة انحطاطه الاجتماعي فاستولت على بعض الاقطار وبسطت عليها نفوذها وتلقى مقاومة في كل مكان

وخلاصة القول ان الفتح العربي في الشام ومصر وافريقية سيظل من الاعمال العسكرية التي يصعب ابتكار تعليل معقول لها فلم يرو التاريخ الحربى منذ عرفه الناس حتى يومهم هذا ان جيشا صغيرا فقيرا ، قليل العدد والعدد ، يهاجم اقطارا عظيمة ،

محصنة يدافع عنها جيش قوى ، منظم ، كامل العدد يفوقه اضعافا مضاعفة ، فيتغلب عليه ويهزمه ويستولى على حصونه الواحد بعد الآخر ، وعلى اقطاره قطرا بعد قطر ويستقر فيها ويصهرها في بوتقة قوميته ، ويوطد اقدامه فيها . لا جرم ان هنالك قوى روحية اخرى ساعدت العرب ومكنت لهم فى الارض وهى قوة الايمان الصحيح فيها اعتزوا وفازوا ، والفوز دائما وابدا لاصحاب العقائد الصحيحة ، والتوفيق حليفهم فى كل آن وزمان

تَقْوِيمُ الْكِتَابِ

هذا الكتاب

مصادر الكتاب

الفهارات في العهد النبوي

- ٣ الحجاز والشام
- ٥ الاسلام والنصرانية
- ٧ دول العرب في عهد الامبراطورية الرومية : الانباط - تدمر - بنو غسان -
بصرى - تقسيم بلاد العرب
- ١٢ حالة الروم عند ظهور الاسلام
- ١٧ الدعوة الاسلامية والامبراطور هركليوس
- ١٩ الروم واليهود
- ٢١ طريق المسلمين الى الشام
- ٢٤ محطات سكة حديد الحجاز من دمشق الى المدينة
- ٢٨ حدود الشام في القديم والحديث - حدود الشام في الشمال - الحسين بن علي
يطلب بكليكية - طلبات المؤتمر السوري العام - فرنسا تنال كليكية -
الحدود الجنوبية الغربية والشرقية الشمالية - سورية الحاضرة
- ٣٨ سكان الشام ولغاتهم
- ٤١ حالة الحدود الجنوبية حين الفتح الاسلامي
- ٤٣ الرسول في الشام
- ٤٤ اعمال المسلمين العسكرية الاولى - غزوة دومة الجندل - الحملة الثانية على دومة
الجندل - الحملة الثالثة على مؤتة - وصف مؤتة - اسباب حملة مؤتة - قوة الحملة -

الطريق التي سلكتها الحملة - العسائون يستعدون - هركليوس والمعركة -
سرية ذات السلاسل - غزوة تبوك - كيف اعدت غزوة تبوك - تعبئة المسلمين
العسكرية - اعمال المسلمين في تبوك - فتح العقبة - وصف اللقاء - نفوذ
العرب محل نفوذ الروم

التعبئة في عهد ابي بكر

- ٦٣ ابو بكر وحرب الروم
٦٥ ابو بكر يعلن التعبئة العامة - جيش يزيد بن ابي سفيان - جيش شرحبيل
ابن حسنة - جيش عمرو بن العاص - جيش ابي عبيدة
٧٠ طريق الجيوش الى الشام
٧٣ قوات العرب العسكرية في الشام - بيان عن المنطقة الحربية - مجموع عدد
الجيش العربي - قيادة العرب العسكرية
٧٦ قوات الروم العسكرية - الجيش الرومي - مراكز الروم العسكرية
٨١ ميدان الشام وميدان العراق
٨٤ هل سعى الامبراطور للصلح
٨٦ في طريق المعركة الفاصلة
٩٠ اعمال الجيوش العربية الاربعة
٩٥ خالد بن الوليد في ميدان الشام - الطريق الذي سلكه خالد الى الشام - وصف
غوطة دمشق - انتصار خالد في المرج - خالد يفتح بصرى
١٠٤ معركة اجنادين الاولى
١٠٧ اليرموك - نظام العرب العسكري في اليرموك - اسلوب القتال عند الروم والعرب
وصف وادي اليرموك - تعبئة المسلمين العسكرية - نساء المسلمين في الميدان -
اسماء السيدات اللواتي اشتركن في المعركة - تعبئة الجيش الرومي - المسلمون
يدعون الى السلام

- ١١٨ الزحف - اول من انشب المعركة - ابو عبيدة يتقلد القيادة العامة
 ١٢٤ ابو عبيدة بن الجراح - سيرته
 ١٢٦ بعد اليرموك

فتح فلسطين

- ١٣٣ فلسطين - معلومات جغرافية وتاريخية موجزة عنها
 ١٣٤ عمر يرسم الخطة الجديدة
 ١٣٧ قوات الروم العسكرية في فلسطين
 ١٤٠ فحل - كيف دارت المعركة - مستنقعات فحل - فتح فلسطين الوسطى
 ١٤٥ حصار بيت المقدس
 ١٤٧ عمر بن الخطاب في الجابية - عهد صلح القدس
 ١٤٩ عمر بن الخطاب في القدس
 ١٥٠ فتح الرملة وقيسارية

فتح سورية

- ١٥٣ سورية - معلومات جغرافية موجزة عنها
 ١٥٤ فتح دمشق - العرب ومعدات الحصار - خالد يعتم الفرصة - عهد خالد - عهد
 ابي عبيدة - نظرة في العهدين
 ١٦١ فتح حمص وحماة والمرة - تعليمات الخليفة الجديدة - خالد يبق في الشام -
 كيف فتحت حمص
 ١٦٥ قنسرين وحلب
 ١٦٨ فتح انطاكية - فتح بغراس - مصير هركليوس
 ١٧٠ الروم يكرون على دمشق - مناورة خطيرة للروم

فتح كيليكية

- ١٧٥ كيليكية - معلومات جغرافية موجزة عنها
 ١٧٦ كيليكية في التاريخ
 ١٧٧ امانوس وطوروس
 ١٧٩ العرب في كيليكية
 ١٨٠ الروم يغزون الشام

فتح مصر والسودان

- ١٨٥ مصر - معلومات جغرافية موجزة عنها
 ١٨٦ عمر بن الخطاب والشورى - عمريتردد - المهاجرون يختلفون - هيئة شورى
 الانصار - هيئة شورى مهاجرة الفتح - عمريرجع الى المدينة - الرأي الحاسم
 ١٩٠ هيئات الشورى في الدولة الاسلامية
 ١٩٢ عمر بن الخطاب في الجابية
 ١٩٤ مشروع فتح مصر
 ١٩٦ عمريقر خطة عمرو
 ١٩٧ عمرو يستعد للزحف
 ١٩٨ عمرو بن العاص - سيرته
 ٢٠٢ طرق المواصلات بين مصر والشام
 ٢٠٧ طريق العرب الى مصر - طريق الصحراء - طريق الساحل - وصف صحراء
 سيناء - سكة حديد سيناء - محطات سكة الحديد بين حيفا والقنطرة
 ٢١٤ السامون في العريش - تعليقات جديدة من الخليفة - وصف العريش -

الانكليز يجالون عن العريش - من العريش الى الفرما - مدينة الفرما - الروم
يحصنون الفرما

٢٢٠ مصر في آخر العهد الرومي - المذاهب الدينية واختلافاتها

٢٢٤ القبط - عدد سكان مصر حين الفتح العربي

٢٢٧ المقوقس - شخصية المقوقس

٢٣٢ قوات الروم في مصر - بين الشام ومصر

٢٣٦ حصون مصر : حصن الاسكندرية - حصن بابليون - حصن نقيوس - حصن

الكريون - حصون اخرى

٢٤١ الروم يستعدون

٢٤٣ الفرما

٢٤٥ بليس - استعداد الروم في بليس

٢٤٧ عمرو يستميل القبط

٢٥٢ الازبكية - الحانكة - احتلال ام دين

٢٥٥ حصن بابليون

٢٥٧ الجيزة والفيوم والبهنسا

٢٦٠ هيلوبوليس - النجدات الجديدة - كبار رجال القبائل

٢٦٢ معركة العباسية - كمين عمرو

٢٦٤ مفاوضات الصلح الاولى - وفد قيرس في القسطنطينية - شروط عمرو - وفد

الروم يصف العرب - وفد العرب في معسكر الروم - الجلسة الاولى للمفاوضة

عبادة يرفض اقتراحات قيرس - قيرس يرفض اقتراحات عبادة

٢٧١ العرب ومفاوضات الصلح

٢٧٤ الهدنة

٢٧٥ الروم يهاجمون العرب

٢٧٦ وقف الحرب حول الحصن

- ٢٧٨ معاهدة الصلح بين العرب والروم
 ٢٨٠ الامبراطور يرفض شروط الصلح
 ٢٨٢ الرجوع الى القتال
 ٢٨٤ كيف سلم الحصن
 ٢٨٥ حصن بابليون في القديم والحديث
 ٢٨٧ الطريق الى الاسكندرية
 ٢٨٩ الى الطرانة
 ٢٩١ المعارك على طريق الاسكندرية
 ٢٩٥ حول اسوار الاسكندرية
 ٢٩٧ المعركة الاولى
 ٢٩٨ قيرس في الاسكندرية
 ٣٠٠ الصلح بين العرب والروم
 ٣٠٣ ابلاغ الاتفاق الى المدينة والقسطنطينية - عمر يبشر بالفتح - عمرو يصف مصر - كيف اذيع الخبر بالاسكندرية - الروم يقرون الصلح
 ٣٠٧ كيف سلمت الاسكندرية
 ٣٠٩ غابر القسطنطينية وحاضره
 ٣١١ جامع عمرو امس واليوم - خطبة لعمرو في القسطنطينية
 ٣١٦ فتح اجزاء القطر الباقية
 ٣١٩ تسامح عمرو
 ٣٢٤ نظرة في اعمال العرب العسكرية
 ٣٢٩ فتح السودان - النوبة في الصلح
 ٣٣١ العرب في السودان
 ٣٣٢ ثورة الاسكندرية - الروم يحتلون الاسكندرية - عمرو يعود الى مصر -
 المعركة الاولى - لماذا تربص عمرو - حول نقيوس^٦ - فتح الاسكندرية الثانية

٣٣٧ فتح العرب لمصر في تاريخ البطارقة الاقباط

فتح شمالي افريقية

٣٤٣ برقة - معلومات جغرافية موجزة

٣٤٤ برقة

٣٤٥ من بنطابوليس الى القسطنطينية

٣٤٧ عمرو بن العاص في برقة

٣٤٩ من الاسكندرية الى برقة - طريق الساحل - وصف هذا الطريق

٣٥٢ البربر - اصل البربر - اقوال علماء النسب من البربر

٣٥٨ الاسلام والبربر

٣٦٠ البربر في آخر العهد الرومي

٣٦٢ البربر والاسلام وفرنسا

٣٦٥ عمرو في برقة

٣٦٩ برقة تستسلم

٣٧١ فتح طرابلس الغرب - معلومات جغرافية عن طرابلس الغرب

٣٧٤ الرومان في طرابلس الغرب

٣٧٥ عمرو يفتح طرابلس

٣٧٧ فتح سبرة

٣٧٨ لماذا لم تفتح تونس

٣٧٩ فتوحات عمرو بن العاص

٣٨١ فتح تونس - معلومات جغرافية عنها

٣٨٤ قرطاجنة في التاريخ

٣٨٦ قرطاجنة في آخر العهد الرومي

٣٨٨ عبد الله بن ابي سرح (سيرته)

- ٣٩٠ من القسطنطين الى سبيطلة
٣٩٢ افريقية الشمالية في العهد الرومي
٣٩٤ المعركة الكبرى
٣٩٦ الصلح مع الروم
٣٩٨ الرجوع الى افريقية
٤٠١ تلخيص وتعليق